الناس .. والحرب

أسامة علي الصادق

الناس والحرب .. رواية

كتبها عن تجربة ذاتية

أسامة على الصادق

.....

الناشـر: المؤلف

الطبعة الأولى : يونيو ٢٠٠٨

الطبعة الثانية : ديسمبر ٢٠١٠

الطبعة الثالثة : مارس ٢٠١١ (الهيئة العامة للكتاب)

.....

تصميم الغلاف:

المهندس: طارق الصادق

م: ٠١٢٢٧٩٧٠٠٣٢

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

oelsadek@gmail.com

النـاس .. والـحرب

أسامة علـي الصـادق

الحاصل علي نوط الجمهورية

و

نوط جرحى الحرب

الذى شاهد وشارك

في حروب ١٩٦٧/الاستنزاف/١٩٧٣

مقدمة الطبعة الثالثة

التقيت باللواء أركان حرب/عبد المنعم خليل.. إنه من جيل القادة القدامى فهو زميل الفريق سعد الدين الشاذلي وعاصر حروب مصر الحديثة "الحرب العالمية الثانية/ حرب عام ١٩٤٨/ حرب عام ١٩٥٦/ حرب اليمن/ حرب عام ١٩٦٧/ حرب الاستنزاف/ حرب عام ١٩٧٣".

شرفت بلقائه للمرة الأولي في منزله العامر في شهر مايو عام ٢٠٠٩ برفقة اللواء طيار أركان حرب/ محمد عكاشة أحد قادة أسراب الميج الذي قاتل الأعداء في الجو .. بعد لقاء ممتع جمع ثلاثتنا أهديت القائد كتابي الناس والحرب بتوصية من اللواء عكاشه والذي سبق وأن قرأ الكتاب.

وبعدُ مضي خمسة أسابيع تقريبا علي اللقاء الأول أتصل بى طالبا لقاءه ، كنتَ وجل من هذا اللقاء ، هذا قائد كبير حيث كان قائدا للجيش الثاني وأنا ضابطا برتبة ملازم أول .. سيقف العصفور في حضرة النسر ليلقنه مبادئ العسكرية والقتال بل قد يوجه لي بعضا من أخطاء أقدمت عليها أثناء لقاء العدو.

التقيت به في هذا اليوم الثالث والعشرين من شهر يونيو من هذا العام ٢٠٠٩، لم أستطع لملمة نفسي المبعثرة من حديثه الشيق ومن إطراءه علي ما قمنا به أنا وجنودي في المعارك سواء أثناء الانسحاب من سيناء أو خلال حرب الاستنزاف ومنحي خطاب شكر علي ما قمنا به من تدمير مخزن ذخيرة للجيش الإسرائيلي بمدينة القنطرة شرق ، عادت به الذاكرة لهذا الحدث حين اخبره مساعدوه في قيادة الجيش بأن مخازن ذخيرة العدو بالقنطرة شرق مازالت الانفجارات تتوالي بها ، كما أنه القائد الذي قاد الجيش الثاني بعد المعركة الدامية التي قمت بها مع وحدتي في باكورة الهجوم علي العدو ظهر عام النصر عام ١٩٧٣.

ترددت فيما أسطره من كلمات سواء كتبها بخط يده المنمق أو بتسجيل صوتي أعتبره وساما علي صدري من قائد ومقاتل له من الحنكة والتاريخ الطويل المشرف. لقد كان الثناء فوق الوصف ، لا أستطيع تحمله ، طلبت منه تشريفي وتشريف القراء بكلماته الطيبة للطبعة الثالثة ، تردد الرجل لكنه كقائد شجاع وله من البطولات العديدة رضخ لرجائي وأصبح النمر الجسور يكتب مقدمة للقط الأليف أسامة الصادق .. لن أزيد ولكن سوف أكتب بعضا من سطور كتبها وأترجم بعضا من نبرات صوته المسجلة إلي كلمات علي الورق ليقرأها شباب مصر

وليعلموا أن مصر بها أجيال تسلم راية النصر إلي أجيال حتي يوم قيام الساعة ، وهذا تقليد توارثه الأباء عن الأجداد.

زميلي في الحرب المقاتل/ أسامة الصـــادق

هذا يوم سعيد عليّ يا أسامة

أتمني أن يكون تقديمي لكتابك الناس والحرب للطبعة الثالثة فاتحة خير عليك وعلي المصريين ، عشت مع كتابك لأكثر من شهر وقرأته سبع مرات زرفت فيها الكثير من الدمع وتألمت لحالك أنت وجنودك ، كنتم كأشباح هزيلة تدق بأقدامها أرض سيناء تنبه العدو بأن هناك شبابا مازال يقاوم رغم العطش والجوع وقسوة الصحراء ، تذكرت أيام صباي في جميع حروب مصر التي خضتها من أجل الوطن الحبيب الذي لا نشبع منه ولا ننساه ، أنه خالد إلي الأبد ، ساكن في دماننا مهما تجرعنا كؤوس الذل والألم والظلم من الخارج والداخل ، مصر الفتية القوية بأبنائها من أمثالك وأمثال جنودك الشجعان ،

أشكر الله سبحانه وتعالي أن التقيت بك واطلعت علي كتابك الذي هو مفخرة لكل مصري ، أرجو من الجميع أن يقرأ هذا الكتاب ، هذا الكتاب لا يخصك وإنما هو خاص لمصر والعرب والمسلمين.

قبل النهاية .. أتذكر موقفاً بعد إيقاف إطلاق النار في حرب أكتوبر المجيدة وكنت أثناءها قائدا للجيش الثاني الميداني والذي كنت يا أسامة أحد أبطاله وأحد عناصر الهجوم المباغت المبكر علي قوات العدو المدرعة ، كان برفقتي لزيارة الجبهة شيخ الأزهر فضيلة الشيخ عبدالحليم محمود "رحمه الله" وأثناء زيارة مدينة القنطرة شرق والتي ساهمت بتحريرها مع رجالك بأن دمرتم الدبابات الإسرائيلية بأجسادكم وأرواحكم حتي تم النصر والتحرير.

إقترب مني شيخ الأزهر وسألني سؤالاً : هل حدثت أشياء غريبة وغير معقولة ومنطقية لرجال الجيش الثاني أثناء الحرب؟

ابتسمت له وأجبته ببيت من الشعر:

قلوب العارفين لها عيون تري ما لا يراه الناظرينَ

قال: صدقت .. رحمك الله شيخ ورع تقي، والله ينصر مصر دائما. مع تحياتي.

لواء أركان حرب/عبدالمنعم خليل

قائد الجيش الثاني الميداني

خلال حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر ١٩٧٣

الجـزء الأول
أهوال الانسحاب

الجيش المصري

وقف الخلق ينظـرون جميـعا كيف أبنى قواعد المجد وحدي
وبنـــاة الأهـــرام كـفون الكـــــلام عند التحـــدي
انا تاج العلا فى مفرق الشرق ودراته فرائـــــد عقـــدي
انا ان قـــدر الإله ممـــاتي لاترى الشرق يرفع الرأس بعدى

هذا مقطع من نشيد مصر تتحدث عن نفسها لشاعر النيل حافظ ابراهيم والتى تغنت بها كوكب الشرق ام كلثوم وإذا سمعتها اهتزت أعضاء جسدك حمية وقوة ووطنية ونحن جيل تربى على الوطنية والروح القومية والوحدة العربية ومقاومة الاستعمار وإذنابه من المحيط الى الخليج .. كان منهجا عاليا رائعا تبناه زعيم مصر والذى وهبه الله هذه النعمة .. نعمة اللباقة حديثا ومعنى ونظراته الى الجماهير تأثيرا وتوجيها وحبا من الشعب له لما يقول ويفعل .. لقد جاء عبد الناصر ابن مصر من ترابها وطينها وبقى حتى وفاته كما هو يتحدث عن العامل والفلاح والموظف الصغير .. وقد كان محقا فيما يقول ومن منا فى الريف لم يشاهد البؤس الذي كان يعيش فيه الفلاح .. عمل وسخرة طوال النهار وكل ما يحصل عليه من غداء هو بضع لقيمات خبز جاف وقطعة جبن مملح ومش وبعض من خضرة الأرض ثم شربة ماء من مياه الترعة أو القناة الواصلة من الترعة لري قطعة الأرض التى يعمل بها.

تخرجت من الكلية الحربية في شهر أغسطس من عام ١٩٦٦ . تم توزيع الضباط الخرجين على التشكيلات العسكرية كل حسب نصيبه والقليل حسب الواسطة والتى لم تكن ظاهرة ، كانت معيبة فى حق طالب الواسطة بأنه أقل من الآخرين ويحتاج العون .. كنت ضمن ضباط سلاح المشاة وهو اكبر سلاح فى الجيوش عامة وجيوش الدول ذات المساحات الواسعة والأراضي الصحراوية .. ألحقت على الفرقة الثالثة المشاة فى منطقة وصلة الهايكستب والتى تمتد حتى

طريق السويس الصحراوي الذى كان يقف آخر عمران به عند علامة الكيلو ٤,٥ وهى المنطقة التى بها مصانع الهيئة العربية للتصنيع .. توجهت الى الوحدة ويحويني أمل باننى ساجد جنودا وضباطا على أعلى مستوى من التدريب والانضباط العسكري خاصة ان بعض ضباط إدارة المشاة أخبرونا بأن حظنا من "السما" حيث لأن تلك الوحدة من الوحدات القديمة القوية وأنها قدمت من اليمن حديثا بعد انتهائها من العمليات الحربية الموكلة إليها هناك.

عدد الضباط الجدد المنضمين على تلك الوحدة كان سبعة ضباط وهو عدد كبير لأنه فى العادة يكون العدد واحداً أو اثنين على الأكثر، لكن نظرا لحدوث خسائر أثناء معركة اليمن .. وانتهاء خدمة بعض الضباط الاحتياط فقد قررت إدارة المشاة تعويض تلك الكتيبة بعدد كاف من الضباط الجدد.

الكتيبة قليلة العدد بسبب أنها قدمت من اليمن منذ شهر والضباط والجنود فى إجازات حيث أنهم مقسمين الى عدة دفعات نصفهم حصل علي أجازته وتبقي النصف لكن ما لفت نظرى هو ان تأثير وجود الوحدة باليمن كان باديا عليهم وهذا واضح على الوحدة سواء من حالة عدم الانضباط على الجنود او الصف ضباط أو من سوء التدريب وهذا لم يكن خافيا على قيادة الوحدة لكن المسألة كانت مسألة وقت؛ فالقائد منتظر انتهاء الجنود من الإجازات التى مُنحت لهم كى يُعدهم إعدادا جيداً بما يتمشى مع النظام العسكري.

كانت حالة الجنود محزنة .. جميعهم من كبار السن الأميين الذين لا يعرفون قراءة أي كلمة ولا يستطيعون كتابة اى حرف وكل ما يمتلكونه من مهمات هو عدد اثنين افرول .. يُجنب احدهما لارتدائه خلال الأجازات وما اقلها لمن هم من الأقاليم والصعيد والافرول الثانى هو للتدريب والنوم والخدمة ليلا ويصبح هذا الافرول بعد عدة أسابيع مهلهلا وبه العديد من الرقع وعلى الجندي ان يغسله وينشره فى الشمس يوم الجمعة وهو جالس بملابسه الداخلية البالية أيضا حتى

يجف والمنشر هو سور السلك الشائك الفاصل بين الوحدات وقد يكون هذا اليوم غائما والشمس غير ساطعة أو ممطراً فتكون كارثة للجندى الذي يتحير كيف ينام وكيف يرتدى زيه للطابور فى الصباح الباكر .. كانت كل الأمور متداخلة متشابكة مغايرة لمفهومنا السابق بأن هؤلاء الجنود أبطال وهم فى لياقة بدنية عالية ويتدربون ليل نهار وخاصة أنهم عائدون من معركة اليمن .. ولكن للأسف لم يكن هذا صحيحا، يبدأ الجندي يومه بطابور الصباح الذي هو فى الأصل تربية بدنية بعدها يتوجه لتناول طعام الإفطار ثم يعود لاستكمال طوابيره وهى عادة طوابير تعليم أولى للتدرب على السير بالخطوة المعتادة رغم انه قضى فى التجنيد والاحتياط ما يزيد عن الخمسة أعوام والتجنيد فترته ثلاثة أعوام لمن فى حالتهم ولكن الجزاءات التى كانت توقع عليهم بدون سبب أو "بسبب قلة الإدراك والفهم المصاحب للأمية" جعلتهم يمكثون تلك الفترة الطويلة وهم لا حول ولا قوة ولا يعلمون فى أي وقت ينتهي تجنيدهم ..

بعد تناول الجندي لطعم الفطار يقوم بوضع قليل من الرمال فى مشمع الفرش الذي ينام عليه ويسير ساحبا هذا المشمع خلفه فيقوم بتسوية الرمال المنتشرة على إشكال مختلفة من اثر سير الجنود فوقها بالحذاء ويستمر هذا الحال عدة ساعات وما تم تسويته منذ دقائق يتم هدمه وإزالته بعدها لأنه سيحضر جندي آخر خلف الاول بمشمعه ويخرب ما قام به .. بدون هذا يصبح الجندي مشكلة.

أما الضباط فهم لاهون بالضحك والحكايات والمغامرات والتى كان أكثر من نصفها كذبا وخداعا على أبناء الأقاليم من نوعيتي .. وإذا حادثت جنديا بهدوء وسماحة تكون أنت ضابط "طرى" وضعيف وهذا الأسلوب سيقضى على الضبط والربط ويجب ان يكون الضابط حازما وكل تعامله مع الجنود بعنف وشخط وكثير من الاهانات وقد دُهشت لهذا فانه شيء جديد على مسامعي ونظري ولم

ندرس مثل هذا الأسلوب فى التعامل وقد طلب منا الضباط الأقدم رتبة ان نتجاهل ونهمل ما درسناه.

اما طعام الجنود فهو أردأ ما يكون وحتى الآن كلما تذكرت ما يقدم لهم من طعام تجزع نفسي سواء فى النوعية او أسلوب الطهي .. يمكن أن يطلق عليه اى اسم غير "طعام" وأتذكر بعد عملي بعدة أشهر وكنت ضابطاً نوبتجياً لاستلام التعيينات الطازجة من المستودع وذهبت الى هناك ورفضت استلام اللحوم الطازجة لقذارتها ورداءتها وقد ضايق هذا المتعهد حيث أنه سيعود بأكثر من عجل ونصف غير مطابق للمواصفات وقد جاء المتعهد للسؤال عن المشكلة ، فنظر إلىّ من أعلي إلى أسفل كأنه يقول "ما هذا العصفور الصغير اللى عامل فيها عفريت" .. سألني بصوت أجش يبعد عن الاحترام واللياقة .. فيه إيه يا فندى؟ .. شعرت بضيق من أسلوبه فأوعزت إلى الرقيب النوبتجى المكلف معي بالرد عليه وعرض العيوب .. حيث قال له ان منظر اللحمة لا يسر وانه توجد بعض القاذورات عليها .. يجيب الرجل بكل بساطة وسهولة.. "أبدا والله.. مافيش حاجة" .. ويمسح تلك القاذورات بيده ويقربها من انفنا قائلاً: "والله ما فيه حاجة .. دي كلها جلة "روث الجاموسة" يعنى شوية ميه وتبقى فل وبإلهنا والشفا" .. هذا جزء من كثير فى هذا المجال.

أما نومهم فحدث ولا حرج .. يفرش مشمع أرضا وفوقه بطانية ويغطى جسده ببطانيتين ولا يوجد شيء اسمه مخدة فعلية تطبيق البالطو الصوف الكاكي ويعمله كمخدة .. الصابون المسلم له يجعله يتهرش طوال الليل إذا جازف واستحم به .. أما الناموس والذباب فهو الرفيق والصديق لهم.. نهارا ذباب وليلا تغير النوبتشية ليتسلمهم الناموس تاركا الذباب في راحة حتى الصباح .. وللنزول أجازات عليهم السير على الأقل عدة كيلو مترات حتى يصلوا قريبا من بوابة المطار والتى يقف عندها الأتوبيس الذي ينقلهم الى ميدان روكسي بمصر الجديدة وهكذا فى العودة

ساعتين ذهابا وساعتين عودة .. اما داخل القاهرة فمطاردة القط والفأر مع جنود الشرطة العسكرية حيث يلقون القبض عليهم أمام الشعب الحزين على حال جيشه ..أما راتبهم الشهري لا يغنى شيئا لأنه اقل من ثلاثة جنيهات واغلبهم متزوج ويعول.

اما عن التدريب العملي فكان فى ذيل الاهتمامات وخاصة الرماية فنحن مثلا كطلاب فى الكليات العسكرية لم نتدرب على الرماية سوى بالأسلحة الصغيرة اما الأسلحة المضادة للدبابات او الطائرات فلم نتدرب عليها اكتفاء بالنظر إليها والحصول على بعض المعلومات الأولية فقط .. هذا أيضا فى الوحدات فكانت تدريبات الرماية بالذخيرة الحية فى أقل الحدود مما يؤثر على نتيجة الوحدة وعلى تقارير القائد وترقيته ، فيتم الاحتيال بكل الطرق الغير شريفة والغير ممكنة لعلاج الأخطاء سواء بالتزوير فى نتائج الاختبارات أو إبدال أصحاب العاهات بآخرين ليقوموا بأداء الرماية بدلا منهم تظرا لانتشار مرضى العشى الليلي الذي يجعل الجندي لا يرى بوضوح أثناء الليل .. كله بيضحك على كله فتغرق البلاد مثلما حدث ويحدث دائما.

كانت الصفة الغالبة فى العلاقة بين الضباط والجنود ظاهرها العنف والترفع ضد هؤلاء الجنود ولكن فى حقيقة الأمر أن كثير من القادة والضباط كانوا يعطفون عليهم نظرا للمستوى المتدني لحالتهم الصحية والاجتماعية والثقافية فقد تكالبت عليهم الظروف الاجتماعية والسياسية ضدهم ، كل ضغط عليهم يأتى بخسائر أكثر وهم لا يستطيعون الشكوى او التألم .. و مما زاد الأمور تعقيدا هو تمسك تلك الطبقة الفقيرة بالدين وإيمانهم الأعمى والمفرط فيما يقوله رجال الدين الغير مؤهلين جيدا فهؤلاء الرجال المنتسبين لرجال الدين ظلما وبهتانا لا يعرفون شيئا عن علوم الدين إلا القليل منها لأنهم ببساطة لم يتخرجوا من الأزهر وماله من فضل على العالم اجمع .. كان هذا هو حال هؤلاء الذين استسلموا لكل ألوان

القهر والظلم ولهذا كنت ألّحظ بعض الضباط يشترون بعض الأغراض المفيدة لهم او الحلوى أو ماشابه على نفقتهم الخاصة وهذا ليس تظاهراً وتفضلاً ولكنه شعور إنساني ورحمة داخلية مبعثها أنهم إخوة لهؤلاء الجنود البسطاء وان ظروفهم قاسية قسوة شديدة وقد لفت نظري هذا لأول مرة بأن حضر قائد سريتي النقيب مصطفى أبو بكر وكان رجلا فاضلا واشترى بعض الأشياء التى تهمهم من ورنيش أحذية وأمواس حلاقة وكولونيا وكان عددهم يزيد عن المائة جندي وأثناء توزيع هذا الترفيه عليهم قال لهم ان هذا الترفيه اشتراه حضرات الضباط لكم وهو يشير الى ثلاثتنا وقد دُهشنا مما قال لأننا لم ندفع مليما واحدا وهو الذي تحمل كل شيء ثم حملنا فضل هذا .. وقد تعلمت أول درس فى حياتي على يديه وسرت على منواله بعد ذلك بالعطف على الجنود وبمشاركة ضباطي معي فى تحمل كل شيء لأن هؤلاء هم جنودهم مثل ما هم جنودي .. وكان درسا قيما لم انسه فى حياتي.

***

نظرا لاننى من محافظة الشرقية وليس لي سكن خاص بالقاهرة بل كنت اقطن وأعيش فى منطقة ثكنات العباسية فى شارع باب ثلاثة المواجه لكلية الشرطة والمجاور لمبنى وزارة الكهرباء حاليا حيث كان هناك ما يسمى "بميس المشاة" وهو المكان المخصص لطعام ونوم الضباط المغتربين من سلاح المشاة بالأجر ولكنه كان أجراً رمزيا يقل عن الخارج بحوالي خمسين بالمائة.

كان عدد من ضباط الكتيبة يتهافتون علي صداقتي والتودد لي ليس حبا ولا خوفا ولكن بغرض مصلحة شخصية بأن أتولى النوبتجية مكانهم فى الأدوار التى تحل على كل واحد منهم لدرجة اننى كنت احصل على نوبتجية يوم بعد يوم رغم ان المقرر لي مرة واحدة كل خمسة عشر يوما .. هم يريدون التمتع مع عائلاتهم وأصدقائهم أما عن حالي فجلوسي فى ميس المشاة مثل جلوسي بالوحدة الشيئان

متشابهان لكن قيامي بالنوبتجية كخدمة أقدمها لزميل يسعده أن أقوم بها وهو متوددا لي .. وبعد انتهائها يعود وكأنما لا يعرفني.

فى معسكر الكتيبة حجرة حبس للجنود المخالفين ولكن الشيء الغريب أن بحجرة الحبس بعض الجنود والذين حكم عليهم بمحكمة عسكرية وهؤلاء حسب القانون يلزمون السجن الحربي ولكن لظروف عودة الكتيبة من اليمن وامتلاء السجون الحربية فى مصر فى ذلك الوقت من مدنيين محكوم عليهم بمحاكم عسكرية أبقت القيادات بعض المحكوم عليهم بوحداتهم.

كنت أثناء نوبتجيتى أحاول التخفيف عنهم بإخراجهم من غرفة الحبس آخر النهار وأتركهم يلعبون ويمرحون مع زملائهم الجنود وكان هذا مبعث سعادتهم وسرورهم وسرور زملائهم الجنود.

فى احدى المرات وبعد مغادرة جميع الضباط الوحدة جاءني حارس البوابة ليخبرني بوجود شخص مدني راغب فى زيارة شقيقه وذكر اسمه ولدى معلومات عن هذا المسجون فلقد كان يعمل مدرسا فى حياته المدنية ولكنه اخطأ فى حق قائده فى موقعه باليمن وقد كان هذا القائد متعنتا وعنيفا ولكن القانون قاسٍ فى أثناء العمليات ولهذا فقد تم تحويله للمثول أمام محكمة عسكرية .. حكمت عليه بثلاثة أعوام ونصف العام سجنا .. ومنذ عام ونصف وهو نزيل السجن ولا يستطيع مغادرته لزيارة أهله.

سمحت له بمقابلة شقيقه وكان هذا المسجون يكبرني فى العمر بعدة أعوام كما كان يحترمني هو وجميع المساجين .. بعد اللقاء ترك شقيقه وجاء مع حارسه يحدثني حيث أمرت الحارس بان يقف بعيدا حتى لا يعلم ما يرغب قوله مراعاة لسره الشخصي فاخبرني وعيناه تجرى بهما الدموع أن شقيقه حضر ليخبره بان أمه مريضة جدا وأنها ترغب فى رؤيته وهو يعلم انها سوف تودع الدنيا وهى لم تره منذ أربع سنوات أي منذ سافرت الوحدة إلى اليمن ، سألني ايمكن ان يذهب

لرؤيتها ويعود فى خلال ست ساعات .. نظرت إليه وانا أتذكر حكاية الكذب بين الجنود بان يأتى كل منهم يريد الحصول على أجازة ويخترع حكاية بأن أمه ماتت أو مريضة وستموت وكان هذا واضحا للجميع وهكذا وضع هذا المسكين كضحية لكذب الآخرين.

سألته ماذا تفعل لو كنت مكاني وأمامك مثل هذا الوضع؟ .. اجاب بكل صراحة لن أوافق على نزول هذا المسجون حتى لو كان شقيقي .. اعجبنى رده ولا اعتقد أن تصرفي جاء اعتباطا أو شجاعة أو قل أنه تهور الشباب حيث صرحت له بالخروج؛ حضر حكمدار حرس السجن بدفتر أسماء المساجين لأوقع أمام اسمه اننى تسلمته حسب القانون .. وقعت وطلبت منه أن يطمئن على أمه وعليه أن يعلم أن عدم عودته بالنسبة لي محكمة عسكرية .. شكرني وحين هم خارجا مسرعا مبتعداً سائرا بصحبة أخيه كنت اشعر أن قلبي ينقبض محاولاً النكوص عن وعدى ولكن هذا لم يحدث وهكذا خرج المسجون بموافقتي وتوقيعي متحملاً مسئولية ما سوف يحدث لي من عواقب.

استمر هذا الحال حتي عصر ذلك اليوم وتعداه إلى المغرب ثم بلغ صلاة العشاء .. توجهت إلى السجن لأتمم على المساجين حسب التعليمات وقد قارنت أعدادهم بعدد ما هو موجود بالدفتر فوجدت العدد مطابقا ونظرت إلى "نائب حكمدار السجن" .. وهذا تقليد فى السجون أن أقدم مسجون يكون الحكمدار والذى يليه هو النائب .. والذى خرج هو الحكمدار .. فقال نائبه اطمئن يافندم عليوة جاى إنشاء الله النهاردة بس إحنا عملنا حسابنا يمكن ضابط عظيم اللواء يحضر يتمم علشان كده طلبنا من زميلنا "وأشار إليه" ان يحضر للبقاء فى الزنزانة حتى حضور عليوة والكل عارف كده والحرس والموضوع مترتب ومحدش يقدر يوشى بينا .. شكرتهم عائدا إلى حجرتي لا استطيع تناول الطعام وانا اشعر باننى

مصاب بالحمى وقد تعدى عليوة الثمان ساعات وقد أسقط فى يدى وأيقنت بأنه لن يعود وأن نصيبي من هذا العمل الانسانى المحكمة العسكرية.

توجهت إلى فراشي وتمددت وانا اهذى مما سيلحق بى بسبب انسانيتى سواء مع زملائي حيث اعمل بدلا منهم وهم يمرحون ويسعدون وانا بديل لهم أو مع هذا المسجون الذي اوقعنى حظي العاثر أمامه.

بعد منتصف الليل رن جرس التليفون والمتحدث الرائد (.....) ضابط عظيم اللواء الذي طلب منى الذهاب الى مقره فى قيادة اللواء بدفتر المساجين حيث وصلتهم إخبارية بفرار عدد من مساجين الوحدات باللواء .. لم استطع ان أجيب وكل ما دار بذهني انه قد ألقى القبض على عليوة او ان احد أفراد الأمن بالوحدة قد وشى بنا الى مجموعة المخابرات وهذا هو عملهم .. ارتديت ملابسي وأرسلت فى طلب سيارة بسائق للتوجه الى قيادة اللواء وبعد ان حضرت السيارة اتصل هذا الضابط ليلغى ما طلبه منى حيث ان مساجين اللواء لم يهرب منهم أحدا.

عادت بعض الدماء القليلة إلى وجهي واستطعت ان احصل على بعض الهواء وان استعيد اتزان نفسي ولكن دون جدوى .. بقيت ممدا فى سريري انتظر وكلها ساعات قلائل ويحضر القائد والضباط والكل يعرف أن هذا الضابط الصغير أودع السجن منتظر محكمه عسكرية للمساعدة فى تهريب مسجون نظير أموال أخذها منه ولن يقول احد انه قد فعلها بدافع إنسانى وإلا يكون أبلها أو مجنونا .. وانا فى غمار العراك النفسي الداخلي سمعت شخصا يتحدث مع الحارس أمام غرفتي ، حضر الحارس على استحياء خشية ايقاظى ولكن فى ضوء الظلام استفسرت عما يريد فاخبرني قائلا : أصل عليوة جه يا فندم وكان عايز يدى تمام وصوله لحضرتك .. انتعشت امالى وعادت الدماء تتدفق إلى شراييني التى جفت منذ ساعات وامتلأ قفصي الصدري بالهواء النقي وظهرت ابتسامات عديدة على وجهي وشعرت اننى الناصح المفكر أبو الشهامة والجدعنة .. طلبت

منـه أن يدخلـه.. دخـل محييـا ووقـف امـامى بشـحمه ولحمـه ولكـن الهيـأة غيـر الهيأة .. لقد ماتت أمـه بعد دقائق من وصوله ولكنـه كلمها وكلمتـه وقبلتـه وقبل يديها ودعت لـه ولمن سـاعد فـى نزولـه لها حتـى يبرد قلبها قبل أن تفارق الدنيا وقص علىّ كل شيء وهو يقول: كنت ابكي على امى ولكنى كنت بداخل نفسي أدعو لك ان ربنـا يكون معاك .. لم احضـر العزاء .. أردت العودة قبل موعدنا ولكن تعطلت السيارة علـى طريـق السويس وحـاول السـائق إصـلاحها فخشيت أن يحدث كمين من الشرطة العسكرية ويلقون القبض علىّ ويضيع كل شيء وأكون انا المتسبب لك فى مشاكل فغادرت السيارة إلى الجبل باحثا عن مكان الكتيبة وانا جاهل به حيث لم اغادر هذا المكان منذ عودتنا من اليمن .. لقد ضللت الطريق الذي لا اعرفه أصلا واسأل فى كل وحدة تقابلني لمدة أربع ساعات وانا هنا أمامك اقبل يديك وأشكرك على هذا الجميل الكبير .. وأعيدها لو كنت مكانك ما فعلتها ولكنك أشجع منى .. طلبت منه ان يعود إلى الزنزانة وطلبت من حكمدار السجن تسجيله وشطبت توقيعي .. وعاد كل شيء إلى وضعه لكنها كانت تجربة إنسانية مرة ومؤلمة وخطيرة.

الزحف إلى سيناء

منتصف شهر مايو ١٩٦٧ أعلنت حالة الطوارئ فى الجيش ورفعت درجات الاستعداد ، كنت أتولي قيادة فصيلة مشاه وقوتها العددية ثلاثون جنديا وهذا هو مرتب الحرب أما العدد الفعلي فكان أربعة عشر جنديا منهم اثنان لا يصلحان للحرب حيث أن أحدهم مصاب بالعشي الليلي فإذا أقبل الليل لا يشاهد باب الخيمة والثاني مصاب بشلل أطفال وقدم تظلم ومازالت تدرس حالته .. لم تكن حالة الطوارئ حدث جديد على وحدتنا حيث كان اللواء الذي اعمل به (اللواء١١٦مشاه) دائما ما ترفع درجات استعداده حيث كان مرشحا للعمل بالجبهة السورية ضد إسرائيل .. كل مناوشات بين الفلسطينيين والإسرائيليين على الجبهة السورية ترفع درجة استعداد هذا اللواء وبالتالي يهدىء الإسرائيليون من تهديدهم لسوريا .. كنا نعتقد جميعا أن حالة الطوارئ مثل سابقتها ولكن المختلف هذه المرة هو أن حالة الطوارئ تمت على جميع وحدات القوات المسلحة على مستوى الجمهورية .. أمرنا بالانتشار خارج المعسكرات فى التلال المحيطة بنا تحاشيا لغارات جوية إسرائيلية ومكثنا على هذا الحال أربعة أيام وجاء الأمر الانذارى بالتوجه الى سيناء.

تحركت الكتيبة الى المنطقة الشرقية وهى البديل السابق للجيشين الثانى والثالث حاليا ولا نعرف كيف نتحرك .. نحن مع جنودنا محشورون فى سيارات نقل الجنود العادية ولم نكن مشاه ميكانيكي بل كان اللواء مشاه مترجل، لم نمنح فرصة لوداع الاهل وقد يكون أمام الأقدم منا رتبة هذه الفرصة او الذين يقيمون بالقاهرة لأن كل ما أتيح هو عدة ساعات لكل فرد فى تلك الفترة ولم تكن تلك السويعات كافية للسفر الى بلدتنا الزقازيق والعودة فى نفس اليوم .. كما كان لرؤيتنا السابقة بأنها زوبعة سوف تنتهي قريبا مثل ما تم من قبل .. لكن الصحف كانت تضخم الحدث وكذلك أجهزة الاعلام والإذاعة خاصة إذاعة صوت العرب

وبدا ان جميع الزعماء العرب يتصلون بالزعيم جمال عبدالناصر مؤيدين ومشجعين وبعضهم يعده بأنه سوف يرسل قوات والبعض الآخر يفكر فى هذا وحدث هرج ومرج إعلامي كبير حتى وصل الى الأمم المتحدة ولكن الجيوش لا تأخذ أوامرها من تلك الأجهزة بل من قياداتها .. لكن المهمة التى كنا متجهين إليها غير معلومة ولا نعرف لماذا نحن متجهون إلي سيناء ولم نكن نعلم عنها إلا القليل .. ولم يسبق لي ولا لصغار الضباط ان خدموا بها من قبل او زيارتها او استطلاع منطقتها للتعرف عليها رغم انها مسرح العمليات الرئيسي للقوات المسلحة.

تستعد الوحدة لعبور قناة السويس على كباري أنشأها سلاح المهندسين حدث هذا مساء عند الغروب وكان الموجهون لنا من عدة أجهزة سواء من القادة والشرطة العسكرية والمخابرات الحربية ونحن صاغرون لتلك الأوامر .. أوامر بان نقف بعد عدة كيلومترات وبعدها أمر بالتحرك الى الإتجاه الفلاني ونحن نسير ضمن رتل من السيارات والجميع لا يعلم شيئا عن الوجهة التى نحن يصددها ولا نعرف ماذا سوف نفعل فى سيناء .. انها أوامر للتنفيذ .. تعطى للسائقين والذين يقودون السيارات بجهل مطبق حيث ان غالبيتهم لم يقد سيارة خارج الوحدة والبعض مستدعى من عمله حيث كان مجندا منذ عدة سنوات كسائق وترك الجيش وهو يعمل فى عمل آخر.

اما المشكلة الأهم والتى كانت تخيف الجميع ان الطرق الى سيناء ضيقة وتكفى بالكاد لسيارتين متقابلتين من السيارات الصغيرة وغير قادرة على تحمل المعدات الثقيلة والتى كنا نشاهدها تتحرك معنا فى نفس الاتجاه .. قول من سيارات المشاة وقول آخر من الدبابات المحملة على حاملات نقل الدبابات وهى ضخمة وقول آخر من المدافع الثقيلة كله يسرع فى اتجاه سيناء لأن كل وحدة محدد لها موعداً لوصولها الى موقعها متجاهلين الكثافة على الطريق او جهل

السائقين بقيادة تلك المركبات وأصبح من المعتاد أن نشاهد اصطدام حاملة نقل المعدات الثقيلة بـ لوارى المشاة وانقلاب احد اللوارى على جانبي الطريق ويسرع رجال الشرطة العسكرية والإسعاف لإنقاذ من يستطيعون إنقاذه ، كان المنظر شبيه بمنطقة ضيقة تتحرك بها الجمال والماعز .. ومما شاهدته أثناء تلك الرحلة الغريبة على نظري وحياتي العملية هى نقاط توزيع الوقود .. حيث توجد كميات ضخمة من الوقود من مختلف الأنواع حسب نوع المركبات ومعبأة فى عبوات الوقود سعة ٢٠لتراً .. يسأل مختص الوقود السائق عن نوع السيارة فيخبره كما حدث امامى"اللوري جاز ٦٣" وهو لورى يعمل بالبنزين وسعته٢٠٠لتر .. فيسلمه عشر عبوات مملؤة بالبنزين واللوري به أكثر من نصفه وقود فيعيد السائق باقى الوقود ولكن مسئول الوقود يخبره بان يعيد العبوات فارغة ولم يجد السائقين سوى إفراغ تلك العبوات على الرمال .. اى والله على رمال سيناء.

الرحلة من الشاطئ الشرقي للقناة حتى منطقة مفارق الحسنة قرب مدينة العريش لا تزيد عن ٢٥٠ كيلومتراً ولكننا قطعناها فى عشر ساعات والشمس ساقطةُ مسلطة على رؤوس الجميع ودرجة حرارة مرتفعة والجميع محشورون فى تلك اللوارى التى تحمل الأفراد والسلاح والذخيرة والخيام وأدوات الحفر.

وصلنا الى المكان المحدد لنا من قائدنا واعطى أوامره بسرعة الحفر .. تسلسلت الأوامر حتى وصلت الى الضباط الاصاغر وبالتالي الى الجنود ، وقفنا نشرف على عمليات الحفر لتجهيز الموقع الدفاعي الذي أمرنا ان نعده لقواتنا .. استمرت تلك الأعمال حتى عم الظلام بالمنطقة وكنا لم ننته بعد من إعداد الموقع وُطلب منا استمرار العمل على أضواء كشافات السيارات وهكذا استمر الحفر الى ما بعد العاشرة مساء و جاء الليل ببرودة الصحراء الشديدة ليلا.

كل قائد وحدة صغيرة أعطى تمام بانتهاء تجهيز موقعه كما وزع الطعام على الجنود وهو تعيين قتالُ معد فى مطابخ متنقلة وعليك ان تستسيغه سواء أردت او

لم ترد لان الجميع بذل جهداً وعرقاً والكل فى احتياج لطاقة لتعويض هذا المجهود المضني ومقاومة البرودة الزاحفة علينا .. وزعت الخدمات ونام الجميع فى الصحراء حيث لا نعرف أين نحن بالضبط .. فأنت تنفذ الأوامر وليس عليك السؤال او الاستفهام .. فقط نفذ الأوامر.

جاء الصباح برطوبة الصحراء المتعبة للجهاز التنفسي والنوم الغير مريح ولم تكن هناك دورات مياه لقضاء الحاجة والكل يفعل مثل الإنسان البدائي .. جاء القائد يشاهد ما قد تم انجازه ليلا وفوجئ ومن معه ان حفر المواقع جاء معاكسا لاتجاه احتمال تقدم العدو فبدلا من ان نعدها لتكون شرقا أعدت لتكون غربا بحيث نكون فى مواقعنا وظهورنا تواجه تقدم العدو .. ولهذا ألغيت تلك المواقع لنعدلها بالاتجاه الصحيح وان نعكس اتجاه حفرنا السابق واختار القادة المواقع الجديدة وأعطيت الأوامر لبدأ الحفر .. وما تم خلال الليلة السابقة فعلناه نهاراً تحت أشعة الشمس المحرقة من شهر مايو .. وقبل آخر ضوء انتهينا من إعداد المواقع بالطريقة الصحيحة كما تنصص عليه كتب التكتيك وفن القتال ، أعطيت المهام وهى ببساطة مقاومة العدو إذا هاجمنا .. الآن نحن ننفذ ما سبق ان تعلمناه وما حدث مساء امس حدث هذا المساء من تناول طعام لا نعرف ماهو ولكنه طعام على كل حال.

صباح اليوم التالي جاءت التعليمات بالتحرك لمكان آخر لان الخطة قد تغيرت واعدنا حشو سيارات النقل بالجنود والمعدات التى افرغناها منذ ثلاثة أيام وتحركت قوافل اللوارى نهارا الى أين؟ لا نعلم .. حتى وصلنا الى مكان جديد .. قيل .. هذا هو موقعكم المختار .. اعدوا العدة لتجهيز موقعاً دفاعياً .. الآن ننفذ الأمر وانتهينا منه فى ظهيرة اليوم التالي بين إعياء الجنود والضباط .. أسعدنا ان هذا هو موقعنا وبقينا به يومين وجاءت تعليمات أخرى جديدة باحتلال منطقة ثالثة وما تم فى الموقعين الأولين تم فى هذا الموقع وقد تكسرت الكثير من أدوات الحفر

وهى كواريك وأزم وقام الجنود بإصلاحها بنزع أعمدة الخيام الخشبية ووضعها مكان ما كسر من كثرة الاستخدام.

كل ما اعرفه وأتذكره أننا بقينا على هذه الحالة حتى قبل قيام الحرب بثلاثة أيام ويقول البعض أننا نقلنا مابين خمس إلى ستة أماكن وكل مرة يتم الحفر والتجهيز.

طلبني قائد السرية ليخبرني بانني وبعض الجنود سوف نتوجه الى قاعدة المليز الجوية حيث سيكون هناك لقاء مع احدى القيادات وعلينا ان نكون هناك قبل العاشرة صباح الغد .. قبل السادسة تجمع من وقع عليهم الاختيار للذهاب لمقابلة القائد الزائر للجبهة ولا نعرف من هو .. وصلنا الى مكان القاعدة قبل العاشرة وانتظرنا وصول القائد الذي حضر بعد الثانية عشرة ظهرا .. شاهدت عدداً كبيراً من القادة وكان الزائر هو المشير عبدالحكيم عامر ووزير الحربية آنذاك شمس بدران وقائد فرقتنا اللواء عبدالحليم عبدالعال وبعض القادة الذي لا اعرفهم لفرط حداثة خدمتي او من عدم رؤيتي لهم فى أماكن وحداتنا بالقاهرة حيث ان ظهورهم أمام الجنود والضباط كان عزيز المنال.

أسعدنا حضور سيادة المشير وهو شخصية رقيقة المستوى وكان متواضعاً بمقارنته بقائد فرقتنا "اللواء عبدالحليم عبدالعال" والذى كان اسمه يثير الهلع والخوف من جراء ما يوزعه من جزاءات قاسية على من تقع عينه عليه صدفة.

اللقاء كان معنويا وينصب على تلقين إسرائيل درسا لن تنساه ونحن الضباط نعرف مستوانا ولكنهم الأكابر يعرفون مالا نعرفه وكان التصفيق والتهليل هو سمة اللقاء ، بعد هذا عُدنا ونحن نعلم أننا سوف نفعل الأفاعيل بل ان البعض اقسم ان إسرائيل تستجدى من دول العالم ان تبعد مصر بجيشها الفتاك عنها وأنها لن تهدد أحدا بعد ذلك وقد نزلت علينا تلك الأخبار بسعادة لأنهم شعروا بالعين الحمراء لمصر ، تمادينا فى أحلامنا وأننا لمنتصرون وأدخلت الغزوات الدينية والأحاديث وآيات من القرآن الكريم فى الحوارات وجلسنا فى مواقعنا ننتظر العدو او هو

ينتظر هجومنا عليه ولسان حال كل منا يشكر الله أننا لم نغير مواقعنا منذ ثلاثة أيام.

قدم الى الوحدة جنود جدد لاستكمال النقص حيث كان العدد الموجود لا يزيد عن ٥٠% من القوة المفروضة لكل وحدة ولكن هؤلاء الجنود اتو بملابسهم المدنية والتي يغلب عليها ارتداء الجلباب أو زى عمال المصانع وتسلموا ملابس عسكرية والغير مناسبة المقاس ولاحظت أيضا أن البعض تسلم حذاء ميرى الفرديتين شمال أو يمين والبعض تسلم الفرديتين مقاسين مختلفين ، اللوارى التى أحضرتهم كان بها بعض الصف ضباط "شاويش" كل تعاملهم معهم بالسباب والصياح والضرب بالقايش على أجسادهم والملاحظ أيضا هو الفارق العمري بينهم وبين الجنود الموجودين لان اغلبهم يصل عمره الى ما يزيد علي الثلاثين عاما بعدة أعوام .. البعض فى الأربعين او الخامسة والثلاثين أجسادهم مترهلة ولهم كروش ويصيبهم الإعياء لبذل اقل مجهود كما أنهم غير منضبطي السلوك فى تنفيذ الأوامر والتعليمات ولا يتحدثون بالطريقة العسكرية المعتادة الموجودة بالوحدات .. فلا أفندم ولا حضرتك .. اما يخاطبك بلقب بيه أو باشا أو الافندى وكأن على رؤوسهم الطير وحالتهم النفسية سيئة وقد تركوا عائلاتهم وأبناءهم وإذا سألته عن السلاح المسلم له فيخبرك بأنه لا يعرف عنه شيئا وأنه شيء جديد عليه وهو يعرف كيفية استخدام البندقية القديمة "لي انفيلد" والتى استخدمها الجنود فى الحرب العالمية الأولى" والأرقى استخداما هي البندقية النصف آلية التى شاركت فى حرب بورسعيد والعدوان الثلاثي واستخدمها الروس فى الحرب العالمية الثانية وكل تلك الأنواع انتهي عهد الجيش بها فالمتوفر هو البندقية الآلية "كلاشنكوف" .. صدرت التعليمات بتدريبهم .. شعرت اننى خولي أنفار لجمع الدودة أو تطهير الترع وليس ضابطا فى الجيش المصري من الحالة التى وصل إليها الجنود فالحفر كل فترة ولا اعرف هل ذهبنا لسيناء للحفر والبحث عن المعادن أم ذهبنا لقتال العدو بل كان

عدد كبير من الجنود قد أصابت يداه تسلخات من كثرة ما قام بالحفر .. قمنا بالتدريب النظري لأنه غير مسموح بالرماية فى الموقع الدفاعي وهكذا أصبح عدد من الجنود المنضمين إلينا عالة فهم لا يعرفون استخدام البندقية ولم يكن لديهم الاستعداد أو الرغبة في العمل ، أما عن موضوع الخدمات الليلية فكان النوم هو رفيقهم ولم يكن هناك إنسان يتخيل انك فى موقع عسكري وفى حالة حرب والعدو جاثم أمامنا بعدة أمتار وجنود الخدمة يغطون فى نوم عميق .. قام القادة بتوقيع الجزاءات عليهم محملين الضباط الاصاغر السبب فى الإهمال والتسيب بان جنودهم لا يطيعون أوامرهم.

إذا وجهت سؤلا الى جندي عن كيفية استخدام القاذف الصاروخي "آربي جى" فلا احد يعرف عنه شيئا سواء من الجنود النظاميين أو من جنود الاحتياط الذين ينظرون للسلاح كأنه شيء قادم من السماء .. حتى تجهيز القنابل اليدوية ووضع المتفجرات بها لا يعلمون عنها شيئا وكان على الضباط الاصاغر القيام بتلك المهام.

لم يكن هذا قاصر على وحدتي الصغيرة المكونة من ثلاثين جندي نصفهم من الاحتياط بل فى جميع وحدات الكتيبة وهم جالسون القرفصاء مثل عمال التراحيل ضاربين بكل ما يصلنا من تعليمات عرض الحائط وقد اثر هذا سلبا على جنودنا النظاميين فهم يشاهدون هؤلاء بدون عمل سوى الحضور لاستلام الطعام والشكاوى والبلادة المصاحبة لكل تصرفاتهم وأفعالهم فتتأثر معنوياتهم ويصابون بالإحباط .. وقد تذكرت أن هؤلاء من أبناء شعب مصر الذين يهتفون بالهتاف الشهير بالروح والدم نفديك يا ريس .. ويتغنون فى حب مصر ورئيسه وهم ساكني الحركة كأنهم خشب مسندة.

لقاء مع العدو:

الأول من شهر يونيو تحركت الوحدة لمكان آخر، طلب منى قائد الكتيبة أن أظل مع فصيلتى بنفس المكان حتى يتم وصولهم ويفرغوا أحد اللوارى والعودة لموقعنا وحمل الفصيلة، إنتظرنا اللورى من العاشرة صباحا حتى حضر قبل غروب الشمس لأن السائق ضل الطريق، ركبنا اللورى حشرا وكرها وتحرك ليلا على الطريق الذى شاهدت لوحة معدنية تخبر من يسير عليه بأنه طريق العوجة الدولية. وكل فترة نفرأ عبارة متبقى خمسة وسبعون كيلومترا على مدينة القدس، كانت الفوانيس التى تعمل بالجاز والتى وضعتها سرية الدفاع والمرور التابعة لقيادة اللواء "١١٦ مشاه" توجهنا إلى طريق سيرنا حتى وصلنا لمنطقة ليس بها أى فوانيس ولم نسمع أصوات جنود التى تصبح واضحة أثناء الليل.

تسائل السائق، أكمل يا فندم؟

لم تكن لدى إجابة لكننى أخبرته بأن يظل سائرا حتى نعثر على الكتيبة أو يفرغ اللورى من الوقود الذى به بعد قليل سمعت صياح بعض الجنود من أعلا اللورى بأننا قد وصلنا، لكن المشكلة التى واجهتنا أن الطريق وضعت عليه بعض الصخور والأحجار، هبط الجنود وأزالوا الأحجار وإستكملنا سيرنا وفجأة أضاء كشاف واجهة السيارة وطلب منا التوقف، توقفنا وأمرنا بالعودة فلم ننفذ وصاح الجندى مع زميليه بأنكم إخترقتم الحدود الدولية، لم نستسغ هذا الحديث إعتقادا بأنهم يرغبون بالهزل معنا أو تأخيرنا عن الوصول لوحدتنا، أثناء هذا العراك اللفظى والمناقشات سمعت أحدهم يخبرنا بأن الشاويش وصل، بعد قليل وصل الشاويش ولم أشاهد الشاويش عطية بل شاهدت الشاويشة مارلين منرو، لقد كانت سيدة إسرائيلية بدرجة رقيب وبكل حزم أشارت لنا بالعودة لأننا إخترقنا الحدود الدولية وما كان يجب علينا فعل ذلك وأنهم منذ أسبوعين يعثرون على جنود ضالين بين المستعمرات يبحثون عن مياه.

لم يستطع الجندى السائق العودة باللورى أو عمل إلتفاف لضعفه فى القيادة وتبين لى أنه لم يكن سائقا فى حياته المدنية بل كان يعمل صبى منجد بلدى مراتب وألحفة، جميعنا لا نعرف القيادة وزاد الأمر سوءا وهزلا أن بعض الجنود الإحتياط سئل الجنود الإسرائيليين بقولهم:

. وإنبى يا خويا مافيش مراحيض حداكم ، عايز أسَّير ومزنجوج!!!!!!!!!!!!

أنقذنا أحد الجنود الإسرائيليين من ورطتنا تلك حيث قفز إلى كابينة السائق وبكفاءة أدار اللورى للإتجاه الآخر، وعدنا وظللنا نبحث عن الكتيبة وعثرنا عليها وقرر قائد الكتيبة عمل مجلس تحقيق لى لأننى قمت بزيارة ودية للعدو وتبين له بعد إتصال بقيادة اللواء بأن قائد سرية الدفاع والمرور المسؤل عن إضاءة طريق السير قد فرغ منه الوقود "الجاز" ولهذا لم تعمل باقى فوانيس الدليل .. ثم ردد مع قائد الكتيبة "خلاص عدت سليمة ..

<u>قتال بدون خطة :</u>

هذا هو صباح الخامس من شهر يونيو عام ١٩٦٧ ، هو يوم لن ينساه المصريون ولكن الذي لن ينساه ليل نهار هم من كانوا فى الحرب وخاصة على الخطوط الأمامية .. فصيلتي المشاة تحتل موقعا دفاعيا فى منطقة أبو عجيلة على الخطوط الأمامية ويخترق هذا الموقع طريق العوجة الدولية "معبر كرم أبو سالم حاليا" والذى كان معروفا قبل قرار التقسيم عام ١٩٤٨ ولهذا أمرني قائد السرية بالحيطة والحذر لأن الطريق مرصوف ويصل ما بين مصر وإسرائيل وقد يستغله اليهود فى التقدم ولقد جربت كيف تسللت مع فصيلتك لداخل إسرائيل، كل المتوفر معي ثلاثين جنديا نصفهم لا يعمل ولن يعمل .. لقد كانوا فى حالة من الخوار وغير قادرين على العمل أو العطاء، لقد كانت جثث تتحرك بصعوبة والفهم لديهم شبه معدوم، أحد الأيام جاء جنودي يخبرونني بان هؤلاء الجنود هم من حضروا معركة عام ١٩٥٦ ويعلمون أن اليهود سيضربون فى الأماكن التى لن

نتوقعها وأننا سوف ننسحب وسيقوم اليهود بنصب الكمائن أثناء الانسحاب فيقتلون البعض منا ويأسرون البعض ويفر البعض فيلقى جزء منهم ربه من حرارة وعطش الصحراء كما حدث لهم قبل ذلك .. كل هذا قبل بداية الحرب بيومين أو ثلاثة وقد أخبرت قائدي الذي حضر وعنفهم على هذا القول الانهزامي مهددا بأنه سيطالب بمحاكمتهم عسكريا ويجب عليهم ألا يفتوا من عضد الجنود وإلا شملنا الهلاك جميعا.

حوالي الساعة التاسعة من هذا اليوم الدامي الحزين لمصر شعبا وجيشا هجم الإسرائيليون على مواقعنا بغارات جوية يقول الأقدم رتبة عسكرية انها طائرات قديمة وعتيقة وتصدت لها وحدات الدفاع الجوى (مواسير) دون جدوى وكان هجومهم مرتبا حيث دمروا مخازن الذخيرة أولا ثم مستودعات الوقود والمياه والطعام ثم القيادات وهكذا واصلوا التدمير حتى نهاية هذا اليوم ونحن لا نعرف من أين يأتى القذف وما هو سبيلنا لتفاديه .. مساء أسقطت وحدات مظلات معادية على مواقع وحدات مدفعية الميدان المجاورة وحدثت خسائر بينهم وشاهدت بعض جنودهم قادمين لموقعي ليلا يطلبون أسلحة خفيفة وذخيرة حتى يقاوموا هجوم العدو حيث لن ينفع المدفع الثقيل فى هذا وكانت ملابسهم ملطخة بالدماء.

دفع قائد الكتيبة بعدد من الفصائل المشاة لمهاجمة قوات العدو ونحن متوقفون عن إطلاق النار حتى لا نصيب قواتنا وحتى صباح اليوم التالي لم تعد تلك الفصائل وقد غمرنا حزن عميق بعد أن علمنا أنهم لاقوا حتفهم من حديث لجندي مصاب عاد صباح اليوم التالي ليخبر الكتيبة بما حدث لهم.

العقيد مصطفى محمد توفيق فهمي ، هذا هو اسم قائد كتيبتنا فى حرب الأيام الستة .. كان رجلا عنيداً وصلباً ولا يعترف بأوامر الانسحاب حيث انه اتجه لتلك الحرب للأخذ بثأر شقيقه اللذين استشهد في معركة ١٩٥٦ كما انه خريج نفس عام التقسيم ٤٨ وشهد وعاصر هذه الحرب التى اثرت فى هذا الجيل والتى دفعتهم

بعد ذلك الى القيام بثورة ١٩٥٢ .. يتميز هذا القائد بالهيبة والوقار فهو قليل الكلام وضخم البنية ومن أبناء الإسكندرية التى أنجبت الكثير من عظماء مصر فى كل المحافل على مر العصور .. كان يعتبر الحرب فرصة ذهبية أتت له فى هذا الموقع المتقدم وها نحن نوشك على نهاية اليوم التالي ومازال يرفض الانسحاب بينما القوات من حولنا تعود مسرعة فى اتجاه الغرب .. اتجاه قناة السويس .. في المساء حدثت اشتباكات مع الإسرائيليين وقد اقتربوا منا كثيرا .. الآن جنود أمام جنود وكانت المواجهة بيننا ودارت معهم معارك بالأسلحة الخفيفة وقد حدثت خسائر بشرية بينهم وكنا نسمع أنينهم ونواحهم على قتلاهم ونحن لا نراهم فالظلام حالك وأثناء تلك الاشتباكات التى رفعت روحنا المعنوية جاءت طلقة رشاش اسرائيلى من النوع خارق حارق لتصيب كف يدى اليمنى .. لم اشعر إلا ودماء ساخنة تخرج من كف يدى وألم شديد واحضر احد جنودي رباط ميدان وربط الجرح والذى احدث شقا طوليا بطول الكف من الرسغ حتى إصبع السبابة ولكن الألم كان شديدا حيث شاهدت أثره نهارا فكان مثل اى شيء محترق وعلى جانبي هذا الشق اللون الأسود الذي يماثل شواء اللحم المحترق.

هذا هو اليوم الثالث قتال .. الموافق السابع من يونيو وقد قطعت وسائل التموين الغذائية فلم يعد هناك ماء ولا طعام واستبدل ذلك بالتعيين الجاف من بسكوت مخصص لذلك وعلب محفوظة بينما قادة السرايا بالكتيبة يحاولون إقناع القائد بان نلحق بباقي القوات إلى خط الدفاع الثانى "جلال وحلمي " والذى يبعد عنا وخلف القوات لجهة الغرب بحوالي ثلاثون كيلومتراً حيث أننا أصبحنا بمفردنا وانه لا جوار معنا والإمداد الغذائي قطع عنا .. لا اعلم إلى أي نتيجة وصلت تلك المحاولات ولكن كل معلوماتي أننا خسرنا عدد من الجنود والضباط وكان من بين الضابط "الملازم جلال أنور البهنساوى" نجل المستشار البهنساوى وكان لفقده اثر عميق فى حالتى النفسية وبعض الضباط نظرا لأنه الدفعة التى تخرجت قبلنا بعام

وليس هذا هو السبب الرئيسي بل لما يمتاز به هذا الضابط منُ خلق على اعلي مستوى .. وإذا أردت ان تضع صورة مثالية للشاب المصري فيصبح هذا هو النموذج الذي نفخر ونحتذي به .. التدين والهدوء والمعلومات العسكرية الكثيرة وتمكنه منها كما يتمتع برأي ثاقب فيما يعن لنا نحن الشباب من مشاكل وكان يلجأ إليه بعضنا فيعطيه من الآراء السديدة وكل هذا يتم فى طي الكتمان فكان حافظا للسر ولا يبوح به لأحد كما انه عف اللسان حتى فى الضحك والهزار والنكات أضف إلى هذا صورته الجميلة وبنيان جسده الذي وهبه الله له.

حوالي الساعة العاشرة صباحا ونحن فى انتظار قرار الانسحاب أو الاستمرار فى موقعنا والجميع فى حالة من التوتر لما أصابنا من خسائر وما شاهدناه فى اليومين السابقين من انسحاب وحدات مدفعية ومدرعات ضخمة قادمة من داخل الحدود الإسرائيلية مع التدمير التى قامت به قصفات سلاح المدفعية للمستعمرات الإسرائيلية تاركين هؤلاء الجنود الضعفاء بسلاح شخصي لا يغنى فى معارك الصحراء أمام الطائرات والدبابات ، شاهدت احد جنودي خارجا من موقعه الدفاعي حاملا بندقيته فى وضع الضرب موجها نحوى الماسورة وفى حالة من التوتر صارخا بى بصوت مرتفع طالبا منى الموافقة على انسحابه وإلا سيفرغ فى جسدي خزنة البندقية .. توقف كل تفكيري للحظات وقد أدركت خطورة الموقف فلا يغنى ويفيد فى تلك الحالات أن اصرخ فيه أو أن اهدده بالعقاب فالجندي فاقد لأعصابه مثل العديد منا وانا بالطبع احدهم ونحن بشر يصيبنا ما يصيب الآخرين مع تفاوت فى درجات التحمل وحسن التصرف .. هداني الله ان أعالج الموقف بكل ثبات حيث دفعة من بندقيته ستكون فيها نهايتي ونحن فى حالة انسحاب ولا ضابط ولا رابط فيها ، حدثته قائلاً : فيه إيه يا دمنهوري؟ بنفس طريقته الهستيرية اجاب: عايز أمشى .. عايز انسحب سيبنى أمشى .. مازلت واقفا فى مكاني وجنودي واجمون والجميع اصابهم الخوف من إحداث اى تصرف يكون رد فعله

القضاء على عدد كبير منا رغم ان غالبية هؤلاء الجنود ضعاف فى نتائج الرماية ولكن فى مثل تلك الظروف فهم شجعان فى إصابة زملائهم! حدثته:

. عايز تنسحب يا دمنهوري؟ .. صارخا

. ايوه .. ومش عايز أحارب وينعل أبو الحرب والى بعتنا لها .. قلت:

. طيب ما تنسحب يا دمنهوري .. أنت شايفنى ماسكك .. الناس حوالينا بتنسحب اعمل زيهم .. شعر بالإرتياح لهذا الاقتراح او التصريح له بالانسحاب وهدأ من نفسه المتوترة

. ايوه كده .. انا ماشى .. ونظر إلى زملائه قائلاً:

. فيه حد عايز ييجى معايا؟.. أجبته:

. لك الحق فى الانسحاب ولكن مش لك الحق فى أن تأخذ زمايلك معاك .. فاهم كلامي .. كل واحد مسئول عن نفسه .. عندئذ قال:

. حاضر يافندم. وضع سلاحه جانبا وهو مازال ممسكا به وبعض الجنود ينظرون إلى منتظرين بان نفعل شيئا معه ولكنني تجاهلت نظراتهم واستفساراتهم .. سار قليلا وهنا سألته:

. على فين يا دمنهوري؟ فأجاب

. إيه رجعت فى كلامك؟

ـ لا طبعا .. أنت مش عايز تحارب ، اترك لنا السلاح نحارب بيه عشان مش يضيع منك ويتخصم عليك بمبلغ كبير ، طلبت منه ان يسلمه لرقيب الفصيلة حتى يخلى ذمته منه ، وافق سعيداً باننى خلصته من تلك العهدة الخطيرة وسلم السلاح إلى رقيب الفصيلة .. سار قليلاً فأرسلت فى عقبيه اثنين من زملائه فقبضوا عليه واحضروه منهاراً الىّ .. لم أحاول التعدي عليه ولكنني جمعت كل جنودي طالبا منهم عدم إخبار احد بذلك لان عقوبة ما قام به الإعدام رميا بالرصاص وانه جندي ممتاز وفلتت أعصابه .. كما أخبرتهم باننى انتظر أوامر

الانسحاب ولا يجب على اى فرد فيكم ان يعرض نفسه لهذا الخطر.. فنحن مازلنا فى الجيش والهروب من المعركة عقابه الرمي بالرصاص، أنا أخاف عليكم لأنكم جنودي، أرجوكم الهدوء .. بعد ان هدأ الجندي الدمنهوري طلبت إحضاره وعانقته:

. يخرب عقلك يا دمنهوري ، عايز تودي روحك فى داهية .. استني شويه ونمشى سوا مع بعض .. بكى الجندي معتذرا طالبا منى حمايته وألا اخبر أحدا .. احتضنته ثانية قائلا:

- ولا يهمك كأن مافيش حاجه حصلت .. وهكذا استطعت بفضل الله ان أسيطر على هذا الانفعال كما استطعت ان أحمى نفسي بالا يقوم احد بفعل فعلته ولكنه بدلا من التهديد قد يطلق علي الرصاص.

دقائق قليلة وحضر قائد السرية والذى تصادف ان شاهد هذا الموقف دون ان نراه وقد اخبرني بأنه كان يرثى لحالي خوفا من تهور الجندى وكنت أهمس:

. يا ريتك يا أسامه تسيبه يروح بدل ما يضربك دفعة وتضيع فطيس .. لكن الحمد لله ، خاطب الجنود قائلاً أننا يا شباب ننتظر أوامر الانسحاب واعتقد عصر هذا اليوم سنترك موقعنا ولكن أوصيكم بالمحافظة على موقعكم وسلاحكم حتى أثناء الانسحاب نكون سويا ونحمى بعضنا بعضا .. كان لحديثه أثراً هاماً فهو قائدي وقائدهم وله معرفة قديمة بهم قبلي وكان معروفا عنه الهدوء والحصافة فى عمله كما انه لم يذكر ما حدث من الدمنهوري.

أنقذنا الله من أنفسنا .. لم يمر على هذا الحادث حوالي ساعة إلا وشاهدنا دبابة قادمة من جهة العدو وقد طلب القائد من المدفع المضاد للدبابات ان يدمرها وكنا نعلم سوء عمل تلك المدافع حيث لا تدريب ولا معرفة للجنود بأرقام ضبط الزوايا والاتجاه لانها مكتوبة باللغة الانجليزية .. فإذا كانت زاوية التصويب ٢٥ درجة يمين يحاول الجندي التأكد من هذا الرقم بأن يعد الشرط الأفقية الموجودة على جهاز التصويب .. وهذا يماثل لو سألت أحدا عن ساعته كم الآن وهو لا

يعرف الفارق بين الرقم ثلاثة من الرقم سبعة فيقوم بعد الشرط بالساعة .. وفى هذه الأثناء يكون اتجاه الدبابة قد تغير أو تكون شاهدته وأطلقت عليه النيران .. ولكن لم يحدث هذا رغم ان بعض الجنود شاهدوا فانلة داخلية بيضاء تضعها الدبابة على هوائي جهاز الإرسال الخاص بها .. وبسرعة البرق بين نداء البعض بأنها قد تكون دبابتنا وليست دبابة العدو وأراء أخرى بأنها دبابة للعدو ولو كانت دبابتنا قد يكون العدو قام بخدعة فلتقصف .. بكل مساوئ الرماة استطاع المدفع من أول دانه ان يدمر الدبابة بين فرح البعض وتوتر البعض ان تكون الدبابة لنا .. هرع البعض للدبابة لإحضار اسري ان كان مازال بها احد على قيد الحياة .. أتوا بعد خمسة عشرة دقيقة يحملون جثمان قائد الدبابة. نقيب من الجيش المصري حاملين معهم مذكراته وتحكى انه هاجم العدو بسبع دبابات واحدث خسائر بهم وفقد الدبابات الست بعد ان دمر بعض المستعمرات حيث كان يختبئ طول النهار ويهاجمهم ليلا خشية الطائرات .. كل هذا مدون بمذكراته ساعة بساعة وكانت نهايته على ايدى جيشه الذي حضر إليهم طالبا مساعدة من الطعام والوقود والذخيرة .. كان وحيدا فى دبابته لمدة يومين يعيش داخل الدبابة مختبئا داخل النباتات الصحراوية الطويلة الموجودة بالمنطقة .. كان استشهاد "النقيب عزالدين" اكبر مأساة تعرضنا لها طوال الأيام الثلاث السابقة وغطى الحزن الجميع وقام بعض الضباط بالصلاة عليه ودفنه وكنت من بينهم ولأول مرة في حياتي أشاهد جثمانا والدماء تلفه وقد تمزق من اثر القنبلة التى أصابته وهو الذي لم يذق الماء والطعام ليومين حسب مذكراته.

جلسنا صامتين ولو حضر فى ذلك الوقت بعض الجنود اليهود لأسرونا جميعا دون مقاومة حيث انهارت معنوياتنا الى أدنى درجة .. أرسل الى قائد السرية يخبرني بأن أوامر الانسحاب وصلت وعلينا الانتقال لخط الدفاع الثانى "جلال وحلمي" وانا لا اعرف من هو جلال ومن هو حلمي ولكن البعض قال

سوف نسأل وكأنك تسير فى ميدان التحرير وتسأل عن شارع قصر العيني .. انها صحراء سيناء الشاسعة الكبيرة التى بها من الجبال الضخمة والوديان الكثير.

قفز الجنود إلي ظهر اللوري ولا اعرف لماذا وقفنا اصطفاف ننتظر السير رتلا كأننا نسير فى موكب النصر بشارع النصر فى مدينة نصر والطائرات المعادية منتظر ان تأتى فى اى وقت .. سرنا رتلا خلف قائد السرية وبعد حوالي نصف الساعة سمعنا انفجاراً ضخماً وتفرقت اللوارى مسرعة فى اى اتجاه ومازالت الانفجارات تتوالى ، شاهدت السائق ينحرف باللوري الى أحد الأجناب وكنا فوق منطقة صخرية وبجوارنا منطقة اقل ارتفاعا بحوالي المتر.. انقلب اللوري بنا جميعا وخرج الجنود من تحته يجرون فى اى اتجاه وقد استطاع السائق ان يخرج بعد ان تحطم زجاج اللوري الامامى ووجدت نفسي مقلوبا داخل اللوري وساقاي لأعلى وأريد ان اعرف أين انا .. حاولت الخروج ولكن يد واحدة لم تساعدني .. طلبت العون ولكن الجميع أسرعوا للحاق بقطار النجاة تاركين المحطة فارغه .. اى لم يكن هناك احد بالقرب منى والى أين هم يهربون وبهذه السرعة والدبابات الإسرائيلية مازالت كامنة لنا وصوبت مدافعها في إتجاهنا ولم نجد مرشدا او موجها لكى نتصرف .. مكثت على حالي هكذا أكثر من ساعة إلى ان سمعت بعض أصوات لجنود مصريين يتحدثون ، سمعوا استغاثتي فساعدوني على الخروج وقد اصابتنى بعض شظايا الزجاج كما تمزق افرولى من أثارها وهم يجذبونني الى الخارج بدون عناية كأنهم يسحبون شوالا وليس إنسانا .. خرجت انظر حولي وانا جالس أرضا حتى استعيد الوعي مما حدث متسائلاً .. هل هم جنود من الكتيبة؟ .. كان عددهم خمسة فوجدوها فرصة بأن يرافقهم ضابط فهو يعرف أكثر منهم وهذا فكرهم الذي عودناهم نحن القادة عليه.

عاونني الجنود على الوقوف ولملمة نفسي المبعثرة وسألتهم من تكونون .. فأجاب احدهم إحنا يا فندم من فصيلة "الـ م/ط" وهذا اختصار لفصيلة المدافع

المضادة للطائرات .. كنت لا اعرفهم ولكن احدهم كان من فصيلتي وهو الجندي فراج جلال عسران والباقي يعرفونني لأنني ضابط بالكتيبة خاصة من كثرة ما توليت نوبتجيات بدلا من زملائي أبناء القاهرة قبل قيام الحرب.

استفسرت منهم عما حدث وقد افادونى بان كمين دبابات للعدو قصف لوارى الكتيبة وان عددا كبيرا أصيب أو قتل ومن بينهم بعض الضباط وسالت عن قائدنا العقيد مصطفى؟ افادونى بأنه مازال موجودا بالموقع لمقاتله اليهود بمفرده .. شعرت اننى فقدت أبى وكيف سأعود فهو الذي يعرف أين "جلال وحلمي" والذى قال عنه قائد السرية ان به قوات ضخمة والتى ستقوم بهجوم مضاد تدمر به إسرائيل .. لم نكن نعلم حجم الكارثة بأن قواتنا الجوية دمرت .. ان كل معلوماتنا ان جيشنا قوى وسيدمر إسرائيل وان كل المشاكل التى نواجهها موجودة فى كتيبتنا فقط اما باقى الوحدات فإنها من أعظم القوات .. رضينا إننا الأضعف المهم ان يكون هناك الأقوى ويرد ما حدث لنا ويحمينا ونجد عنده المأوى والحماية.

سرنا نحن الستة ونحن لا نعرف إلي أين نسير وسألني احدهم .. أفندم : عارف فين خط الدفاع "جلال وحلمي"؟ أجبته بالنفي ونظر إلىّ احدهم وهو يتمتم بصوت منخفض "أمال عامل ظابط ازاى" وقد نهره من بجواره وقد تجاهلت ذلك وكأنني لم اسمع وقد عاهدت نفسي منذ ثورة الجندي الدمنهوري ان أكون حليما هادئا حيث لا قانون ولا ضابط ولا رابط .. سرنا حتى اقترب الظلام وكنا قريبين من احد الجبال الشاهقة وعرفت بعد ذلك انه جبل لبنى ولم أكن قد سمعت عنه من قبل .. اقترح احدهم ان نستريح حيث سرنا أكثر من أربع ساعات وقد أرهقنا التعب ودرجة الحرارة وكنت مثلهم احتاج الى الراحة.

استلقى كل شخص فى احد الأماكن وبعد عدة دقائق سمعنا صوت أقدام من ارتطام الأحذية بكميات الزلط الموجودة بالمنطقة .. هتف احد جنودى .. أنت يا دفعة.. مين هناك؟ .. ولم نسمع إجابة مرت دقيقتان وشاهدنا ظلين لشخصين

وهما يسألانا بصوت مرتفع وبطريقة ابعد ما تكون عن اللياقة .. فين ياد أنت وهو "خط جلال وحلمي"؟ اجاب احد الجنود بدون اكتراث على هذا السائل بنفس طريقته .. روح دور هو انا عارف .. فإذا بهذين الشخصين يضربانا جميعا بالشلاليت والسباب بالأم والأب .. ضربونا نحن الستة ونحن مستلقين أرضا وقد أفزعنا هذا وقال احدهم وهو يسبنا بأقذع الألفاظ .. معاكم ظباط؟ .. فاجبوا خوفا من بطشهم ايوه .. اهه فى الظلام يشيرون جهتي بعد ان حصلت على كام شلوت محترمين .. احدهم يخاطبني .. رتبتك؟ أخبرته "الملازم أسامه الصادق" ضحك الاثنان بسخرية وكاننى حشرة أمامهما .. سألني احدهم.. تعرف فين خط الدفاع التانى يا نطل وإلا أنت غبى زى اللى معاك؟ .. تساءلت: مين أنت عشان تكلمني بالطريقة دي؟ .. مسكني احدهم من كتفي وهو يهزني بعنف .. بتسأل إحنا مين؟ .. طيب .. سيادة العميد جلال قدامك وانا العميد حلمي .. أديت التحية العسكرية بعد ما نلته من تحيتهم السابقة واعتذرت باننى لا اعرف المكان؛ سارا سويا بعد ان تركاني وجنودي واحدهم يقول للأخر .. وإحنا نعرف نحارب ومعانا شوية الحمير اللى شفناهم .. جيش زفت.

لقد عرفنا الآن الفارسين الذين أهانانا ونحن لم نقترف ذنبا يسمح لهم بمثل هذا وفي تلك الظروف الصعبة .. ها هما الفارسان أصحاب خط الدفاع الذي أُمرنا ان نتوجه إليه لا يعرفان الى اى مكان يذهبان وهما قائدي لواءين من قواتنا المسلحة وقد سمحت لهم الغطرسة العسكرية بان يعاملوننا بتلك الطريقة المهينة فى ارض المعركة .. علق احد الجنود بأنه كان يعتقد أنهم يهود ولكن زميله نبهه بان اليهود يتكلمون انجليزي وليس عربي وأنه لو عرف بأنهم مصريين لأطلق عليهم النيران من المسدس الذي معه .. حتى الجندي حرم دم اليهودي وأباح دم المصري.

أمضينا ليلتنا فى هذا المكان وقد أعيانا الظمأ حيث أمضينا ما يقرب من أربعة وعشرين ساعة دون مياه ولا نستطيع السير لأننا لا نعرف الطريق ..

أمضينا ليلة قاسية باردة رغم ان الليلتين السابقتين كانتا اشد إيلاما من المعارك والشهداء وتوتر أعصابنا من مناظر القوات التى تنسحب تاركة هؤلاء الجنود العجزة بهذا السلاح الهزيل .. نهض بعض الجنود يجرون حول أنفسهم اتقاء البرد الذي يشبه برودة الشتاء فى شهري يناير وديسمبر.

أضاءت الشمس الأرض وبدا ضوئها يسرى في أجسادنا وكنا إيقاظا من البرودة وأصواتنا مبحوحة من شدته .. شاهدنا ما حولنا .. سرنا علي غير هدى ، سألني احدهم هل اعرف الطريق؟ نفيت هذا قائلا ان مصر فى الغرب ولهذا نجعل الشمس حتى الظهيرة فى ظهورنا وبعد العصر أمامنا .. ساروا معي وليس أمامهم خيار غير ما قلت .. كان سيرنا بعيدا عن الطريق وهو الطريق الأوسط حيث نشاهد من على بعد الدبابات والعربات المدرعة وتحليق الطائرات المعادية.

لا اثر لمياه أو قوات .. كنا ظمأى ونريد الشراب وشمس سيناء فى شهر يونيو قاتلة بضوئها الشديد ولا مكان تجد فيه شيء تستر او نختفي أسفل منه أو تعثر علي ظل .. اقبل منتصف النهار وقد بلغ منا الإعياء أشده والعطش منع أصواتنا من الخروج .. ألقى أحد الجنود بجسده أرضا تعبا أو يأسا ونظر إليه زملاؤه فتبعوه وتبعتهم بالتوالي .. رقدنا على الرمال الحارقة ووجهنا للسماء تفعل بها الشمس والحرارة ما تريد .. عصراً سمعنا اصواتاً وهمهمة بعيدة خشينا ان يكون اليهود قادمين إلينا فسوف يطلقون نيرانهم دون إنذار .. رقدنا فى أماكننا وقلوبنا تدق مثل أصوات انفجار قنابل المدافع ولا يوجد عَرق يلطف من درجة الحرارة .. اقتربت الاصوات واستطعنا ان نميز تلك الأصوات؛ أن حالهم مثل حالنا .. فهم الذين أرسلتهم قيادتهم ليلقوا حتفهم من العدو أو عطشا.

كان عددهم كبيراً وقد اقتربوا منا وشاهدونا ونحن بالمثل شاهدناهم فانبطحوا أرضا متخذين وضع الدفاع للتعامل معنا وأخافنا هذا التصرف فهذا يدل على أنهم أعداء رغم أننا سمعنا بعض أحاديثهم بالعربية ولكن اليهود يقلدون كل اللغات هذا

ما اخبرونا به وتصرفهم هذا لا يبشر بخير .. تحدث احدهم قائلاً : انتم عدو ولا صديق؟ .. وكان الجندي القريب منى ابن نكتة رغم ظروفنا الصعبة فاجابه: انا صديق وحبيب .. فسأله الجندي من الجانب الآخر .. إيه الدليل؟ .. فين الهدايا ؟ فاخبره الجندي قائلاً : انا جايب لكم هدية عظيمة؛ وضع الخوزة على مقدمة البندقية ورفعها لأعلى فشاهدها الآخرون وهتفوا .. تاج عظيم .."السلطانية"!! وقاموا فرحين ورقصوا يدورون حول أنفسهم قائلين "السلطانية .. تاج الجزيرة"

كان كل منا يمنى نفسه بان الآخرين سيساعدونهم فى الارتواء بجرعة ماء ومعرفة الطريق ولكن تبين ان حالهم مثل حالنا .. عددهم وصل إلى الإثنين والعشرين شخصا وهم جنود لإحدى ورش الجيش وليس لهم دراية بالحرب ولا بفنونها ولا حتى استخدام السلاح الشخصي .. أنهم أجساد تتحرك .. تشجعنا وسرنا .. لم يكن يرافقهم ضباط ولكن كان المرافق لهم مساعد "صول" وبالطبع فهو اكبر منى عمراً وخبرة وقد يصل عمره إلى ضعف عمرى وقد استأذن الرجل بأنه سيقود المجموعة بعد أن علم منى اننى لا اعرف الطريق لأنه يعتقد باننى حضرت إلى سيناء لأول مرة ثم ضحك قائلا : سيبها عليا انا عارفها خُرم خُرم .. اسعدني هذا وزاد من سعادتي اننى سأجد شخصا ارتكن عليه ويتولى مسئولياتنا .. سرنا خلفه نتبعه .. انه "المساعد عبد الراضي" انه شخصية تزيدك إعجابا .. فهو نحيف الجسد قصير القامة له شارب كثيف لا يقل طول جناحيه عن خمسة عشر سنتيمتراً وقد تلون الجزء العلوي أسفل انفه بلون بني نظراً لشراهته فى التدخين .. اما صوته فهو عشرة أمثال حجمه ويستطيع اى إنسان ان يسمعه من على مسافة بعيدة وكان كثير الحديث وإلقاء المعلومات والأخبار ويقص قصصاً عجيبة لم اسمع عنها لمغامرات قام بها ضد اليهود فى هذا المكان عام ٥٤ وفى مكان آخر عم ٥٦ وبهذا اشعر من معه انه بطل أبطال سيناء وانه لا يقل عن رومل ومنتجمرى إلا فى شيئين .. يقف قائلاً:

سامعينى يا بقر.. (جموع المنسحبين) سامعينك يا فندم ..

إيه هما الحاجتين اللى باختلف فيهم عن رومل .. ده كان يابانى ومونتجمرى كان قائد امريكى وانا مصري كمان دول كانوا ظباط كبار زى ما تقولوا كده مقدمين وإلا عقدا وانا لسه .. احد الجنود .. صول يافندم .. يتوقف عن السير والحديث ليؤنب العسكري الحمار طالبا منه تنفيذ أمر "تسعة استعد" (احد التمرينات الرياضية الصعبة التى نعاقب بها فى الجيش حين اقتراف خطأ ما) الجندي يتوسل له ان يرحمه لأنه متعب ويسير منذ ثلاثة أيام ولكن الصول يزداد حنقا عليه ويمسك أذنه يجذبها بقوة متسائلا:

- يا بجم .. عندكم كام صول فى داركم .. ينفى الجندي وجود مثل تلك الألقاب الرفيعة .. يوبخه ومازال يجذبه من أذنه .. اسمي إيه؟..

يصحح الجندي "ح الصول" ينظر للجميع قائلا:اسمي إيه يابقر؟..

الجميع "ح الصول يا فندم" يتنحنح ويعدل شاربه ويقول "مارش يا بقر"

كنت اضحك فى نفسي من تلك الشخصية التى مازالت تعيش فى مراكز التدريب بالقاهرة وليس فى ميدان قتال وانسحاب، أسدل الليل ظلامه وهنا استشارني "ح الصول" او انه تذكر بأن بالقطيع الذي يقوده ضابط حيث قال: .. . أفندم .. إحنا نريح هنا والصباح رباح .. نظر الى الأمام وهو يشير بيده قائلا فيه وادي هناك .. شايفه؟ اعتقد ولكنني غير متأكد منه.

. نسير فى اتجاه الوادي وهناك نجد منطقة منخفضة تستطيع استيعاب عدة لوارى وتكثر بها بعض النباتات المشابهة للغاب حول الترع والجسور.

نحن فى مساء الثامن من يونيو والذي يعتبر اليوم الثانى لنا دون طعام أو مياه وقد وصلنا الى الوادي الذي أشار إليه المساعد عبدالراضى .. هبطنا إليه ولم نتبين ملامحه سوى من بعض الهيش والحشائش الطويلة التى تتواجد فى بعض الأماكن المنخفضة وقد حل بالجميع الإعياء من ارتفاع درجات الحرارة والشمس الساطعة شديدة الإضاءة وشعور الجميع بألم فى مفاصل القدم والركبة وحالة من التوتر النفسى لعدم وجود الماء ولهذا شعر الجنود بان حناجرهم مغلقة وأصبحوا قليلي الحديث وأخيرا اثر عليهم المجهود الذي بُذل فى السير حوالي عشرة ساعات طوال النهار.

ألقى كل جندى بجسده أرضا لأن الأجساد منهكة من فرط الإرهاق وقد غشى الجميع نوم عميق لم ننتبه إلى طول فترة النوم أو إلى برودة الطقس ليلاً مثل الليالي السابقة حيث كنت أتقلب أحيانا وانا نائم واشعر أو أتخيل بأن شيئا ما يسير على يدى أو قريبا من رأسي لكن كل هذا لم يفزعني أو يبعد النوم عن عيني كما شاهدت البعض أثناء تقلبي وهم غارقين فى نومهم وكان للشخير نصيب من هذا الوضع السيء لتلك المجموعة من شباب مصر.

استمعت واستمع الآخرون لأصوات وجلبة لمحركات وأصوات جنازير دبابات وقد اعتقد أحد الجنود أنها لقواتنا ولكن الآخرين منعوه من الخروج حتى لا يرانا من هم بداخل تلك المركبات .. سكن الجميع دون اى حركة وكل ما قام به قائدنا رومل المصري بأن اقترب من حافة الوادي ونظر خارجا قليلاً وعاد مسرعاً مرتجفاً واخبرني بأنهم اليهود ودباباتهم اللعينة يفتشون المنطقة عن قواتنا مستخدمين كشافاتهم القوية؛ كنا نلاحظ ذلك بان خارج الوادي أضواء مبهرة .. استمر هذا حوالي نصف ساعة حتى ابتعدت تلك المعدات عن منطقتنا وعاد الينا

الهدوء والسكينة حيث تخوفنا جميعا بأن تصل أي دبابة إلى الوادي وتشاهدنا وتفتح نيرانها علينا فتقضي علينا نحن الثمانية والعشرين نفسا.

غلبنا النعاس ثانية وجثم على أجفاننا وعدنا الى نوم هادئ بعد أن أنقذنا الله من تلك القوات المعادية .. انبلج ضوء النهار وما زالت الرطوبة المرتفعة تحيط بنا وقد فعلت سحرها بأجسادنا حيث رطبت وقللت من تأثير درجة حرارة النهار الجافة .. قام احد الجنود يتسكع ويتمطع وكنت أشاهده وانا نصف نائم وإذا به يصرخ ويجرى ويصيح تعبان .. تعبان وكرد فعل هرعنا من أماكننا نجرى وإذ ألاحظ بأن المنطقة تعج بعشرات الثعابين من أحجام مختلفة بدءا من حجم القلم الرصاص حتى اطول من المتر كما يغلب عليها اللون الأسود بخلاف لون الثعابين فى سيناء .. لكن كل ما شاهدته وانا أعدو كاننى في مسابقة اختراق ضاحية هو أن الثعابين كثيرة وأن البعض منا وهو يجرى تسقط منه ثعابين وخاصة الصغيرة وتفاجأ وأنت تعدو بان أمامك ثعبانا أو أكثر .. بعد أن تركنا هذا الوادي اللعين والذى قضينا به ليلة بأحضان الثعابين جلسنا نلتقط أنفاسنا ونشاهد على مرمى النظر اثنين من الثعابين الضخمة السوداء قادمة فى اتجاهنا بأقصى سرعة وتنبه مستر رومل وهو يصرخ قائلا: يا ولاد الابالسه .. كل واحد يفتش نفسه لازم فيه تعابين صغيرة وأمهاتهم جاية ورانا .. وقد انشغل كل فرد منا بان يفلى نفسه من الثعابين وليس من البراغيث .. وهتف احد الجنود وهو يصرخ ويرمى حذائه بعيداً حيث وجد أن مجموعة من الثعابين"البيبى" الصغيرة قد استولت على تجويف الحذاء ونامت به ساكنة .. قذف الحذاء وافزع هذا الثعابين الصغيرة فخرجت من الحذاء تجرى، كان المشهد محيراً ومرعباً إذ وقعنا ما بين فكي الثعابين أو أن يأتى اليهود فى تلك الظروف ويحصدونا بالنيران .. توقفت الثعابين الكبيرة عن التقدم جهتنا ورفع كل ثعبان نصفه الأعلي وصرخ عبد الراضي:

- ينهار اسود؛ "كوبرا سيناوية" .. وقفنا جميعا نعى ما يقول لكنه انشغل باستقبال أمهات الثعابين لأطفالهم .. حيث أسرعت صغار الثعابين نحو الأمهات وقد التفت كل ام حول صغارها .. كيف عرفتهم؟ .. وكيف عرفوها؟ .. لا ندرى .. لكن عبدالراضى أوضح لنا بأننا نزلنا بطريق الخطأ فى وادي الثعابين وأن أى إنسان لا يستطيع أن يقترب من هذا الوادي لأنه معقل ثعابين الكوبرا بسيناء وهى اخطر أنواع الثعابين فى العالم ولا يوجد مصل لها لان اللدغة منها قاتلة فى ظرف ثلاثة دقائق .. سمعنا ما قاله وقد وصلنا إلى مرحلة احتباس الأنفاس ولكن أحد الجنود صرخ وقفز قائلاً :

- تعبان .. تعبان .. ولكن المدهش انه لم يكن ثعبانا بل سحلية اقتربت من يده حين وضعها خلف ظهره جالسا يستمع الى محاضرة السيد رومل.

تعجبت مما سمعته ورايته وقد عادت بى الذاكرة لما كنت أشاهده أو اشعر به وأنا نائم من أن أشياء تسير بالقرب من اذنى أو على اصابعى كما شعرت بأن شيئا ما يدفعني فى ظهري وأنا نائم مثل إصبع طفل وقد تبين لى كل هذا ونحن نتبادل الحديث وأننا نمنا فوق فتحات جحور تلك الثعابين فلم تستطع الخروج والتى كانت بالخارج تبحث عن فرائسها لم تستطع الدخول .. ولكن الله سلم وقد علق أحد الجنود على ذلك بان "حضرة الصول عبد الراضي" .. أسعده هذا التوقير وأن الجندي سوف يمتدحه .. يكمل بأنه خلع حذائه وقد اثرت رائحة الحذاء على الثعابين فحدث إغماء لهم جميعا وهذا الذي منعهم من أذيتنا .. أسرع الصول عبدالراضى خلف الجندي ليخبره بأنه منتظر مكتب .. يا ابن.....

أعيانا الجري من المنطقة التى بها هذا الكم من الثعابين وكل فرد فينا يفتش جسده خوفا بان يكون هناك ثعبانا او أكثر عالقا بملابسه بل أن بعض الجنود خلع ملابسه بالكامل يفتش بداخلها خوفا من يفاجأ بأحد تلك الثعابين وخاصة الصغيرة منها التى كانت كثيرة بشكل لافت للنظر ..

واصلنا السير وبعد عدة كيلومترات صاح أحد الجنود قائلاً: لقد وجدت كنزاً وأسرعنا جميعا جهته وهو ممسك بهذا الكنز .. الكنز عبارة عن بصلة صغيرة اكبر من الليمونة بقليل وتهافت الجميع عليها ولكن رومل أخذها منه وقسمها بالعدل على الثماني والعشرون شخصا ولم تكفى حيث نال البعض جزء من قشرة البصلة الخارجية.

الجميع يتوجه إلى الله بالدعاء فى السر والعلن بان يهبنا بئر ماء أو شخصا من البدو نشاهده فيدلنا على الماء والطريق الصحيح لانسحابنا حيث تبين أن السيد رومل مُسطح المعلومات فهذا هو اليوم الثانى لقيادته ونحن نسير على غير هدى وكاد ان يهلكنا قتلا بسموم تلك المجموعة الراقدة من الثعابين .. مازلنا نسير وكلنا إحباط بأنه لليوم الثالث لا جدوى من سيرنا فلا نحن عثرنا على مياه تروى عطشنا ولا انضممنا إلى وحداتنا التى وصلت التعليمات بالانضمام إليهم خاصة بعد لقاء امس الاول مع أصحاب الموقع وهما العميدين "جلال وحلمي" والذى فوجئنا بعد سيرنا بمسافة طويلة وقد اقترب موعد الظهيرة بوجود سيارة جيب مدمرة وأسرعنا إليها حيث لاحظنا وجود ثلاثة من القتلى اثنين متدلين خارجها والثالث هو السائق قضى نحبه على عجلة القيادة وتعرفنا عليهما .. إنهما العميدين جلال وحلمي الذين أشبعونا ركلا وصفعا وسبابا منذ ثلاثة أيام .. كان منظرا مؤلما أن تجد مصريين مقتولين بتلك الطريقة الوحشية من دانه دبابة اقتنصتهم بعد أن عثروا على سيارة جيب تقلهم إلى ما يبغون .. ترحمنا عليهم وحفرنا بأيدينا حفرة لدفنهم وقرأنا الفاتحة عليهم والصلاة على أرواحهم دون وضوء سوى قليل من التيمم .. أهلنا الرمال على الشهداء الثلاثة وجمعنا بعض الصخور والأحجار المنتشرة هنا وهناك كى نحمى أجسادهم الطاهرة من بنات آوى"الثعالب والذئاب والضباع" .. جلسنا نستريح من آثار المجهود وقد ازدادت نفوسنا عطشا وشعر البعض أنهم هالكون فهذا هو اليوم الثالث دون شربة ماء وما رأيناه فى الصباح

من هجوم جحافل الثعابين وما رأيناه الآن من استشهاد ثلاثة من أبناء مصر أودعناهم الثرى وما أدراك بالذي يقتل ويبقى أكثر من يومين فى تلك الحرارة وعوامل التعفن والتحلل السريعة ورائحتها النفاذة إلى أنفاسنا اللاهثة.

رغبنا فى الاستراحة قليلا وقبل ان نجلس نفاجأ بطائرة هليكوبتر إسرائيلية قادمة فى اتجاهنا بسرعة ونحن شبه عرايا فى تلك الأرض المفتوحة فلا ساتر نختبئ أو نحتمى خلفه ولا حفرة تقي الفرد منا ومازال منظر الثلاثة الذين دفنوا منذ قليل عالقاً فى أذهاننا وعقولنا وقلوبنا .. أسرع كل منا يجرى فى أى اتجاه على غير هدى والبعض ألقى بجسده على الأرض يهيل الرمال فوق رأسه لعل وعسى أن تحميه تلك الحبات القليلة من الرمال من رصاصات الطائرة أو صواريخها .. هاجمتنا الطائرة من ارتفاع منخفض وأحد الرماة بداخلها يطلق مدفعه الرشاش فتتطاير الرمال من حولنا ونسمع أصوات "سكرتما" الطلقات التى تصطدم بالحصى والزلط وكلها تبعث الرعب فى نفس أى شخص منا .. دارت الطائرة دورتين حولنا ومازالت تفعل هذا التصرف ونحن نشاهد الرامي والطيار يضحكان على منظر تلك الأغنام الهائمة على وجوهم بالصحراء وكل منا ينظر لهم بعيون حزينة دامعة دون دموع .. أيها البشر لا تقتلوننا نحن اضعف من أن نقتل .. اتركونا لحال سبيلنا وسوف نموت اليوم أو غدا على أكثر تقدير هالكين بحكم الطبيعة القاسية والتى حرمتنا ثاني أهم شيء بعد التنفس .. ما زالت الطائرة تهاجمنا والبعض منا وقوفا بان تصطدم به بعجلاتها أثناء تحليقها بتلك السرعة فينقلب الجندي على الأرض صارخا والدماء نازفة منه.

تركتنا الطائرة لحال سبيلنا دون أن تقضي على أحد منا إلا من بعض الإصابات التى حدثت من اصطدام عجل الطائرة برؤوس بعض الجنود المساكين وهم ما زالوا ينزفون والدماء تغطى الوجه ومن المؤكد أنهم كانوا يستطيعون قتلنا جميعا لو أرادوا .. شعرت وكأنهم يلعبون بنا مثل ما نشاهد فى الأفلام مطاردة

المغامرين الأجانب للحيوانات فى سهول أفريقيا .. نحن مثلهم ولكن تلك الحيوانات أحسن حالا فقد انتهت من وجبتها منذ قليل وارتوت من مياه الأنهار أو البرك أما نحن فقد أصبحت دمائنا لزجة ثقيلة.

تركت الطائرة المنطقة بعد أن أرعبتنا وأخافتنا وأذلتنا زيادة على ما نحن عليه وقد استطاع رومل أن يجمع المشتتين بصوته الجهوري الذى وهبه الله له وأىّ منا لا يستطيع أن يحادث المجاور له إلا همسا من الخوار الذى أصابنا وحالة الضعف والهلاك البدنى الذي يحدث قبل الوفاة.

عاد الجنود كسالى خائفين، حاول عبدالراضى أن يشد من أزرهم ويقوى من عزيمتهم وانا مثله أشارك بقدر طاقتي وقد ضاعت الثقة به حيث كدنا أن نهلك مرتين .. سرنا ونحن نجرجر أقدامنا والسراب يفعل بنا فعله الأسود فنشاهد سطح مياه علىُ بعد وتتصاعد منه الأبخرة فنهرع إليه جريا وسيرا ودفعا ولا نجد شيئا ونجد أن المسافة الفاصلة بيننا وبينه ما زالت كما هى .. جلسنا نستريح أو كما قال أحد الجنود " يا بخت من يموت منا الأول .. لأنه سيجد من يدفنه ويوارى جسده التراب " .. بعد جلسة قصيرة لم نستطع أن نستكملها لصعوبة الجلوس على الرمال المشتعلة من درجة الحرارة وقد أصبحت الشمس عمودية فوق رؤوسنا .. فأصبحنا محاصرين بين نارين ولا فكاك منهما وإلى أين؟ ..

قال أحد الجنود.. " انا شايف عربية هناك " .. وأشار بيده على جانب الطريق الذي كنا نخشاه ونبتعد عنه خوفا من كمائن الدبابات .. أسرع الجميع جهة اللورى فطلبت منهم التروي حتى لا نفاجأ بسيارة معادية تطلق نيرانها علينا ولكنهم كانوا فى شغل آخر عن تلك المخاوف التى فى عقلي حيث كانت الأمنية الوحيدة لكل فرد منا شربة ماء .. كنت اسمع أصوات أحذيتهم الثقيلة تطرق الاسفلت وقد إنتصفت الشمس بكبد السماء وظلوا يهرولون حتى وصلوا إلى اللوري واقتحموه وركبوا فوقه يبحثون عن أى شيء تصل أياديهم إليه .. كان لورى من

لوارى الجيش المصري الضخمة تحمل كميات كبيرة من صناديق القنابل اليدوية .. لم يجدوا شيئا به ولكن احدهم قال .."راديتير العربية" ولم يكمل حديثه .. فقد أسرع البعض بفتح طبة الرديياتير وتناطحوا فيما بينهم وكنت أشاهد الرؤوس ترتطم بمقدمة اللوري معتقدا بأنهم سيصابون بإصابات بالغة واخذ احدهم بخوذة قديمة كانت باللوري واندفعت مياه الرديياتير إلى الخوذة فملأتها، هم بالشرب وهذا يريد وذالك يريد، وقعت الخوذة أرضا وانسكبت المياه على أرضية الاسفلت المشتعلة نارا بجانب ان باقى المياه مازالت تندفع من الفتحة الخاصة به .. أصبح الاسفلت ممتلئا بالمياه واندفعت الرؤوس تشفط تلك المياه وترشفه وتبعتهم فيما يفعلون ولكن مجرد أن شربت رشفتين حتى كدت أن اتقايأ .. فرائحة المياه مثل الجاز كما أن لونها احمر من الصدأ اما درجة حرارتها فاقرب إلى الغليان فالبخر كان يتصاعد من اثر نزولها على أرضية الطريق خاصة وقت الظهيرة وحرارة يونيو القاتلة.

من المؤكد ومما شاهدته أن المياه التى سقطت على الطريق ابتلعها الجنود حيث تستطيع أن تسمع رشفهم لتلك المياه من على مسافات بعيدة .. اما منظرنا فكان اقرب إلى الحيوانات التى تدلى أفواهها إلى جدول مياه لتروى ظمأها .. وقفوا بعد أن شربوا وعبوا من الماء كل حسب ما استطاع من قوة فى أن يجاهد ويحصل على نصيب اكبر وآخرون اكتفوا بشربة ماء قليلة لعدم استطاعتهم المناطحة التى كانت تحدث بينهم وكنت اسمع ارتطام الرؤوس فيما بينهم .. كل ينظر إلى الآخر .. خاصة سعداء الحظ منهم الذين حصلوا على جزء كبير من المياه، بعد دقائق بدا الكثير منهم يشعر بالآم ومغص ولا اعرف سببا لها، قد يكون السبب سخونة المياه والبعض يقول أنها مياه فاسدة تحتوى على زيوت وشحوم وسولار من ماكينة تلك السيارة وخاصة ان هذا النوع توضع به المياه لعدة أشهر وبالطبع لدي هؤلاء الجنود الخبرة لأنهم يعملون فى الورش .

واصلنا السير بعد أن أصيب البعض بالمغص والألم ونحن ننظر لهم آسفين وليس فى مقدورنا شيئا نفعله .. أثناء سيرنا لهدف غير محدد حيث لا نعرف إلى أين ولكننا أصبحنا مثل قوم موسى الذين كتب الله عليهم التيه فى سيناء أربعين عاما عقابا لهم من الله .. نشاهد وادٍ منخفض وبه بعض النباتات .. إصابتنا السعادة والبهجة .. فهذه خضرة .. وطالما توجد خضرة ستكون هناك مياه .. أسرعنا الخطى جميعا إلى الوادي ولكننا لم نعثر على بغيتنا وهى المياه فتطفل البعض لأكل تلك النباتات والتى كانت تحيط بها الأشواك وقد اعتقد البعض انها تين شوكي ولكن منظرها لا يدل على ذلك فهى كبيرة الحجم وذات أشواك أطول .. لم يمنع الجميع ان يحاولوا إزالة الأشواك بتقشيرها بالسونكى وفاحت منها رائحة مثل الخيار أو البطيخ فانتعشوا لهذا وشرعوا يأكلون ولكنهم سرعان ما بصقوا ما تناولوه؛ لقد كان نبات الحنظل شديد المرارة .. جلسنا نشاهد تلك النباتات ونحن نقول لبعضنا البعض أن الله غير راض عنا .. حتى النباتات ضارة وذات مرارة .. لو أن الله راض عنا لكنا وجدنا الكثير من النباتات مثل البطيخ أو القثاء وقد أنعشت تلك الاسماء الجميع الذين رقدوا على ظهورهم مع تلك الأحلام حتى جن الليل وقد احترقت وجوهنا واصبحت جلودنا جافة والبعض ظهرت به تشققات وأثار دماء بنية اللون متجمدة نظرا لكثافة الدماء.. أثناء تلك الفترة لم نتذكر الله سوى بالدعاء ولم يفكر أحد منا بالصلاة والتضرع للخالق القادر على كل شيء.

ودعتنا الشمس بحرارتها الملتهبة لتسلمنا إلى نسيم الليل الرطب فى أوله .. شديد البرودة فى منتصفه .. كان الألم هو رفيقنا ليلاً أو نهاراً .. بالنهار نطلب أن يجن الليل وبالليل نطلب أن ياتى النهار لنهرب من لسعات البرد القاسي وقد من الله على عباده بذلك فلولا برودة الليل لتقطعت جلودنا من الشمس القاتلة ولولا النهار ما أنقذنا الله من البرودة القاتلة أيضا .. كان النوم اقرب إلى نفوسنا كما

أصاب البعض منا بعض حالات الهستيريا واللوثة الخفيفة حيث كنت أسمع لهذيان بعض كأنه يحدث زوجته وأبناءه والبعض يبكى وما لبكاء الرجل من صوت مُرعب لا استطيع أن أصفه، رجلٌ يشعر أنه هالك وقد اقترب موعد نهايته وينتظر الدقائق ليلقى حتفه أما عطشا أو على ايدى أعدائنا.

بعض الجنود راودتهم فكرة أن نسلم أنفسنا أسرى لليهود كى ننجى بأنفسنا بدلا من هذا الهلاك المحقق وكنت من اشد الناس معارضة لهذا لما درسته من أساليب الإذلال التي يمارسها العدو ومن هم اليهود أولئك الذين لا يحترمون المواثيق كما أن الجنود الاحتياط كانت لهم تجربة مريرة خلال حرب عام ١٩٥٦ ويعرفون ما حدث لإخوانهم من ذل بعد الأسر بل أن البعض قتل أثناء توجهه ليسلم نفسه .. تراجع الجنود عن تلك الفكرة الشيطانية وقد وصلنا إلى قرار طوعي أنه لا استسلام إلا مجبرين وأن الموت عطشا وجوعا أهون على النفس من أن نذهب لعدونا كى يفرغ فى أجسادنا الرصاص الغادر.

جاء صباح اليوم الرابع انسحاباً وعطشاً وإرهاقا وقد تأثر الصول عبد الراضي بدنيا وصحيا لكبر سنه فلم تساعده على النشاط فأصبح قليل الحركة واختفى صوته وكان لابد من قيادة .. توليتها مجبراً وأى قيادة تلك التى دون أى سلطة ودون إمكانيات .. واصلنا السير، نسير ساعة ونرقد تحت أشعة الشمس ساعتين وأصبح الجميع يطلب من الله أن تنتهي حياته فلا حياة بعد هذا العذاب.

قبيل الظهيرة وبجوار مرتفع صخري تحيط به الكثير من الصخور مختلفة الأحجام سمعنا صوتا لإنسان يقول: "بس .. بس .. أنت يا دفعه" توقفنا نجيل النظر .. عثرنا علي صاحب هذا الصوت .. توجهنا إليه .. لقد كان جنديا مصابا في كفيه وقدميه تحيط بهم الضمادات ويرقد في وضع الاشتباك خلف مدفعه الرشاش أسفل ظل شجرة شوك صغيرة .. وصلنا إليه، نظر إلينا مشيرا بأحد ذراعيه يستنجد بنا متسائلاً عن شربة ماء تروي عطشه .. اعتذرنا له فحاله من

حالنا .. سألته لماذا يحتل هذا المكان؟ أجاب: أثناء الانسحاب أصابت بعض دانات الدبابات المعادية قائد الفصيلة وبعض الجنود اللذين لاقوا ربهم .. وصلنا إلي هذا الموقع وحدد لي رقيب الفصيلة المهمة بأن أظل بهذا الموقع لمقاومة الأعداء ومضي عليّ ثلاثة أيام وأنا بهذا المكان ولم أشاهد الأعداء أو رقيب الفصيلة الذي أصطحب باقي زملائي لتوزيع المهام عليهم خلف تلك الصخور.

طيبت من خاطره وعرضت عليه صحبتنا إلي خط الدفاع الثاني، رفض أن يبرح موقعه انتظارا للقاء العدو ، استفسرت منه هل مشكلتك تنحصر فى الجوع والعطش أم أنه يخشي الذئاب والضباع مع الوحدة، نفي هذا وقال أنه بالأمس كاد أن يقتله ثعبان ضخم .. ثم عرض روايته:

كنت متخذا هذا الوضع مستعدا لفتح النيران والشمس عمودية فأثرت عليّ فهاجمني النوم ولم أشعر إلا وأنا مستلق علي ظهري، شعرت بأن شيئا يتحرك أسفل ظهري، لم أبال وبعد قليل شعرت بثعبان ضخم التف حول رقبتي وبدأ يقبض عضلات جسده وشعرت بأن عظام رقبتي سوف تتحطم ومن شدة الألم صرخت قائلاً يا رب ، بعد تلك الكلمة ترك الثعبان رقبتي فارا بعيدا عني واستطعت أن أشاهده ، لقد كان ثعبانا ضخما ولونه أصفر وقطر جسده يماثل قطر ذراع الرجل.

تبادلنا النظرات إعجابا بهذا الشجاع الذي صمم علي البقاء تنفيذا لتعليمات رقيب الفصيلة، ودعناه عاد بعدها ينادي عليّ "ح الظابط" : طلب صغير، لو وصلت مصر بالسلامة إقرالي الفتحة في مسجد أم هاشم .. مدد يا ست .. وعرفني بإسمه وببلدته وإسمها فرشوط ولكني نسيت اسمه.

تركنا هذا البطل الشجاع وما زلنا نسير ، شاهدنا بعيدا وبجوار الطريق غراب الماء"وهو عبارة عن ماسورة طويلة على شكل رقم (٦) وبالمنتصف محبس وفى النهاية خرطوم يساعد على توزيع المياه وخط المواسير هذا يستقبل المياه من مدينة الإسماعيلية ومخصص إلى القوات فى سيناء .. أسرعنا جميعا إليه وكلنا

أمل بأن يمن الله علينا بشربة ماء هنيه، لم يستطع عبدالراضى اللحاق بنا، طلبت منه السير على قدر إمكانياته وسوف أرسل إليه بالمياه .. اقتربنا من غراب المياه وشاهدنا ما لم يكن يخطر ببالنا .. عدد من الجنود المصريين قتلى حول منطقة الغراب والرائحة تزكم الأنوف .. لقد انتفخت الأجساد ورائحة التحلل تصاعدت منها، سمعنا صوت أنين لأحد الجنود المصابين الذى مازال علي قيد الحياة .. أسرعنا إليه نحاول أن نرفع من معنوياته، نظر إلينا مستغيثا "ميه .. ميه .. حاموت وعايز اشرب .. حد يبل ريقي بنقطة ميه" ، نظر بعضنا إلى بعض لدرجة ان أحد الجنود بكى من توسل هذا المسكين الذي كان فى النزع الأخير، وعده البعض باننا سوف نبحث عن مياه ونحضرها له وعلمنا منه أن الدبابات الإسرائيلية هاجمتهم عندما عثرت عليهم فى اتجاه غراب المياه لغرض الشرب "يواصل حديثه" مع أن الغراب ليس به ماء لأن المسئولين فى الجبهة الشرقية بالإسماعيلية منعوا المياه حتى لا يستفيد بها العدو .. يضحك وهو فى النفس الأخير قائلاً: يمكن القيادة عارفه أن المصريين مش بيشربوا المية وأن اليهود حيحتاسوا من غير ميتنا .. يعيد نداءه نقطة ميه .. نق .... فارق الحياة بعد أن ظل مصابا لمدة ثلاثة أيام دون أن ينقذه أحد، لقد أرسلنا الله له لكى نقوم بدفن هؤلاء الجنود الذي تعدى عددهم الخمسون شخصا وقد دميت أصابعنا من حفر مقابر لهم .. وكما قال احد الجنود لو ربنا أنقذنا حنشتغل "حانوتيه".

أسدل الليل ستاره وجاء الظلام بوحشته وبرودته وها نحن قد أكملنا يومنا الرابع دون شربة ماء إلا من بعض جرعات مياه فاسدة من راديتير اللوري وقد أصبحنا نعانى من بعض آلام و جروح غير نافذة وتهتك بعض جلود الوجه كما أصبح تفكيرنا فى أجازة ولا نستطيع أن نفكر فى أي شيء وتلونا جميعا الشهادة بدعاء من الله أن نجد أحدا يقوم علي دفن أجسادنا مثل ما قمنا بدفن أجساد بعض الشهداء أمس واليوم.

كنت اجلس قريبا من بعض الجنود وانظر إليهم بدهشة متسائلاً: من يكونون هؤلاء القوم؟ .. ومن أنا؟ .. وما هو اسمي؟ .. وماذا افعل فى هذا المكان؟ .. شعرت بأن سقفا بأعلى الرأس قد سقط مثل حالة الغيبوبة المفاجئة التى تصيب الإنسان أو حالات التيه اللحظية التى تصيب بعض الصائمين فى شهر رمضان .. لكن حالتنا كانت تتعدى الأربع أو الخمس ساعات حيث نجلس ساكنين دون حركة والشمس مسلطة على رؤوسنا تلهبها ونغمض عيوننا لنريحها من الضوء المبهر الناتج من انعكاس أشعة الشمس على الرمال الناعمة ولدغات الذباب المستمرة والتي كانت تؤلمنا ولم نستطع مقاومتها لعدم المقدرة علي التفكير وكل ما نقوم به هو النفخ مثل الحيوان أو هز الرأس .. لم ينتبه أحد منا إلا حينما نسمع صوت طائرة أو صوت بكاء أحد الجنود صارخا من آلام يشعر بها ونحن مازلنا فى وضعنا ننظر إليه دون ان نقدم له أى مساعدة .. أحد المرات سمعنا صرخة مؤلمة لأحد الجنود يتلوى وكأن شيئا أصابه بظهره من حركاته .. أسرع البعض إليه حيث كان يتلوى أمامنا ولا نستطيع السؤال لعدم قدرتنا على الحديث والجندى لا يستطيع شرح ما به وأشار إلى ظهره .. اتجهنا الى ظهره ورفعنا السلاح الموضوع على ظهورنا بطريقة متقاطعة حتى لا نفقده أو يضيع منا .. رفع احدنا قميص الافرول وكانت دهشتنا .. لقد شاهدت علامة حمراء منتفخة على ظهره وتبين أنها من اكتساب كتلة الحديد بالبندقية الكلاشنكوف للحرارة وبثها ثانية على ظهره فالتهبت كأن مكواة ساخنة سقطت على ظهره وكان السبب الرئيسي لما حدث له بخلاف الباقين أن فانلته الداخلية مهلهلة ومقطوعة من فرط القدم وبظهره مساحة فى حجم طبق الطعام لا تغطيها الفانلة .. أسرع البعض بالحفر فى الرمال حتى وصلوا إلى الطبقة الرطبة واحضروا رمالاً رطبة ووضعوها على ظهره، كان يحدث هذا فى درجة الحرارة الملتهبة .. استمروا على هذا حوالي ربع ساعة .. كل

عدة دقائق يحضرون رمال رطبة وتوضع على ظهره حتى شعر بالراحة وأزالت بعضا من هذا الالتهاب الذي شاهدناه .

قضينا ليلتنا بجوار هؤلاء الشهداء ليسُ حبا فيهم ولكن لعدم مقدرتنا علي أن نستكمل المسير خاصة أن النظر إلى أجساد الشهداء كان مؤلما سواء لمن أكلت الطيور الجارحة عيناه أو لمن قضمت الضواري من الذئاب والضباع أنفه وأذنه وأجزاء من الوجه بالإضافة إلي باقي أجزاء الجسم.

بعد منتصف الليل شاهدنا ضوءا لسيارة مسرعة وسرعان ما سمعنا انفجاراً مكتوماً فأسرعنا بالجرى فى اتجاه تلك السيارة المتواجدة على الطريق .. كان منظر وجوهنا يخيف أى شخص يرانا اما بالنسبة لنا فنحن نرى بعضنا يوميا ونرى الهلاك النامي لأجسادنا وإشكالنا .. وصلنا إلى الطريق الاسفلت وكانت المسافة بيننا وبين السيارة لا تقل عن خمسمائة متر .. كان صوت الأحذية البياده المزودة بحدوة حديد مثل حدوه الخيل يحدث صوتا شديدا إثناء سكون الليل .. لكن المشاهد للسيارة انها سيارة إسعاف إسرائيلية .. وقد انفجرت احدى عجلاتها وأراد سائقها أن يستبدل العجلة فسمع بهذا الضجيج من البشر فخاف وأسرع مبتعدا عنها حيث كان وحيداً .. هاجم الجنود السيارة فى الظلام وكنت قريبا منها فشاهدتها تتأرجح حيث كنت اسمع اصواتاً وعراكاً بالداخل والظلام حالك وسباب من كل نوع بل أشاهد أحد الجنود وقد قذفه زملائه من داخل السيارة لخارجها بعد أن حصل على عدة لكمات وتبعه آخر ، ورغم هذا كان آخرين يقتحمونها بالإضافة إلى من بالداخل .. هرج ومرج وأصوات عالية وأصوات تكسير زجاجات وصراخ وما زالت السيارة تتأرجح يمينا ويسار بقوة من كثرة ما بها ومما يحدث بداخلها .. لم يتركوا شيئا إلا وعبثوا به وانا اصرخ بهم "عربية إسعاف .. مافيهاش حاجة تنفع ويمكن تلاقوا حاجة تضر" ولكن الجميع معذورون ولم ينصت أحد لحديثى، جاءت روائح الأدوية والمطهرات وأشياء لا اعرفها لان كل هذا تم فى

الظلام ولكن المعاين لتلك الليلة أن أحد الجنود أطلق صرخة وارتمى على أرضية الطريق وفارق الحياة وأسرعنا حوله وكل يسأل الآخر عن السبب ولا نعرف سوى أنه شرب زجاجة اعتقد أن بها ماء أو عصير وكانت رائحة فمه تنبعث منها رائحة مبيد حشري .. كان من يحدثني قد غطى فمه ووجهه بشيء ما وعلمت منه انه عثر على علبة بها شيء مثل الزبادي فأكله وتبين لنا انه تناول كريم مضاد للحروق وشعر بعد ذلك بألم وتعب فى البلعوم من اثر تلك المادة وآخرون كسروا انبولات الحقن وشربوها .. لكن النتيجة وفاة جندى على الفور.

مازال الجنود فى سيارة الإسعاف والبعض جلس قريبا منها لأنهم لا يستطيعون المناطحة والحصول على بعض الجرعات التى يحصل عليها زملائهم.. شاهدت الجنود مغادرين سيارة الإسعاف وحالتهم مزرية من الإرهاق وألوان الأدوية التى سقطت عليهم.

أثناء وقوفى بالقرب من السيارة شاهدت شيء لامع فخشيت أن يكون ذئباً، اتجهت نحوه بحذر لكن المفاجأة أنه ليس ذئبا بل كان سائق سيارة الإسعاف، شاهدني وشاهدته حيث كان جالسا مكورا جسده يرتدي

علي رأسه الطاقية الخاصة باليهود ونظارة قراءة، أشار إليّ باكيا وتحدث باللغة الإنجليزية قائلاً :

Please .. Do not fire the bullets Gin .. Have mercy on me .. I am single and my parents .. I'm from Ireland and studying medicine and sent us here .. I am not an enemy to you .. Please considered me a friend of yours.

لا تطلق النيران عليّ .. أنا من إيرلندا .. أدرس الطب بجامعة دبلن .. ووحيد والداى .. أنا لست عدوا لك .. إعتبرني صديقا لك" ثم بكى، شعرت بأنه أنا وأنا هو ، لقد كان في مثل عمري نحيف البدن، يستكمل حديثه : لقد طُلب منه مثل

جميع الشباب اليهودي باوربا بأن يتجه لإسرائيل للدفاع عنها ضد الهمج العرب والمسلمين وسوف يحصل علي بركة الحاخام .. "

Please handed me the gun safe and do not move and do not appear or occur any votes is watching so as not to kill my soldiers, and in the case

حدثته قائلا " أرجوك ناولني خزنة المسدس ولا تتحرك ولا تظهر أو تحدث أى أصوات حتي لا يشاهدك جنودي ويقتلونك في الحال " أفرغت خزنة المسدس وألقيت بالخزنة بعيدا ووضعت بعض الرمال بفم المسدس وناولتها له فشكرنى، ومنذ وقوع هذا الحدث وعندما أتذكره أندهش لما دار بينى وبين هذا الجندى حيث جلست على ركبتاى قريبا منه أهدهد على ظهره كى أعطيه الأمان وكأننا أصدقاء ولسنا أعداء، كنت أستعيد الماضى عندما يتعارك الكبار بسبب مشاحنات الأطفال وخلال هذا التعارك يعود الأطفال للعب معا، كانت قلوبنا مازلت بيضاء.

اليوم الخامس

جمعنا بعض الصخور وقمنا بدفن الجندي المتوفى بجوار الطريق الأوسط وانبلج ضوء الفجر فشاهدنا جبلا بجوارنا لا نعرف لم نكن نعرف إسمه وكنا فى سباق مع الزمن للعمل على الإختفاء ثناياه خوفا من أن تشاهدنا قوات العدو، المهم ان نعمل علي الاختباء من أى هجمة إسرائيلية.

ظهر نور الصباح عن يوم جديد فى معاناتنا اليومية .. فهذا هو اليوم الخامس منذ انسحابنا وحرماننا من الماء والطعام كما انه اليوم السابع للإرهاق المتواصل من عمليات الخامس من يونيو، وصلنا إلى داخل فتحة بهذا الجبل مجهول الهوية بالنسبة لنا، تلك كانت المرة الأولى التى أشاهده كما اننى لم أكن مزوداً بخريطة ومازلنا نسير كما ساءت حالة المساعد عبد الراضى الصحية وقد امتنع عن الكلام وقلت مقدرته علي الحركة وتساوى معنا فى العطش الشديد الذي دخل يومه الخامس دون أن نجد أى حل لتلك المشكلة كما كان للأحداث التى تمت أمامه بعربة الإسعاف الأثر السيء وهو الرجل كبير السن الذى كان ينظر إلينا كأبنائه أو اخوته الصغار حيث كان عطوفا على الجميع راغبا في مساعدتنا بإحساس منه بأننا اقل منه تحملاً وجلداً وخبرة.

من احدى ثنايا الجبل دخلنا فيه وبالتالى ابتعدنا عن أنظار العدو البرى لكن الطائرات كانت كاشفة لكل شيء امامها وكنا نحمد الله أننا لا نشاهدها كثيرا خاصة بعد موقعة أمس الاول والتى هاجمتنا فيها الطائرة الهليكوبتر دون أن تصيبنا وأعتقد أن هجومها كان بغرض إدخال الرعب والخوف إلي قلوبنا .. كان واضحا أن بعض الجنود مازالوا متأثرين مما حدث فجر هذا اليوم بالهجوم على سيارة الإسعاف الإسرائيلية .. لقد قضى أحدهم نحبه لكن الملاحظ أن اثنان أو ثلاث جنود آخرين يعانون من اثر ذلك ولم يساعدهم أحد أو يمد لهم يد المساعدة حتى ولو بالكلمة لأن الجميع لا يستطيعون تقديم هذا الدعم البسيط، لقد بلغت

القلوب الحناجر .. كنت أشاهد الجنود وأتحسس بشرتي وأقول فى نفسي: تري هل الإنسان قوى أم أن الله قوى من عزيمتنا كى نتحمل تلك المصاعب التى واجهتنا حتى الآن .. وعندما تذكرت شهر رمضان وما يعانيه الصائم من عطش لفترة لا تزيد عن أربعة عشر ساعة ولحظة آذان المغرب يندفع إلى الشراب ليروى ظمأه وبعدها يشعر أنه قد ردت إليه روحه وحياته .. من أجل هذا التمست العذر لهؤلاء الجنود البسطاء الذين يعتقدون أن أى سائل أو أى شيء يسيل ويحدث صوتا حين رج لزجاجة هو ماء أو شراب مفيد ولا يفكرون فى حياتهم العادية ولا يدركون أن هناك تشابها بين الماء مع أدوية شديدة وقاتلة ونحن ليس لدينا العلم والخبرة لتساعدنا على كشف ذلك.

بداخل الممر الجبلى سقط ثلاثة جنود آخرين تباعا على الأرض احدهم فى النزع الأخير والآخران مازالا يشعران بألم شديد فى أمعائهم .. وقفنا ننظر إليهم بلا مبالاة بل جلس بعضنا بجوارهم وهم يطلبون منا العون ويصرخون بأصوات اقرب منها إلى الهمس فلا قدرة على إخراج صوت كامل ونحن بجوارهم أيضا وكل ما أشاهده امامى عيون صغيرة متحجرة وشفاها ممزقة بدون دماء وذباب يدخل الأنف والعين والفم دون أن يكون لدي أي جندي القدرة كي يبعد هذا الشيء المؤلم؛ كانت حالة رهيبة قابلتنا من الاستسلام الكامل لاستقبال الموت لا محالة.

توالى وفاة الجنود الثلاث وكنت راغبا فى معرفة أسباب الوفاة لكننى لا استطيع السؤال نظرا لما انا عليه من خوار القوى كما أن باقى الجنود إذا نظرت إلى أى أحد منهم فسوف تشعر أنه على شفا الموت .. كل ما استطعت فعله هو الزحف إلى مكان نوم الجندى أرضا بعد أن فارق الحياة ولم يعد أحد منا مستعدا لدفنه .. أحد الجنود شاهدت آثار لون احمر حول فمه واعتقد أنه عثر على زجاجة ميكروكروم فشربه وآخر شاهدت لون ازرق لامع لم اعرف ماهو ولكن المساعد عبد الراضي اخبرني بأنها مادة تسمى"جنتيانا" وهى شبيهة بالميكركروم

والأخر لم اعرف سبب وفاته ويعتقد أنه تناول زجاجة فيتامين أو أى شيء من مثل تلك الأنواع.

كنا جلوسا هكذا متفرقين وعلى مسافات بعيدة نسبيا والبعض اخلد لنوم متقطع لكن الجميع اصابهم اليأس والقنوط والإحباط بالإضافة الى عدم المقدرة على الحركة أو التحدث حتى السمع قلت كفاءته .. شاهدت أحد الجنود يقف مترنحا كأنه سكير ويسير بصعوبة بالغة على غير هدى ممسكا بكعب الزمزميه المصنوعة من البلاستيك ويدور على زملائه طالبا منهم أن "يتبولوا" له بعضا من بولهم .. البعض لا يجيب عليه أو لا يسمعه والبعض يستنكر هذا متعللين بأنهم أحوج إلى بولهم بدلا من أن يحصل هو عليه ويستفيد منه والآخرون يوضحون له بأنه لا بول لديهم فهم لم يشربوا ماء منذ عدة أيام .. كان منظراً فريداً وصلنا إليه نحن الجنود بعد هذا العناء الشديد من العطش وارتفاع درجة الحرارة حتى أن رائحة وملمس الافرولات التى نرتديها كانت محترقة كأن كواء قام بكيها الآن .. الملمس جاف وكأن به نشا ورائحته مع الشمس تعطيك الشعور بتلك الحرارة المرتفعة.

تحدثت بصوت اقرب إلى الهمس قائلاً: يجب علينا الاستمرار ووضعنا هذا فيه خطر علينا .. سنموت عطشاً .. خلف تلك الجبال مدينة الإسماعيلية وبها المياه والطعام .. فهيا نتحرك .. نظر غالبية الجنود إلىّ عندما سمعوا منى هذا الحديث ولم أكن اكذب وكان هذا اعتقادى .. قال أحدهم نريد التأكد بأن خلف هذا الجبل مدينة الإسماعيلية ومزروعات وحياة وماء .."ميه يا أما.. هيء هيء .."وانخرط الجندي فى دور بكاء مؤلم .. قلت لى نتأكد.. فليصعد احدنا إلى قمة الجبل ليرى ويشاهد .. لم يتحرك أحد.. فأعدت رجائي .. لم يتحركوا وتكلم أحدهم وأشار إلىّ .. "بصيغة آمرة" اطلع أنت .. ما أنت الظابط بتاعنا .. روح وشوف وتعالى قلنا .. مش بتدى أوامر على طول .. كان القرار صعباً فإذا

رفضت لن نحصل على أية معلومات وسيتكاسلون وسينامون فى تلك المنطقة حتى يلفظوا أنفاسهم الأخيرة .. كنت لا اخشي من تهور وإعتداء أى جندى على شخصي حيث كان الجميع خائر القوى .. أجبتهم سوف اصعد ولكن على شرط أن تقوموا بدفن زملائكم الثلاثة .. تشجعوا هكذا سنعمل وسنتحرك ولكن الصول عبد الراضي سألني وهو غير قادر على إتمام جملته .. ازاى حتطلع وأيدك فيها الجرح الكبير ده .. أنت لازم أيدك ورجلك يكونوا سلام .. تسلق الجبال عايز كده وأنت مش معاك حبل ولا حاجه .. ده خطر عليك .. نظر إليه احد الجنود بضيق قائلاً: خليك محضر خير .. ح الظابط ح يروح ويشوف إيه فوق الجبل.

هكذا صدر الحكم على بالإجماع بان أتسلق الجبل لأعرف ما خلفه .. كان هناك شيئين اجهلهما .. الأول اننى كنت اعتقد بان الجبل مثل الحائط بمجرد أن أصل إلى القمة فسوف أشاهد ما خلفه وهذا اعتقاد خاطئ ومخالف للواقع .. الثانى هو تقدير قمة ارتفاع الجبل .. فكنت انظر من أسفل واعتقد أن ارتفاعه ليس كبيراً وقد ثبت خطأ هذا التقدير.. وهكذا قررت صعود الجبل وخلفي نقطتين خطأ بالإضافة الى توقعي الأول من أن خلف هذا الجبل تقع مدينة الإسماعيلية .. تجمعت أخطاء ثلاث ضدى منذ البداية.

لم يكن رافضا تلك المهمة سوى الصول عبدالراضى الذي شاهد ما ألم بيدى من جرح غائر أثر على قدرتي فى الإمساك بأى شيء .. تخيرت أقل منطقة بها ارتفاع على أن تكون ذات ميول كى تساعدني على التسلق وبدأت تلك العملية وبعد ربع ساعة تقريبا نظرت إلى الأسفل فشعرت أننى قطعت مسافة وقد دفعني هذا إلى التسلق أكثر حيث قطعت مسافة معقولة ورغم أن الجنود لم يقوموا بتشجيعى ليس ضيقا منهم ولكن لسوء حالتهم وعدم مقدرتهم على إخراج أى أصوات إلا بصعوبة شديدة .. كل فترة زمنية أتوقف وانظر ألى أسفل وشعرت اننى قطعت مسافة كبيرة لصغر حجم الجنود وفى نفس الوقت انظر لأعلى لأرى

ما المسافة المتبقية حتى أصل لقمة هذا الجبل .. لم استطع بالطبع تحديد تلك القمة ولم أشاهدها لاننى كنت ملتصقا بجانب الجبل وبالتالي ليس امامى أية مساحة رؤيا تساعدني على تحديد المسافة المتبقية خاصة أن قواي ضعفت وقوة الدفع الأولى تخلت عنى ولم اقترب من الهدف كما شعرت به الألم من جرح يدى كأنه سكين يقطع فى كف اليد، هكذا دخلت دوامة صعبة للغاية فلا انا قادر على أن أكمل المهمة التى تسلقت من اجلها ولا أنا قادر على أن أعود من حيث بدأت لأن الهبوط هو الآخر يحتاج إلي مجهود ولا يوجد أحد يستطيع تقديم يد العون لي، من أجل هذا كانت الاختيارات امامى صعبة للغاية والأهم من هذا وذاك هو ضآلة التفكير حيث العقل لم يسعفني فى الحل الأمثل والأجدى فى مثل تلك الأحوال.

التصقت بعض الوقت بصدر الجبل استعيد انفاسى وعافيتي وثقل جسدى محمل على ذراعاىّ وقدماىّ وشعرت أنهما تهتزان لطول فترة التعلق وخشيت أن اهوي من هذا الارتفاع وهذا معناه هلاكي .. استعنت بالله وأستكملت صعودى وها انا سوف أصل إلى قمة الجبل وبدا الهواء يلفح يداي ثم وجهي حيث أن الجرف بداخل الجبل شديد الحرارة نظراً لعدم وجود تيارات هوائية به ولذا فإن درجة الحرارة به كانت مرتفعة، كل هذه العوامل جعلت المنطقة أسفل الجبل والتى يجلس بها الجنود مثل البوتقة المنصهرة رغم تعرضنا فى الأيام الخمسة خلال الانسحاب لدرجة حرارة مرتفعة إلا ان وجودنا فى مناطق مفتوحة يشعرنا فى بعض الأحيان بنسمات هواء جافة وليست رطبة ولكنها أحسن حالاً من داخل الجبل.

الحمد لله .. وصلت إلى قمة الجبل والتىُ كنت انظر إليها من أسفل ولكنني لم أجدها قمة، كان على أن أتسلق عدة أمتار أخرى حتى أصل إلى الارتفاع الذي أشاهده امامى وكانت المساحة المضافة أسهل مما تسلقته حيث انها كانت مائلة بدلا من المساحة السابقة التى كانت اقرب ما تكون للحائط المتعرج ..

واصلت تسلقي يعتريني شعور بالثقة وانني قد اقتربت من نهاية الطريق الصعب وامني نفسي بانني سوف أشاهد الإسماعيلية أو أشاهد الناس وارى المزروعات والخضرة في كل مكان وقد تدافعت الأحلام في ذهني حيث سأطلب من أول شخص أشاهدة كمية من المياه واحضرها لهؤلاء المساكين وانزلها إليهم بحبل كى يرتوي الجميع ثم بعد هذا احضر كميات من أشهى الطعام بل فكرت بان احضر لهم بطيخا ..آه على البطيخ الرطب وما به من مياه وحلاوه ستنعشهم وسيفرحون بها ويشعرون أن هذا الضابط الصغير والذى لا يأبهون به إنما هو قائد صغير وممتاز وما العيب فى اننى صغير السن، كل إنسان يبدأ صغيراً ومع مرور الأيام يكبر وينمو ولكن القيادة عنصر هام والتاريخ القديم مليء بمثل هؤلاء القادة العظام والذين كانوا فى مثل عمرى .. الملك العظيم توت عنخ آمون والقائد اليوناني الاسكندر الأكبر .. جميعهم كانوا صغاراً ولكنهم بعد آلاف السنيين مازالت كتب التاريخ تذكرهم وتذكر أمجادهم .. فسوف انضم لهؤلاء!! .. مازلت أتسلق الجبل مثل السلحفاه .. من حين لآخر تعاودني مشاعرى الفياضة بالنجاح وأثناء تلك المشاعر هبت نسمة هواء شديدة فنظرت امامى حيث كنت أثناء تلك الأفكار السعيدة والأحلام الهانئة انظر بين يدى وانا أبدل على تلك الصخور القاسية الملتهبة.

نظرت امامى وانا فى هذا الوضع حيث كنت اجلس على أربع مثل الأنعام أو الحيوانات ذات الأربع لأكحل عيناى بمدينة الإسماعيلية أو أى قرية بجوارها ولكن هيهات ولا استطيع أن اصف بالتحديد المنطقة التى شاهدتها ورأيتها بعد كل تلك الأحلام ومن شدة ما شاهدته انكفأت على وجهي أرضا فوق الصخور المشتعلة دون نار والقاسية مثل قطع من الحديد الساخن وكل وجهي بين يدى وانا ابكي دون صوت أو دموع لكني بكيت داخل نفسي وبمشاعرى وبتشنجات عصبية كنت اشعر خلالها أن جسدي يهتز من فرط الإنفعال .. فردت ذراعي للأمام وساقي

للخلف وكاننى أنام على وسادة من ريش النعام وانا بهذا الوضع واستسلمت لقدرى المحتوم بعد أن قمت وفعلت كل ما استطيع ولم ابخل على نفسي وحياتي ولم اركن وأنام حتى يأتيني الإنقاذ .. الآن مضت خمسة أيام بالتمام ولم يدخل أى شيء جوفنا ويقولون أن الإنسان يستطيع تحمل تلك الفترة .. لكن فى تلك الحرارة المرتفعة والخوف من العدو يصبح الحال شيء آخر .. أن كل شيء حولنا ضدنا ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئا وكل ما معي من جنود مساكين وقدراتهم الصحية والعلمية بسيطة وقد جبلوا منذ نعومة إظفارهم على أنهم تابعون وليسوا قادة ولذا فهم دائما فى انتظار الأمر لتنفيذه ولا يستطيعون الابتكار أو التفكير فى أى مشكلة .. وهكذا أصبح كل من معي عاجز عن امدادى بأى شيء ذي نفع فيما نقابله من مشاكل عويصة .. كما اننى جاهل بكل ما يتعلق بطبوغرافية تلك المنطقة ودروبها ومسالكها وقد أكون بالطريق الخطأ ولكنني أصبحت مثل جنودي الذين إعتادوا لأن يوجهوا أو بالأحرى نحن نقاد من الطبيعة حيث أسير على خطاها مبتعداً عن العدو .. هذا هو كل اختياري حسب مقدرتي وطاقتي العملية.

اسمع اصواتا من أسفل تسألني عما أشاهد وارى .. واصواتا أخرى تستنكر فعلتي وبأنني وجدت المن والسلوى وتركتهم بأسفل وقد غضب البعض مصححين بأنه كان من الواجب عليهم إرسال شخص أخر وقد قال قائل منهم ماذا لو لم يعد الضابط .. كيف سنسير ونستكمل مشوارنا وأجابه آخر بأن نفعل مثله ونصعد الجبل ولكن الصول عبدالراضى اعترض على ذلك وأنه من الصعب فعل هذا وكان يعتقد بأن الضابط هالك لا محالة ولكن الله سترها معه وليس في كل مرة تسلم الجرة وقد خنع الجميع الغير قادرين على استخراج أصواتهم من أفواههم أو حناجرهم.

كنت اسمع كل هذا رغم خفوت أصواتهم حيث كان الهدوء التام والتى تشاركنا فيه الطبيعة لإشعارنا بالحزن والألم ونحن ننتظر الموت بعد عذاب تلك الأيام

الخمسة وكأنه كتب علينا ألا نقابل الله إلا بعد أن نسدد للدنيا فاتورة أخطائنا رغم إننا جميعا كنا صغار العمر ولم نصل إلى مراحل البغي والظلم الذي يقوم بها بنو آدم فى الحياة.

أفقت من محنتي وانا أحاول أن أعيد الاتزان إلى عقلي والذى كنت اشعر بأنه قد أصبح أجوفا ولا يستطيع تذكر بعض ما مر بى من مواقف أثناء حياتي بل وصل بى الأمر إذا فكرت فى عائلتي واخوتى فأجدني قد نسيت بعض أسمائهم .. ولهذا انتابتني حالة من فقدان الثقة فيما افكر أو اقترحه بأنه سليم .. بل تأكد لى أننى مخطئ والدليل علي ذلك بأن فكرت بان خلف هذا الجبل تقع الإسماعيلية .. فما الذي دفعني لقول هذا وبناء خطتي عليه .. نظرت امامى فوجدت مساحة منبسطة من الأرض وفى نفس مستوى الأرض أسفل الجبل أى اننى لابد ان اهبط إليها إذا أردت ولكن تلك الأرض كانت قاحلة وقليلة الرمال كثيرة الصخور وصخورها بين الأسود والأحمر وتمتد تلك المساحة إلى ما يزيد عن ثلاثة كيلومترات وتحيط بها الجبال من كل جانب ولا يوجد بها شيء من الحياة فلا أشجار ولا نخيل ولا إنسان؛ تحطمت كل افكارى التى كنت افكر بها والتي دفعتني للصعود لهذا المكان.

كانت الهوة شديدة بين ما كنت احلم به وما شاهدته ورايته فلقد تحطم كل شيء ولم استطع أن افكر ما هو الحل الأمثل .. تسمرت فى مكاني عدة دقائق حتى استطيع استيعاب الموقف ومازلت اسمع نداءات الجنود وهي نداءات حزينة بائسة خارج إطار اللياقة والعلاقة العسكرية يغلب عليها طابع الألفاظ البذيئة والساخرة، غالبت نفسي وأجبت عليهم باننى أشاهد جبلا على مسافة عدة كيلومترات واحتمال خلف هذا الجبل يكون أملنا فى العثور على مدينة الإسماعيلية أو مشاهدة بوادر حياة تعيد إلينا ما سلبته الطبيعة القاسية منا .. وقع هذا الخبر عليهم بكل ألم صارخ لم ينتج عنه أى شيء سوى السكون المطبق وسمعت

البعض منهم يتألم بإصدار الآهات والتنهدات الحزينة القاسية .. كنت أشاهد هذا الموقف من اعلي قمة الجبل وأنا مائلاً برأسي جهتهم وأتابعهم وهم يتحركون بإحجامهم الصغيرة لبعد المسافة بيني وبينهم وأثناء ذلك جاء غراب ينعق قريبا منى وكأن لسان حاله يخبرني بأنك وزملاءك ستصبحون طعاما لي ولزملائي على مدار الأيام القادمة ومن المتعارف عليه بين الناس في مصر أن نعيق الغراب نذير شؤم .. نظرت إليه وقد وصلتني رسالته وكان رد فعلها صعب علىّ جداً ولأول مرة فى حياتي افكر فى الانتحار، وقفت على حافة الجبل وانظر إلى أسفل وأشاهد الجنود مترنحين مثل السكارى ما بين جالس أو ممدد أرضا وأصبحنا كمن حكم عليهم بالإعدام عطشا وجوعا وينفذون هذا الحكم وما هى إلا مسألة وقت وكأن ذلك الوقت قد أزف واقبل وها نحن قد فقدنا أربعة منهم فى حادث سيارة الإسعاف وعبدالراضى على وشك أن يلفظ أنفاسه واحتمال أن يلحق بهم نفر آخر من هؤلاء الجنود .. إذن سأكون انا الآخر ضمنهم وأنهى حياتي بنفسي وكما يقول المثل العربي "بيدي لا بيد عمرو" .. أتممت كل الإجراءات والاستعدادات للقفز من هذا الارتفاع الشاهق وأغمضت عيني وبدا جسمي يترنح ليس بدافع منى ولكن بدافع الضعف والهزال الذى أصاب الجميع وانا فى هذا الوضع الذي سيصل بى بعد ثواني إلى الدار الآخرة وينهى كل ألالم والعذاب الذى أقاسى منه وإذ بى أتردد فى فكرة الانتحار.

ولماذا الإنتحار؟ وما بعد الإنتحار وكل هذا العذاب ثم أموت كافراً وأقابل ربى وانا عاص أمره وماذا يحدث لي وانا سابح فى الهواء إلى نهايتي المحتومة وأردت ان أعود فى قراري؟ لن يكون امامى أى خيارا لأن هذا السقوط أو الانتحار مثل طلقة القنبلة التى إذا خرجت لا تستطيع استعادتها وفكرت أيضا ماذا سأشعر به عند ارتطام جسدي بتلك الصخور الشديدة القوية والتى تشبه قطعا من الحديد الساخن الملتهب بفعل درجات الحرارة الساقطة عليها من أشعة الشمس لهذا الشهر

شـديد الحـرارة .. أفقـت واسـتغفرت وابتعـدت بسـرعة قبـل أن يسـبق السـيف العذل .. عدت لاهثاً بعيداً عن حافة السقوط من فوق الجبل وجلست استجمع انفاسى المتلاحقة وقد بلغ الظمأ بى أشده ومازلت جالسا تفعل بى أشعة الشمس فعلها وحرارة الصخور التي اجلس فوقها لا يستطيع الإنسان تحملها وما السبيل والحل لتفادى تلك الحرارة؟ هل سأظل طوال النهار واقفا كى لا اجلس فوق تلك الصخور المشتعلة .. كل شيء مشتعل نهاراً بارد ليلاً وهكذا وضعنا القدر بين هذين الفكين .. نهارٌ ساطع الرؤية شديد الحرارة وظلام ليلا دامس مع عدم الرؤية بارد قاسى وما بينهما فاصل كبير من عدم وجود شربة مياه أو قطرة واحدة لليوم الخامس على التوالي .. تنبهت على نعيق الغراب ثانية وقد هداه الله إلى ذلك حيث شعر هذا الطائر بان هذا الجسد النحيل الذي يتحرك بصعوبة هو فريسته تلك الليلة .. لقد اندهشت وانا أشاهد جرح يدى فلقد جف وأصبح مثل الحطب او الطين الصلصال الجاف ولهذا أصبح خشن الملمس مثل الأشواك فى يد الإنسان.

أسرعت الخطى يملؤني العزم بالعودة ثانية إلى رفاقي ولكن عند التنفيذ قابلتني مشكلة كبيرة وهى كيف سأهبط؟ انها مهمة صعبة للغاية وتذكرت الحكمة الهندية التى تقول"ان النمر كان يصطحب ابنه كل يوم ليعلمه الصيد وتسلق الأشجار وفى احدى المرات شعر النمر الصغير انه ليس فى حاجة لعون الأب وبعد أن صعد الإبن إلى الشجرة ومعه الفريسة التى حصل عليها طلب من والده أن يتركه فسأله الأب: أتستطيع أن تعتمد على نفسك؟ .. فاجابه الابن بكل ثقة: اننى اعتمد على نفسي دائما وأنا الذي دربت نفسي وأنت لم تعلمني شيئا .. غضب النمر الأب من جحود ابنه قائلا له ألم أعلمك أى شيء؟ .. نفى الابن أن الأب علمه اى شيء .. ضحك النمر الأب وقال: اننى لم أعلمك كيفية النزول من أعلى الشجرة وسأتركك لتلقى حتفك حيث لم تتعلم هذا وأرجو ان أشاهدك وأنت تهبط .. وعندما أراد النمر الصغير أن ينزل وجد الهبوط شديدة الصعوبة ونادي بصوت

عال على والده أن يحضر ليساعده ولكن الأب رفض نداءه ويكى الصغير ولكن الأب ظل واقفاً ومعه باقى أبناءه وهم يشاهدون الأخ العاق ماذا سيفعل وأخيرا نزل النمر الصغير ولكن كما يقول المثل على "جدور" رقبته حيث قتل من اثر سقوطه من فوق الشجرة .. هكذا تعلم أبناء النمر ليس المهارة فى الصعود إلى الشجرة أو التل لكن الأهم هو كيفية النزول.

دار كل هذا براسي الفارغ من عقله وذكائه وماذا افعل ليس لي أب ولا موجه سوى الله وإذا نزلت بنفس طريقة الصعود فلن استطيع أن أرى موضع قدمي، هداني الله الى أن اهبط ووجهي للخارج وظهري لبطن الجبل كى استطيع مشاهدة موضع قدمي .. تحركت للتنفيذ ومازلت أشاهد الموقف المأساوي من هذا الارتفاع الشاهق والذى لا استطيع تحديد ارتفاعه ولكنه لا يقل عن ارتفاع عمارة رمسيس أو برج القاهرة وهذا مبعثه حجم الجنود المتنامي فى الصغر بالنسبة لأحجامهم الطبيعية .. قطعت مسافة لا بأس بها وحادثتهم بصوت أجش كما هو متعارف بيننا منذ يومين .. البعض نظر إلىّ دون مبالاة والآخرون لم يكلفوا أنفسهم حتي النظر إلىّ وتحركوا سائرين وانا معلق فى الهواء وامامى نصف ساعة على أقل تقدير حتى أصل إلى الأرض وقد افزعني هذا وظللت ألح عليهم طالبا منهم الانتظار وعدم تركي هكذا دون جدوى.

أصبح قاع الجبل فارغا إلا من الجثث الثلاث التى دفنت بوضع الصخور عليها لعدم إمكانية الحفر فى تلك الصخور وعدم توفر أدوات حفر معهم .. هبطت إلى الأرض بصعوبة كبيرة وقد استمر هذا الهبوط حوالي الساعة على اقل تقدير .. نظرت حولي فلم أجد سواى وبعض الغربان التى جاءت تحاول الوصول إلى زملائنا المدفونين .. بل وصلت إليهم الطيور وتتقاتل على تلك الوليمة وافزعني كل هذا خاصة عندما كنت أنادى علي جنودي واسمع صدى صوتي فى بطن الجبل واصبحت حرارته مثل حلة فوق النار بدرجة لا تطاق.

تحركت لا ألوى على شيء ولا اعرف إلى أين أسير وشاهدت العديد من الدروب فى كل الاتجاهات وانا لا أدرى الى أى درب سلكوا ولكنى سرت فى اتجاه ما دون قصد وكل فتره ارفع صوتي على قدر استطاعتي واطلب منهم ان يخبروني أين هم دون مجيب .. صعدت عدة صخور وكأن الطبيعة نحتت فى هذا الجبل بتكوين سلم كبير، سقطت أرضا من فرط الإعياء ومن الجروح التى بظهري ويدى من اثر التسلق أو الهبوط حيث أدت ندوب الصخور إلى عمل حفر وجروح مابين المتوسطة والشديدة بجسدي ولم تكن تلك الجروح تؤلمني كثيراً ولم ينتج عنها نزيف لكن كل ما ظهر هو رشح دموي أو لون احمر غير ظاهر فوق الجلد من أسفله فقط .. سقطت أرضا على هذا السلم وانا انظر بعيني إلى أسفل هربا من شدة الضوء ويا لهول ما رأيت!!

كنت اعتقد انه سراب مثل الذي كنا نشاهده ولكنه كان حقيقة .. لقد شاهدت لمعانا فى داخل حفرة بالصخرة وهذه الحفرة ضيقة لا يزيد قطرها عن حجم القطعة المعدنية العادية أى اقل قليلاً من قطر ساعة اليد .. لم اصدق نفسي ووضعت اصبعى بداخلها لأتأكد من انها مياه وتأكد لى انها مياه ذات طعم جميل مثل باقى المياه .. لم اشعر إلا وانا اصرخ بأعلى صوتي .. لقيت ميه .. ميه .. اللى عايز يشرب .. ميه .. ميه .. يا عالم ميه .. الله اكبر ميه .. اللى سامعنى بأقول ميه .. والله ميه يا عالم ميه .. الله اكبر.. الله اكبر .. فجأة حدث صمت تام فقد ضاع صوتي الذي كان يتردد صداه .. بعد قليل سمعت اصواتا كأنها لقافلة من الحمير أو الخيل وأصوات طرقعة ودربكة وشاهدت الجنود قادمين مسرعين وكأنهم فى نهاية سباق الدورة الاوليمبية يتدافعون ناطحي الرؤوس دافعي الأجساد وكل يريد أن يصل إلى المياه حتى وصلوا إلىّ وهم مرهقون لاهثون وقد فقدوا آخر قطرة من الماء كانت ستعينهم على حياتهم .. دفعني احدهم بعيداً وهو قابض على رقبتي وكاد أن يخنقني متسائلا فين المية؟ .. فين المية يا ابن دين ..... وقد خيل

إليه اننى أهنتهم أو سخرت منهم أو شربت الماء بمفردي .. فلم يشاهد أحدا الماء معتقدين أنهم سيشاهدون بئرا ضخما من المياه .. تقدمت جهته دافعا إياه قائلاً : كلكم صف واحد لان كمية المياه بسيطة .. اما أنت فستعرف كيف تسبني بهذه الطريقة وقد اقتربنا من قيادة سلاح الحدود وسوف أسلمك لهم .. لم يكن هذا سوى نوع من الضغط والتخويف حتى يرتدع البعض وكنت ألتمس لهم الأعذار، رجاني ألا افعل هذا طالبا منى ان آخذ حقي منه سبابا ولعنا .. ولكنني رفضت وقبلت اعتذاره ووقفوا صاغرين لاهثين مثل ما نشاهد فى بعض الأحيان الكلاب فى عز الحر فاتحة أفواهها لاهثة ولسانها قد تدلى من فمها .. هكذا كنا بالإضافة الى اصفرار عام فى الوجه وخاصة العيون التى اقتربت ان تقفل والذباب يفعل بها ما يريد .. جلسوا خلف بعضهم البعض فى الصف وأخبرتهم ان الكميه بسيطة وسنتقاسمها فيما بيننا.

أصبحت المشكلة امامى مزدوجة .. أولا: ضيق الفتحة وكيف نستطيع الحصول على الماء منها وقطرها لا يزيد عن البوصة .. والمشكلة الثانية هى قلة المياه المتواجدة بها بالنسبة لجموع الجنود والذى وصل عددهم بعد وفاة أربعة الى الأربعة والعشرين فرداً .. اصطف الجميع سكونا واحتراما وليس خوفا بل وداعا للحياة وفقد الأمل في النجاة فأصبحت اللا مبالاة هى الطابع الغالب مع قلة الطاقة فلا قوة تدفعهم لعمل شيء كما انعدم التفكير فى إيجاد حل لأى مشكلة تافهة حتى إبعاد الذباب عن وجوههم وأعينهم أصبحت غير ذات بال.

هداني الله " لأن تفكيري كان مشلولاً مثل الآخرين" الى أن استخدم منديلي القماش وألفه مثل الحبل وأسقطه فى الحفرة وانا ممسك بالطرف الاخر.. وحتى تلك اللحظة لم أتذوق الماء إلا فى المرة الأولى لاختباره ليس شجاعة أو حبا فى جنودي ولكن لنفس ذات السبب، فقدان الأمل فى الحياة .. أول جندي وضعت المنديل فى فمه امتصه مثل الطفل .. وجذبته منه لأعيد الكرة ثانية مع آخر

وهكذا .. كانت رشفات قليلة واعتقد ان كل عصره منديل لا تزيد كمية المياه بها عن معلقة شربة من المياه ولكنها كانت ذات تأثير نفسي وعضوي عليهم حيث انتعشوا قليلاً وأحسوا بأن هناك أملا قادما بالحياة وبدون الأمال والأحلام تتحطم الأمم أمام أى ضغط او مشكلة ما .. فى منتصف تلك العملية شاهدت أشياء تتلوى وتتحرك بالمياه ولقد تبينتها .. انها ديدان ، توقفت برهة ماذا افعل؟ وسألني من عليه الدور بصوته الذي سمعته بصعوبة .. الميه خلصت؟ أجبته بأنها مازالت موجودة ولكن أشاهد بها بعض الديدان .. ابتسم بصعوبة قائلاً: لو فيها حنشان "ثعبان" حاشربها وهكذا أكملت الدورة حتى بقيت وأخذت حقي وقد اقتربت المياه من النفاذ فأعدت بعض جرعات للبعض خاصة الصول عبد الراضي الذي كان يعانى سكرات الموت طالبا مني توفير المياه لمن هم على قيد الحياة اما هو فذاهب للقاء ربه.

انه شيء مؤلم على النفس أن يجلس الإنسان بجوار زميل له فى الضراء التى نحن بها واحدهم يعانى سكرات الموت ونحن جلوس حوله لا نستطيع فعل أى شيء .. حتى الكلمة الطيبة لا نستطيع التحدث بها حيث كان هذا هو حالنا فبعد عدة ساعات أو صباح الباكر على أقصى تقدير سنلقى الله وكان البعض يفزعه أن يموت ولا يجد أحدا يدفنه وقد تلاحظ هذا فى الثلاثة الذين لقوا حتفهم أخيراً مما تناولوه من سيارة الإسعاف الإسرائيلية حيث دفنوا سطحيا وليس لهم حفرا تقيهم شر الضواري من الحيوانات المفترسة التى تخرج ليلاً لمثل تلك الحالات ومثل الطيور المفترسة من النسور الجبلية والغربان والحدايات.

تعدى الوقت منتصف النهار وألهبت صخور الجبل أجسادنا جميعا وكنا مازلنا على هذا الممر الذي عثرنا فيه على المياه وعلمت بعد ذلك انها مياه متجمعة من سيل حدث فى بداية الشهر الماضي أى قبل رفع حالة الطوارئ فى الجيش المصري وتجمعت فى تلك الصخور.

يوجد بتلك المنطقة جيوب فى جوف الجبل تسع الواحدة منها شخصا او أكثر، توجه البعض الى تلك الجيوب للراحة وهربا من شمس الصيف وحرارتها وحاولت ان أثنيهم عن هذا فأخبروني انه لفترة وبعد أن يتحسن الجو سيخرجون منها لنكمل مشوارنا ولكن ثبت لي بعد ذلك بأنها آخر مرة يشاهدون الناس وقد حدث معهم مثل ما حدث مع أهل الكهف بان دخلوا تلك الكهوف ليقابلوا الله بعد عدة ساعات وقد رواهم الله بقطرات من الماء قبل ان يقابلوه ويصحبهم الى جنة الخلد.

بعد هذا صعدت المرتفع الصخري حتى نهايته وكنت وحيداً حيث تفرق الشمل هربا من شدة الحرارة التى تعكسها علينا الصخور .. استطعت النزول مستخدما مقعدتي وارجلى للمرة الثانية وهبطت زحفا عليهما ووجهي للخارج حتى أتبين أين أضع قدمي مثل ما فعلته فى هبوطي قبل هذا من قمة الجبل .. وبعد جهد ووقت هبطت الى سطح الوادي الفاصل بين الجبلين والذى شاهدته منذ عدة ساعات من أعلي الجبل وأوحي إلي بفكرة الانتحار لأول مرة فى حياتي .. تحركت سيراً عدة أمتار وانا أشاهد هذا الوادي والذى اعتقد انه لا مثيل له على كوكب الأرض من الصخور رصاصية اللون والقاتمة، أدور حول نفسي أتفحص المكان فلا أجد أثرا لحياة فى تلك المنطقة ولن يكون وكيف تتكون حياة هنا فى تلك الصخور القاتمة .. أكثر من أربعة كيلومترات مربعة من الصخور السوداء والبنية والرصاصية اللون وقليل من الرمال.

شاهدتُ شجيرة لا ترتفع عن سطح الأرض بأكثر من ثمانين سنتيمترا فاقتربت منها ولكنها كانت شجرة شوك وشعرت اننى أقف فى صينية من النحاس فوق لهب بتلك المساحة الضخمة حيث ارتفاع درجة الحرارة والضوء الشديد، نزعت سترة افرولى ووضعتها فوق شجرة الشوك ونمت فى ظلها وتذكرت الجندي الذى كان يمر علينا مستعطفا أن نتبول له ليروى ظمأه

اعتقدت أن تلك المياه صالحة للشرب ولكنني تذكرت أيضا الجندي الذي اخبرني انه سيشرب مياه العين التى بها ديدان حتى لو كانت بها ثعابين .. لا يوجد لدى دافع للتبول وانا اعتقد أننا منذ أربعة أيام لم يتوفر لدي هذا الدافع للتبول وانا فى هذا الحوار شعرت باننى لدى الدافع للتبول فأسرعت وأحضرت كعب الزمزمية محاولا التبول .. اسعدني نجاح التجربة ونزول البول ببطيء وقد كساه اللون الأحمر أو البني الغامق .. أنهيت التبول وها انا مستعد لأحصل على جرعة ماء تزيد عن نصف الكوب العادى .. قربت الكوب من فمي ولكنني شعرت برائحة نفاذة شديدة دفعتني للقيء ولكن لم يتم هذا القيء .. أوكلت سبب ذلك الى ان البول مازال ساخنا ولو وضعته بجانبي فترة حتى يبرد سيكون حلو المذاق!!!!

كانت الآمال والأحلام تراودني فى اليقظة والمنام باني اسمع أصوات طرقعة بائع العرقسوس بصاجاته وهو ينادى على مشروبه الرائع المثلج "خمير ى متلج ، اشرب العرقسوس وطفي نار الصيف .. خمير يا عرقسوس" كنت أتلفت يمينا ويساراً لأبحث عنه فلقد سمعت هذا الصوت وعندما لا أجده اعتقد انه سيظهر من خلف احدى تلك الجبال أو الصخور ولازمني هذا الشعور والإحساس لقرابة أربعة أيام خلت واصبحت هاجسا شديدا يدور فى عقلي ولم استطع التخلص منه .. استلقيت على ظهري لأستريح واحصل على قسط من النوم وقد حجبت سترة الافرول ضؤ الشمس عن وجهي لكن حرارة الصخور أسفل جسدي خاصة ظهري مؤلمة وأن جزءاً من ذراعي وظهري عار سواء أمام الحرارة أو من الصخور الملتهبة والمتعرجة ورغم هذا خلدت الى نوم عميق.

لقد روانى الله وأطفأ ظمأى وانا نائم .. لقد شاهدت رؤيا بأنني أقضى الصيف على بلاج رأس البر وحولي الناس من مختلف الأعمار يلعبون ويلهون والجميع سعداء، امامى طبق بطيخ مثلج وفى نفس الوقت امسك بيدي زجاجة "كوكاكولا"ونسائم البحر ترطب وجهي وجسدي وانا جالس بلباس البحر وكلى

شباب وحيوية وأتفرس في وجوه وأجساد الحسان امامي وهن رائحات غاديات والبعض ينظر الى هذا الشاب الوسيم الذي تملؤه الحيوية والنشاط ويجواري ترابيزة صغيرة وعليها راديو ترانزستور وعبدالوهاب يشدو بأغنيته"الميه تروى العطشان وتطفي نار الحران "وانا أتمايل زهوا وسعادة بتلك النعم التى وهبنا الله إياها وجاء أحد الأصدقاء يمرح ويقلد أصوات الغربان التى اكرهها ويدفعني بشيء مدبب فى بطني واجنابى وانا أتألم من تلك النغزات واطلب منه الكف عن ذلك ولكنه تمادى وقد ازدادت تلك النغزات حتى وصلت الى وجهي فقمت من نومي مذعوراً لأشاهد مجموعة من الغربان فوق جسدي وحولي وكلها تنهش فى جسدي، شملني الرعب مما رأيته وشاهدته واصابتنى حالة من الهستيريا وقد أحدثت تلك الطيور بمنقارها بعض الثقوب فى يدى ووجهي وقد اصابنى الهلع ان أشاهد هذا المنظر وأكثر من ثلاثين غرابا يغطونني والبعض يهبط من السماء فى اتجاهي وتذكرت فيلم الطيور للمخرج العالمي الفريد هتشكوك والذى يصور طيوراً جارحة تهاجم الناس وتقتلهم، أردت ان اصرخ ولكن صوتي لم يتجاوز حلقي فهممت واقفا فابتعد بعضها والبعض ما زال يقف على رأسي واكتافى العارية ودفعني حب الحياة بألا أصبح لقمة سائغة وانا مازلت أتنفس لأن أتناول بعض الأحجار واقذفهم بها وجسدي يرتعد خوفا وألما لما اصابنى وأمسكت بجاكت الافرول وارتديته بسرعة خوفا من عودتهم وانا فى تلك الأحوال سمعت صوت احد الجنود يصرخ بألم مناديا علي أمه "ياما الحجيني ياما ح اموت ..ابنك عطيه بيفرفر وحيحصل ابوه .. آه ياما" كان الصوت مزعجا فهو صوت لرجل فى آخر لحظات حياته وهو منكفئ على وجهه والغربان تغطى ظهره تنهش لحمه ولا يستطيع ان يفعل شيئا فقواه قد خارت ولا أمل أمامه فأسرعت جهته اقذفه بكميات من الحصى فتصيبه بعضها والبعض منها تصيب الطيور فتبتعد حتى طردت كل الطيور عنه وشاهدت رقبته بها ثقوب كثيرة من اثر هجوم الغربان عليه بل تعداها الى أذنه وجوانب من وجهه .. كان

مشهداً فظيعاً ان تلتهم تلك الطيور الجارحة إنسانا ما زال علي قيد الحياة ولا يستطيع الدفاع عن نفسه .. أجلسته وظل ساكنا يشاهد الغربان تحاول العودة للهجوم عليه وهو غير مبال أو أنه لا يشعر بما يجرى حوله .. واصبحت معركتي مع الغربان وليس مع اليهود ولا للحصول علي الماء.

كان تأثير العطش بدأ يؤثر على مقدرتنا على الحركة حيث لاحظت هذا منذ يومين بأن الجنود لا يستطيعون الحركة بسهولة ويسر فقد أصبحت المفاصل غير لينة وكنت ألاحظ هذا علي شخصي وعلي الآخرين أيضا الصعوبة في النهوض أو ثني الأذرع وفردها، بل كانت أصابع يدنا مفرودة ممدوه علي استقامتها وإذا رغب الرجل منا في ثني أصابعه أو محاولة الإمساك بأي شيء كانت تقابله صعوبة مما يدفعه بالمساعدة بيده أليسري لثني حركة الأصابع، وقد أثرت تلك الحالة عليّ أثناء صعود الجبل، لقد فقدت الأجساد الليونة المعتادة في المفاصل وأصبحت أقرب إلي أجساد الموتي في عملية التصلب والتخشب.

أثناء ذلك شاهدت احد الجنود واسمه "عامر"والذى أسرع الى كوب الزمزمية التى كنت انتظر ان يبرد ما به ونسيته فى لحظة عراكي مع الغربان، هجم عامر على الزمزمية وقبل ان الحق به كان قد أفرغها فى جوفه دفعة واحدة ما بين حسرتى وألمي وانا أطارده ببعض الصخور الصغيرة وابتعد عني قليلا ثم عاد يسير الهوينا فاتحا فمه لا يستطيع الكلام ثم امسك ببعض الرمال واضعا بها فى فمه بغرض إزالة ما شربه من بول لم يستطع تحمله ولم يستطع ان يتقيأه ولصقت الرمال بداخل فمه ولم يستطع ان يغلقه وكان للذباب نصيب فى الدخول الى فمه والعبث به ثم الى أذنه وانفه وأصبح يصرخ ويتألم ورغم أنه سرق كنز حياتي إلا اننى أشفقت عليه فهو مثلى يريد شربة ماء وقد كدت أن أكون مثله لو شربتها ولكنني لم احزن لهذا فقد شعرت بأنه إنسان بائس.

وقفت انظر الى كلّ من عطية وعامر ولا أدرى ماهو المتبقي لنا من دقائق سنقابل الله بعدها، دعيت الله فى سرى وتذكرت أننا لم نؤدي الصلاة حتى الآن وتذكرت انه يمكن التيمم ولهذا أشرت إليهم بالحضور فحضروا كسالى لأنهم يعلمون انه لا جديد عندي فحالنا واضح ووصل إلى حد التنافس على سرقة البول وشربه .. اقبلا كسالى وأشرت إليهما بان نصلى لله وندعوه بان يحقق ما نحن عليه من ألم وتفوهت بكلمات قصيرة متحشرجة قائلا: نطلب منه الرحمة وأن ينهى حياتنا إذا كان اجلنا قد قرب او يمنحنا القوة ويكشف لنا عن الماء ويساعدنا فى محنتنا .. نظرا إلى صامتين ويقولان فى أنفسهما ليس هذا وقت الوعظ، تيممت وفعلا مثلى، صلينا صلاة لا نعرف ماهي ولا نعرف أين جهة القبلة ولكنها كانت صلاة ساكنة من داخل النفس، كنت اطلب من الله الرحمة وان يدخلنا جنته ويرفع مقته وغضبه عنا وان يكون ما لا قيناه من عذاب حتى الآن هو تكفير عما نكون قد اقترفنا من ذنوب فى تلك الأعوام القليلة التي انقضت من أعمارنا .. جلست أرضا بعد صلاة لم اعرف عدد ركعاتها ومددت بصري خلال جلستي هذه ناظراً فى مساحة الأرض التي أمامي وقد ضعفت الرؤيا ولا أستطيع أن أصل ببصري إلي عدة أمتار لا تزيد عن خمسين مترا وإذ بى أشاهد شيئا ابيض يتحرك ويختفي من على مسافة بعيدة واعتقدت ساعتها ان المسافة لا تقل عن ثمانمائة متر حيث كان حجمه مثل حجم عود الكبريت والتى كانت تدرس لنا لتحديد مسافة الأشخاص على الأبعاد المختلفة .. لم أتحرك ولكنى دققت النظر رغم حالة الضعف التى آلمت بأجسادنا ومنها النظر .. اعتقدت انه نوع من خداع النظر لما نحن فيه ومثله مثل حالات السراب التى كانت تحدث لنا بأننا نشاهد بركة مياه على مسافة ما وبعد أن نسير لمسافات طويلة تحت أشعة الشمس نكتشف انه سراب .. نظرت إلى الجنديين الذين كان يبكيان بجواري فقد قربت ساعتهما والغربان تقف أمامنا ترمقنا منتظرة سقوط أى شخص لتهجم عليه وتتناول لحمه

فـى دقـائق .. وبصـوت محشـرج وبـأعلى مـا عنـدي مـن صـوت صـرخت قائلاً: "بدوى .. انا شايف بدوى .." نظرا الىّ بدهشة من كلماتي والتى كانت حلما لنا منذ بداية الانسحاب وهما غير مصدقي معتقدين انها أضغاث أحلام يقظة مثل التى كانت تنتابهما .. وقفت وانا أشير "بدو ى ى ى ... بدوى ى ى ى" قاما ووقفا بجواري ليشاهدا ما أتحدث عنه وفى تلك اللحظة اختفى البدوي .. أرادا العودة جلوسا على الأرض لعدم قدرتهما على الوقوف ولكن عامراً شاهده .. صـرخ .. الله .. بـدوى والله العظيم؛ شـاهدته يعـدو مسـرعا واندهشـت لتلـك القوة الكامنة به واعتقدت ان هذا ناتج من كمية البول التى شربها وحرمني منها .. تبعه الآخر وانا مازلت واقفاً أشاهد ما يفعلاه الجنديان خوفا من أن ابذل مجهودا فوق طاقتي خاصة أن آلام مناقير الغربان مازالت تؤلمني .. جاء من خلفي الجنود الـثلاث الآخـرون الـذين بـدوا معـي تلـك الرحلـة " جـويلي / فـراج / مصـطفى " يستفسرون منى عن سبب هذا الصراخ وما الذي جعل كل من عطية وعامر يسرعان فى ذلك الاتجاه فأخبرتهم بما شاهدناه، ارتفعت معنوياتهم خاصة أنهم شـاهدوا البـدوي بملابسـه البيضـاء فأسـرع الثالـث فـى أعقابهمـا باسـما بوعـد بـأن يحضر إلينا المـاء .. شـعرت وشـعر الجنديان الآخران بأننا قد شربنا بعض الماء وقلت حدة العطش .. مازلنا نراقب البدوي والجنود وقد أصابنا الخوف أن يختبئ البـدوي عنـدما يشـاهد الجنـود يهرعـون إليـه مسـرعين فإنهـا حالـة حـرب .. وأخيـرا شاهدنا الجنديين يقفان مع البدوي ولحق بهم الثالث وبعد وقت قصير ساروا سويا عائدين إلـى الجهـة التـى كـان البـدوي قادمـا منهـا فـى أول مشـاهدة لـه ثم اختفـى الأربعة وبدأ قرص الشمس فى النزول وبعد نصف ساعة سوف يحل الظلام ولا نشاهد البدوي أو الجنود الثلاثة وبقيت مع الجنديين الآخرين وهما يتساءلان هل سيعود زملاؤهم ام سوف يرافقون البدوي ويتركوننا؛ طمأنتهم وفى الحقيقة كنت أريد ان اطمئن نفسي .. اختفوا لأكثر من عشر دقائق عن أنظارنا واعتقدت أنهما

اختفوا الى الأبد فالفترة الزمنية كانت طويلة وقاسية على قرار الحياة أو الموت .. ظهر البدوي ثانية بدون الجنود الثلاثة واعتقدنا انه أما قتلهم أو سلمهم إلى الإسرائيليين وتوترت نفوسنا وازداد ألمنا وكان من الواضح أن صورة البدوي تزداد وضوحا وهذا يعنى انه يقترب ولا يبتعد عنا .. تأكد هذا الإعتقاد بعد أن قطع مسافة تجعلنا نستوضح حجمه وطريقة سيره ولكن الأهم انه كان ممسكا بحمار معه وتبادلنا النظرات نستوضح ما سبب أن ياتى البدوي لنا ممسكا بحماره، تحدث الجندي مصطفى قائلا " يظهر يا أفندم أنه حيبعت معانا الحمار يورينى الطريق .. ضحك قليلا وأكمل حديثه بأن الرجل عرف أننا مش فاهمين السكة فلقي أن حماره أحسن منا وعارف كل حاجه .. كويس على كل حال .. حمار .. حمار" ابتسمت انا والجندي فراج لكن السؤال الذي كان يدور فى رأسي ماذا فعل مع كل من عطية وعامر وجويلى .. لم افكر كثيرا حيث كان البدوي أمامنا بعدة أمتار والبسمة تعلو شفتيه مرحبا بنا ولاقاه الجنديان بالأحضان ثم اقبل الرجل جهتي قائلاً: حضرة الضابط .. أتفضل معايا ومد يده يصافحني بحفاوة .. تبادلنا المصافحة وانا سعيد باش معه فقال: اركب الحمار .. انا جايبه معايا لما "الدفعة"قالوا انك معاهم وتعبان شوية .. كان هذا هو اللقب الذي يطلقه البدو على الجنود فهم لا يعرفون كلمة عسكري أو جندي .. ساعدني على ركوب الحمار ولكن بعد دقائق قليلة شعرت بألم فى مقعدتي وفخذاي حيث اثرت عملية الهبوط مرتين من فوق الجبل فى هذا اليوم على حالى وأثخنت جراحا كثيرة.

أشرت إليهم لمساعدتي على الترجل بينما امتطي الجندي فراج الحمار وركبه مسرعا فى اتجاه زملائه الذين بدؤا يظهرون لنا وخاصة ان البدوي اخبرنا بان الدفعة يشربون من بئر المياه .. إذن لقد عثرنا على المياه وسنرتوي بعد خمسة أيام من العطش والشمس الحارقة والليل البارد المؤلم .. وليكن ما يكون

وسنكون مستعدين للقاء الله بعد ذلك .. كنا نسير إلى زملائنا وانا أستعجل الخطوات الباقية كأنها أميال طويلة.

نحن أمام بئر المياه .. انه بئر عميق وله منزل مائل كى يستطيع ان يصل إليه الإنسان وليس بئرا عمودية مثل ما نعتقد نحن فى مصر .. خوذه قديمه لا اعرف من أين عثروا عليها والجنود الثلاثة يشربون ويمرحون ويغسلون وجوههم ورأسهم واحدهم يضع الماء فوق ثيابه .. احضروا لي خوذة ممتلئة لأشرب منها .. كانت مياها باردة مثلجة وبها طعم مياه الآبار التى تختلف عن مياه النيل لكنها مياه نقيه على كل حال .. ارتوينا جميعا شاكرين الرجل قبل أن نشكر الله مدركين انه سيغفر لنا هذا الوزر وقد عم الظلام حيث طلب الرجل منا مرافقته إلى داره فوق الجبل قائلا: حتى أقدم لكم الطعام، شكرته مكتفيين بهذا الإعجاز الذي تحقق .. نظر ألينا قائلا: منذ كم يوما لم تتناولوا طعاما فتحدث فراج قائلاً: "يا بوى ستة أيام من غير وِكل وخمسة أيام من غير شرب" تحدث فراج بلهجته الصعيدية؛ قال الرجل لابد ان تأكلوا معنا اليوم وبكرة نشوف حل لكم .. ثم قال : نحن سنسير على طريق على جرف الجبل وهذا الجرف لا يسع شخصين بل يسع شخص واحد فقط ولهذا كونوا حذرين لان اختلال توازن أحدكم معناه السقوط من ارتفاع كبير .. أرجوكم ان تكونوا بالجانب الأيسر للجبل .. تبعنا الرجل سائرين خلفه وأمامنا مشكلة الصعود الجبل ليلا بطريق غير معلوم لم نعهده من قبل ، كان شيئا خطيراً وقد عاودنا الرعب والخوف ثانية.

ليلة بكل أيام عمرنا

استمر صعود الجبل والسير في هذا الممر اللعين قرابة الساعة إلا ربعا أنهكنا خلالها الألم والعرق والخوف .. كنا نشعر ونحن نرتقي صاعدين بالهواء يلفح أجسادنا من الجهة اليمنى اما من الجهة اليسرى فمازالت حرارة الجبل تلسعنا بحرارتها التى اكتسبتها من أشعة الشمس وكان طبيعيا ان نستند بأيدينا على جسم الجبل مائلين عليه وقد اكتشفنا بعد ذلك الجروح والشرط المدممة التى أصابتنا فى تلك الليلة.

توقف الرجل قائلاً : خلاص وصلنا ومافيش خوف من السقوط الحمد لله كنت متخوفا عليكم من هذا الصعود ولكنني لا استطيع تركككم فى تلك المنطقة التى تملؤها الذئاب والافاعى ليلاً .. انتم هنا فى أمان خذوا راحتكم هنا وسأتغيب عنكم عشر دقائق واحضر لكم ما تيسر من الطعام واعذروني إذا كان قليلا أ رديئا لأننا مهاجرون من مكاننا بُعدا عن الحرب.

اختفى فى ظلام الليل الدامس ونحن نشعر بالسعادة والأمان بعض الوقت وخائفون وقتا آخر ولكن الذي كان يؤنس وحدتنا أننا وصلنا إلى منطقة بها بشر وبها بدو ولم يكن لنا خبرة فى التعامل معهم من قبل. أصابتنا حالة من الإسهال حيث اندفعت المياه فى أجسادنا تجرى من الفم حتى خرجت من الجهة الأخرى فالمعدة فارغة والأمعاء خاوية .. استراحت أجسادنا أكثر فالمياه قد غسلت أى شائبة فى أمعائنا خاصة هذا المسكين عامر الذي تناول البول فقد استطاع عند البئر أن ينظف أسنانه وفمه من البول ومن الرمال العالقة بفمه .. بعد قليل بدأت تظهر بقع دماء فى وجهي واجنابى وايضا الجندي عطية من آثار مناقير الغربان .. كنا أشبه بمرضى الحصبة ولكن الدم كان بديلا عن البقع الحمراء.

ظهر ضوء خافت من خلف الصخور التى كنا نجلس خلالها حيث اختار الرجل مكانا تحيط به بعض الصخور ومن خلالها يمكن المرور .. كنا جلوس فى

ظلمة الليل الحالك وقد اعتدنا على هذا قرابة الأسبوع .. جاء حاملاً لمبة كيروسين صغيرة نسبيا" لمبة جاز نمره خمسة" مقدما اعتذاره بان الضوء الخافت أفضل منعا لمشاهدة طائرات العدو التى تظل طوال الليل سابحة فى السماء ثم تركنا وعاد مسرعاً حاملا طبقا من الألمنيوم ولم اصدق انا ولا الجنود الخمسة ما شاهدناه .. طبق بيض مقلي بالزبد وخبزا طازجا مثل الخبز الفلاحى وساخن وقطعة جبن وعدد من حبات الطماطم والخيار الطازج .. نظر بعضنا إلى بعض والرجل يضع أمامنا كل هذا الطعام ثم اخرج من جيبه راديو صغير الحجم وأداره بصوت منخفض لتنساب بعض اغانى حلوة رطبة واستأذن فى العودة لإحضار الشاي ..

كنا فى اشد حالات الجوع وطبق الطعام شهى ورائحته التى تسيل لعاب الشبعان فما بال الجوعان وجميعنا ينظر إلى الطعام فى شك وريبة .. فنحن لم نعتاد مثل هذا الترف وتساءل أحدنا: هل هذا معقول؟ ويجيب آخر موضحا .. انا خايف يا فندم يكون الراجل ده ناوي يسمنا .. انا فاكر كان بيقولوا لنا فى البلد ان أمنا الغولة كانت عايزه تعمل كده فى الشاطر حسن .. نبهتهم إلى أن تلك الخرافات لا داعي لها الآن ونحن جوعي خاصة بعد شرب الماء شعرنا بالمطلب الثالث بعد الهواء والماء .. فأصبح الطعام .. أخبرتهم اننى سأتناول الطعام .. ستة من الأيادي امتدت إلى الطبق وكنا نسمع أصوات مضغ الخيار والطماطم بين الضحكات والانبساط الذي داعبنا بعد خمسة أيام أو بعد مضى ما لا يقل عن "مائة وعشرين ساعة" دون ماء أو طعام.

جاء الرجل بعد ان التهمنا الطعام وانهينا عليه بالكامل فنظر إلينا سعيداً مقدما اعتذاره لقلة الطعام ونحن نشكره بكل ما نستطيع من كلمات الثناء وحتى كتابة تلك السطور أدعو له بالعيش الهنيء إذا كان على قيد الحياة أو أن يدخله الله فسيح جنته لما قام به معنا نحن الستة من مجهود لا يمكن أن ينسى .. كانالرجل ُ ممسكا ببراد شاي سوقي .. أى عبارة عن كوز من الصاج وحوله سلك

مبروم ليصبح مثل الكنكة وأشعل بعض العشب الجبلي ووضع الشاي والسكر مع الماء وانتظر إلى أن يتم سواء الشاي الذى بدأت رائحته فى الظهور والتى غزت أنفاسنا برائحته ونحن مثل صاحب المكيفات الذى حُرم من هذا لأكثر من ثمانية أيام منذ بداية الحرب فنحن الآن فى يوم الثانى عشر من شهر يونيو.

وزع علينا الشاي واخبرنا بقصة تنحى الرئيس عبدالناصر وحزنا كثيرا لهذا لأن هذا معناه أن البلد هزمت ولم نكن نعرف حتى الآن أننا هزمنا ولكن القوات الموجودة بجوارنا هى التى أصابتها الهزيمة حيث كان شعورنا قوى بالنصر .. اما ثقتنا بزعيمنا جمال عبدالناصر فلم تشبها أية شائبة بأنه الزعيم العظيم وطوال تلك الرحلة الشاقة التى تكبدناها لم نتأثر أو يقل شعورنا وثقتنا به كما أن البدو كانوا يشعرون بأنه الزعيم المخلص المحبب لهم جميعا، لم يكن هناك اتحاد اشتراكي ليدفعهم أو يدفعنا لهذا الشعور كما عرفنا بعد هذا بسنوات بأن الاتحاد الاشتراكي هو الذي دفع بالجماهير لتفتعل تلك المظاهرة أو التمثيلية وثبت كذب تلك الفرية؛ وأقولها بكل إخلاص وصراحة أننا كنا جنودا وبدوا نحُب هذا الرجل ومهما كان من أخطاء حدثت فقد كان مخلصا لمصر ونحن الذين عانينا من اثر تلك الهزيمة ولم يعانيها الشعب مثلنا رغم انه تكبد خسائر وُحزنا ولكنه لم يقتل ولم يصب ولم يلعق جراحه وتدمى آدميته مثلنا ومثل بدو سيناء ولكن بعض الناس تنسى وتريد من المحبوب أن يكون مكروها وقد أثبتت الأيام انه رجل مخلص بعد أن شاهدنا ماذا فعل اللاحقون به بعد أن وري الثرى وأصبح بجوار ربه.

أسعدنا حديث البدوي بأن الزعيم عاد ليتقلد أمور الدولة ثانية فهو القادر دون غيره على إصلاح ما أفسده مساعدوه وحتى لو كان مشاركا فيما حدث باختياره لهؤلاء المفسدين الانهزاميين الذين اساؤا لمصر وجيشها .. لقد عدد هذا البدوي مآثر الزعيم الذي كان يرعاهم فى تلك الصحراء القاتلة بمدهم بالمساعدات التموينية من أرز ودقيق وسكر وشاي وبن وأطباء وعلاجهم وزودهم بالأدوية

وحفر لهم آبار مياه كل هذا دون ان يتكلفوا أى مبالغ .. انه يعلم أنهم من أبناء الوطن وأنهم فقراء والصحراء قاسية عليهم فكان عونا لهم مثل ما كان عونا للفقراء المصريين محاولاً إسعادهم وحمايتهم من غول الأغنياء وقسوتهم.

غادرنا البدوي لنحصل على راحتنا كما احضر لنا بطانية من عنده لنتقى بها برد الليل .. اى والله فالرجل لم يكتفي بكل ما فعله معنا بل زاد عليها بتلك البطانية والتى أدفأتنا رغم عدم كفايتها ولكن المكان الذي اختاره وقانا برودة الأيام والليالي السابقة ونمنا لأول مرة ونحن سعداء وقد ارتوينا وشبعنا وشربنا الشاي ونلنا غطاء يقينا من البرد والاهم أننا قريبين من بشر سيمدون يد العون والمساعدة لنا بعد ان ضنت الأيام والليالي السابقة برحمتها علينا بل زاد من طيبة وخلق هذا الرجل بان أخبرناه بقصة الجنود الذي تخلف فى المنطقة التى حضرنا منها فاخبرنا انه سيطلب عون رجال القبيلة للبحث عنهم وإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

كانت ليلة بكل ليالي عمرنا السابقة واللاحقة فلم نتعرض قبل هذا لتلك المأساة ولا اعتقد أننا سنتعرض لمثل هذا الاختبار الانسانى المؤلم علينا جميعا .. كنا فى حالة من الإرهاق الجسدي الشديد، فقد تفككت عظامنا بعد ان شربنا الماء ونلنا طعامنا بدأنا نشعر بالآم مما قاسيناه وخاصة نقرات منقاير الغربان وظهر رشح الدماء الذى انقلب إلى نزف بعد ان سالت الدماء بفعل تناولنا مياه واصبحت دماؤنا عادية وليست لزجة مثل سابق عهدنا وكل هذا لم يطغى على ما نحن فيه من فرحة وبهجة بعد أن كدنا أن نهلك في تلك الظروف الصعبة .. داعب النوم الأجفان ونمنا حتى أيقظتنا أشعة شمس اليوم التالي، لقد كان صباح غير أي صباح سابق، صباح لأحياء وليس لأشباه أموات نتحدث ونتكلم وبدأت عيوننا تتفتح بعد أن أصبحت ضيقة وغير ظاهرة كامنة بالداخل كما أن بروز عظامنا قل نسبيا وشفاهنا بدأت فى الالتئام من كثرة ما أصابها من تشققات اما وجوهنا فهى مازالت محترقة من أشعة الشمس كما أننا نستطيع أن نقف ونتحرك بسهولة أكثر

من سابق عهدنا دون ترنح واضح .. لقد اقتربنا من عالم الأحياء وابتعدنا عن عالم الأموات والذى كانت علاماته واضحة فيما شهدناه من شهداء أو موتى من اثر الهجوم على سيارة الإسعاف.. والشيء العجيب والمدهش والذي لا أزال في حيرة من أمري حياله هو كيف لإنسان أن يسارع في تناول سائل دون أن يدري محتواه فقد يكون ضارا وقد يكون قاتلا مثل الذين تناولوا المطهرات القاتلة من صبغة اليود وغيرها. بل إني أجزم بأن هؤلاءُ محقين فيما فعلوا فالعطش شيء لا يستطيع احد وصفه لدرجة إنني لو شاهدت مياه الصرف الصحي وقتها لشربت منها.. آه من ويلات الحرب وآه على هؤلاء المساكين.

حضر الرجل الكريم يلقى علينا بتحية الصباح باش الوجه والابتسامة تعلو شفتيه ولا اعلم سببا لذلك غير شعوره بأن الله قد ساعده فى إنقاذ الأرواح الستة التى يلقى بتحيته عليهم وتحدث معنا معلنا أسفه لأنهم لم يستطيعوا إنقاذ زملائنا فقد وصولوا إليهم في تلك البقعة المهجورة وعثروا عليهم بعد ان فارقوا الحياة إلا واحدا فقط وأثناء إحضاره صعدت روحه هو الاخر كأنما كان رافضا أن يعود للحياة دون زملائه الذين قاسوا معه.

أزعجنا هذا الخبر لكن أصابنا شعور بالراحة نفس الوقت، لقد تخلصوا من عذاب الأيام الخمسة التى لاقيناها سواء بالموت او بالحياة لكن تلك الحياة التى يغلب عليها الموت أو انك تنتظر الموت كل ساعة فهى مؤلمة جدا .. عاد الرجل الكريم واحضر لنا طعام الإفطار المكون من فتة باللبن وقطعة جبن وخبز، تناولنا طعامنا بهدوء لأننا لم نعتاد على طعام وشراب كل فترة قصيرة كما أن وليمة الليل أشبعتنا وأعطتنا جرعة من الراحة الجسدية والنفسية لا مثيل لها وانعكس هذا علينا بقضاء ليلتنا في نوم هادئ واستيقظنا بنشاط وحيوية.

انتهينا من طعامنا وشرابنا مع شرب الشاي وتحدث الرجل مبديا عذره بأنه لن يستطيع مصاحبتنا حيث أن عائلته معه وهو لا يستطيع تركهم فى تلك المنطقة

الغريبة لفترة طويلة خاصة فى ظروف الحرب وانسحاب الجيش وما يصاحب هذا من أحداث مؤسفة وقتل واغتصاب ولهذا فهو يخشى على أهله وكان يتمنى أن يقدم لنا عونا أكثر من هذا .. شكرناه وطلبنا منه أن يوضح لنا طبيعة المنطقة التى نحن بها، قام بشرح واف لتلك المنطقة حيث اخبرنا أننا فى منطقة تسمى جبل المغارة وهذا الجبل من منطقة وسط سيناء وهو جبل ضخم المساحة يعيش المئات من البدو بداخله حيث تتسع قمتيه لعدة كيلومترات كما تنتشر به آبار المياه العذبة والتى أنشأتها الحكومة المصرية كما يوجد به منجم فحم جبل المغارة الذى انشىء حديثا وتكثر به التجارة بين أبناء تلك المنطقة ولهذا فستجدون حياة وحركة وعونا ولكن ابعد من هذه المسافة لا اعلم لأن معلوماتي ضئيلة ولكن الأهم هو أسلوب التعامل مع البدو فقد حدث من عدة أيام مشاكل بين بعض البدو "والدفعة" وكادت أن تؤدى الى اشتباك مسلح ولكن شيوخ القبائل تدخلوا لحل تلك المشاكل وكان السبب الرئيسي فيها هو عدم احترام "الدفعة" لعادات البدو سواء بالسخرية من نسائنا او مغازلتهن.

كنا نستمع له ونحن فى دهشة بان زملاء لنا سبقونا إلى هذا المكان منذ عدة أيام وحمدنا الله أننا لم نؤخذ بذنبهم وخطئهم .. أكمل الرجل الكريم حديثه بأنه فى حالة الاحتياج إلى العون فعليكم التوجه إلى مجلس الرجال حيث سيساعدكم البدو بما يملكون مع عدم إثارتهم أو محاولة مضايقتهم وإذا تقابلتم مع نساء وأردتم عونا فيجب أن يكون حديثكم معهم كالتالي"صباح الخير او السلام عليكم يا مستورة .. وين مجعد الرجال؟" ستعرفكم بمكان تجمع الرجال وقد لا تجد الرجل موجوداً فأمامكم حلان عدم محادثتهن أو أن أحدكم يتوجه إليهن يحادثهن بذوق وأدب مبتعداً عنهن ويعرض مشكلته فإذا استطعن مساعدتكم فلن يتأخرن عليكم أو يعتذرن .

شكرناه على تلك الوصايا وهى وصايا قيمة حيث أن أسلوب الحوار هو الذي يأتى بنتيجة المعاملة كما زودنا بزجاجة مياه مملوءة وترك لنا البطانية لتساعدنا على مواجهة برد الصحراء ليلاً ، طلبت أن أتعرف عليه .. اى اعرف اسمه ولكنه اعتذر ودهشت لهذا فالرجل قام بواجب إنسانى معنا دون أن ينتظر شيئا بل قام به طواعية وهو الذي جاء لي بحماره كى امتطيه بعد أن علم من جنودي باننى مصاب ولا استطيع السير فسار ما يقارب الثمانمائة مترا قدوما ثم مثلهم عودة وتحمل مشاق استضافتنا بل مشقاق ان يذهب برجال قبيلته ليلا ليبحث عن زملائنا .. سألته: لماذا ترفض أن تعطيني اسمك؟ .. صمت قليلا ثم قال اننى اخشي ان تقعوا أسرى فى أيد اليهود وتعترفون علينا وهم الذين يطلبون منا بمكبرات الصوت عدم مساعدتكم بل والإبلاغ عن أى ضباط يتعرفون عليهم ولهم مكافأة ولهذا فانا لا أريد الوقوع فى شرهم وهم قوم فاسدون .. شكرته وقدرت موقفه ولكن الرجل جاء إلى هامسا قائلاً: عبدالله سويلم .. اسمي عبدالله سويلم من قبيلة .. لا أتذكر اسم القبيلة وكان الغرض من التعرف عليه هو محاولة شكره بإبلاغ المسؤلين فى القيادة بما قام به معنا .. ودعنا بعد ان وجهنا إلى الوجهة السليمة.

سرنا بداخل قمة جبل المغارة وقد عاد إلينا جزءاً من عافيتنا فقد جربنا حالة العطش والجوع وفهمنا إلي حد ما بعضا من دروب سيناء كما أننا كنا مزودين بمياه تكفينا يوما لو أحسن ترشيدها وكان هذا قرارنا بأن نتعامل مع تلك المياه بأنها ليست متوافرة معنا ولا نقترب منها إلا بعد أن يضنينا العطش او نعثر على بئر مياه.

حدث ما توقعه عبدالله سويلم حيث كانت كل لقاءاتنا مع البدو تبدأ بالنساء وقد علمنا شفرة التعامل معهن وهذا الأسلوب فتح قلوبهن للإجابة والنصيحة .. سألنا إحداهن عن مكان لبئر به ماء فوجهتنا الفتاة إلى مكان البئر وارتوينا من

الماء البارد وغيرنا الماء الذي اثرت فيه حرارة الشمس .. هناك بجوار البئر شاهدنا بدويا منظره وشكله يثير الخوف والريبة، سألنا عما نحتاجه فتطوع الجويلي موضحا له بأننا لا نعرف دروب الصحراء وكل ما نبغيه هو الوصول إلى قناة السويس .. همهم الرجل قليلا ثم تحدث قائلا: امهلونى بعضا من الوقت حتى انتهى من ملىء اوعيتى بالماء، كانت أوعية كثيرة يضعها على جمله المجاور له .. جلسنا بعيداً حتى ينتهي من عمله وذلك لإفساح المكان للبدويات اللائي يحضرن لملأ أوعيتهن .. كان الرجل يراقبنا من حين لآخر وقد أوجسنا خيفة من تلك النظرات خصوصا ما قاله لنا عبدالله سويلم منذ ساعات بان اليهود يرغبون فى اسر الضباط وخصوصا القادة الكبار.. مازال يراقبنا ونحن نراقبه وحدث توتر من على بُعد بيننا وبينه وعدم راحة نفسية حتى انتهى من عمله فجاء إلينا يسير الهوينا متسائلاً عن المكان الذي نريد الوصول إليه .. سألته وما الفارق بين مكان وآخر.. وضع شيئا فى فمه تحت لسانه وعلمنا فيما بعد انها قطعة أفيون وبعد ان مصمص شفتيه قال: أن كل مسافة ومنطقة بحساب أى أن كل منطقة لها اجر .. سأله مصطفى .. أتنوى اخذ اجر منا لمساعدتنا فيما نريد؟ .. نظر الرجل إليه نظرة الصقر إلى فريسته "مكملاً حديثه" كل حاجه عندي بالمصارى"وعلمنا بعد ذلك أن كلمة المصارى هى النقود وذلك بلغة العرب فى الشام والجزيرة العربية" تركنا لحالنا وعاد قريبا من البئر جالسا تحت ظلال شجرة توت .. أى والله فوق الجبل وشجرة توت خضراء يانعة وبجوارها بئر المياه والبدو ذهابا وإيابا قادمين لهذا المكان من اجل المياه.

دار حوار بيننا وبين هذا الرجل بالنظر، فهو يريد منا مالاً ونحن نريد منه عوناً يساعدنا على ما نحن فيه بأن نعود لوطننا وبلادنا .. بعد قليل جاء رجل آخر يجالس هذا البدوي بجوار البئر وتحدثا يدخنان ثم نظرا إلينا وقد أصبحنا كالعبيد فى السوق ننتظر من سيأتي ويتعطف علينا لشرائنا واستمرار عبوديتنا ..

شعرت أن هؤلاء القوم ليس لديهم الصراحة أو الجدية فقلت لجنودي لماذا نقف أمام هذا الشخص ننتظر منه العون، اقترح أن نكمل سيرنا وسنقابل من هو أحسن منه حالا فلقد تعدينا مرحلة الخطر وها نحن من حولنا الناس والماء والزرع والحيوانات فلا داعي للخوف أو الاندفاع نحوه حتى لا يبيع ويشترى فينا خاصة أننا لا نملك مالا .. لم يعارض احد منهم الاقتراح وتركنا المكان سائرين إلى أى جهة المهم أن نبتعد عن تلك المنطقة حيث انتصف النهار والشمس عمودية وهذا الشخص جالس دون اى اهتمام بنا والرجل لم يتركنا لحالنا ولم يخبرنا بما استقر عليه ذهنه فى كيفية المساعدة وما ثمنها ومن أجل هذا تحركنا ولأي جهة.

لحق بنا الرجل الجالس معه وعرفنا بنفسه، مسئول عن أبار المياه فى المنطقة حيث انه يتبع شركة تعمير الصحارى التى تنشئ أبار المياه، تطرق في الحديث الى ماهو المطلوب من فلان .. وذكر اسمه "مسعد" فأوضحت له إننا نطلب مساعدته فى الوصول إلى قناة السويس وهو لم يعطنا جوابا شافيا .. صمت قليلا ثم قال: أن المشوار من هنا الى قناة السويس طويل ومليء بالمخاطر وقد حدثني فى هذا الأمر حيث أنه يرغب فى مساعدتكم وتوصيلكم إلى اقرب منطقة أمان من القناة بعيداً عن أعين اليهود الذين يقومون الآن بقتل كل الذين تقع أعينهم عليه حيث اكتفوا بالأعداد الهائلة من الأسرى ولم تعد طاقتهم تتحمل عدداً أكثر كما أنهم يقولون فى إذاعتهم أنهم بعد أن انتصروا وهزموا الجيش المصري واستولوا على كل سلاحه فخطتهم الآن القضاء عليه وخاصة القيادات والضباط محللين ذلك بان مصر يمكنها استعواض سلاحها فى ظرف عام ولكن إعداد قادة يحتاج أعواما بل عقوداً وهذا هو ما يريدون العمل عليه فى الفترة القادمة.

إذن فلا اسري الآن اما أن تنجوا بنفسك أو تكون من الهالكين .. حضر البدوي أثناء النقاش مع الشخص المسئول عن آبار المياه وأوضح انه مستعد لان يساعدنا فى المرور بمنطقة آمان يصل طولها أكثر من خمسين كيلومتراً وبعد تلك

المنطقة لا خطورة من اليهود كما تتوافر المياه والناس موجودة بكثافة ومن اجل هذا أريد مبلغ مائة جنية منكم جميعا .. نظرنا إلى بعضنا البعض فهذا المبلغ كبير جدا حيث يحصل الجندي على اقل من ثلاثة جنيهات شهريا كما أننا لم نتسلم مرتبات هذا الشهر وكل ما معنا عدة قروش .. اعتذرت بان هذا المبلغ كبير ونحن غير مستعدين لدفعه حاليا فإذا أراد مساعدتنا لوجه الله نكون شاكرين .. رفض طلبنا قائلا : انه لا يريد مساعدتنا من الأصل وانه إذا أراد ان يساعد أحدا لوجه الله فهم اليهود وليس المصريين وأشاح بيده جهتنا مما دفع الجندي فراج إلى سحب أجزاء سلاحه وهذا معناه انه سيطلق عليه النار ويقتله ويضيف أعداء جدد لنا حيث سيبحث عنا البدو ويخبروا اليهود الذين نشروا جواسيسهم فى كل مكان.

نهرت الجندي طالبا منه إعادة الأجزاء وتأمين سلاحه ثم وجهت كلامي للبدوي ومن معه .. شكراً ومع السلامة، اصطحبت جنودي سائراً فى اتجاه آخر .. كان لتصرف الجندي فراج اثر فعال لخوف هذا الاعرابى من مجموعتنا وقد تحدث مع عامل الصيانة واخبره ان تلك المجموعة يتنازعها الإجرام وانه من الممكن تتبعه وقتله فى الطريق إلى منزله أو الهجوم على أسرته وقتلهم جميعا مع إمكانية الإبلاغ عنك وعنى شخصيا لما قلته فى حق اليهود ضد المصريين وهذه خيانة والحكومة فى مصر مثل الجريح الذي يضرب هنا وهناك .. احترس يا أخ العرب.

اضطرب البدوي وجاء فى أثرنا مهرولا قائلا: لا تؤاخذوني علي ما قلت لقد كنت امزح معكم ولكنني مستعد لأن أساعدكم ولكن حاولوا مساعدتي انا الاخر فانا أعول عائلة كبيرة من زوجتى وخمسة من الأبناء بالإضافة الى والدي وآخى الأصغر "على" .. أجبته نحن لا نرفض إعطاءك مقابل لكن المشكلة أننا لم نتسلم مرتباتنا .. هز رأسه قائلاً: اعلم هذا لقد قصف القطار ومات بعض الضباط المسئولين عن المرتبات وقامت بعض عصابات من البدو بنهب تلك الأموال .. اعلم ما حدث.

تدخل الجويلي في الحديث وسأل الرجل أيمكنك أن تأخذ شيكا .. أسعده هذا وأنه سوف يحصل علي مبلغ يسعده ويتمناه ، نظرنا جميعا إلي جويلي والذي أخرج حافظة نقوده وأخرج منها شيكا بمبلغ يزيد عن أربعمائة جنيه وصادر من وزارة الحربية، كان المبلغ كبيرا مما دفع الرجل إلي السرور والابتسام بأنه شيك مضمون وكبير القيمة وصادر من الحكومة، غادرنا لينهي مليء أوعيته.

واجه جويلي أسئلة كثيرة منا عن الشيك حيث أخبرني بأنه من مستحقاته باليمن وأن موعد صرفه حدد بعد عام أي حرر الشيك في بداية يوليو عام ١٩٦٦ والصرف في بداية يونيو عام ١٩٦٧ وليس له نهاية صلاحية ، قدمنا الشكر إليه ولكنه قال أن أرواحنا أهم من هذا الشيك رغم أنه كان ينوي أن يستغل عائده في بناء بيت صغير له ولزوجته وطفليه.

اقترحت عليهم بأن نبلغ السلطات في مصر بفقد هذا الشيك ولهذا يجب علينا أن نكتب رقم الشيك "المسلسل" .. أيدني الجميع وأنه من غير المنطقي ولا المعقول أن ندفع ثمنا غاليا لهذا البدوي نظير مساعدة إنسانية لبعض الأفراد من جيش البلد وللتغلب علي عدم وجود قلم وورقة اقترحت عليهم أن نقف بالأقدمية وكل واحد منا يحفظ الرقم بالترتيب ، فلو فرض أن رقم الشيك هو " ٦٢٣٧١٢" فأصبح الرقم الخاص بى هو رقم ٦ ثم التالي كان فراج فأصبح رقمه ٢ وهكذا وقد أعجبت تلك الفكرة زملائي الجنود.

بعد قليل حضر الرجل المسئول الفني عن آبار منطقة جبل المغارة ناقما علي الإعرابي حزينا علي حالنا بأن ندفع له بهذا المبلغ الكبير ولولا أنه مسئول عن الآبار لتركها عدة أيام وقام بمرافقتنا إلي القناة دون مليم متسائلا " إيه اللي جري يا عالم دا إحنا مسلمين" أندفع الجويلي وأخبره بأن حضرة الضابط قرر أن نخدع الرجل وقص عليه ما اتفقنا عليه وكل منا يحاول إيقاف الجويلي عن استمراره في السرد دون جدوى ، أظهر الرجل تقديره وسعادته لهذا الاقتراح ،

غادرنا إلي البئر ، بعد قليل جاء البدوي معتذرا عن عدم تنفيذ الاتفاق لأن الشيك قد يضعه في موقف حرج بأنه سطا عليه من صاحبه ويحول إلي المحكمة العسكرية ، حاول الجويلي معه ولكن الرجل قال من أجل خاطركم ح أخد ساعات يدكم جميعا .. حاولت معه الفصال حتى ولو بقاء ساعة واحدة ولكنه رفض، رضخت لرغبته بناء على موافقة جنودي الذين وافقوا على التفريط فى ساعات يدهم وهى الأحدث من ساعة يدي والتى احضروها من اليمن قبل وصولهم الى مصر فى العام الماضي.

أنهي الرجل ملأ أوعية المياه وتحرك معنا ونحن فى اشد حالات السعادة لأننا عثرنا على دليل سيرافقنا الى بر الأمان ويبعدنا عما واجهناه من صعوبات الطريق .. كان الرجل يتحدث فى كل الأمور حيث انه من النوع الذي يقولون عنه أن لسانه "فلتان" وكان قبيح الألفاظ ولا يستحى ان يسب البعض ممن يعرفهم بألفاظ نابية كما كان يتباهى بأنه من معاوني تجار المخدرات فى سيناء وانه يستأجر فى بعض الحالات لقتل الآخرين .. في البدايةُ كنت أصدقه ثم تطور الى الازدراء ثم تطور الأمر إلي أن الرجل يريد ان يدخل إلى قلوبنا الخوف منه بعد ردة فعل فراج عليه بالسلاح .. وقد دفعني هذا الى التشدد معه بعد ان كنت أهادنه أولا .. جنودي يسمعون وينظرون الى ثم فى النهاية أخبرتهم بإشارة منى بأنه "رجل مكار والعوبان" وغير واضح ويجب ان نحترس منه.

المنطقة اعلي جبل المغارة لم أشاهدها من قبل وكما سبق وذكرت باننى كنت اعتقد بان الجبال مرتفعات ثم من الجهة الأخرى هبوطا مثل الحوائط فى العمارات ولكن بطريقة متدرجة ولكن ما شاهدته فى سيناء ان الجبال شاهقة الارتفاع ضخمة فى مساحتها قاتمة الألوان ما بين البني الغامق والأحمر بدرجاته والأسود كما ان بها أماكن يكثر بها الألوان التى تستخدم فى الصبغة والدهانات حيث نشاهد ألوان زرقاء أو ألوان بنية او خضراء وغيرها من الألوان .. اما منطقة

جبل"المغارة" فكانت مساحتها ضخمة ولا اعرف مدى المساحة ولكنني اعتقد انها لا تقل عن عشرين الى ثلاثين كيلومترا مربعاً وهى المسافة التى سرناها برفقة هذا البدوي .. وهناك عائلات تسكن وتعيش فوق الجبل ومساحات مسطحة وبعض المزروعات مع الرعي وخاصة الأغنام والماعز.

بعد مسيرة ساعتين مع هذا الرجل توقف فى نقطة قائلا: يا دفعه .. من هذا المكان حتى الجهة الثانية من الطريق المرصوف انا غير مسئول عنكم .. عايز تاخدوا بالكم إننا قريبين من المنجم واليهود موجودين بالداخل يسرقون كل معداته وينقلونها منذ عدة أيام ولأجل هذا إذا شاهدوكم معي سيقتلونني ولذا أريد منكم الاحتراس حتى تشاهدوا الطريق المرصوف وبأقصى سرعة من قبل الطريق حتى انتهائه من الناحية الأخرى تنتظرونني وانا هنا جالس أشاهدكم وأدعو الله لكم بالسلامة.

امتحان آخر فى سلسلة متاعبنا .. سرنا باحتراس وبالطبع انا فى المقدمة وجنودي خلفي بمئات الخطوات حتى إذا حدث مكروه يكون من نصيبي، كان هذا فكرهم منذ بداية الانسحاب أو إذا ألقىّ القبض عليّ من اليهود فأصبح أنا الضابط وليس لهم علاقة بى، هكذا دفعت الظروف التى نمر بها الى تصرفات غير عادية .. لم نشاهد اليهود بعد ولكننا كنا نسير فى حذر.. شعرنا أننا اقتربنا منهم حيث سمعنا أصوات عربات مجنزرة وجاء طفل يجرى جهتنا يخبرنا بان نحترس لان اليهود موجودون على الطريق ومسلحين .. واصلنا سيرنا حتى كشفنا الطريق الاسفلت من بداية باب المنجم حتى الجهة المعاكسة لمسافة بعيدة دون ملاحظة أى شيء بالطريق.

أشرت إلى جنودي باتباعى وفى حالة إطلاق الرصاص فلابد من الاحتماء بالأرض وعدم تكملة العدو لأن هذا معناه هلاكنا جميعا كما طلبت منهم السرعة وعدم التوقف حتى نصل إلى منطقة نحتمي بها وأن نحافظ على سلاحنا

كى لا يسقط منا أثناء العدو على أن يكون السلاح بوضع متقاطع على ظهورنا .. وقفنا جميعا على خط واحد وقلوبنا تدق وتضرب ضربات مرتفعة الصوت .. ها نحن نعلم أن أعداءنا قريبون منا وسنحاول المرور من خلالهم فى وضح النهار.. أشرت بيدى وأسرعت الخطى؛ لم أشاهد أحدا من جنودى بجوارى فقد وضعت هدفا امامى أعدو فى اتجاهه كى لا أضل طريقي أو أتعرج أثناء الجري .. كنت اشعر اننى أجرى بسرعة كبيرة وخاصة أن أحدا من الجنود لم يصل قريبا منى أثناء العدو .. فى البداية اعتقدت أنهم جبنوا أو أنهم انتظروا حتى أصل ويطمئنوا على أنفسهم ولكن كل تلك الاعتقادات كانت خاطئة حيث أنهم كانوا يجدون فى اثري ويطيرون من على الأرض كأنهم طيورا كما قال لنا البدوي بعد ذلك.

قبل الوصول إلى الطريق المرصوف وهو مكمن الخطر تواجد بطريق عدونا مقابر وتلك المقابر قريبة من الأرض وغير مُعدة بالطوب مثل الموجودة بمصر والمدن الكبرى ولكن أثناء العدو لاحظت تلك المقابر فجأة فكنت أحاول القفز من فوقها ولكنى لم استطع الالتفاف من حولها لأن لي هدفا أعدو فى اتجاهه وكان من سوء حظ الجندي جويلي الذي كان يجد فى اثري أن ارتطمت قدماه بمقبرة فدفع بكل ما فيها خارجها من شدة ضربات أقدامه والسرعة التى كان يعدو بها وكل ما شعرت به اننى شاهدت عظاما تتطاير قريبة منى وجمجم بشرية تتدحرج أمامى وكاد هذا أن يتسبب فى سقوطي بتلك السرعة وانا اعبر الاسفلت وبعد عدة أمتار شعرت بأننى أهوى من ارتفاع واسقط مثل أى شيء يسقط من ارتفاع وخلفي جنودي تباعا يتساقطون حتى اكتمل عددنا ونظرنا إلى مكاننا فوجدنا أننا نقع أسفل سطح الطريق بمسافة لا تقل عن عشرة أمتار " ارتفاع ثلاثة أدوار" ولم يدر بخلدنا أن خلف هذا الطريق جرفا منخفضا بتلك الطريقة وحمدنا الله انه كان من الرمال فلو كان صخريا لهلكنا جميعا .. أسفل هذا الجرف شاهدنا شيء مثل الكهف وأثناء ذلك سمعنا أصوات المجنزرات وأعقبها سماع طلقات رشاش .. إذن كشف

أمرنا وعلموا مخبأنا لذا فنحن من الهالكين فاضطربت أعصابنا ، طلبت من الجنود ان نختبئ فى هذا الكهف لفترة .. اختبأنا بالكهف ولكن الجنود الإسرائيليين ترجلوا من عرباتهم المدرعة ووقفوا على حرف الجرف ينظرون لأسفل.

قال احدهم: اننى اعتقد بأن الجبناء المصريون فروا بسرعة ولكن زميله اخبره بأنه لا يشاهدهم فى مسطح الأرض المفتوحة أمامهم وهذا يدل على أنهم مختبؤن بأسفل تلك المنطقة ولهذا طلب من زميله ان يتوجهوا الى عربتهم المدرعة لتفتيش المنطقة بحثا عن بعض الجبناء والتسلية بقتلهم. كان الاثنان يتحدثان اللغة العبرية التى كنت أجيدها وبصوت مرتفع .. ولهذا كان الخوف والاضطراب يعتريني ولم يكن الجنود أحسن حالا منى لأنهم يسمعون أشياء ويشاهدون تعبيرات وجهي وانفعالاتي ولكن من فضل الله ان زميلهم فى العربة المدرعة نادي عليهم طالبا منهم التوجه إلى القيادة بأقصى سرعة .. تمازح الجنديان كل مع الآخر ..

شاؤول .. لقد ضاعت منى فرصة التسلي بقتل اكبر عدد منهم .. اننى أحب الصيد

ديفيد .. فى إجازتنا بعد الحرب يمكننا التمتع بقتل بعض الضواري المنتشرة هنا ..

شاؤول .. لا لا الضواري ارقي من هؤلاء المصرين الأنجاس .. أن الكلاب والثعالب أحسن وأرقى منهم .. اننى اشكر الرب أن أتاح لي فرصة ذهبية لأقتل اكبر عدد منهم .. كنت اضحك وانا أدير المدفع الرشاش ليحصدهم .. انه خير عمل فعلناه لصالح البشرية كما يقول الحاخام أبراهام .. اقتلوا كل مسلم أو مسيحي تشاهدونه .. اى اقتلوا كل المصريين وبدون تحديد عمر أو جنس.

دار الحديث بين الجنديان " شاؤول وديفيد"وأثر ظلهما أمامنا من تأثير أشعة الشمس عليهما .. هذا هو عدونا ونحن قابعون فى تلك الحفرة المختفية وقلوبنا تدق بين ضلوعنا كأنها أصوات مدفعية كنت اسمع أصوات قلوب المجاورين لي مباشرة بالإضافة الى ضربات قلبي بين ضلوعي ليس خوفا منهم ولكن خوفا من

تمثيلهم بجثثنا مثل ما اخبرنا بعض البدو فى هذا اليوم .. أنهم ليسوا أعداء ولكنهم مجرمين حقيقيين .. ان الحيوانات المفترسة تمتنع عن مهاجمة اى فريسة بعد أن تشبع ولكن هؤلاء ليس لشبعهم حدود هكذا قال الله عنهم أنهم يقتلون النبيين بغير حق .. هم قتلة البشر أنبياء أو غير أنبياء .. أنهم مثل الافاعى والعقارب التى تهاجم للضرر وبدون سبب .. هؤلاء المجرمون واللذين ذهبنا لقتالهم ولكنهم انتصروا علينا بدون حرب مثل ما ينتصر قزم على مصارع بعد ان هجم عليه أثناء نومه أو مرضه.

أعاد زميلهم الصراخ على مسامعهم ليلبوا نداء القائد بالتوجه إليه فوراً وكان هذا إنقاذا لنا من عند الله لأنهما لو وصلوا إلينا لفتحوا رشاشات العربة المدرعة وقتلونا فى الحال بين ضحكاتهم وسعادتهم .. اقشعر بدني بالتحدث بالقتل لغرض القتل .. صحيح ان هذا عملنا ولكنه لمنع العدو من قتلك ولو أعلن استسلامه أو أصيب فيصبح هذا دليل على خروجه من المعركة ولكن قتله لمجرد التسلية فهذا ضد كل الأديان والأعراف .. كنت انظر الى جنودي وأشاهد آثار الفزع على وجوههم وليس هذا عليهم فقط بل على أيضا فهم المرآة العاكسة لي وما ينتابهم ينتابني انا الاخر فنحن بشر والحياة غالية وكما يقول الله عز وجل "كتب عليكم القتال وهو كره لكم" .. صدق الله العظيم .. ولكن هذا ليس انتقاصا من شجاعتنا ولكن الانتحار هو المرفوض .. ولقد كنا مستعدين لهم وقد جذب كل فرد فينا أجزاء سلاحه استعداداً لمعركة يائسة ولكنها مفروضة علينا وقتل أو إصابة فرد منهم أحسن عملاً بأن نتركهم يفعلون بنا كما يفعل الجزار بالأغنام.

تلاشت الظلال وبعدت الأصوات وخف هدير المحركات للعربات المدرعة وتنفسنا الصعداء وقمنا بتأمين السلاح حتى لا يصيبنا ونحن نسير ، طلبت من زملائي الجنود إذا أتى هذا الرجل الكريه وسألنا عن حالنا وماذا كنا سنفعل مع اليهود فعلينا ان نخبره بأننا كنا ننتظرهم حيث سنقضى عليهم فور ظهورهم

أمامنا .. كان هذا واضحا امامى لأنني شعرت بان هذا الرجل لابد أن يشعر بأننا أقوياء وسوف نستخدم سلاحنا ضد اى معتد علينا سواء كان إسرائيليا أو مصريا حيث شعرت من أحاديثه بعدم الود وأن انهزامنا أمام أعدائنا أسعده أو على الأقل نظر إلينا بأننا ضعفاء مثل جيشنا .. كان لابد من أن نقاوم اى تعد أو خروج على حياتنا وكرامتنا خاصة من أهلنا فى سيناء فيجب أن يكونوا البلسم والسند ولا يجب أن يصبحوا جناحا داخليا لأعدائنا.

مر الوقت بطيئاً ثقيلاً ونحن نريد أن نغادر هذا المكان والذى اختبأنا فيه خاصة ان رائحته كانت نفاذه وبها الكثير من أوساخ وفضلات الناس الذين كانوا يستخدمونه كدورة مياه لهم .. فالروائح النفاذة والهوام من الحشرات ومنها الذباب الذي ينتشر فى الصحراء ومن أين لا اعلم ، قدحت ذهني لأعلم من أين ياتى هذا الذباب اللعين فى تلك المنطقة القاتلة المهلكة ، مجرد وصولنا لاى مكان نشاهده فى أثرنا .. كانت فكرة قدح الذهن هذه عالقة بذهني وفكري بعد ان استقبلنا الرجل الكريم امس وأعاد إلينا بسمة الحياة والأمل الضائع فى النجاة بأرواحنا لأنه فى الأيام السابقة على ذلك كنا لا نستطيع التفكير وقد أصابناُ عقم عقلي فريد وغريب ومفاجئ وكنت اشعر بان شيئا داخليا فى رأسي من الداخل يلعب فى عقلي مثل اى إنسان يريد ان يهرش لتقرح أصاب جلده ، لكن هذا كان بالداخل وكان بعض الجنود يخبرونني بان شيئا يقرص فى رأسهم من الداخل وكنت اضحك معهم وأقول وانا كمان اشعر بان عنكبوت او نملة تقرص بداخل رأسي وبالتالي إذا فكرنا فى شيء نجده طار منا ولا نتذكر ما كنا نفكر فيه وإذا أردنا ان نعطى رأيا فى شيء نشعر بأننا لا نستطيع حتى استكمال المسير او الوقوف حيث لم نستطع إبداء الرأي وكان هذا مبعث ألم لنا فكنا جميعا صامتين غافلين لا رأى ولا مشورة فأما التقليد مثل ما يفعل الباقون او السكون والجلوس استسلاما للدغات الذباب الذي كان يفعل بنا كل شيء فتجده فى الأذن والأنف والفم وعلى يديك وكان شيئا

عاديا ان تجد البعض منا فاتحا فمه والذباب يدخل ويخرج وكأنه وجد له عشا اما العيون التى قاربت علي ان تقفل فكان يقوم بلسع العيون التى تؤلم والجندي لا يستطيع ان يفعل شيئا حتى مجرد ان يُهش تلك الحشرات ولا يستطيع ان يقاومها .. اما كرمشه الجلد الخارجي وتورم الشفاه وحرق جلد الوجه والاصفرار العام للبشرة فكلها أمور لم نكن نراها شيئا غريبا حتى حالات الانهيار الجسدي لم نكن نشعر بأنها غريبة لأننا ننظر لبعضنا البعض وكأنما ننظر في مرآة فتري مثل الذي نشاهده أمامنا وبعد كل هذا نرى الموت قادما إلينا ثانية بعد ان شعرنا بأننا هربنا من الموت المتعدد الأطراف والأعداء المختلف الجنسية والنوعية نراه أمامنا على بعد أمتار قليلة.

مضى علينا أكثر من ساعة ثم شاهدنا الاعرابى على احد الأجناب يسير خلف جمله بعد ان يأسنا من حضوره وقررنا الانتظار الى ان ياتى الليل ونكمل مشوارنا معتمدين على أنفسنا .. وقف الرجل يتلفت يمينه ويسرة حتى شاهدنا وشاهدناه ثم أشار إلينا بالتوجه إليه ولهذا طلبت من احد الجنود ان يذهب إليه حتى لا نفاجأ بكمين يقضى علينا ، رفض الجندي وأيده زملاؤه الذين اقنعونى بان هذا عمل الضابط وليس الجنود واننى قادر على التصرف وهم الجنود المساكين لا يعرفون ما يعرفه الضابط .. لم اغضب فهذا فعلهم معي منذ بدأ الانسحاب الاختباء ودفع الضابط ليكون كبش فداء او يكون طوق النجاة .. تحركت بثقة واحتراس فى نفس الوقت سلاحي بجانبي فى جهة الاعرابى حتى يخشي ان يكون هناك أعداء فسوف يُقتل قبلي ولكن الرجل لم يهتم وهذا اعطانى انطباعا بأن كل الأمور على ما يرام .. وصلت إليه فإبتسم ابتسامة الشيطان مع وجهه القبيح وقدم التهنئة لي انا والدفعة على سرعتنا ونجاتنا من هذا الكمين الذي كاد ان يقضى علينا ، أشرت الى جنودي فحضروا دفعة واحدة ولم يحترزوا مثل ما نبهت عليهم قبل ذلك ، فيهرعون سويا او يختبؤن سويا وعلى كل حال هذه هى الحرب.

سرنا خلف الرجل فى رمال ناعمة تدفع بقدمك للأمام خطوة فتعود بك نصف خطوة وهكذا كان السير صعبا لم نتعود عليه فى مصر ، كانت مناطق غرود رملية او رمال متحركة بفعل الهواء والرياح وهى ناعمة جدا وغير متماسكة ومن أصعب الأماكن سيراً فى الصحراء ، تحدث الرجل عما سيقدمه لنا من ألوان الطعام من ضمن اتفاقية توصيلنا الى اقرب مكان آمن لقناة السويس وحصوله فى المقابل على ساعات اليد الستة نظير قيامه بهذا العمل .

تؤذن الشمس بالمغيب عن ذلك اليوم الفريد سواء لأننا نعيش ونتكلم وبطوننا بها طعام منذ الصباح او المياه التى معنا او على حمولة الجمل الذي كان يحمل مياها كثيرة موضوعة فى عبوات بلاستيك وقرب (جمع قربه) مصنوعة من جلود الماعز ، نسير خلفه ننفذ تعليماته ثم فاجأنا بنفس السؤال الذي توقعته .. هل أصابكم الخوف والرعب من الجنود اليهود وهم يقفون على رأس التل الذي قفزتم من فوقه .. لقد كنت مختبئا مع جملي وبعض البدو نتبعكم خوفا مما سيحدث لكم.

أجابه عامر سريع الاندفاع قائلاً: ربنا أنقذهم من أيدينا .. لقد أخذنا وضع الاستعداد وكنا ننوى قتلهم بمجرد ظهورهم أمامنا .. لكن حظهم كويس .. وقف الرجل ينظر إلينا بدهشة قائلاً: سلاحكم شغال .. بُيضرب بارود .. أجابه : تحب تشوف وأسرع بجذب الأجزاء فصرخ الرجل طالبا العفو وان يتركه لعياله فأمسكت بيده ناهرا إياه ان يعود لمثل تلك الفعلة ثانية .. تأكد الرجل للمرة الثانية ان هؤلاء الرجال قتلة ومندفعين وأنهم فى اى لحظة سيفتحون نيرانهم على اى شخص يحاول مضايقتهم او الاعتداء عليهم.

أراد ان يجذبنا الى صفه بفتح خط من المهادنة والملاطفة قائلاً: بأنه مستعد لتوصيلنا الى ما نريد دون الحصول على اى شيء .. أجبته بضيق وعنف بنبرة صوتي .. بلاش كل شوية تتكلم .. اتفقنا وخلاص.. اما إذا كنت لا ترغب

فى .. قاطعني قائلاً: بالله عليك يا شيخ ما تدور هذا الحديث .. انا خدامكم من غير شي .. وصلنا الى منزله او قصره الذي اسمعنا عنه الكثير طوال ساعتين او أكثر وقد غربت الشمس ولم يتبق سوى بعض الضوء المتبقي بعد الغروب .. المنطقة رملية بها خيمة بدويةُ مشكلة الألوان من أصواف الإبل وبعض قطع قماش وأطفال أصاغر يلعبون ونصفهم السفلى عاريا وبعض الماعز والأغنام وجملين ورجل عجوز وصبى فى العاشرة من عمره .. أصاب الجميع الذعر بعد أن شاهدوا رب الأسرة ويصحبته بعض الجنود المصريين فهذا معناه الاعتداء عليهم ولكن الرجل طلب من زوجته انُ تعد طعاما لضيوفه وان تحضره الى "مجعد"الرجال..

توجهنا خلفه لنشاهد مجعد الرجال الذي كنا نسمع عنه ولم نره وكان فى اعتقادنا انه مثل المنضرة فى ريف مصر المكونة من حجرة كبيرة وبها كنب بلدي وترابيزات وتفرش الأرض بسجاد او حصير حسب قدرة كل شخص أما "مجعد" الرجل هذا عبارة عن أربع قوائم من جريد النخيل ومحاطة من اعلي بأربع قوائم أفقية من الجريد ومغطاة ببعض الجريد وسعف النخل ولا تزيد مساحتها عن متر ونصف فى متر ونصف ومفتوحة من كل الجوانب .. مخصصه لحجب ضؤ الشمس فقط وجلسنا أرضا فوق الرمال الناعمة .. حضرت زوجته تحمل طبقاً كبيراً من الصاج المطلي باللون الأبيض به طعام لا نعرف نوعه كما ان زوجته عندما تسير او تحضر لا نعرف إذا كانت قادمة بوجهها او بظهرها كله ملفوف وأشياء لا نعرف عنها شيئا فى مصر .. الطعام المقدم رديء الطعم مقارنة بطعام البدوي الذي أنقذنا بالأمس ولكننا لسنا فى وضع الاختيار او الانتقاء لان الرجل احضر ما يأكلونه وهذا ليس بذنبه ولكن المشكلة كانت فى وضع الأطفال أياديهم فى الطعام حيث لا يعترفون بالملعقة وسقوط بعض بقايا طعام من أفواههم بالطبق .. تذكرت ظهر اليوم الخامس والمصارعة على بعض نقاط البول ..

لنشكر الله .. أكلنا قليلا لأننا كنا نرغب فى الوصول الى منطقة آمنة وبعيدة عن هذا الرجل الذي توجسنا منه خيفة من هيئته أولا ثم من تصرفه معنا وكدنا ان نلقى حتفنا بداخل المقابر.

أعدت زوجته الشاي .. تناولوا جميعا الشاي باستثنائي وقد اعتذرت باننى لا ارغب فى تناوله ليلا .. ومن منا نحن المصريين لا يرغب فى كوب من الشاي وفى ظروفنا تلك .. كنت ما أزال متوجسا من هذا الرجل وقد هاجمني خوف حكايات جدتي من آمنا الغولة والتى هاجمتني ذكراها امس أيضا .. كنت اعتقد ان الرجل قد يضع منوما فى الشاي وبعد ان نغط فى النوم يقتلنا او يسلمنا للإسرائيليين ويحصل على سلاحنا والذى لم يهدأ طوال الطريق بأنه يريد قطعة من هذا النوع ومستعد لدفع مبلغ كبير ثمنا له .. شعرت بالخوف ان نذهب فى نومنا ويفعل بنا اى شيء ولهذا رفضت شرب الشاي حتى يكون احدنا يقظا وإذا طلبت من احد جنودي ان يمتنع عن شرب الشاي بدلا منى فقد يرفض أمام عائلة الرجل وهذا شيء سيء وما مقدرته علي التصرف لو حدث ما يدور بفكري ، لن يستطيع التصرف عندما يشاهدنا جميعا نغط فى النوم وأصبح بمفرده أمامهم ، كان قراري صائبا رغم خيبة حدسي بما فكرت فيه ولكن المثل يقول"سوء الظن عصمة وُحسن الظن ورطة".

جلسنا حوالي ساعة أخرى ننتظر ان يبدي الرجل استعداده للسير ولكنه مازال جالسا والوقت يمر علينا ولا يشعر بقيمة هذا الوقت بالنسبة لنا .. سألته : أنت مستعد للسير معنا وتنفيذ ما اتفقنا عليه .. اعتدل فى جلسته قائلاً: ايوه .. نادا على شقيقه علىّ فحضر فقال له : جاهز يا خوي؟ .. أجابه الصبى الصغير جاهز وتأكد من ان شقيقه قد ملأ القربة مياه وانه يحمل معه بعضا من أرغفة الخبز.

نظرت إليه قائلاً: إحنا اتفقنا انك تطلع معانا مش الواد الصغير أخوك .. اعتذر الرجل بأنه علم بان بعض الدفعة قتلوا جملين بالقبيلة المجاورة وشربوا دماءها وهى ترعى فى الصحراء وانه يخشى ان يترك زوجته وأباه العجوز بمفردهما والأطفال أمام هجمات الدفعة .. جلست افكر ماذا افعل؟ ألغى الاتفاق او استمر وليكن على بدلا من شقيقه .. ناولناه ساعات يدنا الست وتحركنا مع علىّ ونحن نشفق على هذا الطفل من السير بنا تلك المسافة.

رحلة مع على بك الصغير

نحن الآن بعد العاشرة مساء وهذا التوقيت الذي نظر كل واحد فينا الى ساعته يودعها قبل ان نقوم بتسليمها الى"مسُعد" الرجل الذي اتفقنا معه و الشقيق الأكبر لعلى .. تحرك بنا الصبى ونحن نقول فى أنفسنا سينام منا هذا الطفل فى الطريق والليل وظلامه الدامس يغلف المنطقة ، لم يمض علي سيرنا أكثر من عشرة دقائق إلا وكان الصبى قد سبقنا ونحن نلهث خلفه طالبين منه ان يقلل من سرعته وينصحنا بان نسرع ونشد حيلنا حتى لا تدركنا الشمس صباحاً فى الطريق وتؤثر على سيرنا ولكن كيف نسير بأسرع من هذا خلف الصبى الذي كان يرتدى الجلباب وشبشب"زنوبة" فى قدمه العارية ويحمل قربة ماء وبعض أرغفة خبز ونحن الرجال العسكريين لا نستطيع اللحاق به وأصبح الموقف خطيراً فإذا فقدنا هذا الدليل وفقدنا اثره ماذا نفعل؟ معه الماء والخبز والاهم انه يعرف الطريق وقد ابتعدنا عن مكان القبيلة ولا نستطيع العودة لشقيقه ثانية نخبره بان شقيقه تركنا فى وسط الصحراء والذى كان يتباهى بها أمامنا قائلاً: حتخدوا طريق "جبال البرص" الجبال هادى ما يجدر يجرب منها اليهود ولا يعرفوا لها طريج منطجه أمان وبالله عليكم ما تعوجوا على وخليه يخلص مهمته ويرجع لداره بسلام .. إذن نحن نسير فى منطقة خطرة ليس بها ماء ولا إنسان وسنهلك إذا خدعنا هذا الدليل .. طلبت منه ان يخفف حمله وان يعطى احد الجنود القربة والخبز ليحملها عنه لكنه رفض .. سألته بألا يبتعد عنا كثيراً وطلبت من الجويلي خفيف الحركة ان يتبعه مثل ظله حتى إذا ابتعد عنا أوقفه حتى نصل إليهم ، فعل هذا وكل نصف ساعة تقريبا يتوقف الإثنين حتى نصل إليهما.

التعب والإرهاق غلبنا على أمرنا ورغبنا في ان نستريح من عناء السير وان نحصل علي شربة ماء وقسطا من الراحة ولكن عليا رفض قائلا بان هذا سيضر بنا كثيرا وعلينا قطع المسافة كلها حتى العاشرة صباحا. سأله احدنا وما هى تلك

المسافة؟ قال حتى بيت خالتى القريبة من الأمان خمسون كيلومترا .. هتفنا جميعا خمسون كيلو!! لماذا لا نقسمها على ثلاثة او أربعة أيام ولكنه رفض بأنه وعد والده وشقيقه بان يعودهما مساء الغد .. ان هذا الطفل سيسير مائة كيلو فى أربعة وعشرين ساعة .. بحسبة بسيطة لو لم يسترح سيسير حوالي أربعة كيلومترات فى كل ساعة .. شعرنا أننا صغار أمام هذا الطفل وأمام لياقته البدنية حتى فى اشد حالتنا الصحية لا نستطيع ان نسير تلك المسافة وبهذه الطريقة المستمرة ولكنها منطقتهم وحياتهم التى تعودوا عليها.

أخيرا أذعن على لرجائنا بان نستريح ساعتين او ثلاث خاصة أننا علمنا منه انه لم يتبق سوى ساعتين على ظهور أشعة الشمس .. إننا نسير منذ العاشرة تقريبا ونحن الآن فى الرابعة صباحا .. ست ساعات سير فى تلك الرمال الناعمة ليلاً وفى الظلام ولا نعرف الطريق ولا نعرف الى اى مكان نسير انها غُربة مستمرة سواء فى الحياة او في السير.. الصبى كان يعرف طريقه فى الظلام وينحرف يمينا وفى بعض الأحيان ينحرف يساراً ثم يساراً .. ونحن لا نعرف شيئا ولقد سلمنا قدرنا لهذا الطفل.

أوينا الى الأرض ندفن أجسادنا المنهكة فى الرمال حيث لم تكفنا البطانية وكانت مثار مشاكل بين الجنود بعضهم البعض كما كان لتأثير رطوبة الصحراء اثر على أصواتنا حيث درجة البرودة شديدة وقد أعيانا السير ونحن لم نستعيد بعضا من عافيتنا حيث كنا نعتقد غير ذلك ولكن مجهود الأيام السابقة ومسافة العدو قريبا من منجم الفحم استهلكت جزءاً كبيراً من طاقتنا ثم السير خلف الصبى بتلك السرعة الكبيرة والتى لم نتعود عليها قبل ذلك او بعدها كل هذا جعلنا نغط فى نومنا ونحن خالي البال ان يهرب هذا الصغير من مساعدتنا .. لم نشعر بالوقت ولكننا شعرنا بأشعة الشمس تضرب عيوننا المسهدة المرهقة فاستيقظ احد

الجنود وأيقظ الباقين فى عجلة من أمره ليخبرنا بان الصبى هرب وتركنا بدون مساعدة وقد حمل كل الزوادة معه.

جلسنا نضرب كفا بكف وان الله كلما أعطانا أملا سحبه منا وها نحن نرقد فى منطقة جبال البرص الذي قال عنها البدوي انها خطيرة وأننا إذا عبرناها تكون باقى المسافة أحسن حالا أمامنا سواء أمنا من هجمات اليهود او لوجود عشائر بدوية كثيرة لوفرة آبار المياه فى تلك المناطق .. ماذا نفعل؟

جلسنا القرفصاء حانقين لما حدث كلّ منا يمؤنب نفسه وزملاءه على عدم مراقبته ونحن رجال ستة يهرب منا هذا الصبى الصغير .. صاح احد الجنود ينادى عليه لكن دون جدوى .. قررنا مواصلة المسير متكلين على الله الذي لا ينسى عباده.

بعد ان سرنا عدة خطوات فوجئنا بوجوده نائما وبجواره قربة الماء .. شعرنا بسعادة غامرة وأسرعنا نحوه نوقظه ، استيقظ الصبى بملامحه الطيبة البريئة وناولنا بعض كسرات الخبز وشربنا الماء المثلج من اثر برودة الليل .. للحقيقة ان طعم المياه فى القربة رائع الى أقصى درجة .. وقف الصبى ينتظرنا حتى ننتهي من طعامنا الجاف البسيط وشربة الماء. أصبحنا أكثر نشاطا .. الساعة جاوزت العاشرة صباحا تقريبا وهذا هو توقيته حيث يعلم التوقيت من اثر ظل الإنسان على الأرض سرنا خلفه لنكمل مسيرة الليل ونحن أحسن حالا فقد حصلنا علي حصة من النوم كما أننا نشاهد طريق السير ونعلم الى اى جهة نحن سائرون وقد أطمأن حالنا بأن الدليل الذي يصحبنا إنسان مخلص واخبرنا قبل السير بأننا سرنا أثناء الليل أكثر من نصف الطريق اى حوالي ثلاثين كيلومترا وانه لم يتبق سوى عشرين كيلوا مترا وطالبنا بالشدة والعزم قبل ان تقوم الشمس بعملها .. نسير خلفه بنشاط والجميع يحدوهم الأمل بان نصل الى بغيتنا وإلي طريق مفتوح يصل بنا الى بر الأمان الى قناة السويس.

جاوزت الساعة الثانية ظهراً وقد أنهكنا السير تحت أشعة الشمس الحارقة وقرب مخزون المياه من النفاذ والمياه المتبقية اصبحت ساخنة وغير محببة المساغ والإعياء باديا علينا باستثناء الصبى ، طلبنا منه الخلود الى الراحة وكان هذا تعبيره (نخلد للراحة) وصلنا الى منطقة بها المئات من الإبل الضخمة التى ترعى بمفردها ومنظرها يثير الخوف وهى أشبه بحيوان الديناصور الاسطورى واخبرنا انها تتبع بعض القبائل وتعود بعد الرعي الى القبيلة ولا يستطيع احد الاقتراب منها لانها تهاجم من يقترب منها .. أصابنا الخوف من تلك الحيوانات التى لم يكن لنا بها خبرة قبل ذلك .. اختار مكاناً مهجوراً من قاطنيه عبارة عن بعض الأعشاش المصنوعة من جريد النخيل وكانت الرياح جافة ساخنة واهم ما لفت نظري قبل ان ينتقي كل واحد منا عشه لينام بها انه قال ان تلك المنطقة كانت تعيش بها خالته وانه كان يأتى من داره الذي كنا به بالأمس الى هذا المكان ليستلف لامه "المنخل" استوضحنا منه .. تقصد المنخل الذي ينخل الدقيق أجابنا ايوه مُنخل الطحين .. نظر كل الى الاخر بدهشة ان يقطع تلك المسافة لكى يحضر منخلا لامه .. توارينا داخل الأعشاش والأنفاس الحارة القاتلة مازالت تهاجمنا .. نمنا والعرق الغزير يتفصد من جباهنا وأجسادنا .. لا نعلم المدة التى استغرقتاها فى النوم ولكن النوم فر من عيني بسرعة من شدة الحرارة وذهبت ابحث عن جنودي وعن الدليل واستطعت جمع الجنود ولكن للمرة الثانية نفقد الدليل .. ما هذا يا ربى؟ كل فترة نجد معضلة أمامنا .. صاح البعض مناديا عليه وأخيرا ظهر من أين؟ .. الله اعلم.. قام الصبى مرهقا هو الاخر من درجة الحرارة المرتفعة وسار أمامنا متعبا مترنحا وقد أسعدنا هذا بأن أصبح مثلنا لأننا كنا نخجل من نشاطه وكسلنا .. توقف برهة قائلاً: لقد اقتربنا .. لم يتبق إلا عدة كيلومترات .. سأله احدهم.. كم تقريبا؟ فنظر يمينا ويسارا قائلاً: من ثلاثة الى أربعة كيلومترات وأشار بيده فى هذا الطريق .. سرنا خلفه ونحن اشد نشاطا فلم

يتبق على نهاية تلك الرحلة قصيرة الزمن طويلة المسافة إلا عددا محدودا من الكيلومترات .. سار بنشاط مودعا الوخم الذي أصابه خاصة ان درجة الحرارة بدأت فى اللين وقد تغير الحال وهبت بعض النسمات الرطبة المنعشة .. مازلنا نسير خلفه الى ان توقف مشيراً الى خط البصر أمامنا مباشرة قائلاً: تلك أشجار النخيل هدفنا .. أصبحت المسافة اقرب وفى حدود الكيلومتر الواحد. شعرت بإنهاك في قواي بعد أن اطمأن قلبي على هدفنا فساروا جميعا بسرعة وأبطأت في السير سواء من الإرهاق او لشعوري بالطمأنينة .. ألاحظهم على بعد مئات الأمتار ، جلست قليلا استعيد انفاسى وعافيتي ثم أكملت سيرى وانا مازلت خائر القوى وقد ضايقني هذا وأقول فى نفسي بعد ان اقترب منا الهدف هكذا تخور قواي ، يجب على ان اصمد حتى أصل إليهم لأننى لو تأخرت أكثر من هذا فسيقبل الليل بعد ساعة .. أريد ان أكون معهم وان أكون قريبا من الماء خاصة اننى شعرت ان حلقي قد جف واحتاج الماء وندمت لتأخري وأقول أنهم الآن أمام بئر المياه ، أنهم محظوظون ولكن مازالت قواي تخور أكثر فأكثر خاصة اننى صعدت تلا من التلال الكثيرة التى كنا نجتازها صعودا وهبوطا وفى نهاية صعودي لهذا التل المرتفع جلست لاهثا استعيد قواي وانا متخوف ومضطرب مما وقعت فيه فى نهاية مشواري ولكن بعد جلوسي فى نهاية قمة المرتفع شاهدت قطيع من الخراف والماعز ولكن أهم ما شاهدته ولفت نظري وانا على بعد اقل من مائة متر من ذلك القطيع البدوية التى كانت ترعى تلك الأغنام حيث انها كانت فى وضع غير طبيعي حيث رفعت ملابسها لتجفف به عرق وجهها وهى لاهية عن ان يراها احد فى هذا التوقيت .. الفتاة تتمتع بمسحة من الجمال .. فسيقانها بيضاء ومستقيمة .. انها مثل سيقان ممثلات السينما. أغمضت عيني لفترة وندمت على اننى سمحت لنفسي بان أشاهدها فى هذا الوضع وهى آخذة الأمان ، بعد فترة قليلة فتحت عيناي وقد عادت الى وضعها فقمت سائراً متجها نحوها حيث

انه اتجاه البئر الذي كان يسير إليه جنودي ، شاهدتني ووقفت تنتظر قدومى وهى في حالة إنتباه بكل جوارحها وعندما اقتربت منها ألقيت عليها التحية "السلام عليكم يا مستورة" أجابت تحيتي بمثلها وابتسمت بكل ملامح وجهها الجميل المعبر .. الفتاه صغيرة السن فى حدود العشرين من عمرها وجسدها ممشوق وبيضاء ولكن أشعة الشمس قامت بعملها معها وأصبح لونها برونزيا وبه بعض الاحمرار وملامحها صغيرة وجميلة .. نظرت إلى قائلة: "تشرب"؟

سألتها : هل معك ماء؟.. نفت ذلك وهى تقول معي لبن ماعز وهو أحسن من الماء .. وافقتها حتى احصل على جزء آخر من الراحة .. كانت تحتفظ بعبوة صفيح وقامت متجهة نحو احدى الماعز والذى كان واضحا ان ضرعها كبير وحلبت امامى الماعز وأحضرت لي علبة الصفيح لأشرب منها. كانت الكمية التى أحضرتها تقترب من اللتر .. شربت وانا مستعد لان ارجع ما فى معدتي من هذا اللبن الذي لم أتذوقه من قبل ولكن من أول جرعة تأكدت من صدق حديثها فهو أحسن طعما من الألبان التى نشربها وتعودنا عليها كما انه ذو طعم حلو اى به كمية من السكر.. أخذت جرعة كبيرة شاكراً لها هذا الصنيع ثم سالتنى ستلحق بإخوانك الى البئر؟ فأجبتها بالإيجاب .. قالت: سنسير سويا وهكذا أمضيت المسافة الباقية برفقتها ورفقة الماعز والأغنام وكلبها الذي معها .. وصلنا الى البئر حيث وجدت جنودي جالسين بعيداً عنه وبجوارهم "**على**" والذى بادرني بأنه سيعود الى داره فسألته هل نحن قريبون من قناة السويس؟ فضحك الصبى قائلاً : أنكم على مسافة لا تقل عن مائة وعشرون كيلو .. تلقيت هذا الخبر كالصاعقة واستنتجت لماذا الجنود يجلسون هكذا وهم فى حالة من الحزن والضيق .. ثم استطرد الصبى قائلا: نحن عدلنا فى مسار طريقكم لأنكم كنتم فى المحور الأوسط والذى به اليهود بالإضافة الى المحور الجنوبي اما المحور الشمالي فلا

يهود به وكل ما تم هو تصحيح الوضع بالعودة الى ذلك الطريق والذى ستسلكونه وكل ما به من البدو والمياه المتوافرة حتى قناة السويس.

رضخنا لما قاله لنا سواء عن قناعة او غير ذلك ، توجه احد الجنود لملىء زجاجة المياه التى زودنا بها الرجل كريم الخلق الذي أنقذنا فى أول مرة .. لكن احد البدو نهره طالبا منه الابتعاد حتى تنتهي النساء من الحصول علي احتياجاتهن وهذا شيء منطقي ومعقول ولكن من غير المنطقي ان يتحدث معه بتلك الفظاظة المؤلمة على النفس .. بئر المياه ليس مثل الآبار التى شاهدناها من قبل بل عبارة عن طلمبة مياه مثل الموجودة بالقرى داخل مصر ويقوم من يريد الحصول على الماء بتحريك اليد فتخرج المياه من باطن الأرض وهذا دليلٌ على ان المياه الجوفية فى تلك المنطقة قريبة من سطح الأرض. كانت المنطقة غريبة على مشاهدنا .. عبارة عن واد منخفض به طلمبة المياه وتحيط به بعض أشجار النخيل وبعض الحشائش الضخمة الناتجة من تسرب المياه من الطلمبة أثناء التشغيل ثم مرتفع من الأرض الرملية به العديد من أشجار النخيل وبعض منازل البدو التى هى أحسن حالا عما شاهدناه فى منطقة جبل المغارة حيث يقترب شكلها من منازل الفلاحين بداخل الوادي مع بُعد المسافات بين المنازل لسعة مساحة الأرض .. انتهت النسوة من الحصول على المياه فتقدم الجندي لملىء الزجاجة حتى نروى عطشنا ولكن البدوي أشاح بيده فى وجه قائلاً .. بعد ..غور غادي .. بعد ما الغنم تشرب وتروى .. أصابنا الضيق والتوتر فالرجل يحاول اهانتنا وما ذنب أشخاص يحتاجون الماء للشرب وملىء الزجاجة والذى لن يستغرق اقل من دقيقتين وبعدها نجلس حتى يسقى كل سيناء .. جلسنا ننتظر على مضض حتى ينتهي من سقاية الأغنام وكان الرعاة يحضرون ويعودون لسقاية الأغنام والماعز والجمال وما لهذا من احتياج لوقت وملىء أوعية للمساعدة فى ان تشرب تلك الدواب بسهولة .. مضى على الغروب أكثر من ساعة ونحن

جلوس ننتظر ان يصدر هذا البدوي أوامره العليا بان يسمح لنا بان نقترب من الماء لنرتوي ولكنه لم يفعلها.

لم يعد هناك أغنام ولا بشر فى احتياج الطلمبة وبقينا ساكنين حتى نعزز أنفسنا ويطلبنا حتى نعيد جزءاً من كرامتنا المهدرة على لسانه الوقح لكنه لم يفعل هذا بل ان احد جنودي نبهني بأنه يفك رأس الطلمبة حيث سيأخذها معه وبالتالي يمنعنا من الشراب .. فارت الدماء فى رأسي وشعرت ان هذا الإنسان الهمجي يجب ان يلقن درسا قاسيا هو ومن على شاكلته .. حركت عتلة الأمان لسلاحي وجذبت الأجزاء وأطلقت دفعة نيران جهة الرجل فخرجت أصوات الطلقات محدثة دويا حوله فسقط أرضا صارخا طالبا النجدة وبدون ان يطلبها هب البدو قادمين على أصوات تلك الطلقات شديدة الصوت فى جوف الليل الساكن.

وقفوا أمامنا وهم يشاهدون هذا الجلف الغبي يرقد علي الرمال دامعا بعينيه نادما انه منعنا من الحصول على المياه وشاهد القوم رأس الطلمبة بيده وهنا فهموا السبب فيما حدث .. بكل صوت خشن وعنيف صرخت بهم .. المياه أرسلها الله من الأرض للجميع ولا يجب ان يمنعها احد عن محتاج إليها وإذا لم تكن لك ديانة ولم تفهم تعاليم الإسلام فعلى الأقل احترم الإنسانية وأنت أيها التافه القذر تتحكم فى جنودي مانعا عنهم المياه .. اى تصرف لمثل هذا هو الرمي بالرصاص لاى إنسان لا يقدر قيمة الجندي ونحن فى حالة حرب والجنود محتاجون المياه .. أحذركم ثانية بأن اى تصرف مثل هذا معنا او مع جنود آخرين هو قتل عدد منكم بلا رحمة .. وبنفس طريقتهم أمرتهم .. بعدوا .. بعدوا .. غوروا من امامى (فى الحقيقة لا اعلم كيف تصرفت على هذا الوضع وانا المتحكم فى اعصابى منذ ثورة الدمنهوري حين طلب منى الانسحاب) كنت اضحك مع جنودي على هذا التصرف حيث قال احدهم .. ثار الجمل!!

بطبعي لا أميل إلي العنف ولكن فى مثل ظروفنا تلك شعرت ان البعض من أبناء سيناء كانوا كارهين للمصريين وكأننا نحتلهم وجاء الخلاص على يد الاسرائيليين.

بعد هذا جلست أفكر لماذا هذا التصرف سواء من هذا البدوي أو من مسعد شقيق علي الذي رافقني خلال رحلة الخمسة والخمسين كيلو بجبال البرص؟ لابد ان هناك شيئا سيئا فى علاقتنا مع البعض منهم وهذا ليس تعميما فمنهم الكثيرون ممن هم على خلق ووطنية ولكن لا يجب ان يكون التعاون بهذه الطريقة بين جيش مهزوم يحتاج العون فى تلك الصحراء الضخمة القاتلة وأبناء المنطقة حتى لو لم نكن من بلد واحد ولكننا على الأقل جيران.

كانت الإجابة علي سؤالي هذا علي لسان أحد الشيوخ من البدو حيث قال لي بعد هذا الحادث ، هذا ما نجحت فيه الحكومات المتعاقبة قبل الثورة وبعدها وهو إشعارنا نحن البدو أنكم لستم من داخل الوادي وكأننا من دولة أخرى ولهذا كانت الحكومة تضع نقاط جمارك قبل قناة السويس من الشرق .. وتوجد منطقة فى القنطرة شرق تسمى الجمرك وبها رجال الجمارك كأنك قادم من خارج الحدود .. كما كان لأبناء الوادي هم الآخرين عبئا فيما حدث مثل الاستهانة بهؤلاء الناس والتقليل من قيمتهم مثل ما كان يحدث مع أبناء الصعيد قبل ذلك .. سياسة استعمارية فاسدة.

غادر الجميع المنطقة بعد ان قام هذا الإنسان الهمجي رديء اللسان بإعادة رأس الطلمبة الى مكانها كما وبخه احد المشايخ قائلاً: له لم نفعلها من قبل ونرفع رأس الطلمبة كيف تفعلها الآن وأمامنا الدفعة يحتاجون مياه .. لقد ظلمتنا قبل ان تظلم نفسك واعتذر الرجل بالإنابة عن القبيلة.

شربنا وارتوينا ونحن سعداء بان وصلنا الى تلك المنطقة وبها طلمبة مياه .. يا للحظ الحسن ، كما كان لرد الفعل العنيف جهة هذا الهمجي وما فعله بالجنود

اكبر الأثر النفسي بأنه لا يجب ان نهادن من يضايقنا ويغلقوا أمامنا باب الرحمة التى خلقها الله وبعثها إلينا .. لا يجب ان نستكين وعليهم ان يعلموا ان هؤلاء الرجال من جيش مصر وانهم ليسوا أذلاء بعد ان ترامى لهم هذا الإحساس بأننا مساكين نحتاج العون .. ان كل ما نحتاجه هو المياه وتلك مياه الدولة ونحن من أبناء تلك الدولة ولا جباية او فرض سلطة لأحد على المياه .. أسعدنا هذا الرد والذى جاء بنتيجة فعالة ولوتم هذا التصرف منذ الوهلة الأولي والتي أهان فيها الجنود لوقف الجميع احتراما ولكن التغاضي والمساومة تأتى بنتائج عكسية.

شاهدنا اثنين من البدو قادمين فى اتجاهنا حاملين شيئا ما فى أيديهم وقد تبين أنهما شيخا القبيلة الذين وجه لومها الى بطل إبطال الطلمبة وشخص آخر قدما التحية ووضعا أمامنا طعاما وهم يقدمون اعتذارهم للمرة الثانية .. اعتذرت عن قبول الطعام وقبلت اعتذارهم عما حدث من ابن القبيلة المخطئ تحدث أحدهم قائلا: أن الطعام شيء آخر وهو من صفات أهل البادية ومن مروءة العرب وانه لا مجال لعدم قبوله لان هذا سيسيء إليهم وتصبح القبيلة كارهة لنا نحن الدفعة .. شكرناه وقبلنا الطعام وغادرنا بوعد بإرسال الشاي إلينا .. كنا جوعي فهذا هو الطعام الذي نتناوله منذ ما يقرب من ثمانية وأربعين ساعة لأن بعض كسرات الخبز الذي وزعها علينا فارس "صحراء البَرص على بك الصغير" لم تكفنا .. تقدمنا للطعام بيد ثابتة فالله يرزقنا من فضله ويسخر عباده لتقديم العون لنا.

كان الطعام طيبا وكمياته تزيد عن حاجتنا رغم الظروف التى كانت تخيف البدو من انقطاع الإمدادات من مصر بعد الحرب .. بعد قليل أحضر الرجال الشاي وجلسا معنا نتسامر ونتحدث فى كل شيء باستثناء الحرب ولكن التركيز الأكبر كان منصبا على جمال عبدالناصر الذي شعرنا من خلاله مدى عشق هؤلاء البدو له كانت كل حياتهم عبدالناصر يمجدون أعماله الوطنية فى مصر والعالم العربي ثم يزيدون من المعلومات التى لا نعرفها عن المساعدات العينية

مثل التموين وحفر آبار المياه وإرسال القوافل الطبية لعلاجهم فى أماكن تواجد القبائل فى الصحراء بل القوافل البيطرية لعلاج الأغنام والجمال ثم تشجيع أبناءهم بل وبناتهم على التعليم بمجانية التعليم وإعطاء مكافآت مادية للمتفوقين منهم.

أسعدنا هذا المديح فى حق هذا الرجل وانتهت جلسة المصالحة وتبين لنا ان قول الشاعر العظيم احمد شوقي فى قصيدته الرائعة" سلو قلبي " والتى تتغنى بها ام كلثوم كان فى محله :

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وما استعصى على قوم منال إذا كان الإقدام لهم ركابا

ان كل ما حدث أثناء تلك الليلة من الشراب والطعام والشاي والمؤانسة والاعتذارات هو رد فعل لمبدأ القوة التى يفهمها الصديق قبل العدو .. تلك هى المرة الأولى التى نتعامل فيها مع أناس خارج الحقل العسكري ومن ثقافة وفكر غير الفكر داخل الوادي هذا الفكر المنعزل الذي يعتمد على شيوخ القبائل والمبادئ المستمدة من الدين الاسلامى والجذور العربية تختلف بكل المقاييس والنتائج عن القوانين الوضعية والعادات التى توارثناها جيلا بعد جيل.

تفهم الجنود الرسالة وأيقنوا انها البديل لعدم التعاون وعلق الجندي عطية قائلاً: لماذا لم نتبعها مع هذا البدوي "مُسعد" والذى أرسل شقيقه الصغير معنا امس وحصل مقابل ذلك على ست ساعات يد لا تقل قيمتها عن أربعمائة جنيه"الدولار يساوى ٣٥ قرش"ماذا فعل لكى يحصل على هذا المبلغ وماذا فعلنا لندفع كل شيء نملكه ، إننا لم نقم بتهريب مخدرات او شيء ممنوع سنكسب من ورائه فيكون الطمع فينا بالدفع طالما ستكسب فعليك بالدفع .. ماذا كان سيضيره ان حضر معنا وعاد مثل أخيه .. ان شقيقه كان يقطع هذا المشوار من اجل ان يحضر منخلا لامه من عند خالته .. كان يعتبرنا منخلا!!! .. فعلا كان يجب

التعامل معه بتلك الطريقة لان هؤلاء القوم إذا شعروا إننا لقمة سائغة سيطيحون بنا ويعرقلون سيرنا ولن تكون المهادنة عملا طيبا ذا عائد مفيد لنا.

صباح اليوم التالي أخذنا حاجتنا من المياه وتركنا المكان حتى لا نجلس مثل الشحاذين هذا يحضر طعاما وذاك يحضر خبزا خاصة لأن الظروف أثناء الحرب تؤثر على المواد الغذائية، تركنا المكان رغم معارضة البعض لهذا فالماء موجود والظل موجود تحت الأشجار المنتشرة والطعام موجود ، أوضحت لهم وجهة نظري وأقنعتهم وقالوا هذا مضمون فلا وقت للكرامة ضد الجوع والعطش.

ابتعدنا عن هذا المكان الرائع الجميل بما فيه من نعم حباها الله بها وأنعم عليهم بواسطة تلك الطلمبة البدائية البسيطة التكوين أقيم مجتمع كبير من البشر والأشجار والاهم الأنعام .. تلك الحيوانات الرائعة والتى كلها خير من ألبان.. وزبد.. جبنة .. لحوم .. اصواف .. جلود .. إنجاب المثيل لها كما انها تحمل الإنسان والأمتعة من مكان لأخر .. كل هذا بدون تكلفة كل ماهو المطلوب بعض الماء وتسير الحياة طبيعية حيث تنبت الأرض من أعشابها وتأتى تلك الحيوانات تتناول تلك الأعشاب وتسمد الأرض .. والحياة تسير.

شعرنا ان نصف اليوم الذي قضيناه فى تلك المنطقة كان رائعا جميلا وها نحن نودعه للمجهول فلا معلومات لدينا وكنا نسير والله هو الهادي والمستعان وقد أسرعنا الخطى حتى نقترب من اى بقعة جديدة نستريح أسفل أشجارها ونجد الماء والراحة .. اما الطعام فكان فى نهاية رغباتنا رغم شدة الاحتياج إليه .. مازلنا نواصل السير واقترب منا وقت العصر دون العثور على اى بادرة جديدة وقد تسلل اليأس والضيق بالجنود واقترح احدهم ان نعود لتلك القبيلة ونعيش هناك حتى نعثر على احد يرشدنا الى الطريق السليم .. وجد هذا الاقتراح تأييدا كبيرا من الجنود،سألتهم : من منكم يعرف طريق العودة الى تلك القبيلة؟ ترددوا والبعض نفى كيف يعود؟

عـزبة الشياطين

توارت أشعة الشمس وتوارى معها أملنا فى العثور على أى بادرة أمل .. كنا فوق تل من الرمال وآخر ضوء لهذا النهار سيزول ويعم الظلام الدامس وإذ بنا نشاهد اثار أشجار النخيل على مدى البصر اعتقد انها كانت على مسافة كيلومترين من مكاننا ولكن اللافت للنظر ان تلك البقعة الخضراء كانت بجهة الشمال حيث يقبل من جهتها هواء الشمال المنعش القادم من جهة البحر .. حقا لقد تعلمنا من رحلتنا هذه ما لم نتعلمه طوال حياتنا السابقة.

كانت سعادتنا لا توصف فبدون مساعدة عثرنا على منطقة خضراء بها مياه وزرع واحتمال بشر .. ولكننا تذكرنا حديث شيخ القبيلة الذي استضافنا امس حين نبهنا عند الاقتراب من تلك المناطق خاصة أثناء الليل بأنه من الواجب علينا ان نحترس لاحتمال وجود يهود بها فيطلقون النار علينا فورا .. او احتمال وجود "ولاد حرام" من قطاع الطرق والمهربين وغيرهم من الفاسقين وهؤلاء احتمال ان يطلقوا عليكم النار.. فكونوا حذرين وامنعوا الحديث واقتربوا من جهة الجنوب لا من جهة الشمال حتى لا تحمل الرياح أصواتكم ورائحتكم والشمال هو من جهة البحر ويكون شمال يدك وأنت ناظراً جهة قرص الشمس صباحا وليلا في إتجاه النجم اللامع "النجم القطبي أو كوكب الزهرة"

تذكرنا حديث هذا الرجل الطيب الذي يعلم الكثير من المتغيرات والمستحدثات أثناء الحرب ويشعر بحداثة أعمارنا وجهلنا بقواعد اللعب فى الصحراء وان كل ما تبغيه هو العودة لمصر ولهذا لا نضع قيوداً على تصرفاتنا معتقدين ان الجميع أبرار مخلصين .. أثناء السير ليلا فى اتجاه ما رصدناه من النجم القطبي لنسير عليه تلك المسافة حتى نصل لتلك الواحة الخضراء هبطنا منحدرا وجلسنا نتذكر حديث الرجل امس .. ها نحن ندخل على هذا المكان المجهول ليلا ونحن لا نعرف شيئا عنه ولهذا فإن احتمال وجود شيء مضاد

لمصالحنا أمر طبيعي .. كان الرأي إما الانتظار للصباح حتى يصبح كل شيء واضحا وإما ان نغامر ونتجه الى تلك الواحة مع الاحتراز وعدم إحداث اى صوت ونكون قريبين من بعضنا البعض .

بهدوء تسللنا فى اتجاه الواحة وقد مضى من الليل أكثر من ثلثه فالساعة تقترب من الحادية عشرة مساء بالتقريب حيث لا نملك أداة للوقت ولكن بمرور الأيام تعودنا ان نحسب الوقت والزمن .. وصلنا الى المرتفع والذى تقع خلفه الواحة بعد ان سرنا بحذر حوالي الأربعين دقيقة .. كان اتجاهنا للواحة من جهة الجنوب كما علمنا من شيخ القبيلة فلا تحمل موجات الهواء أصواتنا وحركتنا ويفاجئنا من يتربصون بنا .. كنا نضحك من سيتربص بهؤلاء الجنود المنسحبين بعد هزيمة جيشهم سوى الإسرائيليين، لكننا تنبهنا الى ان العدو قد يكون أشخاصا آخرين ويجب علينا الحذر والترقب حتى نتجنب ما يكرهنا عليه الآخرون خاصة ليلا.

نحن الآن فوق قمة التل الرملي الذي يشرف على الواحة ونشاهد من مسافة لا تقل عن خمسمائة متر أنوارا منبعثة من عدة مشاعل وفوانيس تعمل بالكيروسين ونيران مشتعلة للطهي ورائحة شواء مع ضحكات منبعثة لرجال يتخللها أصوات نسائية ضاحكة بأصواتهن الناعمة الحادة .. مازلنا رقودنا على بطوننا نستطلع هذا المنظر الذي لم نشاهده طوال الأيام السابقة ولكننا سمعنا صوتا قريبا لرجل وامرأة يتحدثان همسا وكان حديثهما بألفاظ نابية تتخللها كلمات جنسية بذيئة .. ومما يقولان سمعنا ما كان جديدا علي مسامعنا منذ بدء رحلتنا.

أرهفنا السمع أكثر فأكثر فأضحت الاصوات ظاهرة واضحة وتيقنا ان الرجل والمرآة فى وضع جنسي ساخن من الاصوات المتبادلة بينهما .. عدنا للخلف قليلا حتى لا يسمعنا احد وكان من رأى الجندي فراج ان نهاجمهما ونقضى عليهما اما الآخرين فقد انتقدوا ذلك بان الله حليم ستار ومصطفى أبن الإسكندرية أبدى إعجابه بهذا قائلا "ايوه يا جدعان حاجه تفتح النفس .. والمرسى أبو العباس الولية

دية باين عليها نتانة ميه ميه" طلبت منهم غلق باب المناقشة رافضا الهجوم عليهما ليلا لأن هذا ضد الدين والأخلاق فتضايق فراج من هذا قائلا: إيه يافندم .. يعنى حنتستر عليهم .. طلبت منهم الصمت ، صعدنا للأمام وبعد قليل انتهى ما بينهما وهما يتبادلان عبارت الثناء كل على الاخر.. كل هذا كان جديدا على مسامعي ولم اسمع او أشاهد مثل تلك الأفعال .. تحركنا جهتهم وكان من خلفهم مصطفى وعامر بينما جلست بعيدا فى الأمام ومعي جويلي المندفع وتحرك إليهم عطية وفراج شاهرين أسلحتهم بعد ان جاءهم من خلفهما صوت يطلب منهما عدم إحداث اى صوت وإلا سيطلقون عليهما النار.

سكن الرجل وانهارت المرأة باكية لما سمعته ورأته حيث انها لم تكن زوجة ذاك الرجل وهربت أثناء انشغال الأسرة بالهرب الى الصحراء وتقابلت مع هذا البدوي الذي كان يحاول التقرب منها، كانت قصة دنيئة نسمعهما ويحق شرعا جلدهم ورجمهم لكننا لم نفعل لظروف الحرب وثانيا كان الظلام شديدا ولم نعلم ما حدث .. هل هو حادث زنا او حب فقط ، لم يكن هناك ما يؤكد علاقتهما.

اخبرنا الرجل انه يعمل "تاضورجي" يتبع القبيلة او بمعنى اصح تجار المخدرات بسيناء وان هذا وكرهم .. سارا أمامنا ونحن خلفهما موزعون على خطين بفاصل خوفا من مهاجمتهم لنا وهؤلاء لهم سطوة وجبروت فى تلك الأمور.

وصلنا الى مكان تجمعهم وشاهدناهم فرحين سعداء يحتفلون بما أنجزوه فى تلك الأيام من تجارتهم فلا قانون فى سيناء والبلد فى حالة فرقة وكل الأجهزة تحركت الى قناة السويس ومن تبقى منهم اسروا بمعرفة اليهود .. وقف الرجل والمرآة أمامهم وهما فى حالة من التوتر والمرآة متخوفة فسألهم زعيمهم عن سبب تركهم لمكانهم ، لم أترك لهما مجالا أو فرصة للإجابة فظهرت إليه يحيط بى جنودي طالبا منهم عدم التحرك او استخدام السلاح لأننا وحدة منسحبة ولا يقل عددنا عن ثلاثمائة فرد وينتظرونني خلف التل وكل ما نحتاج إليه بعض العون من الطعام

والماء وكيفية الاتجاه الصحيح لسيرنا .. كنت أتوقع مقاومة منهم ولكنهم كانوا أكثر ذكاء وشجاعة حيث طلب زعيمهم من معاونيه جمع بعض الإعانات لمدنا بها عارضا إرسال بعض أتباعه للسير معنا ولكني شكرته حتى لا يحدث لهم مكروه ويتعرف عليهم اليهود ويأتي بضرر لهم وهم الباقون فهى أرضهم .. اسعد هذا الرجل وشعر إننا نشعر بهم ، أكملت حديثي بان كل ما عرفته عنهم لا يعنينا من قريب او من بعيد لكن الذي يهم هو المساعدة وعدم الغدر بنا.

هتف زعيمهم بأنكم من الآن إخوة لنا وقد أتى معاونوه بما طلبه منهم وكانت كميات كثيرة من الطعام ولوحظ من ضمن ما يحتفظون به هو تعيينات الجيش الجافة والمحفوظة من علب لحوم وخضروات تابعة لشركة قها ومكتوب عليها حظر بيع لانها تخص القوات المسلحة كما شاهد بعض جنودي أكياسا "أجولة" لأوراق مالية تتبع المنطقة العسكرية الشرقية .. لقد سرقوا كل شيء.

حصلنا على ما نريد وحصلنا على الوصف لطريق السير والمعالم التى ستقابلنا فى الطريق والبُعد عن الأماكن الخطرة التى ينتشر بها اليهود كما قصوا علينا بعض مآسي الحرب وقتل الإسرائيليين للأسرى المصريين والتمثيل بأجسادهم ، اوضح زعيمهم بأنه علينا ان نسلك الطريق الأوسط او الجنوبي لأن اليهود حضروا منذ الأمس إلى الطريق الشمالي وأقاموا عددا من الكمائن لقتل المصريين ، رغم أنهم تجار مخدرات إلا أننا شعرنا بأنهم ذوى قلوب رحيمة ومتأثرين بما حدث لجيشنا ناعين حظهم الذي سيوقعهم تحت الاحتلال مرة أخرى مثل ما حدث فى حرب ١٩٥٦ راجين من الله ان ينهيه بأسرع ما يمكن.

تبين لنا ان هؤلاء الرجال رغم أنهم يتاجرون فى المخدرات ومعرضون للمخاطر إلا أنهم يصطحبون عددا كبيرا من النساء وهن بالقطع لسن بزوجاتهم ولا بأقربائهم نظرا لما بدي من تصرفاتهن من خلاعة وميوعة وما ظهر من لباسهن ومن أجسادهن ولم تكن تلك عادات البدو بسيناء التي نعلم عنها. كما كانت المرآة

تترك هذا الرجل لتذهب لتجالس آخر ضاحكة معه مائلة بجسدها او صدرها نحوه مما دفع بزعيمهم الى طلب الاحتشام أمام الدفعة قائلا ان هؤلاء الرجال يحاربون بالإنابة عنا فلا اقل ان نقدم لهم الاحترام الواجب .. قام الرجل مودعا مصافحا لنا شاكرا لكل ما قيل من إننا لن نبلغ أحدا عنه لان هذا ليس من شأننا وقد كان لهذا تأثير قوى عليه .. تركنا المكان ونحن مازلنا على حالة الاحتراز حتى ابتعدنا وعاد السمر والضحك وخلاعة النساء لتكتمل المنظومة"مخدرات ونساء عاريات باغيات"

ابتعدنا عنهم مسافة آمنة ونقفُ برهة نتصنت لنستمع حتى لا يرسلوا أحدا خلفنا فيقضوا علينا فى الحال وهم قوم ليس لهم آمان ولكنى اعتقد أنهم خشو منا عندما علموا انه يتبعنا جيش قوامه ثلاثمائة رجل بأسلحتهم وهم يعلمون ماذا يحدث فى مثل تلك الظروف حيث سيجتاحهم الجنود ممزقين أجسادهم بأسلحتهم .

أمضينا ليلتنا سعداء بما حققناه من نصر بالحصول على الطعام وشعرنا بان للقوة قيمة وهيبة ومالنا ونحن نستجدى بعض البدو لكى نشرب شربة ماء وهم لنا رافضون كارهون ولكن السلاح جعل الجميع يقدرون وضعنا ولهذا ازداد تمسكنا بسلاحنا بعد ان جال في خاطرنا فى الأيام الأولى من الانسحاب إلقاء سلاحنا والتخفف من حمله وحمل الذخيرة خاصة في حالات العطش المهلكة والتي ألمت بنا جميعا. حمدنا الله لتراجعنا عن هذا الخاطر ليسُ حبا فى سلاحنا ولكن من يدافع عنا لو حدث لنا مكروه أثناء السير.. أذن فلنحافظ على سلاحنا.

صباح اليوم التالي شمرنا عن سواعدنا لنظافة السلاح والذخيرة من بعض الشوائب وخاصة ذرات الرمال التى تتسرب الى داخل أجزاء السلاح مهما حافظت عليه ، كل فرد فينا اقتطع جزءا من الفانلة الداخلية لهذا الغرض .. شعرنا جميعا إننا فى معركة وقد دفع هذا بالجندي مصطفى الى ان يصرخ قائلا: ايوه يا جدعان لو نعملوا عصابة ونقطعوا الطريق على تجار المخدرات .. يا مرسى .. حنلمو فلوس يامه ونعيشو كويس.. اضحك هذا زملاءه ، لكن ابن الصعيد تلقف هذا

التصريح قائلاً: إيه رأيك يافندم إننا نقوم بعمليات عسكرية ضد ولاد الرفضي اليهود الملاعين .. يعنى لو ربنا كتب لنا السلامة نرجع كده من غير ما نكون عملنا حاجة .. الله يرحمه سيادة العقيد قائد الكتيبة فضل فى الموقع لوحده ومعاه الجندي المراسلة حنفى وتاني يوم انسحابنا عرفنا انه استشهد بعد ما قتل اكتر من اتناشر مجرم من اليهود .. اى والله الواد حنفى لما حصلنا بالليل حكي الحكاية دية حتى كان جايب معاه محفظة سيادة العقيد اللى ادهاله وهو بيطلع فى الروح علشان يوصلها لبيتهم وكان بيضحك ويقول اخدت بتار اخوى ، عرفهم بكده يا حنفى .. قول لهم ان مصطفى توفيق قتل من اليهود كتير .. هما كام يا حنفى؟ .. يجيبه :اتناشر قتيل غير المتعورين .. وانا رايح اقابل ربنا لوقدرت تدفنى يكون جزاءك عنداللـــ.. وخرجت أنفاسه .. جميعا في خشوع لذكرى قائدنا الذي ظل رافضا الانسحاب وكلف رئيس العمليات الرائد صلاح عثمان بتولي القيادة الذي كان رافضا الانسحاب فقد كان من الرجال ذو المعدن النفيس. أمره بتولي القيادة وظل العقيد مصطفى محمد توفيق ابن الإسكندرية وقائد الكتيبة ٣٥٢مشاه من اللواء١١٦ يحارب بمفرده متحملاً مسئولية عدم تنفيذ الأوامر بالانسحاب .. أنهم رجال أشداء حيث يقول الله تعالى فى شأنهم :
مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) سورة الأحزاب .. صدق الله العظيم.

شكرت جنودي على روحهم العالية التى هى أساس الجندية والعسكرية المصرية ولكن لكل معركة ظروفها وقد صدرت إلينا الأوامر بان نعود لغرب القناة وننضم إلي باقي القوات حتى نستعد لمحاربة العدو .. أراد البعض المقاطعة ولكني رفضت هذا طالبا منهم تنفيذ الأوامر والتعليمات التى هى أساس الجندية وعلينا التمسك بسلاحنا من اجل ان ندافع عن أنفسنا ضد اى معتد مهما كان .. سواء كان يهوديا او بدويا وانا المسئول أمامكم عن إصدار تلك التعليمات .. الآن ترتب

الحراسة حتى الصباح كل فرد ساعتين ويجب ان يكون متيقظا حتى لا ننام جميعا ويأتي علينا الصباح وقد ذبحنا كالأغنام.

أشرق صباح يوم جديد ومعنا الأطعمة والمياه وزودنا باتجاه سيرنا وعلينا الانحراف جنوبا حتى نبتعد بقدر الامكان عن كمائن اليهود ومن الجنوب نسلك "ممر متلا" حيث بعد عبوره نكون على مسافة ستين كيلومترا من السويس اما تلك المنطقة فاليهود احضروا بها قوات لقتل المصريين..

لقد تغير تكتيك شقيق على بك الصغير من الاتجاه شمالا حيث الغرود الرملية التي تجعل اليهود غير قادرين على اختراقها بالدبابات او العربات المدرعة ولن يبقى أمامهم سوى الطائرات .. إذن سنعود ثانية الى وسط سيناء (حوالي سبعون كيلومترا) ثم بعدها نتجه جنوبا ثم الانحراف غربا الى جهة قناة السويس .. اعتقد انها مسافة كبيرة .. يقاطعنى الجندى عطية قائلاً "ماهو يافندم البُعد عن الشر غنيمة وإحنا عايزين طريق سالك وبعيد عن مكان أولاد الأبالسة دوول .. وشيخ العرب قال من مكانا لحد ممر متلا حوالى يومين أو عشرين كيلو"

أيدت كل الاصوات ان نتجه جنوبا حسب وصف الطريق الذي اقترحه زعيم عصابة تجارة المخدرات واستشهد الرجل بان هذا طريق رجاله لتهريب المخدرات لتجنب البوليس المصري او قوات حرس الحدود انه طريق آمن رغم طوله بعض الشيء لكن المهم لنا آمان الطريق .. واصلنا سيرنا وحل وقت العصر فجلسنا أرضا وتحت أشعة الشمس حيث لا نخيل ولا أشجار وتناولنا طعامنا من المعلبات المسروقة من الجيش وبعض المياه وحصلنا على قسط من الراحة ثم أكملنا سيرنا فى الاتجاه الذي قرره كبير مهربي المخدرات .. اقبل الليل وكنا فى دوامة من الفكر هل نكمل مشوارنا او نستريح ليلا ونسير نهارا .. كلاهما صعب ومر.. فالسير ليلا يحتاج الى دقة نظراً لتغير أماكن النجوم .. لابد ان تغير اتجاه سيرك

بواسطة النجوم كل نصف ساعة حتى لا نضل الطريق نظرا لدوران الأرض حول نفسها فتصبح علاقة النجوم مع الأرض متغيرة بناء على هذا الدوران.

اما السير نهارا فهو أحسن حالا من جهة الدقة ولكن أشعة الشمس وحرارتها تلهب الرؤوس والأجساد النحيلة الضعيفة ولكننا تشجعنا بأننا قد تمرسنا على السير وعلى مقاومة العطش .. قرب منتصف الليل حصلنا على راحتنا ولم نستيقظ إلا بعد انتشار أشعة الشمس فى المكان .. تناولنا الطعام القليل وشربة ماء وواصلنا السير في إتجاه جنوب سيناء وما حدث امس حدث هذا اليوم مع انعدام رؤية الأماكن الخضراء او بدو. لا حياة إطلاقا حتى إننا لم نسمع أصوات طائرات العدو وهكذا شعرنا إننا نسير فى منطقة لا تتبع سيناء او ان نهايتها محتومة بالضياع والتوهان بالصحراء الشاسعة، اتبعنا منهج الأمس وحصلنا على راحتنا بعد منتصف الليل وما زاد عن الأمس هو التوتر الذي صاحبنا لما نحن فيه معتقدين إننا ضللنا او ان هذا الخارج على القانون تاجر المخدرات أراد بنا سوءا.

استيقظنا مبكراً صباح اليوم التالي حيث ألم بنا العطش نظراً لأننا تناولنا "بولوبيف" دسم وتحيط به طبقة من الدهن ولم نملك تسخينه وأكلناه هكذا بدون وضعه على النار مما أشعرنا بالعطش أثناء الليل ولاحظت أن جميع الجنود ظلوا يطلبوا المياه حتى قبيل الفجر وبالتالي نفذت كل المياه وشعر الجميع بالظمأ ودفعنا هذا الى عدم النوم حتي وقت متأخر.

كانت مفاجأة الصباح أننا سرنا حتى وصلنا الى قريباً إلي الطريق الاسفلت اى الطريق الأوسط وهكذا سرنا قرابة السبعين كيلومترا وأثناء جلوسنا إذ نشاهد سيارة جيب صفراء اللون قريبة منا قاطعة الطريق الاسفلت متجه الى منطقة قريبة منا ولكن أحدا بداخلها لم يشاهدنا مما دفع بالجندي عامر الى ان يقف ملوحا لهم بالوقوف "قائلا يا دفعه" معتقداً بأنها تتبعنا فجذبه احد زملائه محذرا بأنها ليست لقواتنا ولحظتها انطلقت من داخل السيارة بعض الطلقات فى اتجاهنا لكن الجندي

فراج كان أسرعنا استجابة حيث أطلق دفعة نيران على السيارة الجيب والتى انفجرت بسرعة وتطايرت أجزاءها فى كل مكان حتى ان بعض محتوياتها وصلت إلينا واكتشفنا انها تحمل أغذية للجنود عبارة عن عبوات "علب كرتون" وبكل علبة عدد من أرغفة "الكايزر" وانابيب صغيرة بها جبنة ومربى كما زودت ببعض من الخيار والطماطم الطازجة وعلبة تفتح مثل علب السردين .. اى تفتح بفتاحة ملتصقة بها وهى نوعان .. اما مياه للشرب او نوع آخر من علب البيرة.

لقد فرجها الله علينا فأسرعنا جهة السيارة المنفجرة نبحث عن بقايا من تلك الأطعمة وكانت العبوات كثيرة بالمنطقة المحيطة بالسيارة ، شاهدنا جثة الجندي الاسرائيلى ممزقة ومحترقة من اثر الانفجار الذي تبين انه نتج من إصابة فراج لخزان الوقود بعدة طلقات أدت الى انفجارها كما سمعنا أنات وبالبحث عن صاحب هذا الصوت تبين انها لمجندة إسرائيلية كانت بالسيارة ومصابة وتطلب العون .. كيف سنعاونها؟ تركناها ونحن نلتهم الطعام ونشرب البيرة او المياه.

كان واضحا ان إصابة الفتاة شديدة لانها اندفعت بقوة الانفجار من السيارة الجيب واندفعت بسرعة كبيرة فى الهواء وسقطت أرضا وكانت تلك المنطقة صخرية وبها بعض الكثبان الرملية تغطى أجزاء منها ولكن المجندة وقعت أرضا فوق الصخور وتبين ان إصابتها فى الرأس وإحدى اليدين لان الدماء مندفعة منهما بغزارة ونحن لا نملك شيئا لإسعافها وكان الجوع والعطش قد بلغ منا مبلغا كبيرا فانهمكنا فيما نحن فيه.

كنا نشعر إننا مقبلون على خطر ما فمن غير المعقول ان تتحرك سيارة للشئون الإدارية وتعمل بمفردها ولابد انها كانت في مهمة قادمة لإحضار المؤن للقوات بتلك المنطقة ولم نكن نميز اى قوات بسبب الشمس الساطعة وعدم وجود نظارات ميدان تساعدنا على ذلك كما كان لإهمالنا عنصر الأمن هو العامل الحاسم فى مشاكلنا التى تقابلنا فكل ما نريده هو وجبة طعام وبعض الماء لنعوض

ما استهلكتاه فى الأيام الماضية بعد مغادرتنا عزبة الشياطين التى كنا بها لكني شاهدت رمز قوات المظلات الإسرائيلية علي باب السيارة المحترقة وهذا أكد لي بأن قوات مظلات قريبة منا وهي من ضمن القوات الإسرائيلية المقاتلة.

أسرعنا نتناول ما نستطيع من طعام وشراب ولكن لم نهنأ على ما نحن فيه إذا شاهدنا سيارة جيب عسكرية إسرائيلية قادمة فى اتجاه السيارة التى مازالت النيران مشتعلة بها بعد ان قسمها الانفجار الى عدة أقسام تطايرت بعيدا عن بعضها البعض .. تركنا الطعام ورقدنا فى وضع الاستعداد. كانوا ثلاثة أفراد وتبين ان احدهم ضابط لما هو على كتفة من علامات الرتب العسكرية اقتربوا أكثر وهم موقنون ان سبب احتراق السيارة الجيب هو عمل عسكري ضدهم ولهذا فقد كانوا مستعدين لنا وعندما اقتربوا منا وميزوا موقعنا فتحت الرشاشات التى لديهم فى اتجاهنا ومازالت السيارة قادمة بسرعتها وهنا فتحنا نيرانا فى اتجاههم .. ستة بنادق كلاشنكوف فى اتجاه هدف متحرك فى اتجاه الساعة (١٢) وهو الاتجاه المقابل لنا مباشرة .. الدفعة الثالثة من النيران انقلبت السيارة على جانبها بعد انفجار كاوتش السيارة الامامى واندفع احدهم خارج السيارة مضرجا بدمائه جثة هامدة لا يتحرك بينما قفز الضابط من داخل السيارة مسرعا يحاول العودة للخلف ويطلق النيران فى اتجاهنا ولكن دفعة أخرى من النيران أسكتته وسقط صريعا بعد عدة أمتار اما الثالث فقد تبين انه قتل وانه كان السبب في انقلاب السيارة حيث فقد الاتزان بعد ان فارق الحياة .. أصبحت المنطقة بها أربعة قتلى إسرائيليين وجريح على وشك الموت ولهذا أسرعنا بالفرار نغادر المكان لأننا نعلم أنهم يراقبوننا وسوف يحضرون لأخذ قتلاهم وقتلنا والتمثيل بنا.

هبطنا بسرعة من فوق قمة التل الصخري لنجد واديا فسيحا من الرمال واقل ارتفاعا من التل بحوالي عشرة أمتار. انهالت علينا قذائف مدافع الهاون القاتلة فقد رصدوا موقعنا وكانت تلك القذائف تلاحقنا خاصة إننا كنا فى منطقة مفتوحة

والانفجارات تتوالى حولنا ونسقط على الأرض تجنبا لأثارها القاتلة اما القنابل التى كانت تسقط على قمة التل الصخري وتسمع لها أصوات انفجارات ومدوية والشظايا تتطاير حولنا ويصاحبها صخور ملتهبة.

لقد أصبحنا مثل ست نملات فى وسط صينية ضخمة والقذائف تنهال علينا من كل جانب .. البحث عن مكان نختبئ به هو أملنا الوحيد حتى لا نصبح لقمة سائغة لتلك القذائف القاتلة .. نبهنا احد الجنود الى انه فى الجانب الاخر يوجد ما يشبه الكهف أسرعنا بكل ما أوتينا من قوة نلتمس به الحماية والأمان مما نحن فيه ووصلنا إليه ولكننا فوجئنا بعدو آخر لم نتوقع وجوده .. شاهدت كلبا يقف على باب الكهف ولكن احدهم اخبرني بأنه "ذئب" أنثى ذئب ومعها العديد من صغارها وقد أفزعتها الانفجارات فوقفت على باب الكهف فى حالة من التوتر التام ونظرت إلينا ونحن أمام فتحة الكهف وقد أظهرت أنيابها وهى تعلو صارخة بعوائب الذئب المخيف لبنى الإنسان .. مازالت الانفجارات تلاحقنا وأصبحنا أمام خيارين كلاهما أصعب من الآخر. فإما ان نبقى فى هذا المسطح المفتوح لقمة سائغة لقنابل الاعداء تمزقنا او ندخل الكهف ويمزقنا ذلك الذئب الهائج .. تخيرنا الحل الثانى فمن الممكن قتلها او تصيب احد منا وينجو الآخرون. تقدمنا واستعد الجويلي لإطلاق النيران عليها والأم فزعة على ابنائها.

عادت الأم بظهرها واضعة زيلها بين قدميها الخلفيتان واتجهت لأبنائها وهى مازالت فى حالة استعداد ونامت فوقهم تحميهم .. كان عددهم ستة من الجرو الصغير الذي يقارب فى الحجم من حجم قطة متوسطة العمر وأشبه بالكلاب الصغيرة وكان باديا عليهم أنهم مازالوا فى مرحلة الرضاع من حركاتهم الغير متزنة وأصواتهم الصغيرة رفيعة النغمة .. نامت الام فوقهم لتحمى صغارها آخذة شكل هلال حولهم والصغار بداخل هذا التجويف .. أسرعنا بالدخول إلي الكهف وجلسنا نلهث ونرتجف بجوار الذئب ولا نعلم ماذا سوف يحدث لنا؟ لقد أصبحنا بين إثنين

من الأعداء ، فقد تقوم الام فجأة وتهجم علينا وتمزقنا او يحضر اليهود بعرباتهم المدرعة لقتلنا وذبحنا ونحن لا نستطيع الوقوف أمامهم سوى دقائق والمعركة محسومة النتائج قبل وقوعها.

أصوات الانفجار مازالت تتلاحق بعضها يقترب من مكان الكهف والبعض مبتعد .. يقومون بعملية تفتيش بنيران المدفعية لعلهم يصيبوننا او نرفع راية التسليم لهم .. انظر الى الكهف فأجد ان مساحته صغيرة للغاية فارتفاعه لا يزيد عن المتر وعمقه ثلاثة أمتار وواجهته حوالي متر ونصف ويرتفع عن منسوب الوادي الرملي الذي كدنا ان نلقى حتفنا فيه بحوالي المترين وبداخله بعض الرمال الناتجة من الرياح التى طمرت تلك الصخور وغطتها بالرمال ولكن الأساس هو ان المنطقة صخرية حتى أننا كنا نسمع أصوات الانفجار فوق سطح هذا الكهف وتحدث هزة عنيفة وأصوات مؤلمة

مازلنا جلوسا ننتظر قضاء الله وقدره وليس فى وسعنا شيء نفعله غير أننا مستعدون للقتال وأجزاء السلاح جذبت للخلف وكل ماسورة بها الذخيرة لتندفع فى اتجاه اى قوة تحضر للفتك بنا حتى لو كانت دبابات. فلن نستكين وسنقاتل الى لآخر طلقة مثل ما كنا نقرأ عنه فى الشعارات وقد تفيد الشعارات فى بعض الأحيان وما هو البديل ان نموت شرفاء شجعانا بدلا من ان نموت باكين متوسلين لهم ولن يجدي معهم هذا التوسل لأن القوى يحترم القوى الاخر .. وهم من ذلك الطراز الذي يخشى العنيد المقاتل .. مازال العرق الغزير يخرج من أجسادنا مع نبضات قلوبنا المرتفعة ليس خوفا ولكن من المجهود الذي بذل فى الجري والعدو لنبتعد عن القذائف القاتلة.

مملكة الذئاب

مضت أكثر من خمسة عشرة دقيقة على وضعنا الحالي وبدأت نفوسنا تستعيد وعيها وقل نبض القلوب ونحن على علم تام ان اللقاء لم ينته بعد مع هؤلاء الأوغاد قتلة الأنبياء ومازالت الام الحنون الذئبة ترتجف محتضنة صغارها وقد فكرت مثلنا ماذا تفعل وليس أمامها سوى خيارين كلاهما مر فأما ان تخرج خارج الكهف وتأخذ صغارها وتعرضهم لهذا الدمار التى تشاهده او تبقى مع أعدائها من بني الإنسان وقد اختارت الحل الثانى مثلنا ولعلها شعرت أننا مثلها ضعفاء أمام عبقرية القتل التى اخترعها الإنسان وكما قال رب العزة "انه كان ظلوما جهولا" صدق الله العظيم.

لا استطيع فى غمرة تلك المأساة التي لحقت بنا والتي تتمثل في ان حياتنا أصبحت على كف عفريت وان موعد الإعدام بالجملة فى هذا الكهف والذى سيصبح مكانا للذبح والسلخ كلنا أمام بعض او كلنا سويا إلا اننى اذكر حكمة الله فيما كنا فيه ونحن فى هذا الوضع المؤلم الذي لم نتعرض له قبلا وما كانت عليه الحالة بين الام وصغارها وهم ممسكين بحلمات ثديها يمتصون الغذاء الذي وهبه الله لهم ليحيوا كما يحيا الآخرون فيتشاجر الصغار ويتعاركوا على ثدي الام والذى يفقد حلمة يبحث عن أخرى فيجد أخاه ممسكا بها فيحاول ان يكون هو صاحب النصيب وهكذا شجار وعراك والموت اقرب إليهم من حبل الوريد اما الام فهى مازالت ترتعد وتزيد من احتضانها لصغارها كلما مر الوقت وكأنها تعلم ماهو القادم لكل هؤلاء الذين يعيشون فى هذا المكان الواحد .. أعداء لبعضهم البعض أصدقاء عندما يكون العدو واحد ونهايتهم واحدة بدون ترتيب او تمهيد لكى نعيش سويا .. انها يد القادر وحكمة الله فى مخلوقاته.

نسمع صوت طائرة هليوكبتر تفتش المكان وتقترب منا وتطلق عدة دفعات من نيرانها ثم تذهب الطائرة وتعود ثانية وعند هذا يندفع الجندي جويلي الذي

تدرب على العمل فى فصيلة الرشاشات الثقيلة المختصة بضرب الطائرات المنخفضة يتحرك هذا الجندي الشجاع من تلقاء نفسه ويطلق خزنة بندقيته فى اتجاه الطائرة حيث كان احد القناصين اليهود بالطائرة يطلق نيران مدفعه الرشاش .. الذخيرةُ تصيب هدفها بدقة فقد شاهدنا الجندي الاسرائيلى متدليا من الطائرة بعد ان مزقت النيران صدره تماما من بندقية جويلي والدماء تتساقط أرضا والطائرة تسرع لإنقاذه ولكنه قتل وسقط سلاحه من يده أمامنا مباشرة ومازال معلقا بالسير الذي وضعه حول جسده.

كل شيء قد حدث وننتظر ردة الفعل القاسية ، أشرت إليهم بعدم الاندفاع لمثل تلك الأفعال التى لاُ تحمدُ عقباها بينما الجنود فى منتهى السعادة ان استطاع زميلهم ان يقوم بهذا العمل الناجح وليكن ما يكون ، هذا هو شعوري الداخلي أيضا ولكننا كنا فى مأزق شديد الصعوبة لأننا محاصرون داخل هذا الكهف فلقد تأكدوا الآن من وجودنا ولابد لهم ان يأخذوا بثأرهم منا .. لم يدم الحال عدة دقائق فحضرت طائرة هليكوبتر أخرى تتقدم بنفس الاتجاه ونفس المسافة وأطلقت صاروخا فى اتجاهنا وقد انبطحنا جميعا أرضا عدا الجندي عطية والذى شاهدته يضع يده على وجهه ولم نشعر سوى بصوت الانفجار واندفاع رمال ساخنة ملتهبة على ظهورنا وصوت صراخ عطية وصوت عواء الذئبه الام وابتعد صوت الطائرة.

افقنا بعد ان تلاشى الغبار لنجد ان النيران المتصاعدة والرمال الساخنة قد ألهبت ظهر يد عطية ، صرخ عامر متسائلاً: أين الذئبة وصغارها؟ اندفعنا الى مكانها حيث كانت الرمال قد أطمرتهم بأسفلها وبسرعة كشفنا الرمال من فوق الام وصغارها ولكن الرمال الملتهبة الهبت ظهر الام فلم نجد شعرها وجزءا من جلدها فقد احترق ورائحة حريق الشعر والجلد تغشى أنوفنا ، عثرنا على الصغار الستة على قيد الحياة حيث حمتهم أمهم بجسدها مانعة تلك الرمال المشتعلة ان تصل إليهم وجذبنا الصغار وهم ما زالوا متعلقين بحلمات ثديها يرضعون منه وهم لا

يعلمون ما حدث للام التي مازالت على قيد الحياة تتلوى من الألم وهنا تفتق ذهن مصطفى بان يضع عطية بعضا من ماء البيرة على يده لتخفيف الألم ، فعل هذا وعطية يصرخ ألما ثم عاد بعد فترة وشعر بالراحة وقد انخفض مستوى الألم الذي كان يعاني منه وأصبحت يده محترقة مثل ما يقلى الإنسان دجاجة فوق الزيت ، أعجبتنا الفكرة لننفذها على الام التى كان لحمها أسفل جلدها ظاهرا وجسدها ينتفض .. صعد صوتها عاليا وأخافنا نحن البشر وقد أسرع صغارها إليها بحاستهم حيث مازال نظرهم ضعيفا لا يقوى على الإبصار الواضح وهم يلتهمون حلمات ثديها ولم تمضى فترة قصيرة إلا وعادت الطائرة مرة ثانية واستطعت ان أتميزها.

الطائرة تابعة لقوات المظلات الإسرائيلية وهم الجنود الأشد قسوة فى قتالهم حيث يقاتلون تحت عقيدة أننا المصريون كفاراً .. تطلق صاروخا أخطاءنا او قل أخطأه الله فلم يدخل الى الكهف بل ارتطم بصدر الكهف من أعلا محدثا دويا هائلا وإذا بصخور كثيرة تتساقط لتقفل فتحة الكهف إلا من فاصل بين الصخور فى حجم طبق فنجان القهوة لنشاهد ما يحدث بالخارج ويساعدنا علي التنفس أيضا.

سمعنا عقب انفجار الصاروخ انفجاراً آخر لكنه ابعد قليلا عنا وُسمع فى إعقابه أصوات طائرات هليكوبتر عديدة وأصوات محركات عربات وصراخ رجال ونحن لا نعلم شيئا فقد دفنا فى هذا المكان ونحن أحياء ومازلنا ننتظر منهم الخطوة التالية ولكن مر الوقت ونحن لا نرى ولا نشعر بغارات جوية علينا حيث كان الهرج خارج المنطقة وبدأت أصوات الطائرات تقل رويدا رويدا حتى تلاشت وأعقبها انخفاض لأصوات العربات الجيب وأصوات البشر الذين كانوا يتحدثون العبرية والانجليزية فى آن واحد واستطعت ان أميز منها بعض الكلمات وخاصة كلمة انجليزية (That is enough) "ذات إذ انف" ومعناها هذا يكفى.

ساد المنطقة هدوء تام ولم نعد نسمع سوى صوت الذئبة الام وشجار الصغار ، اقترح احد الجنود ان نروى ظمأ هذا الحيوان المسكين من اجل صغاره بل وان نقدم لها الطعام فقام احدهم بفتح علبة بولوبيف ووضعها أمامها ولكنها لم تنظر إليه وقام الاخر بفتح فمها وصب فيه مشروب البيرة وهى غير قادرة على شربه ولكنها شربت جزءا منه عنوة بعد ان صب الجندي المشروب فى فمها الواسع .. مازالت الذئب تعوى وصوتها داخل الكهف يحدث أثرا نفسياً سيئاً فهو ليس بالمحبب وما نشاهده من خلال الضوء المتساقط من الفتحات الصغيرة من خارج الكهف وخلال الفواصل بين الصخور التى أغلقت فتحة الكهف والتى لا تستطيع أنثي الذئب وهى سليمة بان تخرج منه لصغره فأيقنا إننا هالكون لا محالة وكيف نحرك تلك الصخور وكل صخرة اقرب فى الحجم من النصف متر مكعب وهى صخور عديدة وكثيرة.

اقترب المساء وقلت الرؤيا ونحن جالسون هكذا وأيقن الجميع ان نهايتنا حتمية فى تلك المقبرة وكيف سنخرج منها ومن سيحضر ليفك أسرنا ، كيف سيفك هذا الأسر برفع تلك الأثقال الضخمة التى سقطت فوق بعضها البعض لتحدث حائطا صلبا اشد قسوة من الخرسانة المسلحة.

نظر كل فرد فينا إلى الاخر يتذكر كيف سيكون عليه الحال وماذا يحدث للمتوفى بعد ان يغلقوا عليه باب المقبرة وماذا لو حدث ودبت فيه الروح مرة ثانية؟ كيف يستغيث وكيف يستطيع ان يفتح المقبرة وقد شيدت بالطوب والاسمنت؟ لقد أصبحنا مثل المتوفى لكن المتوفى أحسن حالا لأن روحه صعدت الى ربها ولم يعد أمامه سوى عذاب القبر.. إذن فسيكون الأمر معاكسا معنا حيث سنعانى من عذاب القبر أولا ثم تصعد روحنا الى بارئها .. بدا التوتر يصاحبنا خاصة بعد ان لاحظنا خمود حركة الذئبة وبعد قليل حركت قدميها بسرعة وخرجت روحها واصبحت جسداً محروقا بجوارنا ، بعد هذا بقليل بدأت صغارها تصدر أصواتا

رفيعة والتى تشابه أصوات الكلاب الصغيرة وتسير على غير هدى بيننا وإذا تعثرت فى إصبع احد منا فتقوم بمصه اعتقاداً ان هذا ثدي الام .. تأثرنا لهذا الشعور الانسانى ونحن نشاهد صغاراً رُضع حُرموا من حنان ورعاية أمهم وأنهم سيلاقون حتفهم مثلنا .. اقترح احدهم ان نطعمهم بقليل من "البولوبيف" وحاولنا ولكن الصغار امتنعوا عن تناوله ، ماذا نفعل فقد نسينا همنا أمام ماهم فيه وكأن هؤلاء الصغار من بني آدم ولكن الله طلب منا الرحمة بالحيوان وخاصة هذا الضعيف وانفرجت أسارير الجندي الجويلي عن قص روايات من بلدتهم بالريف عن ان امثال تلك الحيوانات بأنها ملائكة وقد نمتنع عن اطعامهم فيظهروا على حقيقتهم ويسخطوننا قرودا فضحك زملاؤه من تلك الرواية وعلق عليها مصطفى قائلاً : ..ايوه .. ارجع إسكندرية وانا قرد .. يا مرسى أبو العباس وبدلا من اسمي مصطفى حنون حيبقى اسمي مصطفى ميمون.. ضحكنا لهذا التعليق.

عم الظلام وهاهو الليل يقبل ونحن مدفونين فى تلك المقبرة بدون حركة ونقضى حاجتنا فى نفس المكان وبداخل ملابسنا وبجوارنا أنثى الذئب التى قضت نحبها تاركة ستة من صغارها بجوارنا يصرخون من الجوع وفقد الام ، من حين لآخر تذهب الصغار الى جسد الأم يلعقونه ويقفزون على رأسها ويلعبون بذيلها يريدون ان تبادلهم اللعب والحب الذي تعودوا عليه ولكن لا حياة كما أنهم يحاولون لعق حلمات صدرها دون فائدة فيعودون إلينا صارخين وقد ألم بهم الجوع.

كان هذا المنظر وتلك التصرفات تؤثر فى مشاعرنا وأحاسيسنا ونحن على هذا الحال لا أمل لنا فى النجاة وحتى إذا فرج الله كربتنا هل نضمن ألا نجد اليهود فى انتظارنا خارج هذه المقبرة اللعينة ليمزقوا أجسادنا بأسلحتهم بعد ما اصابهم منا حيث قتلنا ستة منهم بالإضافة الى المجندة التى هى اقرب الى الموت منها للحياة.

تفتق ذهن احدنا بان يضع إصبعه فى علبة البلوبيف وتلعقها الصغار وقد أتت ببعض النتائج حيث تبادل هذا مع باقى الصغار الذين كانوا يأتون له صارخين طالبين جرعة أخرى .. اقترح احدهم ان نضيع وقتنا فى السمر والحديث حتى يمن الله علينا بالفرج او اللقاء معه بان يدلى كل شخص منا بحكاية تقطع السكون المطبق علينا والظلام الممسك بأعيننا والهواء الفاسد علي صدونا من الروائح التى بدأت تنبعث من الكهف سواء لما تم إخراجه من بطوننا او من عدم تجديد الهواء كما ان البكتريا بدأت عملها فى أمعاء وجسد أنثى الذئب.

بدأ الجندي جويلي الحديث وهو من أبناء الريف بمحافظة الفيوم حيث قال: فى احدى أمسيات الصيف وأثناء ري أرضنا الزراعية وكان الري يتم ليلاً حسب تقسيم فترات الرى بين الفلاحين وزراعة الأرز تحتاج مياها كثيرة كنت اساعد أبى ومعي اخوتى الثلاثة ، طلب منى أبى ان اذهب لأخر الأرض لتتبع المياه حتى لا يعوقها مانع من ان تذهب الى باقى أحواض الزرع التى نرويها وبعد ان أنهيت مهمتي وبينما انا عائد فإذا بى أشاهد ذئبا امامى ، وقفت وتسمرت فى مكاني وانا احمل فأسى وفكرت فى طلب النجدة من اخوتى وانا اعلم ان الذئب سريع الحركة وقد يهاجمني فى أي لحظة ، قلت فى نفسي سوف استعد له حتى إذا هاجمني اضربه بفأسي ضربة قوية قبل ان يحدث بى إصابات وبينما انا على هذه الحال سمعت صوت ذئب آخر يعوى من على مسافة فاجابه الذئب الذي امامى بنفس طريقته فى العواء.

هنا قاطعه احد الجنود قائلاً: لماذا تقلد عواء الذئب وأنت تقص حكايتك ان صوته يخيف اى إنسان ، أجابه جويلي بأنه لم يصدر أي صوت خلال قصته وأستمر جويلي يكمل قصته فإذا بنا نسمع نفس صوت عواء الذئب مرة أخري ، طلبت منه عدم تكرار هذا فنفى الجندي ذلك وسألت الجميع من منكم احدث هذا الصوت لأننا كنا فى ظلام دامس .. نفى الجميع بأن احدا منهم قلد صوت الذئب

ولكن المفاجأة ان الصوت كان لذئب حقيقي يقف أمام الكهف يعوى بصوت مرتفع يتردد صداه بين جنيات الجبال المحيطة بنا فى سكون صحراء سيناء الصامتة ليلاً ، إذاً هناك ذئب حقيقي ، اضطرب البعض منا ثم عاد إلينا الهدوء وتذكرنا ساعتها أننا نحمل سلاحا نستطيع قتل العديد من الذئاب.

وبينما نحن نتحاور إذا بنا نشعر بحركة تجري بين أرجلنا. لقد كانت الذئاب الصغيرة وكان اعتقادنا بأنها خائفة ولكن هذا لم يحدث فكلما امسكنا ببعضها لنحاول حمايتها وإشعارها بالأمان بيننا نجدها تتركنا وتحدث اصواتا رفيعة الصوت لعواء الذئب خاصة عندما يقترب الذئب الخارجي من الصخور وبصوت اقل ضجيجا يحدث اصواتا مثل الاصوات التى تحدثها الكلاب عندما يضربها احد .. ساورنا إحساس بأن هناك شفرة ما بين الذئب بالخارج وتلك الصغار وقد أفتى احدنا بان الصغار يعتقدن بان هذا الصوت هو صوت أمهم ولذلك فهم يحاولون الرد عليها ولكننا أخطأنا لان الصغار تذهب لامها وتحدث حركة معها وتحدث أصوات صغيرة تدل على ما يحاول الذئب الكبير ان يفعله .. هى أصوات اقرب الى البكاء .. كان هذا هو فارق الاصوات التى وصلت الى آذاننا ونحن فى هذا الظلام الدامس .. توقفنا عن الحديث حتى لا تأتى سيرة شيء آخر ويحضر مثل ما حضر الذئب على السيرة تلك التى كان يتحدث عنها الجويلي.

شعرنا بان هناك حركة مستمرة من ذئاب كثيرة خارج الكهف وكان اعتقادنا وما يزال انها قادمة لافتراسنا وكنا نتمنى منها ان تحاول فك هذا الحصار عنا ونحن جاهزون لها ولكن هذا لم يحدث .. أمضينا تلك الليلة ونحن على هذا الوضع نسمع أشياء ولا نعى ما يحدث خلف الجدار من الصخور البازلتية السوداء كما كنا نشعر بأن أشياء تسير على أجسادنا او أيادينا وفى الغالب كانت فئران وسحالي .. أمضينا تلك الليلة بين عواء الذئاب خارج الكهف وردود من الصغار معنا حتى انبلج الصباح وضربت الشمس بضوئها المنطقة فانعكس على

الرمال الصفراء الناعمة فعم الضوء بالداخل ولكن هالنا وجود تلك الذئاب الكثيرة خارج الكهف وهذا شيء غير مألوف ان تظهر الذئاب نهاراً حيث ان نشاطها كله يكون أثناء الليل.

شاهدنا ذئاب كثيرة بالخارج وهى تحاول ان تجد ثغرة تنفذ منها الى الداخل ولكن دون جدوى مع ما يمثله هذا من أنات ضعيفة صادرة منها وخاصة من أحدهم ذلك الذئب الضخم الذي يصدر أصوات تعكس أن هناك شيئا يعانيه مشاركا باقي الذئاب وقد اقترح احد الجنود ان نقذف "بجرو" من الصغار للخارج حتى نرى ماذا سيحدث له ولكن الباقين رفضوا هذا متعللين بان تلك الذئاب ستفترس الجرو الصغير فى الحال ولكن اشد ما كان يدهشنا هو تصرف الصغار حيث يحاولون التوجه الى مصدر الصوت بمحاولة تسلق الصخور فلا يستطيعون ويقعون أرضا بجوارنا ، أخذت بفكرة إلقاء الجرو الصغير إلي الخارج لاختبار الذئاب حيث اقترحت عليهم ان نقطع جزءا من جسم الذئب الام المتوفاة ونقذف به من الكوة التى نشاهد منها تلك المشاهد ونرى ماذا سيحدث ، اجتمع رأيهم بان الذئاب ستتقاتل من اجل تلك القطعة فأجبتهم بأننا لن نخسر شيئا فلقد ماتت الام وعلينا التجربة فترددوا وأخيرا تشجع فراج ابن الصعيد واخذ بالسونكى وقطع ربع الذئب الخلفي وقذف به من الكوة وهنا اجتمعت كل الذئاب حول ذاك الجزء ولكن المدهش ان أحدا من الذئاب لم يقترب من تلك القطعة لالتهامها كما كنا نتوقع ولاحظنا ان الذئب الضخم الذي يحاول النفاذ الى داخل الحفرة وقف ينظر الى تلك القطعة محدثا أصوات ضعيفة مثل ما سبق وقلت كصوت كلب ضربه احد ضربا مبرحا فيجرى صارخا .. هذا ما حدث والذئب يدور حول ذاك الجزء يعوى باستكانة ثم ينام أرضا واضعا فمه فى الرمال ويقف ويلف حول نفسه ثم تأتى إليه بعض الذئاب يلعقون جسده ومازال على هذا الوضع المأساوي الذي شعرنا به نحن بني البشر.

نحن جميعا مشغولين بهذا المنظر ولا ندرى أيهما هو الصحيح هل جاءت تلك الذئاب لالتهامنا ام جاءت من اجل الام وصغارها وقد كنت اعلم من مشاهدة برامج عالم الحيوان ان تلك الحيوانات اجتماعية وتعيش فى قطعان مثل الماشية والأغنام .. وأخيرا ما نشاهده الآن ولم نشاهده من قبل بان الذئب الضخم حفر بمخالبه حفرة ودفع بذاك الجزء المقطوع إليها وأهال الرمال فوقها ونام فوق تلك الحفرة يحدث أصوات البكاء والألم التى تصدر عن الكلاب بعد ضربها او إيلامها .. زاد تأكدنا ان الام تنتمي لهذا القطيع وقد يكون الذئب هو الأب وذهب لإحضار طعام وعاد ليجد ان جحرهم قد تم تدميره ولم يعثر علي الصغار وأمهم وهذا ما دفعه لطلب النجدة بهذا العواء المتتالي والذى حضر علي إثره العديد من الذئاب من باقي القطيع كما ان همساته من خلف الصخور للصغار فهمت منها تلك الصغار انه أباهم وهو يحدثهم بما لا نعلمه وفوق كل ذي علم عليم .

قررنا التضحية بأحد الصغار بدفعه للخارج وأثناء تلك المناقشات وجدنا ذئبا آخر يقف بجوار الذئب الاول ولكن الملاحظ ان ذاك الذئب كان أنثى حيث ظهر ثديها وحلماته مما يدل على انها ام ترضع جراءها لسقوط تلك الحلمات وبروزها مثل ما نلاحظ كلاب الأمهات ويتعاطف معها الناس بان تلك الكلبة ام ترضع ويعطيها البعض طعاما من اجل صغارها الذين يرضعون .. اقتربت الأنثى تهمهم بصوت خفيض وقد أيقظ هذا نشاط الصغار أكثر من السابق.

تشجعنا بان نقذف بالصغير لهم ونرى ماذا سوف يحدث خاصة بعد حالة القلق التى شابت الصغار كلما حضرت تلك الأنثى مقتربة من الصخور تهمهم بأصوات تدفعهم للانفعال ومحاولة الوصول لهم .. مد مصطفى يده بأحد الصغار من الفتحة الى الخارج دافعا بالصغير الذي تدحرج على الصخور وكنا نسمع صوته وصراخه ونراقبه فى نفس الوقت ، حضرت الذئاب جميعها بعد ان أطلق الذئب الكبير عواءه الشديد وتجمعوا حول الصغير ونحن نتوقع ان يلتهموه وخاب

ظننا ونجا الصغير واحتضنه الذئب الكبير لاعقا جسده الهزيل فكان يسقط على جانبه فى كل لعقه له وأمسكت به أنثى الذئب من رقبته وتدلى من بين فكيها ونامت فاردة أرجلها تاركة الصغير يبحث عن حلماتها يرضع منها.

صفقنا لنجاح التجربة .. إذن كل هذا العدد جاء لإنقاذ الام وصغارها .. أرسلنا بالثاني وما حدث للأول حدث له ونحن نشاهد الصغيرين يرضعان بنهم من صدر الام البديلة كل هذا والصغار الموجودون معنا لا تكل عن البحث من مخرج ولا تهدأ وتصعد قليلا ثم تسقط بالداخل وتصرخ من سقطاتها .. اكتمل عددهم بالخارج ستة من صغار الذئاب وانضمت ام ثانية للأولى للمعاونة فى إرضاع الصغار وتدفقت الدموع من أعيننا جميعا لهذه القدرة أللاهية وسعادتنا لا توصف متمنيين من الله ان نحذو حذوهم وتفرج كربتنا.

مضى على وجود الصغار ما يقرب من الساعتين مع عائلاتهم وفراج يصف لنا كل ذئب وذئبه قائلا: هذا خالهم وذاك عمهم والأخر جوز عمتهم وهكذا مما ادخل البهجة والسرور الى قلوبنا .. انتهت الصغار من طعامها ونامت فى أحضان الأمهات البديلة بجوار هذا الثدي الذي انزل الله لهم طعامهم الذي يحييهم ويمدهم بالحياة ويمنع عنهم الموت جوعا .

نلاحظ ألان ان كل ذئب التقط صغيرا بين أنيابه ويسير به والصغير لا يتألم وكل مسافة ينزله ثم يعود فيحمله او يحمله ذئب آخر حتى تواروا عن أعيننا وانتهت تلك الملحمة اللإهية فشعرنا بنصر كبير لما تحقق واثقين ان الله لا ينسى مخلوقاته وان الله سيجزى كل إنسان بما يستحقه.

أسندنا ظهورنا للخلف وقررنا عدم تناول الأطعمة المحفوظة التى حصلنا عليها من تاجر المخدرات وزملائه ، هذا هو نهار اليوم التالي لوجودنا فى تلك المقبرة الجماعية ولم يجد جديد فلا أصوات محركات خارج الكهف ولا نشاهد أثرا للبدو يسيرون فى تلك المنطقة وقد أيقنا ان مهرب المخدرات قد أرسلنا الى التهلكة

وقد اثار هذا غيظنا وحنقنا وخاصة فراج الذي قرر إذا شاء الله وأنقذنا فسيعود لهم مفرغا خزنة بندقيته فى أجسادهم ، رغبت في ان أعيد الاتزان النفسي لنا جميعا بانُ رب ضارة نافعة ولولا حضورنا هنا ما قتل هذا العدد من الأوباش اليهود ولقد تمنيتم ان نقوم بمعركة قبل ان نموت او نعود لوطننا حتى نثبت لأنفسنا إننا مقاتلون ونثأر لشهدائنا.

أعادت تلك الكلمات المشجعة روح التفاؤل إليهم وتبادلنا الأحاديث العادية والبعض يغنى بعض اغانى شعبية يتقنها حتى يمر الوقت علينا الى ان يظهر الله إرادته الأخيرة وقد نفذت كميات المياه والبيرة وهكذا أضيف الى نفاذ الطعام المياه ولم يتبقى سوى السبب الرئيسي الاول فى حياة البشر وهو الهواء الذي ازداد فساداً وقلت كميته وأصبحنا نسمع أصوات تنفسنا مثل ما يتنفس الإنسان الذي بذل جهدا فيسمع صوت الشهيق والزفير.

تحدث عامر قائلاً: اننى سأقابل ربى سعيدا بعد ما انجزناه امس مع هؤلاء الاندال .. لماذا انسحب الجيش؟ لو ان كل جندي من جنود الجيش فعل مثلنا لقتلنا كل الجيش الاسرائيلى .. لو ان كل جندي قبل انُ يقتل قتل عدوا منهم لهزمناهم وتبقى نصف جيشنا لكن ان نهرب أمامهم هكذا ونجعلهم يسوقوننا مثل الخراف التى يسوقها الجزار الى السلخانة فهذا الخطأ بحد ذاته .. يؤيده البعض ويعارضه آخرون قائلين: هل كنت تتوقع ان يكون الباقون شجعانا مثلنا .. لا تحكم على الآخرين فلقد شاهدت العديد ممن ساروا معنا ثم ركنوا الى كهوف الجبل ليلقوا حتفهم عطشا بينما نحن قاومنا حتى أنقذنا الله.

أقبلت الليلة الثانية علينا وازداد عطشنا وألمنا وخاصة إننا لا نستطيع فرد أرجلنا لصغر مساحة الكهف مع صعود رائحة تحلل الذئب بجوارنا.

تغفو عيوننا ونستيقظ ثم نغفو وهكذا نوم بطيء متقطع غير مريح لأن كل عوامل الضغط النفسي واقعة علينا وما هو شعور الإنسان الذي يعلم انه هالك فى

هذا المكان وقد اثر هذا فى عطية حيث خرجت منه أصوات حزينة يناجى ربه قائلاً : (ليه يا ربي تفعل هذا بنا؟ إننا لم نخطئ وإذا أخطائنا فالكثيرون قد اخطئوا ولم تعاقبهم .. أتفعل هذا بنا لأننا نؤدي الخدمة العسكرية بغرض الدفاع عن الوطن .. إذا كنت قد حكمت علينا بأننا كفرة فهذا غير صحيح اما إذا كان ديننا الذي نتمسك به هو دين غير صحيح فنحن لا نعلم ماهو الدين الصحيح .. نجنا واخبرنا بالدين الذي نسير عليه ونحن سوف نتبعه) قاطعه جويلي قائلاً:
ستكفر بالله .. اخرس ولا تفتح فمك .. كلنا ميتون هكذا يقول الله .. وإذا بالجندي عطية يشيح بيده منهاراً (أين الله الذي تتحدث عنه؟ لو كان ربا كما تقولون ما تركنا هنا .. كيف نعبد ربا لا ينقذنا)؟ ازدادت الأمور تعقيداً وارتفعت أصواتنا وخاصة عطية وجويلى الذي كان الجدال والنقاش مازال قائما بينهما وعندئذ ازداد تهور عطية واندفاعه مقررا ان ينهى حياته بإطلاق عدة رصاصات على رأسه ويستريح من هذا الألم الذي يعانيه منذ وصولنا الى سيناء.

صرخت فيه أمرا بأن يهدأ ولا داعي لكل هذا فنحن فى مركب واحدة ولكنه قاطعني صارخا مثلى "أنت ملكش عليا أوامر .. فاهم وإلا والله أضربك بالنار قبل ما أموت نفسي" .. أجبته انا عارف مليش أوامر عليك ولا على اى حد هنا كلنا ظروفنا منيله بستين نيله لكن أنت لما تضرب نفسك بالنار معناها منتحر .. طيب ليه؟ مش يمكن ربنا اللى أنت زعلان منه يفرجها علينا زى ما فرجها من أسبوع فى جبل المغارة .. مش بتسمع ان فيه دعاء بيقول"لا تقنطوا من رحمة الله" .. أنت لما تضرب نفسك بالنار حتموت ونموت معاك على طول لأن اليهود حيسمعوا صوت ضرب النار ويجوا بسرعة يخلصوا علينا .. شفت ربنا أنقذ الديابه الصغار ازاى .. هوه اللى أنقذهم مش إحنا لما بعت لهم أمهات يرضعوهم ويحافظوا عليهم .. اهدأ يا عطية وبكره ترجع بلدك وتقول ياه انا عملت كده ازاى؟

طلبت منه سلاحه فناوله لجاره حتى وصل الى وطلبت من الجميع التأكد من تأمين السلاح مع نزع الخزن حتى لا يخطى اى فرد فينا ويطلق الناربطريق الخطأ فنموت جبناء وفطيس .. ساد صمت قاتل لم يتحدث احد ولم ينبس اى فرد بكلمة وكأننا جميعا قد لاقينا الله عز وجل .. استمر هذا الحال حتى اقترب الفجر حيث ظهرت بوادر ضوء خفيفة داعين الله ان يرفع مقته وغضبه علينا .. كنت غير هياب للموت فكل نفس ذائقة الموت .. والموت يأتى فجأة ولا يشعر به احد ولكن ما كان يثير النفس هو وضعنا هذا .. إننا نعيش فى مقبرة حقيقية رغم إننا إحياء مازال فينا نفس يخرج ويعود بأمر الله.

كعادته هذا المؤمن العابد الصالح "جويلي" شاهدناه مصليا عابداً ربه وبعد ان أنهى صلاته قال لنا .. أرجوكم بكل رحابة صدر وإيمان بالله وبأننا لمنتصرون على ما نحن فيه ان ترددوا خلفي هذا الدعاء .. رفع يده الى السماء وهو شبه منحنى الى الإمام لصغر ارتفاع سقف الكهف قائلا : "الله لا اله إلا أنت .. جموع الجنود نردد خلفه .. سبحانك اني كنت من الظالمين .. نردد خلفه" آمين يارب العالمين .. ويكمل حديثه بعد دعاء سيدنا يونس وهو فى بطن الحوت الذي تلاه قائلاً : سأطلب منكم ان يقوم كل فرد بالصلاة ولو ركعتين ويدعو الله فى سره ولو عايز يعاتب الله فلن يضره شيئا.

تحرك الجنود كسلاً بلا أمل لديهم يحاولون التيمم وكيف نتيمم ونحن مغروسين فى أوحالنا وأقذارنا فلا مجال للحركة. استراحت نفوسنا وعم الضوء بخارج الكهف وتبادلنا الذهاب الى تلك الكوة الصغيرة لنرى ونشاهد اى شيء ولا نرى ما يدل على ان بتلك المنطقة حياة حتى الغربان التى كانت تهاجمنا فى جبل المغارة لم نعد نراها بعد ذلك .. ما زالنا جلوسا بوضع القرفصاء الذي أدى الى كساحنا ولا نستطيع ان نفرد سيقاننا أكثر من بضع سنتيمترات وكل ينظر الى الآخرين ليرى ويشاهد انعكاسات ما نحن عليه حتى يعلم ماهو بالنسبة له.

من أسوأ الأشياء التى اثرت فى حالتنا النفسية والمعنوية عدم مرور الوقت .. كان الوقت بطيئاً ثقيلاً ونحن الشباب الذين نجرى ونمرح هنا وهناك يكتب علينا هذا الحبس القاتل انتظاراً الى ان تحين ساعة كل فرد فينا وكان هذا أيضا من بين الأمور التى تثقل على النفس بأن يتصور وفاة زملائه وهو مازال على قيد الحياة وحوله خمسة من الجثث الإنسانية الصديقة وقد فارقت الحياة وينظر إليهم ويشاهد ما يحدث لأجسادهم وهى تتحلل عالما بأنه ستأتيه ساعته وسيكون مثل ما شاهد لكن بعد ان يملؤه الهلع وقد تنتابه لوثة عقلية .

ان مجرد التفكير فى هذا الوضع بأنك ستبقى حيا بمفردك بعد وفاة أصدقائك لهو من اشد حالات الإنسان عذابا وألما .. كما كان لوضعنا فى هذا الحبس حتى الموت ونحن محرومون من الطعام والشراب حتى النظافة الشخصية حرمنا منها وقد أصبحنا مثل الحيوانات الأخرى التى تخرج فضلاتها فى نفس مكان إعاشتها .. حتى الحركة لا نتمتع بها تجمعت كل آلام الدنيا علينا(العطش .. الجوع .. الحبس حتى الموت .. عدم الحركة .. القذارة الشخصية .. الروائح الكريهه .. ثم الاهم نعمة التفكير).

أشرق صباح اليوم الثالث ونحن فى تلك المقبرة ولم نعد نملك من أسباب الحياة سوى هواء قليل فاسد .. بعد الدعاء الذي قام به جويلي ثم صلاة كل فرد فينا بما نحن عليه من ابتلاء واختبار تحسنت حالتنا النفسية نسبيا وقد انفرجت أسارير عطية معتذراً لنا مقدما اعتذاره لي قائلاً : لو كانت المساحة تسمح انى اجى لحد عندك أبوسك كنت عملتها ودفع هذا الجميع لان نزداد سعادة وسرورا وقد أضحكنا ابن الإسكندرية مصطفى حين قال: انا عندي فكرة .. إيه رأيكم لو كل واحد فينا يقول على حكاية حصلت له بس تكون فيها نوع من الكرامات او اى حاجه عن الدين اللى بنكلم عنه علشان ربنا يساعدنا وهو كمان نتسلى فى نفس الوقت..

أعترف مصطفى بأنه سرق مبلغا من المال أثناء عمله كصبي نقاش بالإسكندرية وفى اليوم التالي توجه الى الشقة التى سرق منها المال فتقابل مع سيدة عجوز طلبت منه أن يأتى لها فى الغد لينهى لها بعض التشطيبات السريعة وأخبرته بأن لديها أمانة تحتفظ بها لبعض اليتامى وهى تخشى أن يأتى "أبن حرام" ويسرق ما لديها .. لم يغمض له جفن تلك الليلة وعلم بأنه أبن الحرام الذي سرق جزءا من تلك الوديعة الخاصة بالأيتام .. صباح اليوم التالي توجه لهذه السيدة وقام بعمله وأنتهز فرصة انشغالها وأعاد المبلغ المسروق لمكانه.

صفق زملائه له لأمانته وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

توالت الاعترافات بكل ذنب أرتكبه كل واحد فينا وكلها تدور فى إطار بسيط لا يعدو شقاوة الصبية ولم تصل أعمارنا الى الثامنة عشر وقد أخبرني احدهم بأن الله سيساعدنا لأننا قاومنا الأعداء كما أنك قمت بمساعدة المسجون عليوة لكى يذهب ويطمئن على والدته التى ماتت بعد وصوله لها بعدة دقائق ودعت الله لك ، شعرنا

بشيء أثلج صدرنا وقد اقتربنا من الله بأفعالنا وإعترافتنا وان الله قادر على إزالة الغمة التى ألمت بنا

اقبل ظلام الليلة الثالثة بعد ان قطعنا شوطا طويلاً من نهار اليوم الثالث ولا جديد فالسكون المطبق وحالة ترقب الموت القادم وقد اعد كل فرد فينا عدته لاستقباله وقد أصبحنا ننتظره كانتظار صديق او زميل .. هكذا كنا اقرب الى الموت منه للحياة .. لفنا الليل بسكونه المخيف ولم تزد تلك الليلة عن سابقتها إلا فى انتشار الديدان المنبعثة من جسم الذئب اما روائحها فأصبحت شيئا عاديا ولم يعد هناك ما يثير التقزز او الاشمئزاز.

قبيل الفجر هب عطية مذعوراً من نومه ونحن لا نرى ولا نشاهد ما حدث له ولكنه قال : الحمد لله .. الحمد لله .. خير يارب اجعله حقيقة .. تنبهنا جميعا وقد سأله احدهم.

. خير ياعطيه فيه حاجه ؟ اجاب :

ـ خير ..اللهم ما اجعله خير .. شفت رؤيا .. جاني راجل عجوز ولابس لبس الإحرام وماسك عصايه فى أيده تساعده على المشي وقال لي ربنا حيفك كربتك أنت وزمايلك .. والله يا ابني انا كنت مشغول في العمره لكنى كلفت انى أجيلكم وأقولكم تعملوا إيه .. احفروا فى الرمل تحت الصخر يتحرك وربنا يفرجها وتتحرروا .. "وبشر الصابرين" وانتم صبرتم ، متنساش احفروا فى الرمل .. انتعشنا جميعنا وهاهو ملك يحضر لزميلنا ليخبره ببشرى الخروج من سجننا هذا والطريقة التى نخرج بها ، أراد البعض الحفر ولكني أشرت إليهم بانتظار ضوء الصباح حتى نرى ما نفعله.

لم يمض وقت طويل حتى ظهرت تباشير ضوء اليوم الرابع بسجننا هذا ، المكان ضيق لا يسع ان نقوم جميعا بالحفر فارتفاع اقل من متر وعرض متران ونصف وعمق الى الداخل ثلاثة أمتار لكن على هيئة رأس مثلث لا نستفيد منه ..

استقر الرأي على ان يخرج من خدمة الحفر كلّ منى وعطية والذى مازالت يداه تؤلمه من الرمال المشتعلة التى أصابته وأصابت الذئب الام .. اما عن باقى الجنود (جويلي وفراج وعامر ومصطفى) سيتولون الحفر.. بدأ الحفر حوالي الثامنة صباحا حتى الثانية عشرة ظهراً "تقريبا وبدون ساعة نحدد الوقت" كنا نجمع الرمال جهتنا اى بالداخل وقد اثر علينا بانُ ضغط المكان وقلت مساحته .. وخارت قواهم بعد ان وصلنا الى عمق حفر كبير دون جدوى وشعرنا بالاختناق حيث أزاحت الرمال كميات الهواء التى نتنفسها .. بقينا على وضعنا هذا وازدادت سوءا بكميات الرمال التى فوق أجسادنا وبثقلها الكبير.

قل الضوء بالخارج وهذا يدل على ان الشمس توشك على المغيب .. هل سندخل فى يومنا الخامس ونحن على هذا الوضع الذي لا علاج له إلا من عند الله الذي بشرنا به منذ سويعات بأننا خارجون وان الله بشرنا بفك أسرنا .. تندر الجميع من الحلم او الرؤيا التى رواها لنا عطية وقد علق البعض بان رؤيا المتبولين والمتبرزين على أنفسهم لا تنفع وهنا علق آخر هذا معناه أننا جميعا لن تنفع اى رؤيا لنا وبين الضحك والقفشات التى كانت بمثابة وداع لآخر أيام حياتنا القصيرة وقف عطية وهو شاب نحيف قصير القامة ووزنه قليل جداً كما ان صوته مثل حجمه وقف ضاحكا وقال إيه رأيكم اعمل زى "شمنون" وقد استفسر منه مصطفى عن هذا الاسم هل هو اسم المعلم صاحب المصبغة اللى يعمل فيها فى حي باب الشعرية ولكنه نفى ذلك قائلاً يا آخى الواد شمنون بتاع دليلة .. أضحكنا هذا الاسم وصحح له البعض بأن الاسم الصحيح هو "شمشون". وقف عطية وهو يمثل دور شمشون ويقول يارب :

افتح باب رحمتك ويدفع بيديه الضعيفة الصخور فإذا بها تنهار أمامنا وتتساقط من فوق الجبل كأنما هناك أمواج عنيفة دفعتنا بأن نرتمي بعضنا فوق بعض حتى نمنا فوق الذئب المتحلل.

اندفع الهواء نقيا منعشا وبعد ان تأكدنا ان الله فك أسرنا انتابتنا حالة من البكاء الضاحك ، كلٌ منا يبكى مبتسما ثم تبادلنا القبلات ونحن جلوس وبقينا على هذا الحال ما يقارب الساعة ثم تنبهنا الى أننا نريد الخروج ، خرجنا من الكهف والكوة التي فتحها الله علينا لا تزيد مساحتها عن النصف متر ، طلبت من فراج ان يتخلص من ملابسه ويتسلق تلك الصخور السوداء ويراقب العدو ، كان اختيار فراج لأنه اسمر اللون فيصبح قريب اللون من تلك الصخور.

بعد جهد ومشقة استطاع فراج ان يتخلص من الكساح المؤقت الذي لازم ساقيه وقد تخلص من ملابسه وتسلق قمة الهضبة الصخرية واستمر ما يقرب من الثلاثين دقيقة وكانت الشمس قد غربت ولم يتبق سوى عشر دقائق ويعم ظلام دامس .. كنا أثناءها قد خرجنا أمام الكهف نفرد سيقاننا ونستعد للسير عليها ونفك عنها هذا الكساح المؤقت.

عاد فراج يخبرنا بأنه لا اثر لأي قوات وانه استمر فترة طويلة حتى نكون آمنين أثناء تحركنا .. لكنه اخبرنا بخبر أسعدنا جميعا حيث قال:

ألا تذكرون الانفجارات التى حدثت بعد ان أطلقت الطائرة الهليكوبتر الثانية صاروخها الذي أغلق علينا باب الكهف وسمعنا بعدها انفجارات وجلبة وضوضاء .. أيدنا قوله حيث قال لقد انفجرت الطائرة فوقنا واحتمال ان الصاروخ بعد انفجاره بالصخور ارتدت منه شظايا قاتلة دمرت الطائرة والطيار ومساعده لاننى عثرت على أحذيتهم ممزقة والطائرة تفحمت تماما.

خبر سعيد آخر فى خلال نصف ساعة .. لقد قتل اثنان آخران من هؤلاء الحثالة أبناء قتلة الأنبياء والمرسلين لقد وصلت قتلاهم بأيدينا او بسببنا الى سبعه واحتمال الثامنة قد لاقت حتفها متأثرة بجراحها الخطيرة.

حدثتهم قائلا : أيها الرجال الشجعان هيا نعود الى المحور الشمالي ولنستعيد طريقنا السابق الذي ضللنا عنه أبناء الحرام مهربي المخدرات وعلينا السير طوال الليل حتى نبتعد عن تلك المنطقة.

لم يتردد احد ورصدنا النجم القطبي الذي يرمز الى جهة الشمال وسنبدله كل ساعة حتى لا ننحرف معه أثناء السير.. استمر سيرنا من الثامنة مساء الى ان ظهرت بوادر أشعة شمس هذا النهار .. انه اليوم الخامس بدون مياه او طعام وكان قدرنا ان نبقى هكذا حتى آخر لحظة.

كان سيرنا قويا مندفعا بعد ان تحررنا من ذلك الحبس الذي كلما تذكرته ارتعدت فرائصي وانا افكر فى نفسي ومن حولي .. جلسنا نستريح قليلاً واصبحت الشمس تخرج كل صباح لتحرقنا نحن الستة بنيران أشعتها وحرارتها الملتهبة .. تحيرنا بعد ان تحررنا .. ماذا نفعل؟ نستريح او نكمل؟ كلاهما صعب فالراحة معناها هلاك تحت أشعة الشمس بدون داع كما ان السير أيضا لا طائل منه حيث لا طاقة لنا ولا فكر ، كيف نستطيع ان نتدبر أمورنا لقدُ عدنا الى الدائرة الأولى التى وصلنا إليها بجوار جبلي الحلال والمغارة حتى ان عقولنا أصبحت بدون فائدة وأدى هذا الى نسيان أسماء كثيرة بل بعض أسماء البعض منا بل فى بعض الحالات كنت افكر واتسائل قائلا أين انا وماذا افعل هنا ومن هؤلاء الناس حولي وهل انا مستيقظ ام نائم؟ كل هذا لدرجة نسيان الطعام والشراب لأنه كان شيئا خارج قدرتنا.

قدرنا ان نسير مترنحى الجسد والرأس ولكن احدنا أشار بيده ؟؟ زرع نخلُ خضره .. آه ميه .. ميه .. آه .. سرنا فرادى ولم نؤمن المكان كما فعلنا سابقا والمسافة المتبقية على وصولنا لمنطقة النخيل حوالي اثنين ونصف كيلو تقريبا وصلنا إليها بعد العصر .. اى من الثانية عشرة الى بعد الرابعة .. أكثر من أربع ساعات نسير ثم نقع أرضا وهكذا وكل يسير بمفرده ناظرا إلى النخيل يمتع

نظرته الأخيرة قبل ان يقابل ربه .. أخيرا وصلنا الى منطقة النخيل وكانت مساحتها بسيطة وارتمينا أرضا تحت ظلالها وبعد فترة تسكع كل فرد فينا يبحث عن مياه دون جدوى.

إستند كل منا على جذع شجرة صامتاً ناظراً إلي ما بين يديه .. وأخيرا تحرك جويلي الى احدى أشجار النخيل القصيرة وقطع جريدة وقشر جزئها الأسفل وقام بمص ما فيها كأنه يمص قصبا .. أسعدته الفكرة فأشار إلينا بان نقتدي بما فعل .. فعلنا مثله وشعرنا بارتواء قليل مع حلول ظلمة الليل واتبعتها البرودة التى قللت من شدة حاجتنا الى الماء. حصلنا علي قسط من النوم فى هذا المكان على هذا الوضع بعد ان عفا الله عنا وأخرجنا من ظلمات هذا الكهف الى الحياة.

مجرمي الحرب :

قضينا الليل بطوله وهذه هى الليلة الأولى بعد ان من الله علينا بالفرج وأنقذنا من محبسنا الذي كنا سنهلك فيه ويصبح مقبرتنا ونهايتنا الحتمية ، كنت أتذكر الأيام الأربعة الماضية وانا لا اصدق ما حدث سواء من معركتنا مع الجيش الاسرائيلى وما أحدثنا به من إصابات تعدت السبعة قتلى وتدمير طائرة هليكوبتر وسيارتين جيب وإصابة مجندة هالكة لا محالة فى ذلك .. او مما رأيناه من مملكة الذئاب وتعاطفهم وتراحمهم فيما بينهم او من دفننا أحياء وحالتنا المزرية ونحن نخرج أوساخنا بداخل ملابسنا والتى جفت ومازالت عالقة بنا نبحث عن شربة ماء ثم ننظر الى نظافتنا الشخصية .. لقد ودعنا الإنسانية فى رقيها ورقتها ونحن أحفاد الفراعنة الذين قلبوا المنطقة رأسا على عقب سواء من قوتهم العسكرية او من تقدمهم العلمي المذهل ثم ياتى علينا الزمن لنعود الى بدائية الإنسان الاول .. ماذا جناه شباب ذاك الجيل ليصبح هذا حالهم؟ .. كل دول العالم تحارب وتنتصر او تهزم ولكن لماذا يحدث هذا لجنودنا يقتلون اما غدراً او رميا بالرصاص او بقنابل الدبابات والطائرات وإما هالكين فى جوف الصحراء التى لا ترحم من لا

يعرفها ولا كيفية التعامل معها .. مازلت جالسا أغفو قليلاً واستيقظ كثيراً وانا أشاهد جنودي مابين مستلق أرضا او من يبحث عن طعام او شراب .. اى طعام واى شراب نحن لا نختار ولكننا نرغب فى سد رمقنا بشربة ماء وقطعة خبز حتى نظل أحياء طالما لم يأت موعد لقائنا بالله.

من حين لآخر أشاهد جنديا يقوم بقطع جريدة نخيل خضراء ليقشرها بالسونكى ويمتص ما بها من عصيرها حتى يجفف حلقه الملتهب ويدفع بقليل من هذا السائل الى داخل جسده الذي مازال فى احتياج الى الماء .. كان واضحا أننا وصلنا الى حالة من الإعياء شديدة حتى لو توفر الطعام والشراب فسوف نحتاج عدة أيام حتى نستطيع استعادة عافيتنا ومقدرتنا على السير ومواصلة مشوارنا الذي بدأناه منذ خمسة عشر يوما تقريبا.

أشرق الصباح كأنه صباح جديد علينا ولأول مرة منذ أربعة أيام نشاهد المنطقة المحيطة بنا ونفرد سيقاننا ونأخذ جرعات هواء كاملة منعشة .. جائنى الجنود مستفسرين فيما نحن قادمون عليه فأخبرتهم بافكارى .. السكون فى تلك المنطقة حتى نستعيد قوانا ، استفسروا من أين الطعام والشراب؟ أوضحت لهم ان قليلا من عصير جريد النخيل حتى يكشف الله عنا الغمة اما من جهة الطعام فسنأكل مثل ما تأكل الضواري .. اى شيء قابل لأن يصبح طعاما سنأكله .. شاهدنا سحلية تجوب المكان قريبة منا فأشرت الى فراج فاندفع إليها قابضا عليها فقلت هذه وجبة أحدكم ، امتعض البعض ولكنني قلت إذا لم تكونوا قادرين على استساغتها كطعام فلا بديل عن ذلك ومن منا كان يعتقد انه فى يوم من الأيام سيشرب البول الادمى او ينام فوق فضلاته .. انها الظروف الحاكمة.

اعطانى فراج السحلية فقبضت عليها وخنقتها وقطعت راسها ثم تناولتها أمامهم وهم ينظرون إلي ما بين مندهش او رافض لما قمت به ، لم يكن طعمها مستساغا ولكن ماذا افعل؟ وللأسف فان السحلية توقفت فى البلعوم ومازالت تحرك زيلها فقد

تسرعت بابتلاعها ولم افعل مثل ما تعلمت فى مدرسة الصاعقة فقد كان يتم شيها على النار وكيف نعد نيرانا ونحن لا نملك اى عود ثقاب .. شعر جنودي بحالتي وحضر احدهم يدق على ظهري بقوة حتى سقطت السحلية فى معدتي .. أخيرا سقطت بعد ان تركت جدار البلعوم مستخدمة مخالبها والتى كنت اشعر بها وشعرت انها مشكلة كبيرة كيف استخرجها او ابتلعها لكن الله سلم ، ناولني احدهم جريدة امتصها كي تساعدني على هضمها .. شاهدوا عدد من السحالي فانهمكوا قنصا واحدة وراء الأخرى حتى تجمع عدد منهم وكل سحلية تقتل وتقطع راسها وقد جمعنا عدد منها .. تساءلت .. من منكم يستطيع إيقاد نار؟ فتنبه فراج واحضر السونكى وقطعة صغيرة من الصخور المنتشرة وبعض سعف النخيل الجاف وما أكثره ، حاول عدة مرات بحك بالسونكى بالحجر والذي يحدث شرراً ولكنه لم يفلح فى إيقاد النار .. حاول مرة أخرى ونجحت المحاولة فهتفنا لنجاحنا فى عمل اى شيء ولو مثل الإنسان الاول وجمعنا السحالي ووضعناها وسط تلك النيران وقد خرجت رائحة الشواء وكل يمد يده ليحصل على واحدة فيدفع بها الى فمه وخلفها يمتص بعض سيقان جريد النخيل الأخضر.

عصراً شعرنا أننا اقل تضوراً مما كنا عليه من الجوع والعطش .. الجنود يتجولون بين النخيل لعل وعسى ان يشاهدوا شيئا ينفعنا فيما نحن فيه وحاول البعض حفر بئر مياه ولكن جويلي اخبرهم ان المياه هنا مستواها مرتفع وان النخيل لا يحتاج مياهه من الأرض مباشرة حيث يحصل عليها من السماء سواء من الأمطار او من قطرات الندى التى تسقط على قمة النخلة فالشراب هنا عكسيا مثله كمثل أشجار الموز.

هبط علينا الليل وقد تحسنت حالتنا المعنوية والنفسية والصحية فقد أكلنا والمعدة لا ترى الطعام فاى شيء ستتقبله طالما انه غير سام وما حدث بالأمس حدث هذا المساء ، نتكلم ونتحدث بحرية ويلفنا أمل بالحياة والسير الى اتجاهنا مع

الاحتراس حتى لا نقع فى الشرك مثل ما حدث مع مهربي المخدرات .. اليوم التالي هبطت بعض الغربان تنعق أمامنا نظرنا لبعضنا البعض وكانت الإشارات المتبادلة الصيد لأكبر عدد منها وقد تم اصطياد ثلاثة بعد جهد كبير .. ذبحت ونظفت بالرمال بديلا عن الدقيق وأصبح الغراب مثل حمامة كبيرة وأشعلت النيران بنفس أسلوب اليوم السابق وطهيت الغربان وتناولناها كأننا نتناول حماما محشيا بالفريك فى أحسن محلات القاهرة وبعدها تناولنا عصيرنا الميمون.

كان منظراً مضحكا وكل واحد منا ممسكا بقطعة من الجريد الأخضر وبصوت مص مرتفع بغرض الحصول على اكبر كمية من السائل.

استمر حالنا على ما نحن عليه ثلاثة أيام وغدا اليوم الرابع وقد اثرت فينا الراحة مع الوجبات الدسمة من السحالي والغربان وقررنا التحرك غداً لعلنا نصل الى بر الأمان بعد ان أرهقنا من كثرة مص جريد النخيل .. كانت المشكلة المؤلمة لنا هى قذارتنا رغم انه فى اليوم التالي لراحتنا خلعنا ملابسنا وفركنا فضلاتنا التى جفت على أجسادنا ولكن مازال شعورنا بالقذارة يؤثر على راحتنا النفسية فاحتياجات الإنسان ورغباته بعد الماء والطعام هى نظافته الشخصية.

ظهرت شمس اليوم الرابع فى هذا المكان الصحراوي والذى كانت كل ميزته هو الظل واتقاء حرارة وضوء الشمس الحارقة .. تحركنا عاقدين العزم على التوجه لمكان نستطيع العيش فيه ولن نبقى هكذا نعيش على جريد النخيل واكل السحالي والغربان .. سرنا بثقة وعزم واستقامت أجسادنا وتبادلنا الضحكات والكلمات والقفشات وكل يعيد على الاخر ما حدث فى الأيام الأخيرة فى منطقة المحور الأوسط وان الله ساعدنا ووقف بجانبنا رغم ما عانيناه من إرهاق بدني ونفسي.

مازلنا سائرين .. بعد الظهيرة شاهدنا بدويا يركب جملا فاشرنا إليه فحضر الرجل متخوفا منا خاصة عندما شاهد سلاحنا .. نزل من على جمله واخرج لنا قربة ماء يحملها معه فشربنا وارتوينا وسألناه عن اقرب مكان نخلد فيه للراحة

وشرب الماء .. أشار بيده لطريقنا الذي نسير فيه قائلاً : ساعتين او تلاته سيرا وتصلوا الى منطقة كذا .. وذكر الاسم وسألنا من اى مكان نحن قادمون فأخبرناه من جهة المحور الأوسط فتهلل وجه الرجل قائلاً : انتم كنتم مع الدفعة اللى ضربوا اليهود هناك .. والله يا أخي شيء عظيم أنكم دخلتم على اللواء الاسرائيلى المظلي وضربتوهم !! نفيت ذلك وكان هذا رجائي الى جنودي بألا يتباهو بما فعلوا حتى لا تصل المعلومات الى اليهود بعد انتشار جواسيسهم وعملائهم فى سيناء ، شرح لنا الرجل ان مجموعة من الجيش المصري قتلت عشرة إسرائيليين وأسقطت طائرتين وكان سعيدا بتلك الأخبار فسأله مصطفى: من أين علم بتلك الأخبار؟ فقال: ان البدو عندما يتقابلوا يقص بعضنا علي بعض ما حدث فى المنطقة التي أتي منها ، شكرناه وأعطيناه قربته ونحن سعداء بتلك الأخبار التى انتشرت لمعركتنا مع أبناء الافاعى كما علمنا ان طريقنا صحيح الى المنطقة التى نسير فى اتجاهها.

غربت الشمس ولم نصل لهدفنا فجلسنا فى مكاننا لعلنا نصل لاى منطقة فى الصباح ولكننا لاحظنا بعض الأضواء والنيران المشتعلة على مسافة ليست ببعيدة .. اتجهنا لتلك المنطقة وخشينا دخولها حتى لا تكون وكرا للشياطين من مهربي المخدرات او المجرمين .. أمضينا ليلتنا بالقرب من تلك المنطقة ونحن نشعر براحة فقريب منا يعيش بشر ومعهم الماء والطعام وقبيل الفجر ايقظنى احد الجنود ليخبرني بان تلك المنطقة بها دبابات واعتقد انها دباباتنا .. صمت ولم أتحدث وأرهفت السمع لعلى اخرج بأي بيانات وقد تأكدت من انها دبابات مصرية وإسرائيلية .. الدبابات المصرية محترقة والجنود الإسرائيليين يستعدون لمغادرة المكان أسرعنا بالاختباء بين الرمال ولم يتبق منا شيء ظاهر سوى وجوهنا .. كنا متأكدين ان الدبابات لن تأتى فى اتجاهنا لوعورة المنطقة مما يؤثر علي سيرها .. قبل الظهيرة انقطعت أصوات المحركات والجنازير فخرجنا من مواقعنا نتحسس

الأخبار فنظرنا حولنا فلم تكن هناك اى إشارة عن اليهود .. قررت الانتظار حتى المساء للتأكد من خلو المنطقة منهم.

بعد الغروب اتجهنا الى المنطقة ونحن فى حالة انتشار ولا نسير متجمعين حتى لا يفتحوا نيرانهم فجأة فيقضوا علينا جميعا ، وصلنا الى قلب المنطقة والتى تحيط بها أشجار النخيل ، شاهدنا دبابات مصرية من نوع (ت٣٤) وهي دبابات قديمة كانت تحارب به روسيا فى الحرب العالمية الثانية وجمعت تلك الدبابات وأعطتها لمصر وكان المرء يشاهد اثار رقع حديد لتلك الدبابات الى دمرت وأعيد إصلاحها ليرسلوا بها الى المصريين.

السكونُ مطبق على المنطقة والجنود يبحثون فى كل مكان عن الطعام والشراب غير مبالين بوجود ألغام فى المنطقة يتركها اليهود لقتل البشر ولكن احد الجنود أتى إلىّ مسرعا مضطربا طالبا منى مرافقته وانا اسأله عما يريده منى فطلب منى التوجه فقط برفقته كان واضحا انه شاهد شيئا مريبا او مخيفا وهذا باديا من توتره وهو يحدثني .. وصلنا الى المكان الذي توقف عنده وكان باقى الجنود يسيرون فى أعقابنا .. ثم تحدث قائلا: سمعت صوت واحد مصري يطلب العون وهو يحتضر وخفت انها تكون روح واحد من الشهداء .. جلسنا فى تلك المنطقة فوصل الى سمعنا من ينادى "حأموت...عايز اشرب ...حأموت" استطعنا تحديد مكان الصوت ووصلنا إليه وهناك عثرنا على جندي او قل بقايا جندي مدفونة فى الرمال. حاولنا إخراجه ولكنه صرخ صرخة الم شديد.

الليل سكون ونحن لم نشاهده كما إننا لم نعثر على مياه .. تحرك جنديان يبحثان عن المياه فى المنطقة لإسعاف هذا المسكين الذي كان يحتضر بينما يحدثنا ويخبرنا بأنهم من الكتيبة (.....) دبابات وبعد قتال مع العدو فى تلك المنطقة اسر المتبقي وعددهم ثلاثة عشرة منهم أربعة ضباط وقد عذبونا بأسوأ ما

يكون وفى النهاية ربطت أيدينا ووضعت خلف ظهورنا ورصونا صفا وسارت علينا الدبابة ونحن مازلنا أحياء ولقد قتلنا جميعا ولم يتبقى سواى "اشرب ميه .. ميه".

نجح الجنود فى العثور على بعض مياه متبقية من الجنود الإسرائيليين وقدم احدهم المياه للجندي المحتضر وكنا جميعا فى اشد الاحتياج الى المياه .. شرب وشكرنا وتحدث قليلا بصوت خافت وأخيرا صمت صوته وأطبق السكون فقام احدهم يحدثه ويهزه ولكنه كان قد رحل الى جنة الخلد .. جلسنا قريبين منه وقد أصابتنا الدهشة من روايته ولم نصدقها كيف يكون هذا؟ ونحن لم نسمع فى اى حرب حدث مثل ما يحدث الآن ولكن مع اليهود فكل شيء قابل لأن يحدث

أمضينا ليلتنا فى ذلك المكان ونحن لا نعرف هل قضى ثلاثة عشرة مصريا نحبهم على ايدى هؤلاء الاعداء وكنا يقظين لاحتمال عودتهم ولهذا انتشرنا على ثلاث مجموعات كل اثنين سويا مع منع الحديث حتى لا يسمعنا احد ويهجم علينا اليهود فجأة .. أشرق ضوء الصباح ونحن نتمطع لنزيل اثر الكسل والخمول من اثر تلك الاحداث وقررنا دفن الجندي .. ذهبنا الى مكانه وهالنا ما رأيناه .. ثلاثة عشر مصريا قتلوا تحت جنازير الدبابات .. انطلقت الدموع غزيرة من عيوننا ولو شاء الله وحضرت اى قوة إسرائيلية أثناء ذلك لدخلنا معهم فى معركة انتحارية نقتل ما نستطيع ونُقتل أيضا .. كان الثأر لهولاء العُزل من السلاح هو أهم ما نفكر فيه .. نشاهدهم مربوطى الايدى من الخلف وقد هرستهم جنازير الدبابات وتهتكت أجسادهم النحيلة تحت وطأة هذا الثقل الذي يصل الى ما يزيد علي خمسين طنا من الحديد الصلب .. نكشف عن وجوههم المغروسة فى الرمال لنشاهد علامات الفزع بادية عليهم وكلهم فاتحي الأفواه صراخا من الألم الذي لحق بهم.

جلسنا أمامهم عند رأسهم وكلّ منا ينظر الى الشهداء باكين لا نعرف كيف التصرف؟ كانت المحنة شديدة علينا نحن الصغار الضعاف وشاهدنا ما ينتظرنا فكل يوم يأتى بجديد ومن يقع تحت الأسر سوف يلقى هذا المصير .. مازلنا

نحاول استيعاب ما نشاهده ونراه ولا نستطيع التفكير وكيف نتصرف وقد هالنا ذلك وأخيرا استجمعنا قوانا لدفن هؤلاء الشهداء واستغرق هذا وقتا طويلا فقد بحثنا عن منطقة منخفضة لدفنهم وقابلتنا مشكلة كبيرة فى ذلك فإذا جذبنا شهيدا من أقدامه على الرمال حتى منطقة الدفن المختارة ينخلع الجزء المسحوب منه الشهيد ويظل مرتبط فقط بالجلد .. لقد تفصصت مفاصلهم عن بعضها البعض ولهذا أشرت الى الجنود بأن كل ثلاثة منا يحملون شهيداً فكنا نجمع الأرجل واليدين على صدره وأصبح مثل اللفافة او كمية من الملابس المكورة وجمعناهم بهذا الشكل مع محاولة عدم النظر إليهم خاصة الوجه الذي ارتسمت عليه كل علامات الفزع المرعبة التى تدفع بدموعي حتى الآن كلما تذكرت هذا الموقف .. كانت تلك العملية شاقة علينا .. لا استطيع استيعاب ما حدث .. لقد ألهتنا المفاجأة وعملية الدفن عن اظهار شعورنا وتخطينا الأثر النفسي الرهيب الذي واجهناه لأول مرة فى حياتنا .. بعد جهد مع النفس والبدن استطعنا ان نجمعهم وأهلنا عليهم الرمال بعد ان صلينا عليهم صلاة الجنازة ونحن مازلنا بوضعنا وحالتنا من عدم الطهارة والنظافة .. رجعنا الى مقر جلوسنا أسفل أشجار النخيل نفكر بأن خلف هؤلاء عائلات وأحباب وكان بينهم كما قال الجندي قبل استشهاده أربعة من الضباط احدهم برتبة المقدم .. جلسنا صامتين واجمين ومن حين لآخر تخرج منا زفرات الضيق والألم لهذا الذي حدث لهم ونتذكر ما كنا عليه من عدة أيام عندماُ دفنا أحياء ولكن الله وقف معنا ووقف مع هؤلاء أيضا ان أعطاهم صك الشهادة ليدخلوا الفردوس الأعلى مع النبيين والصدفيين.

وجدنا قليلا من الماء فحصل كل فرد فينا على عدة جرعات قليلة تبل عطشنا وقررت التحرك من هذا المكان البائس وما شاهدناه لن يُمحى من ذاكرة من شاهده وعاصره.

تحركنا شمالا على أضواء النجوم نهتدي بها وقد قطعنا شوطا لا بأس به وكان الصمت هو حالنا وخمدت الضحكات التى كنا نتسلى بها من حين لآخر وبعد منتصف الليل حصلنا علي قسط من الراحة لنكمل مشوارنا الذي لا ينتهي وما البديل أمامنا .. اقبل علينا ضوء الفجر فقمنا نتحرك بكسل وخمول وسرنا حوالي اثنين كيلومتر فشاهدنا مجموعة من أشجار النخيل رقدنا لنستوضح المنطقة حتى تأكدنا ان بها بدو وعائلات وهرج ومرج وأصوات حيوانات من ماعز وخراف وأصوات أطفال .. تحركنا إليهم راجين من الله ان يكونوا ارأف حالا بنا .. وقفنا بعيدا بحوالي مائة متر حيث ان البعض يجزع من مشاهدتنا وحتى نتأكد أنهم قد علموا بوجودنا ولكننا بدلا من ان نذهب إليهم حضر احد الشباب إلينا مرحبا عارضا تقديم المساعدة الممكنة لنا وسعدنا بلقائه فطلبنا منه بعض الماء لأننا لم نشربه منذ عدة أيام .. أخذنا الرجل من أيدينا متوجها الى قبيلته او هذا التجمع وأجلسنا فى مكان مختار تحت أشجار النخيل وغاب فترة ثم عاد حاملاً معه إناء نظيف به ماء فشربنا وارتوينا وكانت حالتنا تدل على ما أخبرناه به ثم ترك الإناء بجوارنا ، بعد قليل حضرت فتاة فى العشرين من عمرها وأخذت الإناء وأعادت ملئه وأحضرته لنا متمنية لنا شرابا هنيئا فأسعدنا ما قالته وعاد الرجل الكريم حاملا صينية مثل صواني العشاء بالريف مملؤة بالخيرات من طعام شهى وخبز طازج قائلاً : املؤا بطونكم الخاوية أبناء بلدنا الأعزاء وبعد قليل سأحضر لكم الشاي شكرته وانا اخبره بألا يرهق نفسه وتكفى تلك الجرعات من المياه الطازجة الباردة التى أنعشتنا ولكنه رفض ذلك موضحا اننا ضيوفهم جميعا.

تناولنا طعامنا الهنيء والسعادة تلفنا من اللقاء وما بعد اللقاء .. احضر الرجل برادا للشاي مُعد وجاهز وحاملا أكوابا زجاجية وجلس معنا يكرم ضيافتنا ولحق به بعض أصدقائه وأقاربه كل يرحب بنا ونظر الرجل الى يدى المربوطة والى عطية واحمرار يده الشديد وفك رباط يدى بهدوء وقد هالني ان الجرح ازداد

سؤا وأسرع ليحضر مطهراً ولكنه لم يعثر عليه وقد أسعفته قريحته بان احضر وابور جاز واحضر صابونه وبعض الماء وغسل الجرح وقال انظر ان جرحك كان على وشك التلوث لوجود هذا وأشار فإذا هى ديدان .. اى والله ديدان ترعى فى يدى كأنني مت وتلك الديدان تحلل جسدي ، وضع عدة نقط من فتحة النفس بالوابور فنزلت قطراته فوق الجرح مؤلمة والديدان تقفز خارجه وتموت وبعد ان تأكد ان الجرح مليء بالكيروسين جففه وذهب واحضر قطعة بيضاء من طرحة زوجته معتذراً بأنه لا يوجد لديهم شاش وقطن ولكنه قال ان قطعة القماش ستقوم مقام الشاش وربط الجرح بعناية وانا اشعر ان شيئا كان بيدي وذراعي يؤلمني وشعرت بأن الآلام التي كنت أشعر بها بذراعي بدأت تقل ثم توجه الى عطية وقد تأكد ان جرحه سطحي وليس خطرا مثل حالتى ودهنه بكريم من كريم السيدات التى يستخدم فى الزينة.

كان واضحا المستوى الاجتماعي والمادي الذيُ يميز أبناء تلك القبيلة واخبرني أنهم من منطقة بئر العبد وأنهم هربوا بعد علمهم بدخول الإسرائيليين العريش خوفا من شراستهم حيث أنهم قوم لا دين ولا حياء عندهم .. شكرناه طالبين منه ان يشكر كل من تقدم لمساعدتنا ولكنه رفض ان نغادر المكان قبل ان نتناول طعام الغداء أخبرته أننا حصلنا على قسط كبير من الطعام وان موعد الغذاء مازال بعيدا ولكنه صمم علي هذا مكرراً قوله أننا ضيوفهم فجلسنا نستريح ونحن نقارن مابين أبناء البشر فهم مثل الماء حيث يقول الله عز وجل "هذا عذب فرات وذاك ملح أجاج"..

نحن فى ضيافة هؤلاء القوم أبناء الكرم والشهامة ولا تمض ساعة إلا ويحضروا لنا الشاي وبجواره بعض الفطائر الحلوة ولكن أهم ما لفت نظرنا انه طلب من جميع العائلات الحضور فى صحن المنطقة ونحن نشاهدهم من على مسافة مائة متر تقريبا .. ثم تحدث قائلاً : يا اهلى وعشيرتي هنا مجموعه من الدفعة أبنائنا

أبناء مصر فى احتياج لعوننا وانا أقدم هذا رافعا طبقا ابيضا كبيراً قائلاً : هذا الطحين من عندي .. أين مساهمتكم؟ .. ونشاهد السيدات يندفعن مقدمين أشياء للطعام لا نعرفها ولكن كل واحدة تقول وانا أقدم هذا لاخوتى المصريين .. وهكذا اجتمع القوم على مساعدتنا وقامت النساء بعجن الدقيق وإشعال النيران والخبيز ورائحته تتصاعد والبعض يقوم بأعمال أخرى وقبل انتصاف النهار احضروا صينية العشاء ممتلئة بالخيرات مثل الصباح بل وأكثر والرجل يعتذر لظروف الحرب التى منعتهم من ان يقدموا المساعدة الواجبة لنا .. تناولنا طعامنا ونحن لا نصدق ما يحدث ومشتتي الفكر مابين هؤلاء والمهرب الذي دفعنا دفعا لجنود الاعداء لولا ان الله سلم لكنا فى عداد الشهداء.

حمدنا الله على نعمته وكنا نرغب فى ان نغتسل ولكننا تحرجنا لوجود نساء كثيرات بالمنطقة وفتيات رائحات غاديات وكل حركتهن قريبا من البئر ونحن نريد خلع ملابسنا وغسلها ونظافة أجسادنا .. شكرناهم جميعا متمنيين لهم حُسن الإقامة وسرعة العودة الى بيوتهم ، أعطونا باقى الطعام مع إمدادنا بعبوة بلاستيك مملؤة بالماء .. سرنا ونحن نحمل كل ذكرى طيبة وقلوبنا تلهوج بالثناء لهم داعين الله ان يعوضهم جزاء صنيعهم هذا.

غادرنا المنطقة ونحن نشعر إننا نغادر مكانا عزيزاً علينا اختفينا عنهم واختفوا عنا وسرنا نكمل مشوارنا وبعد ساعتين وجدنا منطقة نخيل فارغة وبها بئر مياه أسعدنا هذا وتحيرنا لو خلعنا ملابسنا وغسلناها سيقبل الليل ببرودته ولن نستطيع ان نبقى هكذا عراة طوال الليل نتحمل الصقيع ولدغات البعوض الكثيرة .. طلبت تأجيل هذا الى باكر .. فى الصباح استيقظنا ونحن أحسن حالا فلقاء الأمس الطيب ونفحات الطعام الكثيرة المتنوعة أعطتنا جرعة من النشاط والحيوية.

حوالي العاشرة صباحا تحللنا من ملابسنا وكل واحد منا حمل الماء من البئر مانعا السباحة فيه لأنه مصدرا للشرب ولا يجب علينا ان نعكره بقذارتنا الكثيرة

انهمكنا فى غسل ملابسنا ونحن عراه وطلبنا من الله ان يسترنا وان لا يحضر احد ويرانا خاصة البدويات .. وقد علم الله بما نريد فلم نشاهد أحدا يقترب من هذا البئر وقد جفت الملابس ودعك الرجال أجسادهم بالرمال بديلا لليفه والصابون وقد أتى هذا بمفعوله .. ارتدينا ملابسنا ونشعرنا بالانتعاش وادينا صلوات كثيرة لنعوض أيامنا السابقة ولنشكر الله على نعمته.

أمضينا ليلتنا بجوار البئر نأتنس به ونتزود بالمياه ونقضى حاجتنا ومعنا عبوة نحصل منها على المياه للطهارة وأصبحنا مثل الإنسان الراقي وقبيل الفجر قررنا التحرك .. سرنا حوالي عشرة كيلومترات وشاهدنا أشجار النخيل والبدو أسفلها وسبحان مغير الأحوال بمجرد دخولنا على أول بدوى وهو جالس يستمع الى نشرة أخبار السابعة صباحا زغر لنا الرجل صائحا : بعدو .. بعدوا .. ابتعدنا ونحن ما نزال نراقبه وقد شعر الرجل أننا نريد الاستماع الى النشرة فأغلق الراديو ودخل خيمته لاعنا هذا الصباح الذي استقبل فيه وجوها كريهة .. رغب فراج فى ان نلقنه درسا ولكنني طلبت منهم عدم إبداء العداوة ويكفى لقاء الأمس ليمحو خطايا اليوم .. سرنا الى الجهة الأخرى من البئر وعبرنا تلك القبيلة سائرين فى اتجاهنا الذي لا نعلمه .. واصلنا السير ومكثنا ثلاثة أيام لا نرى اى أشجار للنخيل ولا نشاهد اى بدوى وهكذا يوم عسل وأيام مريرة علقم.

اليوم الرابع منذ لقاء الأحبة من أبناء قبيلة الشهامة والكرم وقد نفذت المياه التي بحوزتنا منذ يومين والجهد قد أرهقنا والتعب أضنانا والشمس لفحت وجوهنا ثانية ولا ماء معنا ولا طعام لأكثر من يومين وفى اليوم الخامس منذ تناولنا طعامنا واليوم الثالث بدون ماء او طعام شاهدنا قبيل الظهر مجموعة أشجار نخيل على مرمى البصر فاتجهنا إليها وقد بلغناها بعد الظهر .. تقابلنا مع رجل عجوز ذو لحية كبيرة واعتقدنا انه شيخهم وكان الرجل يتوضأ ممسكا بإناء به ماء ويصب على نفسه وتقع المياه فى حوض من الصاج .. نصف برميل طولي .. القينا

عليه السلام فأشار بيده تركناه حتى أتم وضوءه وبعدها توجه إليه عطية وهو رقيق الحال سائلاً إياه العون وقد استفسر منه الرجل ماذا تريد يا بني؟ قال له بعض الماء واى طعام ولو كسرة خبز .. أشار له الرجل بأنه سيذهب ويحضر لنا الطعام والماء جلسنا ننتظر حضوره وماهى إلا دقائق وشاهدنا الرجل ممسكا ببعض جريد نخيل جافة وألقاها أمامنا ونحن نعتقد ان الطعام سيحتاج النيران فإذا به يقول هذا هو طعامكم وأشار الى حوض الماء الذي كان يتوضأ به وقال وهذا هو شرابكم .. اندهشنا ولم نكن نتوقع ان يقول لنا احد مثل ذلك وعندما سأله مصطفى مستنكرا قوله .. إيه اللى بتقوله يا شيخ؟ .. أجابه كما سمعتم انتم لستم أحسن من الإبل والأغنام كلو واشربوا وغادرونا .. تركنا وانصرف وأراد جويلي جذب أجزاء سلاحه فمنعته وقلت هل نغصب الناس على المرؤة انه تربية جوع ولا يعلم شيئا عن كرم الرجال والمروءة .. غادرنا المكان ونحن كارهون لأي طعام أو شراب بل كارهون الحياة التى تدفعنا لهذا الذل والقهر.

عدة كيلومترات وشاهدنا منزلا وبجواره بئر مياه وبعض المزروعات وثلاثة أطفال يأكلون من طبق ممتلئ بامية خضراء .. وقفنا ننظر إليهم ، بامية فى الصحراء .. شاهدتنا الام فحضرت مسرعة واصطحبت أطفالها ودخلت بهم المنزل ثم عادت وهى تصيح فى وجهنا .. ماذا تريدون ألا يكفى ما حدث لنا من وراء أعمالكم .. أجابها جويلى قليل من الماء والطعام .. أشارت ألينا : الماء أمامكم اشربوا وبعدو.. كانت رسالتها قاسية وعنيفة وأعطيناها العذر فهى سيدة صغيرة وتخشي على أطفالها وبعد عشر دقائق فتحت باب منزلها وهى تقول بصوت عال .. دفعه تعالوا كلوا وغورا من هنا .. رمت الطبق الذي به بقايا البامية الخضراء بجوار حائط منزلها ولا اعرف لاين اتجهت مشاعري ، شعرت كأننا كلاب ضالة ويرمى لها ببقايا الطعام .. هكذا عوملنا لقد كرهنا الطعام وغادرنا المكان تاركين المنطقة لاعنين هؤلاءالقوم رغم ان منهم الكثير من أصحاب الخلق الكريم.

العودة لنفس المكان

بعد ان شربنا من هذا المكان وملأنا وعاء البلاستيك الذي معنا من الماء شاهدنا بعض السيدات يجلسن حول شيء ما مثل الفرن كانون عبارة عن حجرين من الصخور وبينهما فاصل وفوق الحجرين قطعة من الصاج على هيئة اسطوانة "قصعة من التى تستخدم فى حمل الاسمنت للبناء" ويتم إشعال النيران مستخدمين سعف النخيل ويقومون بخبز الدقيق بعد ان أصبح عجينا بوضع الماء عليه وخلطهما سويا .. وقفنا بعيدا نشتم تلك الرائحة المحببة الى نفوسنا وتشبعنا عن بُعد بتلك الرائحة وما ان تحركت أمعائنا راغبة فى الطعام على رائحة الخبز .. شاهدتنا السيدات ولم يبالين بنا ونحن نجلس بعيدا عنهم ولا نستطيع الاقتراب خوفا وخجلا من ان يسمعونا كلاما سيئا على نفوسنا ولكن فتاة شابة نظرت إلينا والى زميلاتها وحدثتهن وكان باديا من أسلوب الحديث انه قد حدث خلاف على أمر ما ولم تبال الفتاة الصغيرة فأحضرت بعض الأرغفة الساخنة وقدمتها لنا ونحن نشكرها بلسان حالنا وتركتنا عائدة وقد غبنا عن أنظارهن وذهبنا قريبا من بئر المياه نقتطع بعضا من تلك الأرغفة ونتناولها ونبتلعها بقليل من الماء.

فى المساء واصلنا السير فقد انعم الله علينا بالماء وبعض أرغفة الخبز التى سوف تستمر معنا عدة أيام بإذن الله .. سرنا بكل همة ونشاط ونحن سعداء بما انجزناه اليوم خاصة بعد المقابلة السيئة من السيدة ام الأطفال صاحبة طبق البامية .. كانت تلك المعاملة تؤثر فينا الى درجة كبيرة فنحن لم نقابل بمثل تلك الفظاظة قبل دخولنا المعركة ولم يتعرض احد منا الى ذلك أبدا وكنت أتذكر أبى عندماً كنت طفلا فى العاشرة كان يرسلني الى أسرة رجل فقير بالطعام فى شهر رمضان وكان الطعام بكميات وأنواع وأصل إلي داره قبل الآذان بقليل حتى يظل الطعام ساخنا وطازجا ثم أعود الى منزلنا والشوارع فارغة والجميع يتناولون

إفطارهم وانا صائم وامعائى تحدث اصواتا من الجوع والعطش وكان رمضان أيامها فى شهر مايو من عام ١٩٥٥ ثم أتذكر أيضا العاملين فى أرضنا الزراعية وهم يأكلون ويمرحون سواء أثناء جني محصول القطن او ضم الأرز او حصد وتخزين القمح .. اى نحن من بيت كرم .. كما كان جنودي هم الآخرين يتذكرون مآثر عائلاتهم على الآخرين رغم انخفاض مستواهم الاجتماعي .. كما ان أسلوب الامتناع عن مساعدتنا يتم بأسلوب سيء وفظ وليس هادئا او بالحسنى.

تحركنا للسير وسرنا مسافات طويلة وقد اقتربنا من ضوء الفجر.. جلسنا للراحة وغلبنا النعاس فرحنا فى نوم عميق .. استيقظنا على صوت طائرة ففزعنا ولكنها كانت بعيدة عنا وعلى ارتفاع كبير .. نظرنا حولنا فوجدنا منطقة نخيل لا تبعد إلا بحوالي اثنين كيلومترا .. توجهنا إليها للحماية من شمس النهار المؤلمة وها نحن نشاهد النخيل على بعد مائتي متر .. واصلنا السير حتى دخلنا الى المنطقة وجلسنا نستريح قليلا ولكننا شعرنا ان تلك المنطقة ليست غريبة عنا وتجولنا بها فشاهدنا الدبابات المدمرة وأماكن المقبرة الجماعية للشهداء التى داستهم الدبابات الإسرائيلية أحياء. انتابنا خوف شديد لاحتمال ان يعود اليهود ثانية كما ان تلك المنطقة ليست بها مياه ولهذا قررنا ان نغادرها مساء نفس اليوم الى مكان آخر.

مساء هذا النهار تركنا المكان متجهين لنقطة أخرى عازمين العمل على تصحيح مسارنا فلقدُ عدنا من حيث أتينا وهذا يدل على تخبطنا فى اتجاهات السير وإننا ندور حول أنفسنا وضاعت منا ثلاثة أيام هباء وبذلنا مجهودا لا داعي له ونحن فى اشد الحاجة للراحة منا للمجهود لما نحن عليه من ألم وضعف أثر على قوانا ونحن راغبين فى النوم لما نعانيه من إرهاق كان باديا على الجميع.

واصلنا التحرك عازمين على ان نبدل زاوية سيرنا كل نصف ساعة بدلا من الساعة وبهذا نقلل الخطأ الذي وقعنا فيه .. استمر سيرنا حتى منتصف الليل ولم

نستطع استكمال الليل بطوله ورقدنا فى أماكننا كما تعودنا بالعراء واستيقظنا ضحى اليوم التالي قبل ان تحرقنا أشعة الشمس ، واصلنا التحرك بعد ان تناولنا بعض كسرات الخبز وقليلا من المياه التى قلت كمياتها واصبحت لا تكفى حتى المساء .. شاهدنا حطام طائرة ميج ٢١ مصرية وبعدها بحوالي كيلو متر شاهدنا حطام طائرة ميراج إسرائيلية .. إذن كانت هناك معركة جوية.

سرنا نهاراً لتقليل الخطأ فى الاتجاه رغم حرارة النهار.. واصلنا السير ولا جديد ولا يعكر صفونا إلا الخوف من فقدان الاتجاه والدخول الى مناطق صحراوية جافة وفقد المياه او مفاجأة اليهود لنا ولكن كل هذا كان مُستبعدا لأنه لم يحدث إلا صدفة فى منطقة المحور الأوسط ولو ان الجندي لم يلوح لهم لما شاهدونا ولما حدث صدام معهم ولكن على اى حال هذا الصدام اثبت أننا رجال مقاتلون ولسنا ضعفاء كما تبادر الى ذهن كل جندي وضابط أسرع فى الانسحاب بطريقة ارتجالية زادت من الخسائر بينهم .. هبطنا من المرتفع الى الوادي فشاهدنا كتيبة دفاع جوى (مواسير) محترقة بالصواريخ والنابالم ومازالت بعض الجثث المحترقة فوق المدافع " وتلك المدافع من النوع المحمل على شاسية دبابة ومزود بمسورتين" كان التحلل قد أتى على جزء من أجسادهم والرائحة النفاذة تلهب الأنوف .. حاولنا دفنهم ولكن تعذر علينا ذلك نظرا لحالة أجسادهم الهلامية الغير متماسكة.

تركنا المكان معتذرين عن واجب إنساني وقبله واجب ديني فإكرام الميت دفنه.. نحن الآن فى المساء وتناولنا كسرات الخبز الباقية بعد ان جفت وابتلعناها بالماء المتبقي ونحن فى انتظار ان يمدنا الله بفضله وعونه ورحمته .. حصلنا على راحة منتصف الليل وأكملنا سيرنا لليوم الثالث بعد ان تركنا آخر منطقة للبدو الذين أمدونا بالخبز .. ثلاثة أيام لتصحيح خطأ السير.. واصلنا السير تحت درجة الحرارة المرتفعة وقد أضنانا الجوع والعطش رغم عدم مرور أربع وعشرين ساعة

على آخر طعام وشراب .. شعرنا بنسمات هواء رطب هبت علينا والتوقيت حوالي عصر ذلك اليوم ، تشجعنا فى السير لنصعد تلا فنشاهد واحة خضراء ولاحظت ان الجميع يسرعون إليها وطلبت منهم عدم الاندفاع فاستجابوا وتحركنا بيقظة وحذر الى ان تأكد لنا انه لا توجد قوات للعدو بتلك المنطقة .. بحثنا عن الماء بين الأشجار فلم نشاهد اى علامات ولكننا شاهدنا بعض الطيور المحلقة فى السماء تهبط فى الجانب الاخر من الأشجار .. اتجهنا الى مكان هبوط تلك الطيور وشاهدنا الكثير منها والذى يختفي ثم يعود طائرا وصلنا الى مكانهم فرأينا كهفا ساقطا هابطا لأسفل بممر حوالي خمسة عشرة مترا بزاوية ميل ثلاثون درجة ثم بئر مياه تحت الصخور المحيطة به وهي من نوع الحجر الجيري مثل أحجار المقطم او التى تبطن بها الترع فى الريف المصري.

هبطنا لنحصل على كفايتنا من الماء ومنظره الذي يسُر العين والقلب لا ينازعه اى إحساس او شعور آخر انه شيء عال القيمة انها الحياة .. ارتوينا وحصلنا على مياه لإزالة الأوساخ عن وجوهنا ثم أعدنا مليء العبوة التى معنا تاركين هذا الكنز الرائع واتجهنا الى منطقة النخيل وجلسنا على اطرافها قريبا من البئر حتي نستأنف سيرنا بعد ساعة عند هبوط الظلام .. كان مكان راحتنا خلف مجموعة من أشجار النخيل القصيرة المتشابكة والمرتفعة عن الوادي الذي به أشجار النخيل وأثناء جلسونا إذ نفاجأ بسماع صوت محرك دبابة .. تحيرنا واضطربنا ننظر حولنا فى تلك البقعة المكشوفة ولكن هالنا دخول الدبابة الى منطقة النخيل التي نستظل بها ، ظلت الدبابة تتحرك حتى توقفت على مسافة مائة متر او اقل قليلا من مكاننا .. ملأ الرعب قلوبنا وأصبحنا فى مصيدة فتلك الدبابة قادرة فى ثوان قليلة على القضاء علينا ونحن بدون سلاح يستطيع مقاومتها والمسافة قريبة ونحن فى مرتفع فأي حركة سوف تُكشف على الفور حتى الصوت فلو عطس احدنا او سعل فسوف يؤدى بحياتنا .. حبسنا الأنفاس رقدنا جميعا

على وجوهنا وراقبنا تنفسنا وشهيقنا خوفا من ان يسمعونا .. كان أهم ما لفت نظرنا والدبابة قادمة بأن خلفها حبل مربوط به عدد من الأسرى المصرين وتزحف بهم فوق الرمال ولا اعرف من أين ولكن ما شاهدناه بمجرد وقوفها ان بعض أفرادها غادروها ولم يتبق سوى فرد واحد يقف فى البرج لحماية زملائه .. توجه الثلاثة وكان من بينهم فتاة واعتقد انها ليست من طاقم الدبابة لكنها رافقتهم للتشفي بما سوف يفعلونه بالأسرى .. توجهوا الى الأسرى خلف الدبابة طالبين منهم الوقوف بعضهم غير قادر فاستعملوا معهم القسوة ركلا بأحذيتهم ولقد استطاع الوقوف أربعة دفعوا بهم أمام الدبابة وربطوا أذرعهم خلف ظهورهم ودفعوهم للانبطاح أرضا استعدادا لهرسهم كما حدث مع الشهداء السابقين وشاهدنا آثار تلك الفعلة الشنعاء قبل هذا.

لازمنا التوتر والانفعال ونحن نريد إنقاذهم وننتقم لما حدث لإخواننا الآخرين ولكننا كنا اضعف من ان نقوم باى عمل فسلاحنا ضعيف والذخيرة المتبقية قليلة جدا فقد استهلكناها فى معركة اللواء المظلي الاسرائيلى ولم يتبق حسب آخر حصر لذخيرتنا سوى اثنتي عشرة طلقة بندقية .. وزعت علينا بالتساوي لنحافظ بها على حياتنا وكنا نتمنى ان نعثر على ذخيرة لتلك الأسلحة.

مازلنا راقدين خائفين ومتوترين ولا نتصور ان يُقتل أخوتنا أمامنا ويمثل بأجسادهم .. اما الإسرائيليين .. احدهم بالدبابة واقفا فى البرج وهذا هو أخطرهم علينا لان اى حركة ضدهم سيدير مدفعه قتلا فينا فى خمسة ثوان والأخر يقف على رؤوس الأسرى المصرين وهم يصرخون من الألم لدعك رؤوسهم بالرمال بقدمه والجندي الثالث والفتاة فى حالة حب من قبلات وتمليس متبادل على أجزائهم الحساسة .. أخبرت فراج وجويلى بإطلاق النيران على الجندي بالدبابة .. طلقة .. طلقة .. اى الضرب فردى وضبط عتلة الزناد على الوضع الفردي لتوفير الذخيرة المتبقية نظراً لأنهم أدقنا جميعا فى التصويب اما عامر وعطية فسيطلقون

نيرانهم على الجندي الذي يعذب زملاءنا ويقف على رؤوسهم .. انا ومصطفى سنطلق النيران على الفتى والفتاه وقد تخلصا من ملابسهما السفلية وناما سويا فوق الرمال والجنديان الآخران يشجعانهما وهما ينظران إليهما بتلذذ وسعادة.

بكل حذر وهدوء اتخذنا أوضاعنا استعدادا للضرب ولن يفتح الباقون نيرانهم إلا بعد ان يطلق جويلي وفراج نيرانهم على هدفهم حتى إذا خاب تصويبهم نساعد بباقي الذخيرة حتى لو لم يتبقى رصاصات لباقي زملائه ونقوم بقتلهم بالسلاح الأبيض .. طلقتان خرجتا مسرعتين ليلقى الجندي الموجود ببرج الدبابة مصرعه فى الحال وواضح هذا من جسده المتدلي على برج الدبابة فقد خرجت الطلقتان إحداهما فى رأسه والثانية برقبته أردته قتيلا فى الحال اما الثانى فأسرع يجرى لكن طلقة أصابته فى قدمه سقط قريبا من الدبابة واختفى خلفها ..اما الحبيبين .. فالجندى حصل على طلقة واحدة سقط على الأرض قتيلا ووفرنا الذخيرة اما الفتاه فقد صرخت قائمة تجرى بدون ملابسها فلحقتها رصاصة فى مؤخرة رقبتها دفعت بالدماء من فمها وانفها وقد سقطت جثة هامدة دون أحداث اى صوت.

لاحظ مصطفى ان الجندي المصاب تسلق الدبابة ويريد الدخول إليها ليحل محل زميله القتيل ويستخدم أسلحتها ولكن زميله القتيل كان موجودا بالبرج وأثناء محاولته إخراج جثة زميله من البرج حتى يستطيع ان يدخل الى جسم الدبابة ليفتح أسلحته علينا أطلق عليه عطية رصاصة سقط على أثرها قتيلا من فوق الدبابة على الأرض.

أسرعنا بفك وثاق الأسرى الأربعة الذين سمعوا بالمعركة دون ان يشاهدوها ، وقفوا يقبلوننا شاكرين ونحن ننظر إليهم والى حالتهم المزرية من التعذيب فقد تقطعت افرولاتهم وخاصة من جهة الصدر وآثار الدماء تملأ وجوههم وصدورهم الشبه عارية اما وجوههم فكلها رمال وكذا أفواههم تملؤها الرمال من آثار السحل وسير الجندي اليهودي فوق رؤوسهم بحذائه .. قدمنا الماء إليهم ، نظفوا أفواههم

وأسنانهم ثم تناولوا شربة ماء وكان باديا عليهم العطش والإرهاق اما الأسيران الآخران خلف الدبابة فلقيا مصرعهما من اثر النزيف الذي حدث لهم من سحلهم وقد شاهدنا منظرهم والدماء تغطى أجزاء من الجسد خاصة الصدر والرأس

عرفنا أقدم الأسرى الذين فك وثاقهم بنفسه وبزملائه بكل هدوء رغم ما به من إصابات قائلا (رائد / وليم شفيق قائد الكتيبة (.....مدرعة) والملازم أول/..... واثنين من ضباط الصف هما .....، .....) من نفس الكتيبة التى اعدم منها ثلاثة عشرة فردا وداست فوقهم الدبابات من عدة أيام واخبرنا القائد أنهم بعد ان نجحوا فى تدمير العديد من دبابات العدو تدخل الطيران المعادي الذي قذفهم ودمر بعض الدبابات.

طلب منا ان نغادر المكان لأن هناك دبابتين باقيتين سوف تحضران باقى الأسرى وعددهم سبعة .. يعيد الرائد وليم رجاءه أرجوكم ابتعدوا عنا حتى لا تكونوا عبئا وتصابوا معنا .. أحاول ان أقنعه بأن يرافقنا في رحلة العودة الى القناة ، نظر إلى بدهشة قائلاً: ماذا تقول؟ .. ألم تدخل معركة خاسرة أنت وجنودك القلائل من اجلنا .. نحن أولى منكم بالدفاع عن الباقين ثم ودعنا وقفز فوق الدبابة ولحق به الباقون واخرج جثة الجندي القتيل من البرج وقذف به أرضا ودخل الى داخل الدبابة وأدار موتورها وتحرك بها لاختيار مكان يستتر به .. أسرعنا بمغادرة المكان ونحن في دهشة ، كيف نصبح عبئا عليهم.

تحركنا الى أين لا نعلم ولكننا سمعنا أصوات دبابات قادمة فأسرعنا الى داخل بئر الماء رغم خطورة ذلك ولكن المنطقة مفتوحة والدبابة والطائرة الهليكوبتر قادرتين على الإمساك ولو بعصفورة فى تلك الأماكن المفتوحة .. وصلنا الى بئر المياه ومن هناك كان يمكن تتبع ما سيحدث بين الدبابة التى يقودها الرائد وليم وبين الدبابتين الإسرائيليتين القادمتين .. دخلنا الى البئر تاركين جويلي مستترا بجوار البئر من الخارج ليعلم ما سيحدث ويخبرنا.

وصلنا الى حافة مياه البئر والظلام دامس بداخله فتحسس مصطفى عمق البئر فوجد انه لا يزيد عن المتر وسار فيه ونحن خلفه .. كان مثل بحيرة صغيرة لا يزيد قطره عن أربعة او خمسة أمتار ونحن فى منتصف البئر شاهدنا كهفا اعلي المياه فصعدنا إليه وكان فسيحا ولا يقل طوله عن خمسة أمتار وعرضه متران وكان مخفيا عن نظر القادم للداخل .. دقائق قليلة ونحن فى الكهف سمعنا أصوات انفجارات واشتباكات ورشاشات .. لقد بدأت المعركة ثم بعد قليل تدخلت طائرات الهليكوبتر ومازالت أصوات الانفجارات تصل الى مسامعنا ، حضر الجويلي مسرعا مستفسرا عن مكاننا نظرا للظلام الذي حل بالمنطقة فأرشده زملاؤه حتى وصل إلينا مبتلا مثل حالنا واخبرنا بصوت هامس عما حدث.

قال: شاهدت دبابتين قادمتين فى اتجاه الدبابة التى قتلنا طاقمها .. بادرت الدبابة التى بها الرائد وليم وزملاؤه بقذف احدى الدبابتين بالنيران فانفجرت فى الحال وقد دفع هذا بالدبابة الثانية لإطلاق النيران على الأسرى المصريين السبعة الذين لاقوا مصرعهم فورا وكانت الدبابة المصرية قد استعدت لتلك الدبابة فقذفتها فانفجرت هى الأخرى وهنا حضرت طائرتان هليكوبتر فأطلقتا صواريخهما على الدبابة فى نفس الوقت التى أطلقت دبابة الرائد وليم نيران رشاشها على الطائرتين فانخفضت أحداهما لتفادى النيران فاصطدمت بنخلة فانفجرت واشتعلت بها النيران لكن الطائرة الأخرى دمرت الدبابة وبها الأربعة المصريين الذين كنا قد أنقذناهم .. سعدنا من تلك الأخبار رغم ان احد عشر مصريا لاقوا حتفهم ولكن الواضح انها كانت انتصارات كبيرة فلقد دمرت ثلاثة أطقم دبابات بعدد اثني عشرة فردا والطيار ومساعده فتكون المحصلة أربعة عشر بالإضافة الى ثلاث دبابات وطائرة هليكوبتر ..انتشرت فى المنطقة الطائرات والعربات المجنزرة تمسحها لعل هناك آخرين ساعدوا فيما حدث حتى وصلوا لبئر المياه وقد سمعتهم يتحدثون "بالعبرية" بتدمير البئر ولكن الاخر طالب بتسميم البئر حتى يموت كل من يحاول ان يشرب

ن من مياهه ثم قذفوا فيه بعدة قنابل يدوية لم تؤثر فينا لأننا كنا مختبئين فى مكمن حصين وتلا ذلك ان قذفوا بشيء مثل علبة فأحدثت صوتا ورائحة لفترة وتركوا المكان عائدين الى وحدتهم.

ظللنا فى مخبئنا متخوفين من حضورهم ثانية او انتظارهم لنا خارج البئر .. بعد منتصف الليل شعرنا بحركة على مدخل البئر ثم صوت حيوان يتجشأ ولقد تميزنا الحيوانين فهما ذئبان جاءا بعد ان حصلا على وجبة ليشربا كمية من المياه .. الذئب الاول شرب مباشرة اما الثانى فبعده بقليل وأثناء شراب الذئب الثانى عوا الذئب الاول بصوته وانقلب فى الماء وعندئذ أسرع الثانى يعدو ولكنه سقط فى مدخل البئر وهذا أكد لنا ان اليهود قد سمموا البئر.

ساد صمت مطبق فى المكان ومع هدوء الليل لم نسمع اى أصوات لمحركات او انفجارات خارج البئر.. ولكن من تجاربنا السابقة تأكد لنا ان حضور الذئاب الى البئر دليل على ان منطقة البئر آمنة لأن الذئاب لا تستطيع الاقتراب مع وجود قوات قريبة منا ورغم هذا تطوع فراج ومعه مصطفى للخروج باحتراس لمعاينة المنطقة وتسللوا مرورا بمياه البئر وخرجوا الى خارجه ومكثوا بعضا من الوقت وعادوا ليخبرونا بان المنطقة آمنة وانه لا توجد أضواء او حركة خارجية.

تسللنا الى خارج البئر ولفحتنا برودة الليل مع بلل نصفنا السفلى فشعرنا بالبرودة تسرى فى أجسادنا .. سرنا عدة كيلومترات حتى ابتعدنا عن مكمن الخطر لكننا شعرنا بالإرهاق والبرودة ويجب علينا التخلص من ملابسنا المبتلة ولهذا وجهت سؤالي .. ما رأيكم ان نستريح ونخلع ملابسنا السفلية المبتلة وندفن أجسادنا فى الرمال حتى الصباح ونترك ملابسنا المبتلة فى العراء حتى تجف .. وافقوا على هذا متمنيين ألا يأتينا اليهود ونحن عراه .. ترحمنا على الشهداء الذين ماتوا سحلاً خلف الدبابة او من قاموا بالمعركة .. قلت لزملائي الجنود .. فعلا الخبرة

عليها عامل هام .. لو بقينا بجوارهم لكنا قتلنا بدون ان نفيد بشيء لقد كان الرائد وليم بعيد النظر سديد الرأي.

نفذنا خطتنا داعين الله ألا يهاجمنا اليهود بهذا الوضع وخاصة انه لم يتبقى معنا سوى رصاصتين فى البنادق وقد أعددت نظاما للخدمة حتى يكون هناك فردين متيقظين مع عدم التحدث حتى لا تسمع أصواتنا وتصل لأعدائنا .. كل فرد منا تخلص من ملابسة المبتلة ونشرها بجواره ودفن جسده فى الرمال الدافئة فأدخلت السعادة والراحة الى أجسادنا المرهقة.

دخلنا فى نوم عميق .. ظهر نور الصباح ليوم جديد راجين من الله ألا نقابل اليهود حيث ان ما تم معهم كان بغرض الدفاع عن زملائنا الأسرى ولم يكن من المعقول ان نظل مختبئين ونشاهدهم يقتلون هؤلاء الأسرى وما تم بسبب اقتحامهم لمكان تواجدنا .. فى الصباح أصبحت الملابس أكثر جفافا والطقس أكثر دفئا مما ساعدنا على تحمل الملابس واكملنا السير .. سرنا بعزم وهمة ونحن نراقب المنطقة حتى لا يحدث شيئا يعكر صفو انسحابنا خاصة انعدام الذخيرة.

منتصف النهار شاهدنا مجموعة من النخيل وباحتراس كالسابق تحسسنا المنطقة فتأكد لنا عدم وجود احد بها فاتجهنا إليها ولم نكن فى حاجة لمياه فالمياه مازالت معنا من البئر الذي سممه اليهود امس ، ما لفت نظرنا هو وجود شيء اسود اللون بين النخيل ودائري وعلى شكل قرص ودائرته فى حجم الطبق متوسط الحجم .. نظرنا إليه ثم سألت فراج وهو جندي المشاة والذى كان معي لحظة تهور العسكري الدمنهوري والذى أراد الانسحاب مهددا بفتح نار بندقيته فى اتجاهنا .. فراج ألا تعتقد ان هذا الشيء هو خزنة الرشاش الخفيف فأجاب على الفور .. فعلا خزنة رشاش خفيف والكل يمنى نفسه بان يكون بها بعضا من الذخيرة وآخرون يؤكدون على انها فارغة وإلا ما كان صاحبها قد تركها فى وسط الرمال .. طلبت من اثنين ان يتجها إليها بحذر ويدفعان ببعض الحصوات

والأحجار جهتها حتى نضمن ألا يكون بأسفلها لغم أعده اليهود لمن يحاول الحصول عليها .. نفذ الجنديان هذا ولم يتم إنفجار وتحركت علبة الرشاش قليلا من اثر قذفها بالأحجار .. عندئذ توجها إليها وحملاها وهما عائدان سعداء حيث يهزها احدهم قائلاً: انها ثقيلة مما يدل على وجود ذخيرة بها.

كان استنتاجهما صحيحا فبعد فتح غطاء خزنة علبة الشريط وجدنا انه ممتلأ بالذخيرة ويسع مائة طلقة وهى من نفس عيار البندقية التى معنا(٧٠٦٢ ×٣٩) وأكثر من نصف تلك الذخيرة من النوع الخارق الحارق .. جلسنا ننظف الذخيرة والسلاح مما علق بها من قاذورات ورمال مستخدمين بعض قطع من الفانلات الداخلية وبعد الانتهاء من نظافة السلاح والذخيرة وزعتها عليهم بالتساوي وأصبح كل سلاح به سبع عشرة طلقة وهكذا ضمنا جزءاً هاماً من الأمان فى طريق سيرنا للهدف الذي نعرفه ولكننا لا نعرف كيفية الوصول إليه.

واصلنا السير فشاهدنا دخانا ابيض ينبعث من خلف التباب فاتجهنا صوبه وهو ليس بدخان انفجارات وليس دخان إعداد طعام لليهود حيث يتناولون طعاما محفوظا .. لابد انه لمجموعة من البدو .. سرنا فى اتجاهه وبعد مسيرة الساعة تقريبا شاهدنا مجموعة من العشش الجريد وبعض البدو بجوارها ولاحظونا ولوحوا لنا بالاتجاه إليهم وأسعدنا هذا الاستقبال عنُ بعد.

وصلنا إليهم والقينا تحيتنا فردوا بأحسن منها وطلب احدهم السلام على شيخهم وهو رجل كبير السن يبدو عليه علامة الصلاح وقوة الشخصية فأمر مساعديه بإعداد الطعام للدفعة وسبقه إعداد قهوة عربي .. كل شيء يُعد وأنت جالس يحمص البن ويصحن يدويا والنيران مشتعلة دائما ويوضع إناء القهوة وهو كبير الحجم نسبيا ويوزع فى فنجان "بيشه" مثله موجود بمصر.. فنجان ابيض بدون ودن وبدون طبق متسع الفتحة من اعلا أكثر من الأسفل .. تناولنا القهوة وتلا ذلك احضار عدة أرغفة خبز ساخن مُعد بنفس طريقة القهوة .. إعداد العجين

حسب الطلب ثم فرده على قطعة صاج بأسفلها النيران مثل التى شاهدناها منذ عدة أيام .. كان معنا فى نفس توقيت الضيافة جنود من حرس الحدود .. هم من اهالى النوبة شديدي السمرة والوجوه مكتنزة الحجم أكثر من المصريين ولهم علامات "عدد من الشرط الطولية بأعلا الخدين"وهم قوم طيبوا القلب وحسنوا النية وكنا نأكل معهم وجنودي يسرقون الخبز ويضعونه تحت ثيابهم وقد شاهد هذا احدهم فتوترت أعصابه وتحدث مع زملائه بلهجة او لغة لا نعرفها وهنا طلب احدهم من شيخ العرب ان ينبه على هؤلاء الدفعة الامتناع عن سرقة الطعام فاضحك هذا الرجل العجوز والذى أشار الى معاونيه بإحضار المزيد من الخبز حتى لا يغضب أبناء النوبة ، أسعدهم هذا بينما طلبت من جنودي الكف عن هذا العمل مذكراً إياهم بما كنا نعانيه فى مقبرتنا وما كنا نذكره من الاعتراف بالسرقة ، اثر فيهم هذا واخرجوا الخبز من ثيابهم ووضعوه أمامنا وهنا أشار لهم الشيخ بأخذه ثانية مبتسما لهؤلاء المشاغبين .. أشار الرجل إلي لأجلس بجواره وإقترب مني يحدثني قائلاً:

أنت ملازم .. فأجبته بنعم .. اخبرني انه لم يشاهد ضابطاً صغيراً إلا ومعه جنوده وانه كان يتمنى ان يقدم لنا مساعدة أكثر من ذلك ولكنه لا يستطيع لأن فى رقبته أشخاصا مهمين مطلوب ان يوصلهم الى بورسعيد بأمان .. امسك بيدى ودخلنا عشه جانبية وفتح فاصلا بسيطا بين سعف النخيل وهالني الأعداد الموجودة بالداخل من كبار الضباط الذين جمعهم بمعرفة رجاله وتخوفت ان يكون قد أسرهم وسيسلمهم للإسرائيليين لكنه افادنى بأنه يؤمن عودتهم الى مصر .. ولهذا فهو مُتخم بهذا العدد وسألته كيف يعيدهم؟ ضحك من سؤالي قائلاً: هذه بلادنا ونحن نعرف كل شبر فيها ومعي رجال قبيلتي والحقيقة كل ليلة أرسل بمجموعه الى بحيرة البردويل وهناك ينتظرهم لنش المخابرات ليقلهم الى بورسعيد .. أمسكني من كتفي قائلاً: أرجو ألا تبوح بتلك المعلومات لأحد حتى جنودك وإذا وصلت

بالسلامة وسوف تصل ان شاء الله أرجو ان تخبر المسؤلين فى بورسعيد بأننا فى اشد الحاجة للمواد التموينية التى انقطعت منذ أسبوع .. وخاصة الدقيق والسكر .. أجبته ان شاء الله تصل رسالتك لهم وهم لها ملبون .. علمت منه ان الإسرائيليين يجدوا فى اثر القادة للقضاء عليهم حتى تصبح مصر بدون قيادات عسكرية وانه يمكن لمصر استعواض خسائر السلاح لكن خسائر القادة صعبة للغاية وقد تمتد الى عشرات الأعوام حتى تستطيع إعداد كودار أخرى وبالتالي تنتهي مشاكلهم مع المصريين .. لقد قام هؤلاء البدو بعمل مجيد بالتعاون مع المخابرات المصرية.

شكرناه مودعين كما نصحنا بأن نسلك هذا الطريق والاحتراس من اليهود خاصة فى مناطق النخيل التى تكون مصايد للدفعة الطالبين للراحة مع التحذير إذا لاحظنا شيئا لامعا فوق مياه اى بئر او حيوانات نافقة او "دفعه" اى جنود موتى بجوار هذا البئر .. فهذا معناه ان البئر مسمم وابتعدوا عنه فورا .. ولا تغتسلوا منه .. شكرناه سائرين وقد حصلنا على بعض أرغفة الخبز الذي تكرم وأهدانا إياها وقد ملأنا العلبة البلاستيك بالمياه النظيفة.

قبل المغيب بساعتين ودرجة الحرارة خف لهيبها وكذا ضوء الشمس قل لمعان ضوئها ونسمات هواء بارد تدغدغ أجسادنا الهزيلة مع ارتفاع لروحنا المعنوية بعد أن شاهدت عددا من القادة يُعدهم الرجل للعودة لأرض الوطن لتولى القيادة استعدادا للحرب مع إسرائيل فلن تدوم الهزيمة الى الأبد مهما طال زمانها فلابد ان يكون هناك ثأر ولابد ان نعيد أرضنا التى سُلبت منا بدون حرب رغم أخطاءنا فيها وليس العدو او الآخرون حسب ما كنا نسمع من البدو بالخيانة والتآمر بين كل من روسيا وأمريكا.

كان مبعثنا لهذا هو ما نقوم به من أعمال رغم انها فرضت علينا ولكننا نجحنا فى ان نصيب العدو وها نحن قد شاهدنا فى مرحلتي القتال معهم مقتل أكثر من عشرين جنديا وتدمير عدد من الدبابات والسيارات الجيب وطائرات الهليكوبتر

وبدون قيادة كبرى .. وما هى قيادتي وانا الضابط الصغير عديم الخبرة والقيادة .. كنت أتذكر لو تواجدت قيادة معنا لكنا فعلنا المعجزات!!!

واصلنا سيرنا حتى اقترب الليل وحل الظلام ونحن مازلنا نسير حتى شاهدنا أضواء خافتة على بُعد .. مازلنا نواصل السير حتى اقتربنا من ذاك المكان والذى تأكد لنا ان به بدو وعائلات وهذا نابع من أصوات الماعز والأغنام والأطفال ورائحة الخبز المطهى .. إذن لننتظر حتى الصباح بدلا من الدخول عليهم ليلا غيلة فيحدث لهم إزعاج وقد ترتاع النساء والأطفال فيقابلوننا بما هو أسوأ مما حدث قبل ذلك وكما يقول المثل الصباح رباح والنهار له عينين .. إذن فلننتظر حتي الصباح فالإبصار أفضل من عدمه.

لقاء غير متوقع

هذا يوم جديد فى رحلة العودة التى لم تنته متاعبنا فيها منذ بداية الانسحاب فى يوم السابع من يونيو وكان يوم أربعاء لقد أمضينا ثلاثة أسابيع بين كر وفر ومتاعب والآم ومخاطر على حياتنا سواء جوعا وعطشا او دفننا أحياء او بين مخاطر لقاء العدو سواء من هجماته علينا او مخاطر ان تنفجر فينا ألغام قابعة تحت الرمال كما ان أجسادنا أرهقها التوتر واختلاف درجات الحرارة بين الليل والنهار وأضواء الشمس المبهرة نهارا او الظلام الدامس ليلا ولو أضفنا سؤ لقائنا ببعض البدو وأسلوبهم الجاف فى منع المساعدة عنا لوضح أمامنا إننا مازلنا نعانى.... حتى الشهداء من سلاح المدرعات والذين اضطررنا الى الدخول فى معركة لإنقاذهم من دبابة العدو ونحن غير مستعدين لها كانت كلماتهم لنا " اتركونا حتى لا تكونوا عبئا علينا " .. كنا نشعر فى أحيان كثيرة بضآلتنا أمام الآخرين وكأنهم يتكبرون علينا ان نعيش او ان يكون لنا رأى او صفة او ان نطلب الطعام والشراب حتى شيخ القبيلة كان مكلفا من قبل المخابرات المصرية بالبحث عن القيادات وإنقاذهم وإحضارهم الى مصر معززين مكرمين ولا داعي للفكه او التوافه من الجنود وصغار الضباط لأنهم ببساطة ليست لهم قيمة فى العسكرية المصرية او فى إعادة تسليح الجيش .. أنهم غير مهمين .. لا نحتاج لهم .. إذا أرادوا العودة فلا يضر وإذا ضاعت حياتهم للأسباب السابقة فلن نضار أيضا .. غلبنا هذا الإحساس ولم نشاهد او نرى من يقول لنا أهلا بكم أين انتم ان الدولة تحتاج لكم وسنساعدكم فى العودة والمحافظة على حياتكم بل لقد دفعنا كل ما نملكه من ثروة قيمة وهى ساعات يدنا التى نستخدمها من اجل ان يدلونا على طريق آمن ونحن نكمل سيرنا .. كنا مشتتين بين المحافظة الشخصية على حياتنا والقيام بواجب وطني غير مفروض علينا فى دخول معارك مع العدو وقد ترك

المتخصصون وكبار القادة تلك المعارك سواء طواعية او تحت ضغط تلك المعارك.

إذن فلنكمل سيرنا لعل الله يفتح باب الأمل أمامنا وينقذنا من عثرتنا وكربنا انه نعم المولى ونعم النصير .. "وإذا سألك عبادي عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان". تحركنا الى منطقة النخيل وكانت الساعة حوالي السابعة صباحا والقوم قد أفاقوا من نومهم ويستعدون مثلنا ليوم آخر يرى ما سيتم فى أحوالهم لتلك الحرب التى لا ناقة لهم فيها ولا جمل .. بادرنا البعض بالتحية وآخرون بلوى رؤوسهم الى الجهة الأخرى قائلين فى السر صباح مش حيعدى علينا .. إيه اللى حدف المصايب دول علينا .. كنا نشعر بما يريدون قوله بدون حديث فالوجوه تحكى وتقص ما يعتمل فى نفوسهم ونحن ليس أمامنا سوى الاستجداء مع العزة وكيف يتقابل الضدان فى هذا .. كيف استجدى وانا عزيز الكبرياء .. انها المعادلة الصعبة ولا يؤاخذني من يقرأ هذا ويقول كيف تقول هذا على نفسك وجنودك .. نعم سأقول ما كنا نشعر به .. كنا نقترب منهم وعيوننا ترسل لهم ما نحن فى حاجة إليه بدون كلام .. والله كان هذا شعوري .. كنا مثل الكلاب او القطط الهائمة على وجوهها من الجوع والعطش التى تقترب منك تهز ذيلها وتحرك جسدها لتفهمك وتشعرك بما تريد أنه حيوان أعجم لا ينطق ولقد أصبحنا مثلهم .. فإذا تعطف علينا احد بكسرة خبز وشربة ماء شكرناه بالكلمات وإذا ضايقنا احد منهم بقوله "بعدوا .. غوروا بعيداً " تضايقنا مغادرين المكان .. ماذا يفعل الحيوان الأعجم سوى ذلك واعتقد ان الله لو انطقه لثار وسب هؤلاء القوم ولكننا لم نفعل ولم نكره أحدا على إطعامنا بل كنا فى حالات كثيرة نترك الناس بعد ان يظهروا كرههم لنا ويتجاهلوا وجودنا .. تخيل التجاهل لستة من جنود مصر وشبابها فى غياهب الصحراء القاتلة والعدو يطاردهم وقد شاهدنا ما

كانوا يفعلون بهم إذا استسلموا ووقعوا أسري في أيديهم .. إذن فنحن فريسة للموت جوعا وعطشا او قتلنا بدهسنا تحت جنازير الدبابات.

وقفنا بداخل تلك القبيلة ننظر لعل احدهم يشعر بنا والناس مغيبين عنا او متجاهلين لنا .. فهذا يأخذ بعض الماء ويذهب بعيدا ليقضى حاجته وآخر يشعل النيران ليعد الشاي وآخر يفتح الراديو ليسمع آخر الأخبار او أغنية ورجل يتعارك مع زوجته لانها أهملته الأيام السابقة ولم تعد نفسها لإمتاعه وهى صارخة فيه بأنه مش عايش وشايف الدنيا مقلوبة حولهم ازاى .. كان هذا ما نراه وأمهات مشغولات بطهي وجبة الصباح وأخريات يهندمن من زينتهن وكان واضحا ان أبناء تلك القبيلة ميسوري الحال وان نساءهم يتمتعن بدرجة عالية من الجمال وجرأة القول والحديث .. كانت النساء قليلات الحياء فى أحاديثهن التى تخصهن كنساء وكان الصوت المعلن للعلاقة مع الأزواج سواء سعيدات او صاخبات شيء عادى وكأن رجالهن قد لبسوا ثوب الخنوع وقد سلموا قيادتهم لزوجاتهم .. كان هذا واضحا بعد ان جلسنا قرابة الساعة وكأننا نرتدي طاقية الإخفاء فلم يعرنا احد منهم أي انتباهه او يلتفت إلينا .. كنا مثل الناس فى ميدان رمسيس والذين لا يهتمون بذاك التمثال الرائع بعكس السائح الذي يقبل من آخر الدنيا ليشاهد هذا الإعجاز الفني المهمل انها العادة التى تصيب الناس بالتبلد.

نتبادل النظرات .. ماذا سنفعل؟ .. ذهب احدنا لإحضار ماء ولم يعترضه احد .. شعرنا ان الإهمال اخطر من المجابهة واللوم والتقريع وكلمة بعدوا عنا او غوروا بعيداً .. فجأة جاء رجل يعرض علينا بضاعته ولم يقم علي تحيتنا بتحية الإسلام ولا البوذية .. الدفعة عايزين "وكل" يعنى طعام .. أجابه احد الجنود ايوه عايزين ناكل .. سألنا كم سندفع!! .. أخيرا بعد ان جاء على نفسه فهو يقدم الطعام بثمن .. أجابه : إحنا نحتاج حاجه بسيطة كمساعدة فنحن لا نملك مالا ..

أشاح الرجل عنا وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة ولكنها من نفس قاموس "بعدوا عنا .. غوروا بعيد".

حضر آخر مع زوجته ممسكا "بجدي اى ذكر الماعز" وقال تشتروا كام رغيف خبز وأعطيكم هذا الجدي هدية فوقه .. سألناه : وكم ثمن الخبز؟ فأجاب خمسة أرغفة خبز بجنيه واحد!! .. تعجبت فهذا ثمن كبير ولا يماثله هذا الثمن إلا فى فندقي سميراميس او هيلتون النيل .. انه سعر مرتفع لكن الرجل كان يريد مالا ولا يريد "عنزة" اى معزة .. يحاول الفصال وزوجته هى الأخرى ترغبنا فى الشراء وتجمع آخرون لهذه الحلبة التجارية وقد أصبحنا نقف فى سوق .. هذا ما حدث وكانت تلك المرة الأولي التي نتعرض فيها لمثل ذاك الحدث .. أخيرا توصل الى اتفاق معنا بأنه سيبيعنا خمسة عشر رغيفا بثلاثة جنيهات او نحصل على عنزة وخمسة أرغفة بثلاثة جنيهات .. نتداول سويا ونبحث عن المال الذي معنا فقد وجدناه جنيهين وخمسة وسبعين قرشا .. عرضنا عليه الثمن ولكنه رفض قائلاً: هذا ثمن العنزة .. توقفنا عن المفاوضات وماذا سوف نأكل؟ عنزة فقط إننا نريد خبزاً أيضا والعنزة كبيرة على ستة من الرجال وليس لدينا ثلاجة لنحفظ باقى اللحوم .. الرجل وزوجته يتناقشان فى تلك البيعة.

أقبل مصطفى قائلاً: أفندم أريد محادثتك وانتحينا جانبا قائلاً بلاش البيعة دية .. هناك .. وأشار الى سيدة شابة ترغب فى بيعنا خمسة أرغفة وعنزة بما عرضناه على الرجل ورفضه .. أحُدثه وقد التف جنودي حولي بان الرجل على وشك الموافقة وكلها ماعز وقرايب ولا فضل لعنزة على أخرى والخبز أيضا ولكنهم للمرة الأولى يصممون على رأيهم ، قالوها بصراحة تلك أموالنا ولنا الحق فى التصرف فيها .. نرجوك ان تلغى الاتفاق مع الرجل .. عدت الى الرجل والذى كان يشاهدنا ونحن نتحدث وحولنا باقى الناس فى القبيلة وكان عددهم كبير يزيدون عن المائة غير الأطفال والماعز والخراف .. شكرا يا شيخ .. بألغى

الاتفاق .. تضايق الرجل ولكن زوجته تحدثت وهى تقول المرة ال....هيا السبب فى اللى حصل وقامت خناقة ستاتى على اكبر مستوى ونحن نشاهد الردح السيناوى بكل الالفاظ والرجال سلموا مقاليد السيطرة كما سبق ولاحظنا وكل واحد منهم توارى فى خيمته تاركا هذا السامر وقد تعودوا على ذلك .. انتهت وصلة الردح بكل الألفاظ التى يعاقب عليها القانون والتى تثير مشاعر الرجال وتحرك ما يعتمل فى صدورهم للانجذاب للمرأة.

توجهت السيدة او الفتاة الى خيمتها بعد ان انتهت من صراعها مع المرأة الأخرى فاتجه إليها مصطفى للاتفاق معها بعد ان رفضت ان أكون انا المتحدث باسمهم خاصة بعد ان صرحوا لي بأنها أموالهم وهم يختارون ما يشاءون رغم اننى املك رصيدا فى تلك الأموال بقيمة خمسين قرشا ولكن غالبية الأسهم معهم ولهذا فلهم الراى الاول والأخير وقد رفعوا الفيتو ضدي.

جائنى مصطفى وبصحبته جويلي يبلغونني بأنهم نجحوا فى الاتفاق معها على العنزة وخمسة أرغفة خبز بجنيهين وخمسة وسبعون قرشا كما انها ستزودنا بما نحتاجه للذبح والسلخ وأدوات الطبخ مجانا .. السعر مغرى ، جاءت الى السيدة طالبة منى الحضور عند خيمتها حتىُ تعد لنا الشاي .. توجهت مع جنودي الى خيمتها مع ضيق الزوجة الأخرى المنافسة على البيع والشراء .. توجهت الفتاه الى والدها وهو رجل عجوز ويشبه "مسيلمة الكذاب" تطلب منه عنزة ودقيق لصنع خمسة أرغفة خبز ، طلب الأب ثلاثة جنيهات ، حاولت إقناعه بالثمن الذي اتفقت عليه معنا فقال لها أنت تعيشين بعيدا عنى ولك حياتك ولى حياتي انا وزوجتي .. وضعت يدها فى صدرها وأخرجت ربع جنيه لتكمل الثمن .. وهكذا أحضرت "جدي" كبيرا أفضل من الذي عرضه علينا الرجل الاول وأحضرت الدقيق وطلبت من الجنود التوجه الى بئر المياه للذبح والسلخ وإعداده للطهي .. اسعد هذا الجنود وسألتهم أتعرفون الذبح؟ فأكدوا جميعا ذلك .. أردت ان ألحق بهم ولكنهم طلبوا

منى الانتظار هنا وخاصة ان السيدة او الفتاة قالت لي أبقِ هنا وهم سيفعلون كل شيء.

دخلت خيمتها واعدت كوبا من الشاي وأحضرت شلته صغيرة ووضعتها خلف ظهري حتى لا أتألم من سند ظهري على جذع النخلة .. انه شيء جديد علي شخصيا وانفتحت معي فى الحديث وانا جالس مثل هارون الرشيد غير مصدق ما انا فيه .. اجلس براحتي واشرب الشاي ساندا ظهري على شلته مريحة بدلا من جذع النخلة القاسي والسيدة او الفتاه تحدثني بكل رقة وأنوثة..

السيدة فى الثانية والعشرين من عمرها متوسطة الطول بيضاء جميلة الى أقصى درجة عيونها السوداء لامعة ببريق لا تعرف ماهو ولكنه دليل على الصحة والسعادة او الراحة النفسية كما انها تتمتع بشعر كستنائى طويل ناعم اما صوتها فهو عذب رقيق كأنه همس رغم انه منذ دقائق كان هادراً أثناء المشاجرة مع السيدة الأخرى وعرفتني بنفسها: اسمي **رابحة**. متزوجة منذ ثلاثة أعوام ولى طفل وأنت؟ عرفتها بنفسي وسألتني من اى بلد أنت فى مصر فأجبتها من بلدة اسمها الزقازيق .. هتفت الزقازيق .. ايوه .. اسألها: لماذا أنت مندهشة من هذا الاسم؟ .. أجابت لست مندهشة بل انا سعيدة الى أقصى درجة لاننى أريد ان اذهب الى الزقازيق .. ضحكت وقلت أهلا وسهلا ، قاطعتني وهى تقول ان زوجي مسجون فى سجن الزقازيق العمومي بعد ان حُكم عليه بسبعة أعوام لتجارته فى المخدرات .. وضعت يدى على فمي .. أخيرا عُدنا الى تجار المخدرات والمهربين الذين غدروا بنا وكانوا سيوردوننا مورد التهلكة .. قالت سأعقد اتفاقا معك .. سأساعدكم فى الوصول لقناة السويس بأفضل طريق ميسور وآمن لكنه طويل نسبيا .. سألتها وما طوله؟ قالت يحتاج الى سبعة او ثمانية أيام وسأوفر لكم مصادر الطعام والشراب نظير هذا اصطحبكم حتى اعبر القناة وتوصلني الى

الزقازيق لأقوم بزيارة زوجي الذي تركني بعد ولادة ابنه سليمان بعدة أشهر. انا تواقة لأن أشاهد زوجي .. صمت وسكنت من هذا العرض المفاجئ.

دخلت الى خيمتها وفتحت جزءاً من باب الخيمة المواجه لي وانا جالس وقد تحررت من بعض ملابسها ولم يتبقى إلا القليل الذي يظهر أكثر مما يخفى ويثير اللعاب والهواجس .. تنحنحت حتى أعيد اتزاني وتنفسي الى وضعه الطبيعي ، نظرت بأحد الأجناب حتى لا تكون عيوني مسلطة جهتها ولكنني كنت اشعر ان وجهي يتحرك ليعود ثانية مثل اى شيء غيرت اتجاهه بعكس ما خلقه الله فتشعر كأن هذا الشيء يريد العودة الى وضعه .. مازالت تحدثني بصوتها الناعم الرقيق .. مقلتليش .. إيه رأيك لما أكون معاكم؟ .. حتكون مبسوط ومش ح أخليك عايز اى حاجه .. اى حاجه بتفكر فيها ح تلاقيها جاهزه قدامك .. افكر بأن الشيطان يريد ان يغزو قلبي وانا الشاب الصغير الغض الغرير ولم أكمل ثلاثة وعشرين عاما ولم أشاهد حسناء شخصيا جميلة امامى مباشرة سوى فى بعض الأفلام لكن ظروفي وعمري لم يضعاني فى مثل تلك التجربة قبل ذلك.

الأفكار الشيطانية بدأت تسلل الى جسدي وهى مازالت تتحدث بصوتها الناعم الذي ينزل على جسدي مثل السياط الرفيعة الملتهبة .. إيه مش بتبص ناحيتي ليه .. زعلان منى .. مخاصمنى .. تلعثمت فى الإجابة وتلاحقت أنفاسي وشعرت ان بجسدي أشياء تتحرك ولا اعرف ما انا فيه وقد حدث لي دوار البحر ولكنه دوار الإغراء ولم تكن لي تجربة وخبرة فنظرت إليها حتى لا تغضب منى ومن منا نحن الرجال يرفض النظر الى ماهو جميل ومريح وتهب منه أنفاس الربيع الرطبة .. اقول فى سريرتي البت دي حتخليني اعمل مصيبة النهاردة وتخلى العرب يدبحونا وتخلى العساكر يتناولوا سيرتي بالعيب وتبقى سيرتي فى كل الجيش على الظابط المنسحب واحدث عملا غير اخلاقى مع احدى البدويات .. أصرخ فى داخلي .. عيب عليك .. لم نفسك متخليش واحده تغويك

وانا ساهم فيما افكر فيه ووجهي مثل حبة الطماطم الحمراء حضر احد الجنود ولم أتبين من هو .. يحدثني وقد لاحظ ما انا فيه وشاهدها وهى جالسة بداخل الخيمة بتلك الملابس الفاضحة التى كانت السيدات فى مصر يذهبن لشرائها من سوق غزه او سوريا بالعتبة حيث كانت تهرب لهن .. نظر الى الجندي ضاحكا قائلاً: ياه يافندم دا أنت استويت قبل الجدي ما يستوي!! .. ضحكت "رابحة" على هذا الحديث وهى تخبره: مع ان النار بعيده عنه .. مش عارفه لما تقرب منه ح يحصله إيه؟ ضحك الجندي وأخذ شيئا منها لاستكمال عملية إعداد الذبيحة وقال: حضرة الظابط ح يبوش منك على طول وقد لاقي هذا التعليق قبولا وانا مازلت انظر الى الأرض وينفس جلستي وأريد التخلص من خجلي الذي فضحنى أمام الجندي وأكيد أمام جيران تلك السيدة وأردت ان أنهض لأترك المكان ولكن قيامي كان سيفضحني ويظهر ما خفي وانا جالس حيث سيصبح منظري غير لائق وانا أسير هكذا.

قررت ان أظل في مكاني حتى يتم هدوء كل تلك الانفعالات ولكنها مازالت تتحدث وتثيرني بكلمات لم أعهدها من قبل وانتابني شلل التفكير والتصرف وجاء جنديان آخران يتحججان بانهما يريدان شيئا وقد أتيا أصلا ليشاهدا ما وصل عليه حال ضابطهم الهمام وأدركت ان تلك السيدة خطيرة ولن استطيع تحمل تصرفاتها وما يجب على عمله هو الابتعاد عن سحرها وتأثيرها .. سألتنى أتريد ان اعد لك الشاي فأردت ان أتكلم فتوقف الكلام فى حلقي فاستبدلته بالإشارة وقد أضحكها وأسعدها تأثيرها على شخصي الضعيف .. انشغلت فى إعداد الشاي تتحرك ذات اليمين وذات اليسار وعيوني تتحرك معها مثل طفل صغير تلاعبه بشيء متحرك فيحرك عينه فى كل اتجاه تتحرك فيه تلك اللعبة.

تفصد العرق من جبيني وسال علي وجنتي وشعرت بسخونة شديدة فى خدي كما اننى من أصحاب البشرة البيضاء او قل الحمراء .. كنت اشعر بحرارة وجهي

وما زلت جالسا مادا ساقي للأمام وظهري مستند على الشلته وعلى النخلة التى بخلفي .. أعدت الشاي وأقبلت تقدمه لى وانا انظر الى يدها وأصابعها البيضاء الجميلة حيث كنت اعتقد ان البدويات او الفلاحات لا يملكن مواطن الجمال في أيديهن بسبب صعوبة الحياة وان الجمال هو قاصر على بنات القاهرة والمدن الكبيرة او بنات الجامعة ولكنني شاهدت ماهو أعظم جمالا ورقة وأصابع رقيقة رائعة وانا انظر الى تلك الأصابع التى تعيش مع الماعز والجمال والأغنام والرمال ولا اصدق لكنها الحقيقة الغائبة عن بعضنا ، انه الجمال اللاهى الطبيعي .. سألتها بعد ان استعدت بعضا من اتزاني: ألا تذهبين للإشراف على جنودي لاحتمال ارتكابهم خطأ .. ضحكت قائلة: لا مانع لكنني اخشي ان يدبحوا أصابعهم بالسكين عندما اذهب إليهم. أعقبتها بضحكة لابد ان تثير اى رجل له أذن ويصله صوتها .. تحركت بدلال وانا أتابعها ولكنني كنت أعود بنظري خجلا ان يكون هناك رجال يغضبهم ما افعله مع ابنة قبيلتهم ولكن شعرت كما قلت أنهم مغيبون وان كل رجل قابع فى مكمنه او جالس مع رجل آخر يتحدثان ويتضاحكان وكأننا أصبحنا منهم وهم منا وانه لا شيء عجيب او غير مقبول.

بعد ان تركتني شعرت اننى استطيع ان أقف بدون ان يكون في هيئتي شيء لافت للنظر إذا نظر احد الىّ .. تحركت تاركا المكان وتوجهت الى جهة أخرى جالسا بمفردي وحاولت مجاهدة النفس ضد إغراء تلك السيدة التى لن احصل منها على شيء وإذا حدث كانت كارثتي فى الدنيا والآخرة كبيرة .. أهمها الفضيحة بين جنودي ولن استطيع ان ارفع رأسي بينهم وانا الذي استطعت ان أقودهم طوال تلك الأيام السابقة رغم ما ينجم في مثل تلك الأحوال من خروج على القانون وحدوث اعتداء على بعض الضباط الذين تتصف أخلاقهم بالعنف مع جنودهم فى وقت السلم .. والاهم هو غضبة الله علينا وهو الذي حرم مثل تلك العلاقة .. ورغم تلك الموانع كان يراودني هاتف ، ما طعم تلك العلاقة وهل هى جميلة وماذا يحدث

اثناء اللقاء بين الرجل والمرأة؟ وانا الذي شاهدت منذ أيام قلائل الجندي الاسرائيلى وهو يجامع زميلته المجندة وكان سعيدا وهى الأخرى سعيدة وزملاؤهم مسرورين من تلك العلاقة .. لم يحدث لي هذا من قبل ذلك ولم يقص على احد ما هو هذا الشيء الغامض علىّ وما تأثيره وما طعمه وهل هو شيء لذيذ ام لا؟ ولكنى شعرت بأنه شيء خطير من الدقائق التى جلسناها سويا وهى تحدثني وتنظر الى نظرات لها معنى ولكنى لم اعرف كيف أجيبها والحمد لله اننى لم اعرف وإلا لو كنت اعلم لكانت كارثة قد أحدقت بى .. مازال تأثيرها يهاجمني ولذا فكرت فى ان اطردها بصورة او بأخرى .. ذهبت للصلاة بعد ان تيممت حيث انها قريبة بجوار بئر المياه وانا غير راغب فى مناقشتها او لقائها ولكن الشيطان زينها امامى أثناء الصلاة ، استغفرت الله قائلاً: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. تركت الصلاة. فهذه ليست بصلاة ان أقف فى حضرة الخالق افكر فيما حرمه علينا .. أجلت الصلاة وقفز الى ذهني منظر الأسرى المصريين الذين داستهم الدبابات الإسرائيلية وقد اثر على هذا المنظر رويدا .. رويدا وابتعدت بدون ان أدرى عن الوساوس الشيطانية وشعرت اننى عدت الى حالتى فقمت أعيد صلاتي وكانت أحسن حالا وعلى ما يرام وقد شجعني هذا علي ان أكثر من الصلاة حتى اقضي ما فاتنى منها وما أكثره ضياعا أثناء الانسحاب .. انتهيت من صلاتي وانا شاعر إننا وقعنا فى قبضة شيطان رغم مظهرها الملائكي وان الفكاك منها صعب للغاية وانه يجب إبعاد تأثيرها بالبعد عنها.

تذكرت سيدنا يوسف عليه السلام وراودني سؤال: كيفُ تذكر آية فى القرآن تتحدث عن مثل هذا؟ انه شيء عادى ان رجلا لا يريد امرأة ان يبتعد عنها وايضا فإن المرأة التى لا تريد رجلا فهى تمتنع عليه بسهولة بل وتسمعه الكلمات السيئة فى حقه وتهينه بعبارة مؤلمة .. لكننى وجدت انه اختبار صعب للبشر ولهذا ذكرت فى القرآن لتكون آية وعبرة للخلق على مدى تاريخ البشرية.

سمعت صوتا هامسا قادما من خلفي: الحلو ليه تقلان قوى .. تزعل قوى .. تفرح قوى .. انا قلبي بيحبك قوى .. قوى .. بالطبع نظرت الى مصدر الصوت وهى تحدثني مائلة جهتي وقد ظهر صدرها كاملا امامى وانا أحاول ان أغمض عيني ولا التفت لاى جهة لكن كل حواسي تجمدت أمام هذا المنظر الخلاب .. شعرت ان نهايتي ستصبح على يديها وانه لا خيار امامى إلا من بين اثنان أيهما أصعب من الاخر .. الاول ان أتزوجها او أقيم معها علاقة ما وليكن ما يكون والأخر ان اهرب .. لكن الهروب أصبح صعب فهى قادرة مثل المغناطيس ان تعثر عليّ وتعيدني الى ما تريد وضعي فيه سواء من الضغط والتأثير الشديد .. أجبتها "رابحة" تصرفاتك هذه خطيرة وأرجوك ان تبتعدي عنى لاننى أصبحت غير قادر على صدك .. ابتسمت وظهرت أسنانها الجميلة. حتى الأسنان كانت من عوامل الإثارة .. تسألني برقة ومازال صدرها يتأرجح امامى وظاهر لونا وحجما ونعومة. وإذا ما ابتعدتش حتعمل إيه؟ .. تقدر على بُعدى .. وريني شطارتك .. انا اللى باحطه فى راسى لازم أجيبه او أجيب اجله وتركتني عائدة حانقة.

حدثت نفسي: يانهار مش فايت: البت بتقول اللى باحطه فى راسى .. يعنى انا هدف أمامها يعنى يا اسلم او اهلك .. يادى المصيبة اللى عليك يا أسامه طيب إيه التصرف؟ البت مش معقولة حلاوة وجمال وجنس لكنى مقيد بقانون عسكري صارم .. يعنى يا سى أسامه كده تسلم قدام ست ولسه حته عيله ماهى فى سنك يعنى أنت ضعيف للدرجة دية؟ لا لا هيا فاكره إيه؟

كان تهديدها لي بمثابة الإنقاذ من الأفكار السوداء التى هاجمتني لمعصية الله. فقد أظهرت لي جزءا آخر من صفاتها وقد ساعدت تلك الكلمات الصغيرة بالتهديد علي كل اثر لإغوائي قد مارسته على منذ ساعة وجعلتني فى دوامة القلق والألم .. لن استكين بإذن الله .. يارب خليك والنبى معايا ، النسوان دول باين عليهم راكبهم ابليس وانا ليا مقدرة بسيطة وضعيف احميني من شرور النسوان ،

مش أنت ربنا برده اللى بتقدر على كل حاجه ماهو أنت وقفت مع سيدنا يوسف وبعد كده سيدنا يوسف بعد ان ضعف أمام الأغراء رأى برهانك ومش رضي بزليخه لكنك لو سيبته كان راح فى خبر كان .. والنبي تخليك معايا وواعدك حناخد المعزة بعد طبخها ونفل ونجرى من الناس دول وخليهم بعيد عنا.

جاء عطية يحدثني .. ليه يا فندم قاعد لوحدك؟ رابحة بتقول الافندى بتاعكم رافع رأسه لفوق ومش عايز يتعرف علينا .. أجبته:

. عطية مش عايز اسمع السيرة دية .. فاهم .. سكت قليلا:

. اللى تقول عليه لكن ملكش دعوه بينا .. أجبته:

ـ مليش دعوه بيكم طيب .. يالله روح لحالك واشبع بيها .. تركني وانصرف وهو يتمتم بكلمات تعني باننى مليش فى الطيب نصيب .. قلت فى نفسي غور أنت والطيب بتاعكم .

جاءني جويلي يخبرني ان ريحة الشوربة تفتح النفس وكلها نص ساعة وناكل أكلة محصلتشى من سنين .. لكن أنت قاعد لوحدك ليه يافندم؟ دا رابحة بتسأل عليك وبتقول مش عارف الافندى زعلان ليه؟ أخبرته وبكل حسم:.

ـ جويلي أرجوك مش عايز اسمع سيرة الست دية .. إحنا جينا النهاردة علشان ناكل ونكمل مشوارنا .. أجاب:

. ايوه طبعا.. أكمل حديثي قائلا:

ـ علشان كده مش عايز دوشه ربنا يخليك .. وانا ح أفضل هنا ولما تحبوا تبعتوا لى حته لحمة أكون متشكر لكم انا ح أفضل هنا.

جاء عامر يحدثني منفعلاً:

. إيه يافندم مزعل رابحة ليه؟ صرخت فيه

ـ إيه الدروشة دية كل واحد جاى يسأل. هيا من بقية أهلنا واحده واشترينا منها عيش ومعزة إيه كل شوية واحد يكلمني عنها.

رفع صوته امامى

. إحنا كده مش بيطمر فينا المعروف .. بصوت قوى

. عامر .. انصراف ياعسكرى .. يجيبنى بكل وقاحة:

ـ إيه إيه .. والنبي سمعني تانى كلمتك الحلوة .. اصحي وشوف أنت فين؟

صرخت فيه:

ـ امشي من هنا فاهم .. مش عايز أشوف وشك .. حضر فراج على صياحنا المرتفع ممسكا بعامر بعيدا عنى.

عاد فراج محاولا تهدئتي مستفسراً عن سبب نقاش عامر الحاد معي ولماذا أغضبت رابحة وهى التى قدمت لنا يد العون ونحن الذين كنا نتمنى ان يساعدنا احد من البدو. ان السيدة قدمت كل ما تستطيع لدرجة انها دفعت لوالدها خمسة وعشرون قرشا لتكمل ثمن ما حصلنا عليه من طعام وانك تتميز بأعصاب هادئة فى أصعب الظروف واحلكها. حادثني الشاب بهدوء وانا أكن له كل تقدير لرجولته وإطاعته لاوامرى وكان صلبا شديد المراس ويشاركه فى هذا جويلي المتدين والشجاع.

أجبته فراج اسمعني: انا لا أريد الاستفاضة فى هذا الموضوع السيدة تريد ان تصطحبنا أثناء مشوار انسحابنا وهذا مخالف للتعليمات والأوامر العسكرية .. يقاطعني:

هذا صحيح لكننا لا نملك الصحراء واى إنسان يريد الذهاب والعودة له هذا الحق ولن يكون أمامنا اى خيار ان نقول لهذا لا تسير بجوارنا كما انها ستفيدنا ولا تضرنا .. نظرت إليه:

اهذا رأيك؟ .. اجابنى:

هذا رأى الجميع وقد أخبرتهم بما سوف تقدمه لنا من عون سواء الطعام او معرفتها بأماكن السير وأماكن مصادر المياه .. أجيبه:

أعيدها مرة أخرى .. فراج انا ألاحظ ان تلك السيدة عيونها زائغة علينا وأنها جميلة وقد يدفع هذا بأحد منا لأن يقيم معها علاقة تفسد علينا مشوار انسحابنا وقد اقتربنا من نهايته .. يصمت قليلا ويوافقني الرأي بأنها جميلة وجذابة ولكن أمامنا هدف غال وهو العودة الى مصر لننهى تلك المتاعب التى قاربت علي الثلاثة أسابيع وعلى كل حال لنكمل يومنا هنا ونتناول طعامنا ويجب عليك ان تقدر ظروفنا. إننا نعاني من التعب وقاسينا ونريد الراحة ليومين ثم نكمل مشوارنا وقد تعيد حساباتها فلننتظر ما سوف تسفر عنه الأيام القادمة ولا تقف معاندا أمامها حتى لانخسر كل شيء .. نظرت إليه نظرة الذي عرف كل شيء وما تريده وما فعلته لاثارتى ولكنني لم أبح بهذا له ولا للآخرين محتفظا بهذا السر لانها فى النهاية سيدة ويجب التستر على بناتنا كما تعودنا فى ريف مصر.

نهض مستأذنا بأنه سوف يرسل بها الى للاعتذار وإصلاح ما فسد بيننا ولكنني طلبت منه ألا يفعل هذا ولم أكمل كلامي فإذا بها قادمة بصحبة الأهوج عامر معتذرا عما بدر منه وقد أوضح لي انه كان متعبا وانه يكرر اعتذاره اما هى فابتسمت قائلة: ألا زلت غاضبا منى؟ ولكن عامر اجاب بالإنابة عنى قائلا:
نحن جميعا لا نغضب منك وعلى رأسنا ضابطنا الشجاع .. غادرنا الرجال لإنهاء إعداد الطعام بينما ظلت رابحة جالسة امامى وقد استترت بملابسها بعد ان وجدت ان طريق العرى والإثارة قد ضايقني ، بدلع بنات حواء تحادثني: إيه لسه زعلان .. بلاش الزعل عشان بيجيب جفا وانا مش بأحب المبوزين .. عايزاك بوشك السمح تضحك وتنبسط ومتحملش هم حاجه .. ابتسمت وضحكت فضحكت سعيدة وهى تقول: ايوه كده افرجها عشان ربنا يفرجها .. شوف انا حكايتي صعب خالص ومحدش حاسس وشاعر بيا.

أثارت معي حديث شخصي عن حياتها منذ فترة المراهقة حتي الآن وتبين لي أنها شديدة التعلق بالرجال وحرمانها من زوجها أثر عليها كثيرا ، كان الحديث

فاضح المعاني والتعبيرات وخطير أن يسمعه الشباب لأنه يثير الشجون والإثارة ، رجوتها أن تقف عند هذا الحد ، نظرت إليّ مليا وإمتثلت ، إستأذنت تغادر المكان.

توجهنا الى مكان وضع الطعام وكان يبعد قليلا عن خيمتها وتحت ظلال أشجار النخيل. هذا يوم لم نعهده من قبل .. منذ وصولنا الى سيناء لم يقابلنا يوم مثل هذا وكان هذا هو اليوم الذى تغيرت معه افكار وأحلام كثيرة ومشاكل متعددة لم نعهدها من قبل.

جلسنا أمام الطعام الشهى وكان عبارة عن شوربة الجدى ولحوم كثيرة مسلوقة مضاف عليها فلفل الأسمر فأنعش شهيتنا لتناول الطعام .. اقترح عامر ألا نأكل حتى تحضر رابحة وقد أيده الجميع وانا كذلك ، ذهب لإخبارها أننا ننتظر حضورها ولكنها اعتذرت عن ذلك وحاول معها وفى النهاية أبدت موافقتها علي ان اذهب إليها طالبا منها الحضور لتناول الطعام معنا!! جاء عامر يخبرني بذلك ويشجعني على التوجه إليها ، رفضت ذلك وتعاظمت الآراء ضدي طالبة منى ان أكون أسهل من هذا فى تعاملى معها فهى سيدة والسيدات غير الرجال فى أسلوب التعامل .. حاولت ان افهمهم اننى اعلم كل هذا ولكننا أرسلنا لها باخ لكم وهى لم تعره أي اهتمام بدليل انها تطلبني لإحضارها. جنودي أرجوكم لا تدفعونني لهذا. نظر اليّ عامر بكل فظاظة قائلاً:

يعنى مش ناوي تروح تجيبها؟ طيب: رفع الطعام من امامى طالبا من زملائه ان ينهضوا خلفه لأنهم سوف يتناولون الطعام معها .. ساروا خلفه ما بين مؤيد ومتردد لكن الحقيقة أنهم تبعوه.

شعرت بغصة وإهانة فى قلبي من تلك التصرفات وأيقنت اننى لست فى مجال المقارنة مع رابحة بل انا اقل درجة عند جنودي منها فهم يطلبون منى ان اطلب ودها حتى تتكرم بالحضور الى تناول الطعام معنا. زهدت تناول الطعام

الشهي والذى اسال لعابنا جميعا منذ دقائق ونحن نستعد لالتهامه، لكن هذا الغبي عامر والذى تبين ان رابحة شددت من تأثيرها عليه افسد كل شيء. لم يعودوا. جلست فريدا بعد انُ رفع الطعام من امامى وكانت تلك اكبر اهانة شعرت بها. لقد فضلوها علىّ وبعد تناولهم الطعام سيحضرون المتبقى لأتناوله بعدها. أيها الأحمق عامر. لقد وضعتني فى موقف اقل احتراما أمام إغراء تلك السيدة الغانية المبتذلة والتى تريد اى رجل يمتعها دون النظر الى الدين والشرع وزوجها وابنها الصغير. ياه .. الدنيا صعبة جدا وكلما مر الإنسان بها يكتشف ما بها من مساوئ.

مضت أكثر من خمس عشرة دقيقة ولم يحضر أحد من جنودي الى بقطعة لحم او كسرة خبز وهم الذين رفعوا الطعام من امامى. شعرت بأنني يجب على ان اترك المكان فقد أصبح لا يسعنا نحن الاثنين انا وتلك السيدة التى سيطرت على جنودي الخمسة فى دقائق معدودة لدرجة ان يبيعني احدهم رافعا الطعام من امامى.

حملت سلاحي واتجهت الى الجانب الآخر من المنطقة وهى عبارة عن مجموعة نخيل تبعد عن المنطقة التى نحن بها حوالي مائتي مترا وليس بها بئر ماء ولا يذهب إليها احد كثيرا إلا الذي يريد ان ينفرد بنفسه ، جلست أسفل احد أشجار النخيل ساهما لما أوقعت نفسي فيه وحاسبت نفسى ، هل أخطأت ؟ ولم اعرف الإجابة لكن الإجابة الواضحة هى القرآن الكريم الذى حرم الله علينا ذلك ، لو لم يكنُ محرما لفعلت ما تريده وأكثر فمن يكره النعيم والمتعة ولكن إذا تعارضت مع نواهي الله فلابد من الامتناع عنها. إننا لم نبعد بعد عن منطقة دفننا أحياء. لقد نسى هؤلاء الجهلة ما كنا نعانيه ولقد تذكرت آية من القرآن الكريم حيث يقول رب العزة:

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (٨٣)

صدق الله العظيم...سورة الإسراء

جلست مستنداً بظهري على جذع النخلة وقد تقلصت امعائى من شدة الجوع فالمياه متوفرة ولكن الجوع هو سيد الموقف منذ ان فارقنا زعيم القبيلة والمكلف بالحفاظ على القادة العسكريين تناولنا خبزا جافا لمدة يومين ثم بدون طعام يومين آخرين وها أنذا بعد ان شعرت اننى أعيش مثل هارون الرشيد إذا برابحة تأخذهم لصفها وتمنعهم من اطاعتى بل قد تحضهم عليّ ويصبحوا أعداء لى واعتقد أنهم الآن يتشاورون. لقد عزلنى جنودى واصبحت وحيدا جائعا وسوف يقبل عليّ الليل وما أنا فاعل بدون حماية فنحن عزوة ونحمى بعضنا البعض ولكن إذا هاجمنى ذئب او مهرب مخدرات ماذا سيكون عليه حالى وانا وحيد؟ كل هذا وضعته السيدة امامى لتضغط به علىّ.

حضر فراج وجويلى بعد ان أضناهم البحث عنى واحضروا معهم قطعة لحم قائلين انها نصيبي فى الجدي حيث وزعت رابحة اللحم عليهم ، استفسرت منهم أحضرتم لي غذائي بعد ان رفعه عامر من امامى لكى تتناول رابحة الطعام قبلي وانا أكل بعدها؟ نفي الشابين هذا مؤكدين ان رابحة رفضت تناول الطعام وقد وبخت عامرا لما قام به معي ولولا حياؤها!!!! لحضرت الىّ تطيب من خاطري لما فعله هذا الأهوج عامر.

جلس الجنديان امامى حتى انتهى من تناول طعامي ثم يصطحباني الى خيمة رابحة حتى نشرب الشاي وهى تعده ولن تصبه لهم حتى أكون موجودا .. هذا رأى رابحة .. جنودي البلهاء يقولون هذا ولكنها صاحبة الدهاء وما لاقته فى حياتها علمها كيف تتعايش مع العفريت وزواجها من مهرب وتاجر مخدرات ، تريد ان توجهنا وتعطينا الأوامر حتى نتعود على هذا .. أرسلوا بالطعام لضابطكم فيحضروه ولن نشرب الشاي إلا إذا حضر ضابطكم فعلى ان استجيب لها وبالتالي سوف استجيب لما هو احلي ويؤيده الشيطان ، إذن فلماذا عذابي معها ومعهم طالما رضيت ان أتلقى الأمرّ من امرأة بدوية وان أتساوى مع جنودي فى تلقى

الأوامر بل سأصبح انا الدليل على ذلك؟ انها تتبع المثل الذي يقول اضرب المربوط يخاف السايب .. وهنا تقول اضرب الرأس تخاف باقى الأجزاء فإذا أصبحت أليفا لها أسير طوع بنانها سيلحق بى باقى الجنود.

وعدت جنودى باننى سوف افكر فى هذا العرض بتناول الشاى معهم بعد تناولى لطعامى شاكراً لهم هذا ، اخبرونى بأنهم سوف ينتظروننى بجوار خيمتها. جلست أتناول طعامى الذى دفعت ثمنه وأسد رمقى واستعيد فكرى.

أتناول الطعام الشهى بكل المقاييس فلحم الماعز والجديان من أحسن أنواع اللحوم وكمياتها كثيرة وإعدادها للطهى كان على أحسن ما يكون ولكن النفس كانت غير راغبة فى تناوله لما ألم بى من ضيق ليس نابعا من الرغبة فى إعطاء الأوامر فلقد تعدى الجنود باللفظ على شخصى أكثر من مرة ورفضوا تنفيذ اى أمر أصدره لهم وفي الواقع لم تكن أوامر بل كانت فى صورة اتفاق ورجاء فالحالة هنا لا تسمح بمثل هذا ولكن سرعة التحول خلف السيدة والذى كان ضد مصلحتهم ولا اعلم كيف ولماذا يتركني هؤلاء الأغبياء رغم استمرارنا معا لأكثر من ثلاثة أسابيع ونحن نحقق نجاحا بعد نجاح سواء فى المحافظة على حياتنا او القيام بعمل عسكرى محدود ضد الاعداء او العمل الإنساني فى دفن شهدائنا وكنا فى ظروف أصعب من تلك بكثير.

كان هذا اكبر شىء كدر صفو مزاجى عن هذا اليوم والذى كان باديا عليه من بدايته انه جميل وأننا سنتمتع بالكثير من حب الآخرين وعنايتهم ولكن انقلب الحال وهاهم جنودى رفاق الأمس أصبحوا أعداء اليوم والغد وقد دعوت الدعوة الشهيرة عن رسولنا الكريم....اللهم أعنى على اهلى واصدقائى اما اعدائى فانا كفيل بهم.

انتهيت من تناول طعامى وقد تبقى الكثير من اللحم ووضعتها فى كيس قماش كان جويلى قد احضره معه لهذا الغرض وبجانبه بعض كسرات الخبز.

أعقبت غذائى بشربة ماء ونهضت أكمل طريق عودتي إلي القناة بعد ان شعرت أننا وصلنا الى طريق مسدود وانه لا مجال للمساومة او التردد فيما حدث وكيف يتجرأ الجنود عليّ بتلك الوقاحة ونحن فى بداية تعارفنا بتلك السيدة لهو أمر ينبىء بالخطر.

تذكرت حديثا لرجل من رجال الدين الكبار يوضح ان النساء هن اللائي يذهبن بالرجال اما الى المقابر والمستشفيات او الى السجون. دائما العلاقة المتشعبة بالنساء تفسد حياة الآخرين نظراً لعنصر المنافسة والغيرة التى تحدث بين الذكور حتى فى مجتمع الحيوانات لا يحدث عراك واقتتال بين الذكور إلا على الطعام او الإناث. ضحكت لهذا ولقد وصلنا الى حافة هذا الاقتتال ولهذا اتبعت المثل الذى يقول الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح.

أواصل سيرى وابتعدت عن البيارة التى بها جنودى حوالى خمسمائة متر و فى كل خطوة اشعر اننى ابتعدت عن تأثيرها القوى واقبل الليل وليحدث لى ما يحدث لاى إنسان يسير بمفرده، كنت أشعرّ بسعادة كبيرة لاتخاذي قرار الهرب منهم واستكمال سيرى بمفردى لاننى كنت اشعر فى بعض الحالات بميل لتلك السيدة.

رحلة مع الشيطان

بعد مُضى ساعتين على هبوط الظلام التمست الراحة عند أول منطقة نخيل ولم يك هناك اى شىء يسبب لى ضيقا بعد ان شعرت باننى قادر وقوى واملك ارادتى واننى استطعت التخلص من هذا التأثير القوى ضدى .. لم تكن هناك خيارات كثيرة ، كنت واثقا ان بقاء تلك السيدة سوف يفتح مجالا للجنس والانحراف واحتمال انها عميله للعدو وتتسلط على القيادات البريئة الضائعة فى الصحراء لتفعل بها ما تريد.

الم يوجهنا مهرب المخدرات لنقع فى شرك العدو وكدنا ان نهلك ولقد ضيع علينا مايقرب من العشرة أيام بالإضافة الى مجهود جبار فى السير طوال تلك الفترة والتى تعدت مائة وخمسون كيلو فى جوف الصحراء القاتلة وأشعة الشمس الحارقة بلا ماء او طعام أو أمان. المهم النية وليس المهم النتائج لان النتائج كانت بمساعدة الله عز وجل ومهرب المخدرات عندما وجهنا لهذا المكان لم يكن يعلم إننا سنحارب اليهود ونقتل منهم هذا العدد ، كانت نيته هي القضاء علينا .. وهذه المرأة هى الاخرى نيتها واضحة وهى الوصول الى مصر ومقابلة زوجها والطلاق منه وتلك هى رغبتها وهذا خارج خطتنا وكان من نيتها الفوز برجل منا ، انها فى حالة شاذة صعبة كما انها لم تخف ما تريد ، هذا رأى واضح اما المستتر فهى العمالة لليهود وهذا يكفى. إذن ففى الحالتين نحن الخاسرون.

على الجانب الاخر كان الجنود ينتظروننى ولقد تأخرت عليهم فذهب احدهم ليبهنى لتأخرى وان الشاى قد يبرد ونحن نريد الاستمتاع به وهو ساخن بعد تلك الوجبة الممتعة ، لم يعثر علىّ الجندى فأسرع يخبر زملاءه وقد تفرقوا يبحثون عنى فى كل مكان فاخبرهم بدوى بان من تبحثون عنه ترك المكان سائرا منذ ساعة.

تحطم كل شيء وكل الخطط الموضوعة رأسا على عقب ، بالنسبة الى رابحة ثارت عليهم مؤنبة لهم وخاصة عامر الذى سبته بأقذع الشتائم ان يتصرف مع ضابطه بهذا التصرف ويحمل الطعام من أمامه وهى تخبره بأننا لا نفعلها مع حيواناتنا إلا بعد ان نشعر بأنهم شبعوا ، تركتهم غاضبة قائلة لن أسامحكم فيما فعلتموه ولن أرافقكم حتى تعيدوا ضابطكم ونسير سويا ، اما الآخرون فقد تهدم البيت على رأسهم ومنهم عامر والذى كان يشعر بسعادة لفترة ما عندما علم بمغادرتى المكان ولكن رابحة أعطته المكافأة التى استحقها وقد خاب ظنه وتحطمت أحلامه بإقامة صداقة وحب معها والذى خانه التوفيق من ابتسامتها له بأنها تعشقه وترغبه وكان يعتقد ان قائده السبب فى وقف كل مشاريعه وطموحاته ، باقي الجنود أيقنوا أنهم اخطأوا بإتباع رابحة وعامر وكان يجب عليهم استمرارهم مع بعضهم البعض خاصة قائدهم.

اما بالنسبة لى فقد قضيت ليلتى الأولى بمفردى كما كان النعاس يداعب جفونى محاولا التيقظ والإنتباه خوفا من مفاجأة شيء قادم لا اعلم من يكون ، وقد كان ذئب اشتم رائحة اللحم واقترب منى وانا جالس مستندا بظهرى على جذع النخلة وانا على تلك الحال والسكرة تلازمنى لكنه كان ذئبا حقيقيا وإذا بالذئب يهجم على الكيس الذي به الطعام فتنبهت لهذا وقمتُ مسرعا بفتح النيران عليه فلقي مصرعه وارتجفت لهذا خوفا من حضور اليهود على أصوات إطلاق النيران التى دوى صوتها فى المكان والليل ساكن هادىء ولكن الأمور كانت هادئة وقد سمع جنودى صوت إطلاق الرصاص وتوتروا ان يكون قد حدث لي مكروه من ثلاثى الخطر فى سيناء (اليهود .. المهربين .. الذئاب).

شعرت بحركة قريبة منى ثم سمعت عواء ذئب آخر وقد اثار هذا خوفى وهل سأبقى طوال الليل يقظا اقتنص الذئاب .. انها راغبة فى طعامى وانا راغب فى الاحتفاظ به .. جاءت لى فكرة ، لماذا لا اصعد الى أعلا النخلة والتي كنت

استند عليها وهى من النوع المائل والذى يمكن تسلقه بسهولة ، قفزت عليها صاعداً حتى وصلت الى قمتها مبتعداً عن الأرض بأربعة أمتار كافية لحمايتي من الذئاب ويجب على ان أظل يقظا حتى لا افقد توازنى واسقط من فوقها.

قضيت ليلتى بهذا الوضع الشائك حتى بزوغ فجر يوم جديد متعلقا بها كأننى سباطة بلح مقاوما كل محاولة نوم مفاجئة وقد ساعدنى على ذلك استمرار الذئاب اسفل النخلة وهم يشتمون رائحة اللحم التى معى ، تعدي الوقت أكثر من عدة ساعات معلقا هكذا.

ظهرت الشمس واضحة ورغبت النزول ولكننى خشيت ان اهبط فأجد الذئاب قابعة فى مكان قريب منى وقد تفتك بى فآثرت السكون فترة وانا فى وضعى هذا وقد تملكنى الشعور بالتبول من شدة البرد ومكوثى هكذا لقرابة الساعات الست وأثناء تفكيرى فى هذا إذا بى اسمع أصوات محرك قوى وشاهدت وانا بوضعى هذا عربة نصف جنزير إسرائيلية قادمة فى اتجاه منطقة النخيل لتفتيشها ووقفت بعيداً تراقب المنطقة ثم فتحت نيران رشاشها القوى وكنت اسمع أصوات الطلقات تمر قريبا منى فى الهواء مع تساقط أفرع بعض أشجار النخيل هنا وهناك ثم غادرت المكان الى جهة أخرى وكادت قدماي تخوننى لولا مساندة الله لى.

ازدادت رغبتى فى التبول أكثر مما سبق من هجوم اليهود المفاجيء وزادت حاجتى الى هذا اكثر من السابق ، مازلت معلقا وافكر وقد اصبح تفكيري مضطربا مما حدث فى تلك الليلة السيئة وأخيرا هبطت من فوق النخلة وشعرت ان ساقى متجمدة من طول فترة البقاء فوقها وتأثير برودة الليل بها .. قضيت حاجتى في توتر شديد خشية ان يعود اليهود مرة أخري ولكنى فكرت مثلهم بأنهم يقومون بتفتيش المناطق عن العسكريين المصريين وقد انتهوا من تلك المنطقة ولن يعودوا.

اخترت مكانا به الكثير من أعواد الجريد المتساقطة من نيران اليهود واختبأت بها فاردا ساقى بعد ان علقت كيس اللحم فى النخلة التى كنت واقفا عليها حتى

ابعد مثل تلك الحيوانات عنى ، رحت فى سبات عميق وقد تواصل نومى حتى عصر ذلك اليوم واستيقظت وانا أتضوّر جوعا فأحضرت كيس الطعام وتناولت جزءا منه وقد شممت ان له رائحة ولهذا يجب ان أتخلص منه بسرعة .. بحثت عن مصدر مياه فعثرت على بيارة صغيرة فشربت منها وارتويت وجلست انتظر فرج الله.

قبل الغروب شاهدت بعض الجنود قادمين فى اتجاه منطقة الأشجار التى اختبىء بها ويرافقهم حمار وبعض من الماعز والأغنام وشيء يلتف برداء اسمر. فكرت هل يكون هم جنودي ولكن من يرافقهم هكذا؟ بقيت مختبئا حتى دخلوا تحت الأشجار وترجلت السيدة من فوق الحمار وتبينتها ، لقد كانت "رابحة" وهؤلاء هم جنودى فغمرنى شعور بالفرح ان يعودوا الىّ ولكننى أدركت أنهم لم يعودوا بل هم سائرون خلفها وأملت شروطها عليهم وهاهم ينفذون ما تأمرهم به.

استلقى الجنود أرضا كعادتنا منذ انسحبنا طوال تلك الفترة المرهقة اما رابحة فقد ساعدها البعض فى إنزال أغراضها من فوق الحمار وإعداد خيمتها وقد سمعت صوتها قويا وليس أنثويا كما كانت تحدثني. تلك المرة كان كلامها قاسياً وهى تطلب منهم البحث عنى .. يتناقشون معها .. أنتركك هنا بمفردك؟ تشيح بيدها : ليس لكم بى شأن طالما ضابطكم متغيب أيها الأغبياء .. بهذا الوصف الشديد حادثتهم فتركوها مغادرين المكان وعلمت فيما بعد أنهم جلسوا خارج منطقة أشجار النخيل .. فإلى أين يسيرون بالليل فلابد من أنهم سيخطؤا المكان وخاصة انها المرة الأولى التى يسيرون فيها بدونى.

قررت البقاء فى مكمنى هذا حتى الصباح وشاهدت الجنود وهم يتسللون عائدين وقد نبهها كلبها الى ذلك فقامت مستعدة وتسأل من القادم وانا بدورى أخذت وضع الاستعداد فقد تحضر ذئاب الأمس ويفترسونها قبل ان يفترسها بنى الإنسان ولكن احدهم قال إحنا يا رابحه. حضروا وقد اطمأنت السيدة وكذلك انا.

فهم ارحم من الذئاب وقد سألتهم لماذا لم تعودا بضابطكم فاعتذروا بأنه الليل ولا نستطيع ان نرى شيئا وباكرا سنبحث عنه فى كل مكان ولكننا حضرنا لنتناول طعامنا.

منتصف الليل سمعت صوتها مدويا وأصوات ضرب وسب بكل الألفاظ ، لقد اقترب منها عامر راغبا بها ودفعها هذا التصرف الى إيقاظ الجميع وقد تشاجر زملاؤه معه سواء بالحديث أو السباب بل وتبادل اللكمات فيما بينهم ، هنا قال لهم جويلى عرفتم الآن أهمية قائدنا والذى رافقناه أكثر من ثلاثة أسابيع .. سوف نتناحر هكذا حتى يُقضى علينا ونموت وتأكلنا الذئاب كما شاهدنا البعض منذ أيام .. ان ضابطنا هام معنا وقد أيده البعض بينما عارض هذا عامر منزلا كل سباب تعلمه فى الشارع فى شخصى بين استهجان زملائه وسباب رابحة له .. هكذا ظهر الانقسام والتناحر بينهم من أول أيام انفرادهم بتلك السيدة وما حسبته وجدته.

على أضواء الفجر الأولى قررت الخروج من مكمني ومقابلتهم بدلا من سكونى فى وضعى هذا الأمر الذي قد يدفعهم لأن يتقاتلوا مستخدمين سلاحهم الشخصى ، ظهرت لهم وانا فى اشد حالتى الصحية والنفسية سواء من وجبة الطعام الدسمة حيث أكلت كل نصيبى الذى حصلت عليه او من نومى فترة طويلة او لشعورى بأنهم فى الاحتياج الى وتغلبت علي إحساسي بعدم أهميتي لهم بما سمعته منهم خلال إختبائي.

نبح كلب الحراسة فنهضوا جميعا من نومهم فشاهدونى أمامهم واندهشوا وفوجئوا بوجودى وكان استقبالهم لى حافلا حيث اندفع الى جنودى يقبلوننى ويحتضوننى وقد لحقت بهم رابحة فقبلتنى واحتضنتنى بعنف أمامهم وانا أحاول التخلص من يديها التى قبضت على خصرى والبعض مندهش من جرأتها والبعض مسرور من هذا اللقاء الساخن.

جلسنا جلسة سعيدة يغلفها المرح والسرور برجوعى إليهم وقررت رابحة إعداد طعام يليق بتلك المناسبة ولهذا قسمتهم مجموعتين. جزء لذبح دجاجتين وطبخهما والجزء الاخر لإعداد الخبز ولهذا زودتهم ببعض الدقيق وقالت لهم اتركونى مع ضابطكم أرحب به وقد أضحكهم هذا والبعض أشار لى بعلامة النصر والتى تجاهلتها وقد أعادت جلسة أمس الأول بوضع شلته خلف ظهرى لتمنع عنى قسوة جذع النخلة واعدت الشاى وهى ترتدى ملابسها الشفافة الرقيقة وتجلس امامى مباشرة دون ان تدارى نفسها داخل خيمتها.

مازالت تحاول بطريقتها السابقة اقناعى بأن ترافقنا إلى قناة السويس وهى تحكى وتزيد وتعيد ، تذكرت حديث الجندى فراج معى عندما اخبرني بان سيناء ليس لنا عليها اى سيطرة لمن يتحرك الى هذا المكان او غيره كما ان البدو يسيرون معنا او بدوننا فهذه أرضهم يسيرون فيها كما يشاؤن ونحن لسنا فى موقع عسكرى او القشلاق ، لقد وضح لى اننى قد جعلتها مشكلة امامى وما كان على ان اغضب لهذا وقد كان مُحقا لكن أهم شىء تناساه هو تأثيرها علينا نحن الشباب الصغير والذى تؤثر علينا تلك المؤثرات بشكل كبير وقد يحدث شقاقا بيننا يؤدى الى عواقب وخيمة.

تنبهنى بدفعة من يدها .. إيه رحت فين؟ سرحت وعيونك راحت بعيد عن الحاجه الحلوة اللى قدامك؟ .. لا لا لا ده يزعلنى منك كتير .. بقى فيه حد أكون قدامه ويسرح وعينه تبعد عنى .. لا لا لا دى اهانة ، أعقبتها بضحكة جميلة الصوت وثغرها الرقيق وأسنانها البيضاء تلمع مضيئة من خلال شفتيها ، ابتسمت لها وانا انظر الى خلق الله وإبداعه فى هذا الجمال الطبيعى.

عُدت للخلف قليلاً متذكرا الذئاب الصغيرة وجمالها وحنان الام البديلة عليهم .. ياه على هذا المنظر .. انها احد نعم الله مثل رابحة ، فهو الذى خلقها وسواها ، تراجعت قليلا من شرودى من تصرفاتها التي كان فيها شىء من

الإباحية والجرأة في الحديث .. أعطيتها المبرر فهى تعيش مع تلك القبيلة التى لا تستحى من اى قول او فعل وكان هذا شاهداً وظاهراً فى عراك كل من رابحة وزوجة البدوى الاخر.

حضر الجنود بعد ان انتهوا من إعداد الدجاجتين للطهى كما عجنوا الدقيق وكل ملامح السعادة والابتسامة تعلو وجوههم ، هاهم قد التقوا بى بعد فراق أكثر من أربع وعشرين ساعة كما ترفقهم هذه البدوية الجميلة فتؤنس وحدتهم وتقلل من شظف الحياة الصعبة التى يحيوها ومن أين كانوا سيحصلون على طعام لحم الجدى منذ يومين او الدجاجتين اللتين سيتم طهيهما ، فى هذا اليوم شعرنا بأنها أدخلت الدفء الى قلوبنا وقللت خشونة قسوة الحياة التى ندور فيها والمحصورة بين السير والراحة والبحث عن المياه والخشية من هجمات اليهود ، لقد من الله علينا بدليل خاص يدلنا علي الطريق الصحيح ولن يحصل هذا الدليل علي مقابل سوي المرافقة والعبور معنا للشاطيء الآخر من أجل عمل إنساني بجمع شمل اسرتها هي وزوجها وإبنها الصغير.

أعدت رابحة براد شاى وقدمته للجنود وهم شاكرين هذا العطف وما لكوب الشاى من تأثير قوي فى صحراء سيناء القاتلة ووسط كل تلك الظروف الصعبة والقتلى فى كل مكان من حولنا ، مازال الجنود منهمكين فى طهى الدجاجتين وإعداد الخبز وهى تطوف عليهم توجههم وتساعدهم وانا مازلت جالسا مستندا بظهرى على ساق النخلة والشلته خلف ظهرى وممسكا بكوب الشاى وبجوارى راديو ترانزستور يذيع بعض الاغانى وقريبا منى الحمار والماعز والأغنام يرعون بعض العشب كما تحيط بنا بعض دجاجات تقتات من الأرض والكلب باسط ذراعيه يقوم بمهمته خير قيام.

كنت انظر الى كل هذا وأتجول بنظرى ذات اليمين وذات اليسار وانا غير مصدقا لما يحدث حولى .. انها عناية الله التى تحيط بنا .. جاءت رابحة بعد ان

تأكدت ان تلاميذها يجيدون فن إعداد الطعام وأنهم يقتدون بخطاها وهى توجههم وترشدهم الى كيفية إعداد ما معهم علي أحسن ما يكون.

عادت تجلس امامى وهى مازالت ترتدى ملابسها المحتشمة التى ارتدتها بعد حضور الجنود كأنها تبلغنى برسالة بان ما تقوم به وما تظهره هو خاص بى فقط وانه لا يحق لأحد ان يشاهدها بتلك الملابس الخفيفة الشفافة سواى .. تتحدث:

. هيه خلاص بقينا حبايب وإلا فيه شوية زعل منى؟ أجيبها بنفس طريقة حديثها:

ـ إيه يا رابحه لا زعل ولا حاجه .. شوفى واسمعينى وياريت تفهمى كلامى وقصدى منه .. تيجى معانا لقناة السويس .. موافق .. هللت وصفقت ولفت هذا انتباه الجنود الذين أسرعوا بالحضور لاستطلاع الأمر وقد أخبرتهم وهى فرحة بان الضابط وافق على مرافقتهم حتى القناة وقد نزل هذا عليهم بسعادة ويسر حيث عادوا من حيث اتو وقد ضمنوا ان تبقى تلك الفاتنة معهم حتى يصلوا لبر الأمان وقد أشار إلىّ فراج بعلامة التأييد عندما سمع منها تلك التصريحات على لسانى.

. أحدثها : رابحة .. تجيبنى ..

. نعمين يا عيون رابحه .. بقليل من التوتر أكمل حديثى ..

. ارجوكى يارابحة تسمعى الكلمتين اللى حاقولهم .. تستند بكوع يدها الشمال على بردعة الحمار بجوارها وتضع رأسها على يدها وهى تنظر الى مائلة برأسها

. سمعاك يانور العين .. تعيد الكلمات فيعود توترى

ـ رابحه اسمعينى للاخر .. لقد اتفقنا انك ح تكوني معانا حتى القناة وده حسب رغبتك .. واحنا ح نهتم بكل أمورك وح تكوني على راحتك لكن الشىء المهم وتحطيه فى بالك وأكيد أنت شاعره بيه هو عدم إثارة الرجال .. أنتِ جميله جدا .. تقاطعنى ..

. صحيح يعنى أنت شايفنى كده أمال بتبعد عنى ليه؟ .. تحاول الاقتراب منى وقد بدا انفعالها يتحرك ..افرد يدى اليمنى لتكون بيني وبينها

. أرجوك اسمعيني وخليكى فى مكانك .. طيب لما تكون واحده جميله وصغيره مع ستة رجاله وتفضل معاهم كام يوم .. تضيف وكام ليله .. ماشى كلامك .. آه وكام ليله يارابحه .. ست رجاله بست .. (تقول لفظا فاضحا يخجل الرجال ان يتفوهوا به) آه يارابحه .. نهضت تاركا المكان .. لكنها رجتنى بان أعود وقد اشترطت عليها عدم مقاطعتى ووافقت .. طيب لما نكون على الحالة دية وانتِ بتصرفاتك ودلعك ده حيخلى الرجاله يميلوا ناحيتك.

أرادت التحدث فتذكرت اننى لا اريد ذلك فوضعت يدها على فمها .. يعنى باقول بلاش الدلع والشخلعه فى لبسك لان ده بصراحه حيخليهم عايزينك خلينا إخوات أحسن.

نهضت قائلا: هيه أما أقوم أشوفهم بيعملوا إيه .. تركتها وذهبت لجنودى أجالسهم ونمزح سويا وقد انتهوا من إعداد الخبز ولم يتبق سوى الدجاجتين وقد تركوها فوق النار على بقايا الحرارة التى انتهت حتى يتم النضج ببطىء ليكون طعمها ومذاقها أحسن وأفضل .. حادثتهم: الآن انتم متفرغين وليس ورائكم عمل تعالوا خلفى وذهبنا الى احد الأجناب نتحدث ورابحة تتابعنا بعيونها وآذانها مصغية لاى كلمة تستطيع التقاطها فهى تعلم انها ستكون مثار حديثنا الآن.

بادرتهم بقولى: أولا أرجو ألا ينفعل احد وينسى نفسه إننا مازلنا فى جيش والجيش اما فى معسكرات او فى ارض العمليات وقوانينه فى ارض العمليات اشد صرامة وقسوة .. هذا أولا .. اما ثانيا ان كل واحد فيكم يتصرف بطريقة ما فهذا يدل على تربيته فى بيته بين أبيه وأمه ولهذا يجب عليكم مراعاة عدم التصرف الأهوج مع الآخرين .. قاطعنى عامر .. (بتقصدنى) .. أجبته أقصدك فعلا وما فعلته امس الأول ليس من الأدب والذوق فى شىء وانا قائدك لا استطيع ان افعل معك ما فعلته معى .. تدخل جويلى معربا ان عامر شعر بخطئه امس.

أكمل حديثى: أهم ما فى لقاءنا اليوم اننى وافقت على اصطحاب رابحة معنا الى القناة وهذا سببه اننى رايتها معكم هذا الصباح وقد كان امامى خياران .. اما ان أترككم وأسير بمفردى وأما ان أوافق ونسير معا ولقد اخترت الخيار الثانى ولنضع قانونا ونظاما لهذا .. نحن شباب ونحب الجنس الاخر .. من منا لم تهفو نفسه نحو فتاة جميلة راغبا فى حبها والتنزه معها .. اعتقد كلنا لان هذه خلقه الله فينا ولكن ان ننغمس فى الرذيلة فهذا مرفوض لأنه ضد الدين أولا وضد قانون الجيش ثانيا ومن اجل هذا أرجوكم الاحتراس فى التعامل مع رابحة لاننى اشعر انها ترغبنا جميعا ، هذه السيدة صغيرة وقوية ومندفعة وكيف لسيدة ان تجعلنا نعصى الله وهل لو أرادها واحد منا وهى غير راغبة فيه هل يمكن ان يقنعها؟ ضحك مصطفى مشيرا الى عامر بأنه فى الليل تسلل إليها وصرخت مستنجدة وضربته كام كف على وجهه .. ضحك زملاؤه وعامر خجلان ناظرا لأسفل .. (قلت كده كويس يعنى عرفنا اللى هيه عيزاه حتعمله واللى احنا عايزينه وهي مش موافقه عليه مش بتعمله) .. كل واحد ينتبه انه بالغواية حتخليك تعصى ربنا .. شوف بقى هيه أهم وإلا ربنا؟ .. والست حلوه يعنى خليكوا بعيد عنها ومتقربوش منها كلام من بعيد وبالليل مش عايزين نكرر حكاية عامر .. وانا شاعر بعامر وأنها ملخبطه كيانه .. ضحك قائلا: . اى والله يافندم باموت فيها .. أجبته

- اصبر كام أسبوع حتروح لجوزها وتطلب منه الطلاق والقانون حيديها الطلاق وأبقى اجوزها واعمل اللى أنت عايزه فى الحلال، بعدها عدنا الى وضعنا قبل هذا الاجتماع ونظرت الى نظرة كلها استفسار متسائلة:

. كنتم بتتكلموا عنى وكنت بتقولهم إيه؟ أجيب :

. كنت أوصيهم بك والمحافظة عليك وعلى ابنك

- بتضحك وتتنقور عليا يا أسامه طيب ان ما وريتك، مش حخليك تنام وحخليك تلف فى مكانك زى ما تكون عندك حمى، حافرجك، دا انا رابحه .. أجبتها :

. إيه يابت قلبتيها غم كده ليه .. سالتنى:

- علشان أنت مخبى عنى اللى قلته عليا وعلى كل حال حاعرفه وكلهم حييجوا يبوسوا ايدى ويقولوا لى. تضايقت من تعبير بوس الايادى ولكنه مناسب لثقافتها ورغباتها الكامنة فى الرجال، تناولنا طعامنا الممتع الشهى وشربنا الشاى وحلينا بالنظر الى تلك الساحرة المرافقة لنا وحصلنا على غفوة ما قبل العصر.

قبل حلول الظلام استعد الجميع حسب ارشاداتها للسير حيث سيكون تحركنا ليلا حتى نتجنب حرارة الشمس كما انها اكدت ان وجود اليهود هنا شىء نادر وغير متوقع .. سرنا وهى دليلنا وقد اعفانى هذا من مراقبة الطريق ومتابعة سيرنا هل هو صحيح ام لا .. طلبت من فراج ان يكون قريبا منها على قدر الامكان لحمايتها وإبعاد عامر الذى أراد ان يثبت لنا انه رجلها الاول وإنها محجوزة له ، بالفعل كان فراج قريبا منها ولم يضايقها هذا وهى التى تعلم باننى أرسلته لتلك المهمة وإلا كنت طلبت منه الابتعاد عنها مثل ما أوجه كلامى لكل من مصطفى وعامر وعطية الذين يلهثون لينالوا نظرة حب وعطف منها.

بعد منتصف الليل وصلنا الى بيارة بها نخيل ومياه وظلال وسنمكث باقي الليل لنستريح حتى غروب شمس اليوم التالى لكننا كنا ننجز مسافة طويلة فى زمن قصير مقارنة بما كنا نفعله فى السابق كما كان جويلى مسؤلا عن متابعة سير الأغنام والماعز ويساعده فى هذا الكلب المخلص الأمين وكانت تحتفظ بقفص تضع به أفراخها وكل أمتعتها تضعها على الحمار كما أعدت شيئا صغيرا لحماية طفلها وان يكون محمولا فوق الحمار بأمان.

أصبحت مشكلة الليل أمامنا كبيرة حيث ياتى الليل وكل ينام يريد الراحة ولكن النوم تطرده اليقظة والتوتر .. كنت اشعر بان شيئا ما يقرصنى كأنه نمل او براغيث وهذا غير موجود بالجبل وكنت أتلوى على نيران مؤلمة محاولاً النوم وانا شاعر اننى محتاج له ولكن دون جدوى .. كان تأثير السيدة علينا قويا مرهقا ولقد

وصلنا الى مرحلة العذاب والألم ومحاولة تقليل هذا الألم والذى كان علاجه شيء من اثنين: إشباع الرغبة التى تفتحت بعد مشاهدتنا لها وسماعنا لأحاديثها وكلامها الناعم الساحر والذى كان به من الإيماءات الجنسية الكثير والتى تثير الرجل حتى لو كان عجوزا فهو صادر من حواء وما لهذا الحديث والإشارات والغمزات وكسرة العين وفتحها كل هذا يثير من لا يثار وفى ظروف تجمعات الرجال أو بعدها عنا وعدم مرافقتها لنا.

مر اليوم الثالث لكن حالتنا ازدادت سوءا ليس من قلة الطعام بل إننا نعيش ونأكل بأحسن ما يكون وأحسن من طعامنا قبل الحرب ولكن السُهد والعذاب النفسي ومقاومة الدوافع الشيطانية كان رهيبا. كان من الطبيعى ان نشاهد البعض طوال الليل جالسا لا يستطيع النوم او متقلبا على جميع الجهات مثلما كان يحدث لى وقد تأكد لى ان ما قالته رابحة حدث عندما هددتنى بأنها ستجعلنى لا اعرف كيف أنام وسأكون مثل المصاب بالحمى .. لقد تحقق تهديدها .. تركت مكان نومى وذهبت لأجلس بعيدا عن مكان تجمعنا ولاحظنى بعض الجنود فلحق بى واحد تلو الآخر وجلسنا لبحث حل لحالتنا خاصة بعد ان اعترف كل واحد فينا بما يكابده من الم بخصوص بعدم رغبته فى النوم مع الدوافع المتزايدة فى رابحة والتى كانت مثل السيف المسلط على رقابنا جميعا ، كل يبث شكواه خاصة عندما علم ان الآخرين مثله يشعرون بما يشعر ويتألمون كما يتألم ويفكرون فيها كما يفكر هو ، إذا هو ليس بالشيء العجيب او الشاذ.

ينظرون الى معتقدين اننى اعلم أكثر منهم قد أكون اعلم أكثر فى مجال تخصصى وعملى ولكن فى الأمور العامة والمتشابكة قد يكونون أفضل حالا منى ولكننى أشرت إليهم بان تلك الحالة تثبت ان تلك المرأة مثل الشيطان ، البعض أيدنى والبعض اعترض على كلامى قائلا: كيف تصف هذا الملاك الجميل بهذا الوصف؟ أجبتهم لكم الحق فيما تقولون ولكنها الحقيقة ان الشيطان لن ياتى إليك

على شكل مخيف لابد ان يتسلل إليك بشيء رقيق ناعم ، لماذا ذهب الشيطان إلي أبينا آدم وطلب منه ان يأكل من شجرة التفاح التى قال لهم عنها انها شجرة الخلود؟ لان الله منع آدم وحواء من الاقتراب منها ليس لانها مسممة او ضارة لكن ليعودنا جميعا نحن عبيده على تنفيذ الأوامر الناهية ، كل من هذا ولا تأكل من ذاك مثل حالة تلك المرأة تريدنا ورغبتها صارخة وقد بدي عليها الانفعال والشهوة لأي منا دون مستجيب لها وكل هذا مغلف فى قالب جميل ومن ذا الذي يستطع مقاومتها خاصة من كان فى مثل حالتنا.

سؤال .. هل نحن الآن أحسن حالا او قبل هذا عندما دفنا أحياءا؟ قبل ان تجيبوا فكروا فى حالتكم فى الفترتين ، كانت الإجابة مدهشة فان الجميع أكدوا ان حالتهم الصحية والنفسية أثناء وجودنا بالكهف أحسن حالا عما نحن عليه الآن ، طرح أحدهم سؤال: لماذا يا فندم نحن الآن اقل مستوى ونلاقى تعبا وألما لم نقابله فى بداية انسحابنا وعراكنا؟

أجبته .. هذا هو اخطر ما فى الموضوع ألا تتذكرون قصة سيدنا يوسف عليه السلام .. امرأة جميلة زوجة عزيز مصر اى رئيس الوزراء لأقوى وأعظم دولة فى تلك الفترة وتطلب من خادمها ان ينام معها وتقفل الأبواب وتقول مافيش غيرى وغيرك .. لكنه فى النهاية يرى شيئا وهذا الشيء يقول عنه القرآن برهان ربه والشيوخ يفسرونها على انها الجنة او النار او اى شيء لكنه شاهد علامة تقول له ابعد عن الحرام .. تركها ثم قال انا عايز أروح السجن .. ويسأله أصحابه مش معقول كده يا يوسف أنت عبيط ومش بتفهم تسيب الملبن ده والحلاوة دية وعايز تروح الكركون .. يقول لهم ان السجن والكركون أحسن من اللى هيه عيزاه .. هيا بتطلب منى انى أخالف ربنا .. تصوروا الحكاية وصلت لحد فين وإحنا لما نقول لما كنا مدفونين كنا أحسن علشان كنا قريبين من ربنا.

أسعدالجنود سماع قصة سيدنا يوسف ودفعت بعضهم للهدوء ومراجعة النفس ولقد كان واضحا أننا نعانى من أصعب شىء قابلناه فى سيناء أثناء الانسحاب ، فالطعام والشراب تحملناه خمسة أيام ولكننا هنا لم نستطع تحمل أربعة وعشرين ساعة إثارة وانفعال.

انتهت جلستنا وتوجهنا لنومنا وقد هيأ لنا الله من أمرنا رشدا فغلبنا النعاس بعد ان اكتوينا بنيران السهد والأرق والفكر ، مساء اليوم الرابع لوجود رابحة بيننا وكل واحد فينا يتفرس جسدها وخياله يهيم فى اتجاهات لا يعلمها سوى الله وهى على كل حال خيالات فاسدة وتبعث على الرذيلة.

توجهت الى البئر للاغتسال والوضوء ثم الصلاة ، كان موعد صلاة المغرب قد حان ، وقفت أصلى وقريبا منى البئر وانا فى حالة الانكسار والعبادة أمام الله ، حضرت رابحة وتحررت من ملابسها بالكامل لتحصل على حمام منعش ، تحيرت وأغمضت عينى عما أشاهده ولكنى كنت اسمع أصوات غنائها وما تصدره من أصوات معبرة عن متعتها بالماء ثم وجهت لى الحديث قائلة: بعد ما تصلى حصلنى على البير ، غيرت من اتجاه القبلة حتى لا اسمع ولا أرى فسمعت صوتها ففتحت عينى فوجدتها وقد ارتدت ملابسها وأنهيت صلاتى المرتبكة.

جاءت لى وهى مقبلة وانا متخوف منها لاننى سأقع فى الهاوية وشعرت اننى هالك لا محالة فكلها فتنة وجمال وسحر وهيام وعطر فواح بديع الهمسات رائع النسمات اما صوتها فهو عذب رقراق مشيتها نغم حالم فوق الأرض اقتربت منى وهى تناجينى بأصوات تثير الشجن وتحيل العجوز شابا يتحرك ويقدم ويضحى بكل شىء أمامه فى سبيل ان ينال حبها وقلبها متمتعا بدقائق قليلة ، وضعت يديها حول عنقى وهى تحدثنى قائلة "وبعدين وياك مش ناوى تلين؟ انا عيزاك ومسكتنى من سترة افرولى بأصبع واحدة تسير للخلف وانا أسير معها بسلاسة وهدوء واتجهت بين أشجار النخيل وعادت الى وضعها السابق تحتضننى بلهفة

وانا حتى الآن تابع لها ولست متبوعا انا خبر لمبتدأ اسمه رابحة .. أخيرا احتضنتني بعنف وشغف ووجدت نفسي ولأول مرة احتضنها وقد تركت كل هواجسي السابقة محدثا نفسي هيا موته وإلا إثنين. وانا على هذا الحال ونهتز لنسقط أرضا لنسقط فى حافة الهاوية أيضا شعرت وانا أضع يدى على ظهرها الناعم ان ثمة شيء مثل الشوك يؤلم اصابعى ففتحت عيناي وانا مازلت احتضنها فإذا بى أشاهد ظهرها الأبيض الجميل بلون بني غامق وبه شعر كثيف كأنه ظهر غوريلا وهنا لم أتمالك نفسى ولملمت نفسي بسرعة البرق وعادت دمائي الى داخل جسدى وهبطت كل انفعالتى صارخا ومبتعدا عنها وهى مازالت تقف مذهولة بعد ان أصبحت قاب قوسين او أدنى ان تصل الى بغيتها ونتوقف هكذا ، تنبهت على صوت صراخي مبتعدا عنها عائدا الى الخلف بظهري لأسقط أرضا وانا مازالت خائفا دافعا يدى للأمام لأحمى نفسى من هذا الشيء المخيف ، تغير شكلها هى الأخرى واحمرت عيناها وتهدل شعر رأسها وتجمدت قسماته وأصبح لونها اصفرا باهتا صارخة قائلة: غور يخرب بيت اهلك ، أمسكت ببعض الرمال من على الأرض وقذفتها فى وجهي وهى تعيد سبابها لي ثانية وتضيف أنت راجل وسخ ورحمة امى أنت راجل مخصى!!!

تركتنى عائدة الى خيمتها وقابلها جنودى مستفسرين عن سبب صراخى حيث خشو ان يكون اسرائيليين متواجدين هنا ولكنها كانت مثارة وفى حالة سيئة وجلست معهم باكية دامعة باننى حاولت عند البئر اغتصبها ولكنها قاومتني ودفعتني مما اصابنى فى رأسي وهذا ما دفعني للصراخ وهى التي كانت تثق بى دائما حيث كنت اخبرها بأننا أخوة ولكنه استغل ضعفى وعدم وجود رجل يحمينى.

اندفع عامر قائلا لها انا هذا الرجل وانا سأحميك من اى إنسان حتى لو كان ضابطى واستطيع ان اقتله ونخلص منه فى الحال ، هدأت من روعه وسار معها

تستند على ذراعيه حتى خيمتها ودخلت اليها وقالت له: أنت راجلى دلوقتى مش حاوصيك تحمينى وتخاف عليا .. خلاص!!!

حضر الى جنودى عند البئر يخبروننى بما حدث من اختلاق أكاذيبها والتى لم تنطلي عليهم ولكنها انطلت على الأهوج عامر والذى ظل جالسا أمام باب خيمتها كالكلب الذليل .. استفسروا منى عما حدث ولم اخش ان اقول فكما لم يخش يوسف ان يفصح كنت انا الاخر وقد اندهش الجنود الأربعة وانا أقص عليهم قصة ظهرها الذي يشبه الغوريلا. أعيد ترتيب اوراقى أمامهم ونحن نقترب انا وهى من بعضنا البعض أناجى ربى ان يرفع كربته عنى وانا فى اشد حالات انفعالي تذكرت الآية القرآنية ولم اقرأها فقد كانت ظروفي صعبة للغاية ولكنني سمعتها بداخلي وهى تعاد على مسامعي قال الله تعالى:
وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)

بعد ان تذكرت تلك الآية الكريمة شعرت باننى امسك شوكا على ظهرها وفتحت عيني فوجدت ظهرها مثل ظهر الغوريلا او الجاموسة ومقوس وخشن ومخيف. أخبرت جنودي قائلا هذا هو البرهان. انه برهان ربنا ورب يوسف. انه شاهد شيئا سواء يخيفه او يبعده عن هذا الخطر. تساءل احدهم يعنى ده ربنا يعمله مع اى حد يكون عايز من ربنا يحميه. أخبرتهم ايوه مظبوط وقلت لهم انتم فاكرين لما جينا نهرب وندخل الكهف اللى كانت فيه الديبه وأولادها. الطيارة الأولى ضربت صاروخ جه فى الرمل وتاني صاروخ جه فوق الكهف ، الفاصل بين الصاروخين اقل من مترين ، لكن لو اى صاروخ كان جه فى الكهف كان إيه حصل؟ نظروا لبعضهم البعض واحدهم قال كنا بقينا كفته .. ضحكت وقلت لكن ربنا حمانا وهنا برضه ربنا حماني وخلوا بالكم هيه ناوية تاخد واحد فينا وتفرقنا.

عدنا الى مكان الخيمة وقد اخترت مكانا بعيدا واقترب مصطفى من الخيمة فسمع اصواتا جاء على آثارها مسرعا ليخبر زملاءه وهم بالتالى جاؤا يخبروننى بأنهم سمعوا أصوات عامر بداخل الخيمة وتدل تلك الاصوات على انه يعاشرها الآن وماهو الحل معهم؟

لقد نجح الشيطان بان يوقع بأحد فرساننا. لقد سقط الفارس عامر الى مستنقع الرذيلة والفحشاء ، نظرت إليهم قائلا لاحل ولنترك الفاسقين ولتعلموا أنهما سيزدادان فجرا وبغيا ولن يحاولا التستر والاستغفار إنهما خالفا الله. اتركوهم والله هو الذى سينزل بهما عقابه.

خمد جميع الرجال فلم يعد احد يفكر فيها سواء لأنها أصبحت عشيقة لرجل آخر او لأنهم استاؤا منها عندما شاهدوا عامر فى خيمتها او مما فعلته معى وكذبها عليهم باننى حاولت الاعتداء عليها وهم الذين يعلمون انها منذ الوهلة الأولى وهى تحاول ان تتصيدني ، الجميع نيام هادئين اما العروسين فقد انهيا مهمتهما بنجاح وأقول انها نجحت وأوقعت المغفل عامر.

لقد تعمدا أن يجلسا خارج الخيمة فى وضع وشكل غير لائق. عامر عار من نصفه الأعلى وهى نائمة على صدره وتداعبه وهو يداعب شعر رأسها.

مضى يومان على تلك العلاقة الآثمة وقد كان تأثيرها واضحا علينا حيث شعرنا ان المكان أصبح نجسا كما امتنع كل من جويلي وفراج عن محادثتهما اما انا فكنت العدو رقم واحد لهما ولهذا انقسمنا. هما الاثنان فى جانب ومصطفى وعطية فى جانب. وانا وجويلى وفراج فى جانب وهكذا قسمتنا الى ثلاثة أقسام ومنعت التعامل بيننا فهما يأكلان ويشربان بعيدا عنا بل يحاولا ان تكون علاقتهما ونومهما سويا أثناء جلوسنا بالخارج حتى تؤثر على مشاعرنا وبالطبع نتركنا المكان ولن نكون فى يوم من الأيام من مواخير الرجال الذين يحمون العاهرات.

تحركنا ليلا كعادتنا ووصلنا في الصباح الى منطقة جديدة وهى منطقة نخيل وقد تحسن الطقس حيث كنا نشعر بنسمات هواء رطب تهب علينا ونحن جلوس تحت أشجار النخيل اشتممنا رائحة نفاذة وكريهة وقد استطلع احدهم الأمر فتبين انها لبعض جثث الذين قتلوا منذ عدة أيام وكان باديا على أجسادهم الانتفاخ وبعضها انفجرت جثته وفاحت الرائحة الكريهة.

جاء جويلى يخبرنى بان البئر مسمم وقد شاهد اثار زيت لامع على سطح الماء وقد تبين ان هؤلاء المساكين كانوا ضحايا تلك العملية الخبيثة من أعمال اليهود ، اقترح فراج ان ندفن هؤلاء عصرا ، طلبت منهم الاحتراز لأنه طالما ان اليهود قذفوا بسموم فى تلك البئر فاحتمال وجود ألغام أفراد وارد وعلينا الاحتراز.

قضينا تلك الليلة كما سبقها ونحن نراهم فى بغيهم سائرون وبجوارنا من الجانب الاخر الجنود الذين قضوا نحبهم ولم يدفعهم هذا الى التأمل او احترام هؤلاء الشهداء ، نقل مصطفى خبرا عنهم بأننا اقتربنا من القناة وان المسافة المتبقية لا تزيد عن عشرة كيلومترات ، لم نصدق ما نسمع هل من المعقول أننا قد أصبحنا على مسافة سير حوالى ساعتين ونصل الى بر الأمان والى أهلنا ، طغت الفرحة علينا وإنتعشت طموحاتنا وقضينا ليلتنا كلٌ يخبر الاخر بما ينوى ان يفعله عندما يصل الى عائلته وأسرته.

صباح اليوم التالى كان عامر قد بدا منتعشا ورابحة تعانقه أمامنا وتسأله على فين يا حبيبى فيجبها: أوصل لحد الشهدا اقرأ عليهم الفاتحة وقد تنبه جويلى صارخا فيه .. فتحتك مش مقبوله .. فيجيبه ليه بتقول كده يا معفن يا ابن المعفن (بصوت عال وجهورى) .. أجابه من غير شتيمه أنت نجس لازم تتطهر .. تدخلت رابحة فى الحديث حتى لا تحدث مشاكل بين كل من عامر وباقي الجنود حيث قالت: حبيبى عامر زى الفل .. روح يا حبيبى.

مازلنا جالسين ، بعد قليل جاءنى فراج يخبرنى بأنه شاهد عامر وهو ينزع ساعة احد الشهداء ويضعها فى جيبه ، اتجهنا بإبصارنا إليه لنشاهده وكان واضحا انه يفعل هذا ويقلب كل شهيد باحثا عما يملكه ولم يترك أحدا إلا وحصل منه على شيء ما ، أنهى سرقته للشهداء وهو ينظر إلينا سعيدا بغزواته ، عاد ثانية حيث تذكر شيئا ، عدنا الى حوارنا.

فجأة سمعنا صوت انفجار شديد وصرخة غير مكتملة وقفنا نستطلع الأمر ، لغم أفراد كان موجودا بين الجثث وداس عليه عامر فقتله فى الحال تاركا جثته بجوار من سرقهم ومعه مسروقاته يقابل بها الله يوم القيامة حاملا ندما لن يغفر له وما فعله من الزنا التى حرمها الله.

خرجت رابحة على صوت الانفجار وشاهدت جثة عامر ممزقة فصرخت وتعالى عويلها وألمها وهى تناديه: مين حيربى ابنك اللى فى بطنى؟ انا مكتوب على أربى ابن أبوه فى السجن والتانى أبوه مات ، يا خيبتك يا رابحة ، ولولت كثيرا ونحن مشغولون هكذا ، فإذا بنا نسمع صوتا آمراً:

ولا حركة.. نظرنا جهة المتكلم .. صرخ جويلى: اسرائيلى .. رحنا فى داهية.

صرخ فيه صاحب الصوت قائلاً: اسكت ياغبى ، وقفنا ورفعنا أيدينا لأعلي علامة الإستسلام ، كان هذا الشخص ضابطا مما يضعه من علامات علي كتفيه وكان برفقته بعض الأفراد بزيهم العسكري وهم يحملون المدافع الرشاشة ، لقد ضاعت أحلامنا التي كنا قد بدأناها منذ شهر ، أخيرا بعد أن أصبحنا قاب قوسين أو أدني من القناة سوف نقع في أسري ، بكي بعض الجنود لسوء الحظ والبعض لم يستطع التعبير عما بداخله ، شاهدت صورا سريعة أمام عيني من ذاكرتي لما حدث لزملائنا وهم قتلي وتركوا بالصحراء تنهش بأجسادهم الضواري ، هذا هو حالنا بعد أن شعرنا بأننا قد نجحنا في طريق إنسحابنا ، أنظر إلي هذا الضابط محاولا معرفة ما يخبئة القدر علي يديه ، تسائل بصيغة آمرة: فيكم ضباط؟

فأشاروا جميعهم جهتي .. جاء الضابط وكان برتبة ملازم أول مصافحا لي وعرفني بنفسه وخلفه ثلاثة من ضباط الصف يحملون بالإضافة الى أسلحتهم بعض الشنط والأكياس.

لا أعلم السر في اختيار ضابط بتلك المواصفات لكي يقبل إلينا في جوف صحراء سيناء في ظروف تلك الحرب القاسية ، الضابط أوربي الشكل والملامح ، وجه أحمر طويل القامة ذو عيون خضراء وشعر أصفر ناعم وقد اعتقدنا بأنه إسرائيلي حتي بعد حديثه معنا ولكن أطمأن قلبنا لمن حوله من مساعديه وهيأتهم المصرية الواضحة كما أنهم لم يقتلونا أو يأسرونا.

اخبرني الضابط أننا على مسافة اثني عشرة كيلو من القناة وأنكم سوف تسيرون الى القناة ، ثم زودنا ببوصلة وربط عليها درجة السير ثم اخبرنا بان نسير على تلك الزاوية حتى نعبر الطريق الترابي وبعدها نبدل الزاوية الى درجة أخرى اعلمني بها ثم قال بالزاوية الجديدة ستسيرون جنوب الملاحات بشرق ألقناه ومسافتها حوالى ثلاثة كيلومترات وعلى الضفة الشرقية ستجدون عمال قناة السويس فى انتظاركم للمساعدة ثم نظر الى رابحة متسائلا:ماذا تفعل تلك السيدة هنا؟ ان وجودها خطر؟ أخبرته انها راغبة فى العبور للغرب لزيارة زوجها فأشار لها بان تتبع احد رجاله موضحا له بان يصطحبها الى نقطة عبور المدنيين.

غادر هو ومرافقيه المكان بينما ظل أحدهم إنتظارا لإصطحاب رابحة إلي المكان الذي أمره أن يدلها عليه ، تعاونا جميعا في جمع أغراضها ومازالت باكية وكنا أكثر منها حزنا علي ما آل إليه مصير عامر بعد قضاء شهر معنا كان من أصعب وأطول وأعظم شهور حياتي حتي الآن ، لقد كانت تلك الفترة مجيدة في حياتنا حيث كان تصرفنا وشجاعتنا تدفع بنا إلي الفخر والإعتزاز.

سرنا مستخدمين البوصلة بالزاوية الجديدة وتركنا رابحة بعد وداع سريع فاتر فمازالت حالتها سيئة ومازالت الدموع تنحدر من عيونها الجميلة وجثة عامر ملقاة

فى العراء لا نستطيع الاقتراب منها لخطورة المكان وانتشار الألغام ورغم هذا فكان الوداع مؤثرا لأنه حدث فجأة بعد حادث مصرع عامر بساعة على الأكثر.

تحركت مع جنودى الأربعة ولقد أصبحنا خمسة بعد ان فقدنا واحدا من زملائنا وكان اتجاه تحركنا مرصوداً على البوصلة وسرنا بجد ونشاط يحدونا الأمل ان نصل الى هدفنا قبل العصر ، قطعنا ثلاثة كيلومترات فى ارض ثابتة وبها الكثير من نباتات الصحراء ووصلنا تقدمنا وعبرنا الطريق الترابى الذى نبهنا إليه الضابط الذى قابلناه والذى عرفنى بنفسه وأهم ما لفت نظرى فى حديثه انه ضمن مجموعة من قوات الصاعقة لجمع الشاردين .. هكذا اسم تلك المجموعة تعمل فى شرق القناة وتمد يد العون للجنود والضباط المحتاجين سواء طعاما او شرابا او علاجا مبسطا ثم توجههم الى اقرب نقطة إنقاذ وعبور.

بعد عبورنا الطريق الترابى بأقل من كيلومتر سمعنا أصوات محركات دبابة فاختبأنا خوفا على حياتنا ، شاهدنا بعد قليل دبابتين تحرسان لورى ضخم لنقل وقود بنزين الدبابات .. كانت فرصة سانحة لان المسافة كانت قريبة منا لا تزيد عن ثلاثمائة متر ونحن فى المرتفعات وهم فى منخفض الوادى الذى به الطريق والمسافة بين الدبابة واللورى لا تزيد عن خمسة وعشرين مترا .. تبادلنا النظرات وسألت عن ذخيرة خارق حارق وتبين انها مع عطية ولكنه فى التصويب اقل دقة من جويلى وفراج رغم ان الهدف كبير وسهل إصابته .. تبادل الجنديان خزن الذخيرة وبسرعة أطلق فراج عدة دفعات على فنطاس لورى الوقود دون جدوى فإستبدل التصويب على تنك بنزين اللورى التي كانت كفيلة بإحداث ما كنا نرجوه فى ذات اللحظة التى أدارت لنا الدبابات مواسير مدافعهم وقامت بإطلاق أول قذيفة ولكن القدر لم يمهلهم فقد انفجر التنك وتبعه الفنطاس متطايرا بالحرائق الرهيبة والتى شعرنا بحرارتها من على تلك المسافة فاشتعلت الدبابتين واستطاع بعض ال جنود الفرار منها والنيران مشتعلة بملابسهم وكنا لهم بالمرصاد غير

عابئين بالرحمة وكيف نكون رحماء على قوم يدهسون جنودنا تحت دباباتهم أحياء.

داخلنا إحساسا بالفخار بعد نكبتنا فى عامر وما حل به وشعرنا إننا آخذنا بثأره وثأر الثلاثة عشر ضابطا وجنديا من رجال المدرعات الذين ماتو أمامنا ولقد تذكرت الرائد وليم شفيق الذى قاد الدبابة الإسرائيلية بعد فك أسرهم وما قاموا به من تدمير دبابتين للعدو وإسقاط طائرة هليكوبتر قبل ان ينال الشهادة هو ومرافقيه.

لقد قضينا على عشرة من جنودهم الآن بالإضافة الى دبابتين وفنطاس وقود .. أسرعنا نعدو حتى ننجو بأنفسنا وكانت المنطقة التى نحن بها منخفضات ومرتفعات وكودى حشائش خضراء وبذلك كانت صالحة للاختباء والحماية بعد قليل ترامى الى أسماعنا أصوات دانات مدفعية تصب غضبها فوق رؤوسنا وكان قذفهم غير محدد لأنهم لم يحددوا من قام بتلك الضربة الموجعة ، حضرت طائرة هليكوبتر لتحدد الأهداف واختبأنا حتى انتهت من دورتين فوق رؤوسنا.

استمرت تلك المناورة بيننا وبينهم حوالى الساعة بعدها هدأ الموقف وواصلنا سيرنا فى اتجاه هدفنا دون ان نبدل زاوية سير البوصلة فقد نسينا هذا العمل بعد ان وقعنا فى تلك المعركة التى تعتبر الثانية لنا بعد معركة تحرير الرائد وليم وزملائه وان نكون البادئين لها. حيث كانت المعركة السابقة مفروضة علينا.

سقطنا فى منطقة الملاحات وكانت مياهها الراكدة تصل الى ما فوق الركبة وفى بعض الأماكن الى الوسط ، تلك منطقة سهل الطينة وهى تقع جنوب شرق بورسعيد وهى عبارة عن منطقة بها طمى النيل بكميات كثيرة لوجود فرع قديم للنيل بها وبعد حفر قناة السويس تدفقت المياه المالحة للمنطقة واختلطت بالطمى واصبحت بركة طينية واسعة المساحة وقد فعلت المياه الراكدة بها كل شىء حيث الروائح النفاذة بها مثل رائحة آبار الصرف الصحى فى اللون والرائحة .. كلما نسمع صوت طائرة ننزلق بأجسادنا حتى رأسنا فى تلك البركة اللعينة واستمر

وضعنا علي هذا الحال ثلاث ساعات وقد اهلك الملح جلودنا وخاصة منطقة الوجه التى كانت معرضة للشمس دائما حيث إننا نسير فى اتجاه الغرب وكانت الشمس حينئذ مائلة غربا ولم يكن يظهر شيء منا غير عيوننا.

أرهقنا المسير فى تلك الملاحات اللعينة وخارت قوانا وكيف لا تخور والإنسان يقطع مسافات قليلة فى زمن طويل مع مجهود مرهق. مازالت الطائرة الهليكوبتر تأتى من حين لآخر تريد كشف مكاننا ونحن نختفى أسفل طينة الملاحات حتى نكاد نختنق سواء من عدم وجود هواء او من تلك الرائحة النفاذة. كما إننا حينما ننزلق الى أسفل فلا نرى شيئا فكله ظلام وما هى الطينة الممزوجة بالملح وليست مياه مثل مياه البحر.

كانت الطائرة ترسل ببيانات تواجدنا للمدفعية التى تقصف المكان وكان من حُسن الحظ ان سقوط القنابل القريب منا ينفجر بصوت مكتوم دون تأثيره علينا مانعا الشظايا من الوصول لأحد منا ، أعيتنا قدرتنا والشمس مازالت تلهب جلودنا وعيوننا دامعة من أشعتها الشديدة ، وقعنا فى حيرة شديدة فنحن لا نستطيع انْ نكمل سيرنا ولا نحن قادرين على العودة الى خارج الملاحات ، كانت مصيدة قاتلة لنا جميعا وبدأت أصوات الأنين تخرج ثانية تعيد أيام ماضية دون مياه قبل ان نقابل البدوي كريم الخلق وأيام ان كنا مدفونين مع الذئب القتيلة فى الكهف.

أصبحنا على وشك الهلاك ولا أمل أمامنا للنجاة وانا بدورى مثلهم غير قادر على السير وكف يدى اليمنى يؤلمنى من اثر الملوحة عالية التركيز ولا استطيع ان اهدأ من إحباطهم وخاصة ان صبيحة هذا اليوم كان حزينا فلقد فقدنا إنسانا عزيزاً علينا استمر معنا أياما طويلة وصعبة ومات بطريقة مؤلمة ومازال صدى صرخته وصوت إنفجار اللغم فى آذاننا وما أعقبها من عويل رابحة.

توقف بعضنا عن السير وقال عطية: خلاص إحنا مكتوب علينا الموت فى الملاحات وانا بدورى اشد حزنا منهم فلقد نسيت فى غمرة الاشتباك مع

الإسرائيليين ان أبدل زاوية سير البوصلة كما اخبرني ضابط الصاعقة الهمام ، لكن الله سلم ونحن على هذا الحال وبدأت أشعة الشمس تقل من حدتها استعدادا للغروب بعد ساعة تقريبا وعدم تسليطها على وجوهنا فاستطاعت أعيننا الحزينة البائسة ان تشاهد أشجار غرب القناة وكان هذا دافعا قويا لنا فأسرعنا السير وفى كل خطوة نخطوها لانتقدم بأكثر من عدة سنتيمترات من اثر الملاحات وتماسك الطين بأجسادنا الضعيفة.

الحمد لله .. قلناها جميعا عندما وصلنا الى منطقة الرمال شرق جسر القناة وشاهدنا المياه الزرقاء التى كنا نحارب من اجل ان نصل إليها منذ أربعة أسابيع وها نحن قد وصلنا بعد تلك الأيام العصيبة فى حياتنا وبعد ان فقدنا إنسانا عزيزاً علينا استمر معنا طوال تلك الرحلة بشرها وليس بخيرها سوى بعض الأعمال الشجاعة التى دُفعنا دفعا للقيام بها.

طلبت من جنودى التكتم فيما يتعلق بموت عامر وإننا سوف نبلغ عن وفاته كشهيد فله من الأسرة الكثير وهو رب لعائلة فلا نريد كما يقول المثل "موت وخراب ديار".. وافقونى على هذا الرآى ونحن لم ننساه رغم تصرفاته معنا ومعى بالذات فى الفترة الأخيرة ولكنى أعطيته العذر ، فمن هو الشاب الصغير الذى يستطيع مقاومة رغبة امرأة صغيرة وكدنا ان نصبح من ضحاياها مثل عامر.

شاهدنا عمال هيئة القناة وهم الأبطال الحقيقيين ، أنهم رجال شجعان وأبطال يستحقون التحية من الجميع فأسرعوا إلينا باللنش الذى حملنا الى الغرب بعد ان أهدوا كل فرد فينا خيارة تبلل فمه وأمسكناها بيدنا التى يغلفها طين الملاحات ولم نعبىء بتلك القذارة فقد بلغت القلوب الحناجر من الجهد والعطش والخوف ودفعنا بتلك الهدية القيمة الى أفواهنا دون ان نقطع بدايتها او نهايتها الصلبة نسبيا فنحن ليس لنا الخيار.

القارب يتجه الى الشاطىء الغربي للقناة ونحن لا نصدق ما نشاهده ونراه ونشاهد مبنى محطة السكة الحديد أمامنا مباشرة ونشاهد بعض الأشجار وخطوط التليفون الواصلة بين بورسعيد والإسماعيلية وننظر يمينا ويسارا ونشاهد مياه القناة الزرقاء وكأنها تخاطبنا (حمد الله علي السلامة .. لقد تأخرتم كثيرا لكنى انتظركم .. وهنيئا لمصر بعودتكم وسوف تستقبلون بما يليق بأبطال مثلكم) بعد لقاء دافىء سواء بالأحضان او القبلات ودون النظر الى القذارة التى غطت أجسادنا وملابسنا حيث كانت هيأتنا مزرية وغريبة المنظر .. عبارة عن كتل من الطين مثل تماثيل صنعت بالطين الصلصال ولم تهذب بعد وتغطى أجسادنا وملابسنا وتفوح منها الروائح الكريهة التى تماثل روائح مياه الصرف الصحى ونتحرك بصعوبة دون تركيز.

النتائج:

٢٨ يوما انسحاب ، وصولنا بأسلحتنا الى الضفة الغربية لقناة السويس

١- خسائر العدو: ٨ جنود فى معركة اللواء المظلى ، تدمير عربتان جيب واحتراق هليكوبتر

٢- معركة الشهيد وليم: مقتل أربعة جنود والتسبب فى تدمير ثلاث دبابات وطائرة هليكوبتر ومقتل عشرة إسرائيليين

٣- معركة فنطاس الوقود: مقتل عشرة واحتراق دبابتين وصهريج وقود

٤- خسائرنا .. استشهاد الجندى عامر

ملاحظة: بعد عودتى الى القاهرة بعدة أشهر التقيت مع احد الضباط المتخصصين فى الطبوغرافيا العسكرية "الخرائط" وشرحت له على الخريطة طريق انسحابنا .. طلبت منه قياس تلك المسافة .. قام بعمله ليتبين لى أننا سرنا مسافة تزيد عن ٩٥٠ كيلومتر !!

الجزء الثـــانى

الاستعداد لجولة جديدة

حُسن الاستقبال بالعودة

اقلنا القارب بمساعدة عمال الهيئة الى الشاطىء الغربى للقناة وقد ساعدونا على النزول منه فأعضاؤنا تيبست وأعصابنا ازدادت توترا وحالتنا الصحية على أسوأ ما يكون فمجهود السير ثلاث ساعات فى تلك الملاحات صعبٌ للغاية ، طوال الأربعة الأسابيع الماضية لم نعاني أثناء سيرنا مثل ما عانيناه في منطقة الملاحات ، ولكى نسير كنا نرفع أقدامنا من داخل البركة اللزجة بصعوبة وندفع بها الى الأمام كما ان منظر تلك الملاحات الشاسعة ذات اللون الأبيض من كثرة ما بها من أملاح وانعكاس أضواء الشمس على سطحها قد أثر بالتالى على نفوسنا بالألم واليأس.

كنا نستقل القارب وهو يمخر صفحات مياه القناة ذات اللون الفيروزى الرائع ونقترب رويدا رويدا من الجهة الغربية للقناة ويحدونا الأمل باستمرار انتصارنا على هذا المجهول القاسى الذى تعرضنا له وماذا سيكون عليه حالنا واستقبال المصريين والمسئولين لنا .. أكيد سيكونون فى منتهى السعادة والبهجة بعودة هؤلاء الخمسة من جحيم لم يشعر به سوى الذين لاقوا مرارته وتعذبوا بما لم يقابله إنسان سواهم كما إننا عائدون بسلاحنا ونقدم أنفسنا لهم ورهن إشارتهم.

أخيرا وصلنا الى الجانب الغربى للقناة وكان هناك عدد من الناس فى استقبالنا ملوحين لنا ونحن فى وسط القناة ومازالوا يلوحون وبمساعدة عمال الهيئة الذين حملونا على أذرعهم فلم يكن باستطاعتنا ان نصعد الى خارج القناة تاركين اللنش وقد ربطه العمال استعدادا لاستقبال آخرين قادمين تباعا.

نحن وقوفاً فى مبنى محطة سكة حديد "الكاب" والتى تطل من الجانب الشرقى على القناة .. ومن الجانب الغربى على طريق ضيق مرصوف ثم ترعة توصل مياه النيل الى بورسعيد كما تحيط بها بعض الأشجار .. يا لها من سعادة .. استقبلنا طبيب ومعه بعض المعاونين وهم يرحبون بنا طالبين منا التوجه الى

مسئول المخابرات أولا ثم بعد هذا سيفحصوننا ويقومون بالعلاج اللازم لأى مشكلة صحية نشكو منها.

حضر شخص يرتدى الملابس المدنية ليعرفنا بنفسه .. انه يتبع لمكتب المخابرات الحربية وانه سيتسلم منا سلاحنا وجلس على ترابيزة صغيرة من المخصصة للمدارس ومعه دفتر يدون الاسماء به ويكتب أمام كل اسم ملاحظاته .. يشير .. وأنت وهو مازال ممسكا بقلم جاف فى يده وينظر لأحدنا فيتقدم عطية ليخبره ببياناته من الاسم الرباعى والدرجة (جندى .. عريف .. رقيب .. وهكذا ..) ومعه زميل له نفس الهيئة بجسم قوى وسمين ويبلغه بالملاحظات (فقد مزيته السلاح وفرشة النظافة – بصوت مرتفع .. تخصم على المتسبب !!) ثم يشير بقلمه اللى بعده .. بنفس الطريقة السابقة وهكذا حتى بلغنى وترتيبى فى آخر المجموعة وعرفته بنفس البيانات وعندها قال حمد لله بالسلامة يا فندم.

لم يقلها لجنودى .. وكأنهم لا يستحقون منه تلك الكلمة البسيطة. خصم علينا جميعا القطع الصغيرة المرافقة للأسلحة ، حزن الجنود ولكنى هونت عليهم بأنها بسيطة ، عدة جنيهات وجزاء بالحبس ، هذا أهون من خصم دبابة او مدفع او طائرة !! سمعنا صوتا جهورى قوى صادر من داخل المكتب .."خلصت مع أولاد ....." قال لفظا نابيا سباب بالأم " يا عبدالقوى؟ أشار له عبد القوى وهو واقف .. خلاص يافندم وأشار على كتفه بما يعنى بوجود رتبه عسكريه ، كان رد فعل صاحب الصوت بالداخل .. إيه ياعنى خليه يورينى نفسه هو كمان .. هنا طلب عبد القوى منا التوجه الى مكتب القائد .. سيادة الرائد/احمد .. منتظركم .. معاهم يا عثمان (وأشار بيده وهو ممسك بقلمه لزميله عثمان) .. سار عثمان أمامنا ونحن نتبعه ونترنح ونرتعد من البرودة التى تسرى فى أجسادنا من البلل والمياه اللزجة والطين الذى يغلفنا حيث كانت جميع ملابسنا متسخة ولونها مابين

الأسود والبنى والأزرق كما ان ملامحنا لا تظهر مما علق بها وغطاها الطين الذى طمس أنوفنا وآذاننا وكل شيء لا يظهر منا إلا عيوننا الباردة التعسة لتلك الكلمات التى صدرت من سيادة الرائد وهو قابع بداخل المكتب.

دخلنا المكتب الذي هو في الأصل مكتب ناظر محطة السكة الحديد ، الرجل فى حوالى الثالثة والثلاثين من عمره ابيض الوجه مكتنز الجسد يرتدى قميصا حريريا نصف كم وبيده ساعة رولكس وأمام مكتبه علبة سجائر كنت وولاعة لسجائره وطفاية ويسحب أنفاس سيجارته بجانب من شفتيه.

. ايوه مين فيكم اسم الله عليه الظابط ؟ .. أشرت له بيدى

. ايوه يافندم: صاح بصوته القوى

. عرف نفسك زى ما تعلمت يا شاطر .. ترددت قليلا ثم قلت:

. ليه الكلام ده يافندم؟ كلمنى لو سمحت بالطريقة العسكرية .. وكأن ثعبانا لدغه فنهض من مقعده وهو يشير إلىّ بأصبع السبابة قائلاً:

ـ أنت يا حتة عيل حتعلمنى اكلم ازاى؟ نهاركم اسود النهاردة ، حضر الطبيب ودخل علينا طالبا منه ألا تكون أسئلته بتلك الطريقة مراعاة لظروفهم فهم في حالة سيئة منذ شهر او يزيد ، نظر إليه باستخفاف قائلاً:

. أتفضل بره وشوف شغلك انا مش بأدخل فى شغلك وأنت ملكش وجود هنا. خليك فى القطن والشاش بتوعك. خرج الطبيب صاغرا مستنكر هذا يردد:

. والله ده حرام .. يعيد الرائد:

ـ كنتم فين كل المدة دية يا ولاد الجزم؟ قاعدين تلعبوا فى سينا وسايبين البلد تضرب تقلب .. هنا حدثه الجندى عطية وهو ضعيف الصوت والبنية بالإضافة الى ما قاسيناه من تعب فى الساعات الأخيرة ومازال جسدنا يرتعد من البرد والألم لما حاق بنا من ملوحة منطقة الملاحات.

- إيه يا فندم الكلام ده .. نازل شتيمه فينا .. إحنا برضه ولاد ناس ومعانا ظابط زميلك .. لم يكمل حديثه إذ قام الضابط من على مكتبه قائلاً:

- إيه يا عبدالقوى جايب لى ولاد الكلب دوول وعليهم جله"روث البهائم".. تكلمت وانا محاولاً كظم غيظي.

. إيه الكلام اللى يفور الدم ده. بلاش غلط واحترم نفسك. نظر الى قائلاً:

. أنت بتشتمنى ياله. رفع يده يريد صفعى فأمسكت يده فنظر إلىّ قائلاً:

- يخرب بيت اهلك .. كده وسخت قميصى .. طيب .. هنا دفعه عطية ولكن الرائد صفعه على وجه فارتمى على أثرها أرضا صارخا من الألم فاندفع مصطفى ابن الإسكندرية يسبه بأقذع الشتائم فاتجه إليه ولكن الجندى عاجله بضربة رأس فى وجهه صرخ على أثرها فحضر معاونوه وأوسعونا ضربا وركلاً ونحن غير قادرين على الدفاع عن أنفسنا ولم ينتبه احد من الموجودين الى كنكة القهوة على وابور السبرتو المشتعل وأرضية المكتب من الخشب فاهتزت وسقط وابور السبرتو محدثا صوتا واشتعلت النيران بالمكتب وهنا اندفع عمال هيئة قناة السويس للدفاع عنا وقد طالتهم بعض اللكمات فسددوا بمثلها وأكثر وقد أصبحت الحجرة ساحة قتال مستخدمين كل ما يستطيع الإنسان ان يتشاجر به بين الصياح والسباب لهم ولمن أرسلهم لهذا المكان وقد شاهدت المعركة وانا مُلقى على الأرض بينهم وبين معاونى هذا الرائد الذى لم يحترم آدميتنا وشاهدته أيضا وهو ملقى على الأرض والدماء تغطى وجهه بينما يحاول البعض السيطرة على النيران التى اشتعلت بأرضية الحجرة من اثر سقوط وابور السبرتو.

توالى سقوط معاونيه فرداً فرداً وانتهت المعركة بسقوط عشرة من المصريين جرحى انا وجنودي الأربعة والرائد ومعاونيه من ضباط الصف الأربعة اما طبيب النقطة فكان يصرخ ساخطا ناقما على هذا الضابط واتصل بوحدة الشرطة العسكرية من التليفون الملحق بالنقطة الطبية.

تعاون رجال هيئة القناة لمساعدتنا لنقف على أرجلنا ولكننا كنا عاجزين عن ذلك فأجلسونا فى مكاننا مستندى الظهر الى الحائط ونحن مازلنا نرتجف مما أصابنا ومن برودة أجسامنا المبللة. اما الرائد فقد وقف مهددا متوعدا الجميع بأنه سوف يدخلهم السجن وقد أطلق بعض عمال الهيئة اصواتا بأفواههم تدل على الاحتقار له ولمن سيخبرهم متوعدينه بالانتقام منه لأنه خائن لوطنه.

بعد قليل حضر ملازم أول من الشرطة العسكرية ومعه بعض جنوده والطبيب يوضح له ما تم من اعتداء مجموعة المخابرات على هؤلاء التعساء"مشيرا إلينا" على حد قوله ونحن مازلنا بوضعنا المأساوى نرتعد برداً وألما لما حاق بنا ولم يمضى علي وجودنا نصف ساعة منذ عودتنا من سيناء بعد ثمانية وعشرين يوما.
تحدث ضابط الشرطة العسكرية قائلاً:
ده موضوع كبير ثم طلب من احد معاونيه ان يتصل بقيادته لاسلكيا ليخبرهم بما حدث فى محطة "الكاب" ولكن الرائد نهره طالبا منه اخذ رجاله من هذا المكان وتركهم فورا ولكن الضابط اخبره بان هذا عمله المكلف به وهو يقوم بتأديته ولا داعى للمزايدة وتوسيع رقعة المشاكل.

توالى حضور عمال الهيئة على ضابط الشرطة العسكرية للإدلاء بأقوالهم ومندوب الشرطة يسجل كل شىء ولكن أهم شىء قيل على لسانهم بأن ضابط المخابرات سب هؤلاء قائلاً: كنتم فين يا ولاد الكلب يا جيش عبد الناصر الجبان (الحقيقة لم اسمع تلك الجملة) وقد أيده زملاؤه ومندوب الشرطة يخبرهم بأنهم سيوقعون على تلك الأقوال الخطيرة وهم يبدون استعدادهم بان يدلوا بها أمام اى إنسان او محكمة والرائد احمد يصرخ فيهم.

حرام تكدبوا .. ولكنهم لم يعيروه اى اهتمام وهنا سبهم ثانية وشتمهم بأفظع الكلمات وقد أراد الرجال الهجوم عليه مرة اخرى ولكن رجال الشرطة العسكرية

منعوهم من ذلك وقد صرح الضابط موجها كلامه لضابط المخابرات كل ما قلته امامى سأشهد به وهنا لم يتمالك رجل المخابرات أعصابه فسبه هو وقيادته.

جاء احد أفراد الشرطة العسكرية ليخبر ضابطه بان الحاكم العسكرى لمحافظة بورسعيد اللواء فريد طولان طلب منهم إرسال الرائد إليه فى المدينة لمقابلته على الفور وان قيادة المخابرات الحربية سترسل من يحل محله وقد كان موجودا أثناء كل هذا ممثل الاتحاد الاشتراكي فى بورسعيد الذي ادلى بشهادة مطابقة لعمال الهيئة ، طلبنا الطبيب للعلاج وقد هدأ الرجل من روعنا وتسلم إشارة تليفونية من قيادته بان الحاكم العسكرى طلب من قيادة الرائد إيقافه عن العمل ووافقت قيادته وسيحول الى تحقيق فورى وقد أسعدنا هذا رغم ما ألم بنا من جراح فى أجسادنا ونفوسنا.

كتب الطبيب تقريره والذى يثبت فيه أننا أصبنا بكدمات فى الوجه والجسد وتسلخات فى أماكن كثيرة وأنهم فى احتياج للعلاج بالمستشفى وقد أرفق هذا التقرير مع كل ما قام به ضابط الشرطة العسكرية من تقرير وأسئلة الحاضرين وقد ابدي هو وجنوده تعاطفا معنا مستنكرين ما فعلة رجال المخابرات. حضر إلينا بعض رجال الهيئة بكمية من البرتقال نظرا لعدم وجود أطعمة معهم فشكرناهم ونحن مازلنا فى مرحلة عدم الوعى حيث تسببت أفعال وتصرفات رجال المخابرات الحربية معنا فى محو ذاكرتنا عما قمنا به من أعمال وبطولات يجب عليهم الافتخار بها ، تكلم مصطفي باكيا: تصوروا نبدأ الإنسحاب بالضرب علي قفانا وبالشلاليت عند جبل لبني وننهي الإنسحاب بالضرب بالشلاليت وعلي القفا ، إيه يارب إللي مستنينا؟

ملاحظة:

مارس ١٩٦٨ تم محاكمة رجال المخابرات وعوقب الضابط بالاستغناء عن خدماته والطرد وباقى العاملين معه من ضباط الصف بالطرد والحبس

حضر أتوبيس للجيش والذى يقل العائدين قادما من مدينة الإسماعيلية مرورا بكل نقاط جمع الشاردين وكنا آخر من سيقلهم لأنها آخر نقطة وبعدها بورسعيد .. ركبنا الأتوبيس وقد جفت ملابسنا فوق أجسادنا وبدأت القاذورات العالقة بنا تتساقط وشعرنا أننا اقل وزنا عن زى قبل مما كنا نحمله من الملاحات.

اما مندوب الاتحاد الاشتراكي الذي تعاطف معنا مثل الآخرين فقد كان المرافق لنا الى بورسعيد وقد حصل الرجل على بعض البيانات من جويلى سريع الحديث والذى لا يستطيع ربط فمه وقد قص عليه كل ما فعلناه والرجل يستمع سعيدا ولهذا وقف يحيينا ويتحدث عن أمجادنا بعد ان ضخم من خسائر العدو وضربها فى رقم عشرة وهكذا انقلبت الحقيقة الى كذبة لان هذا لم يحدث وكنت في حالة من الدهشة والإستغراب من أين حصل على تلك المعلومات الخاطئة محاولا تصحيح كلامه وكان يغطى على كلماتى بأنه لا داعى لإنكار أعمالكم المجيدة مقررا انه سيكتب هذا فى تقريره الذى سترسله أمانة الاتحاد الاشتراكى فى بورسعيد الى الأمانة المركزية بالقاهرة موصيا بترقيتنا الى الدرجات الأعلى وكل هذا الكلام بين تصفيق الجنود الآخرين الذين لا نعلم عنهم شيئا.

توقف بنا الأتوبيس أمام احدى المدارس الثانوية للبنات ببورسعيد وغادرناه الى داخل المدرسة وبرفقتنا مرشدين من العلاقات العامة بالمحافظة والشئون المعنوية للقوات المسلحة ، أرشدنا البعض الى حجرة لنستريح بها وهى فى الأصل فصل دراسى افرغ من محتواه وُفرشت أرضيته ببطاطين الجيش ذات اللون الرصاصى وشاهدنا بعض الجنود بتلك الحجرة كما حضرت بعض فتيات المدرسة وهن فى أعمارهن الصغيرة وبملابس التربية العسكرية التى كانت مقررة فى المدارس فى تلك الفترة عارضين على الجنود المساعدة فى كتابة خطابات لعائلاتهم او كتابة اى شكوى او مظلمة يرغبوا في إيصالها للمسئولين ، جلست

كل فتاة بجانب جندى ممسكة بورقة وقلم لتسطر خطابا من الابن العائد بعد غيبة لإبلاغ سلامه الى أهله مطمئنا إياهم علي أحواله.

حضر مندوب الاتحاد الاشتراكى الذى رافقنى من الكاب الى المدرسة متسائلاً: "أنت فين يا كابتن؟ بادور عليك فى كل مكان ، تعالى معايا علشان تروح مكان تجمع الظباط" . ودعت جنودى على أمل باللقاء فى وحدتنا ورافقت مندوب الاتحاد الاشتراكى الذى كان دمث الخلق ووطنى كريم ويراعى شعورنا خاصة بعد ما ألم بنا من مأساة الكاب على ايدى رجال المخابرات الحربية. هبطنا الى حوش المدرسة فإستوضح عن السيارة التى ستقلنى مخبرا إياهم بان ضابطا موجودا هنا على سبيل الخطأ ولابد من انضمامه لمكان تجمع الضباط حسب التعليمات ولكن احدهم اخبره بان السيارة الجيب أرسلت إلى مهمة عاجلة ويمكننى ان انتظر فى ضيافتهم الى ان تعود السيارة وتقلنى الى المبرة.

شاهد تلك المحادثة شاب فى مقتبل العمر وقد تطوع مستفسراً عن الخدمة التى يستطيع ان يقدمها لنا فاخبره مندوب الاتحاد الاشتراكى بان ضابطا (يشير الى) موجود هنا على سبيل الخطأ ونريد إيصاله الى مبرة أبناء الشهداء لينضم الى باقى الضباط حيث ان مكان تجمعهم هناك. ابدى الشاب استعداده لأن يقوم بتلك المهمة حيث يمتلك سيارة خاصة. قدموا شكرهم لمروءته واخبرنا احدهم بان الطبيب (....) "مشيرا جهة الشاب" يدرس بالسنه النهائية بكلية الطب وقد حضر متطوعا لخدمة الجنود مثل الكثير من زملائه. ودعنى كل الموجودين متمنيين لى الوصول بسلامة الله .. أفسح لى الشاب الطريق متقدما خطوات ليرشدنى الى سيارته وكانت من نوع (تاونس) مكشوفة (سبور) مثل الموجودة فى أفلام احمد رمزى .. وفتح لى الباب بكل ذوق رفيع وأدب جم وعرفنى بنفسه.

يقود السيارة فى شوارع بورسعيد النظيفة قليلة الزحام وأنوار المدينة تتلألأ والناس يسيرون قادمين عائدين وتبدو عليهم النظافة وحُسن الملبس وقد شعر

الشاب اننى انظر إلي هؤلاء بسعادة ودهشة ولهذا أبطأ من سرعة السيارة حتى يعطينى الفرصة للمشاهدة والاستمتاع بتلك المناظر التى اعجبتنى وهفا إليها قلبى بعد حرمان من الحياة الإنسانية أكثر من شهر ونصف ، أوقف سيارته أمام محل مزدحم برواده من الشباب ونظر الى متسائلاً: "تحب تشرب حاجه ساقعه؟ هتفت فى داخلى ياه .. أين بائع العرقسوس الذى كنت أتخيل ظهوره من خلف الهضاب والجبال محدثا اصواتا بصاجاته وينادى على بضاعته (خمير يا عرقسوس .. اشرب المتلج يا خمير) ثم يعقبها بطرقعة الصاجات" مازال الشاب ينظر الى منتظرا جوابى على سؤاله وقد غفوت عنه سارحا فى تأملاتى السابقة. أجبته:

"آه اشرب حاجه ساقعه" ابتسم معيداً سؤاله:

إيه النوع اللى تحب تشربه؟ سكت وصمت ولا اعرف اى الأنواع فكل شىء أصبح سرابا فايقظنى قائلا .."إيه رأيك فى شوب منجه".. سرح خيالى .. ياه .. منجه .. أجبته:

آه منجه .. اتجه الى المحل واحضر شوب منجه كبير الحجم واعطانى إياه قائلاً: .."أتفضل حضرتك".. آه على الخلق الرفيع النابع من المنشأ .. أمسكت بالكوب الزجاجى الذى لم أره منذ أكثر من شهر ولمست برودة الثلج التى لم اشعر بها قرابة الشهر والنصف إلا ليلا فى صحراء سيناء الشاسعة. ان كل شىء هنا له طعم ومذاق مختلف. ارتويت وأعدت له الكوب شاكرا. عاد وقاد السيارة قائلاً:

"عندك مانع ألف معاك فى البلد شويه تشوف الناس؟ انا شاعر انك عايز تلف وتشوف الدنيا". أشرت إليه بالموافقة. كنت اشعر كأنني طفل رافقه أبوه للنزهة بعد شفائه من مرض ألم به وأقعده بالمنزل أياما عديدة وهاهو يكافئه فرحا بسلامته وشفائه بتلك النزهة الجميلة. توقف الشاب أمام محل "آيس كريم" وقال لى بصوته رقيق الإحساس والمشاعر "إيه رأيك أجيب لحضرتك "آيس كريم" نظرت إليه وقد بدأت الدموع تجرى فى عيونى لفرط حُبه وصدق مشاعره الطوعية مع مقارنتها بما

لحق بنا من اهانة وسب وضرب من زملائنا فى القوات المسلحة على ايدى رجال المخابرات الحربية".

تركنى مسرعا ليحضر لى "أيس كريم" ولكن دموعى كانت اسبق من حضوره وشاهدنى الناس الذين يقطعون الطريق وقد لفت نظرهم منظرى وهيئتى التي تدل على عجزى وسوء حالتى وقذارة ملابسى وشعرى الملىء بالقاذورات من آثار الملاحات ، توقف البعض ينظر إلي ويتساءلون عما أصاب هذا الشاب من ألم وعن حالته وما سبب بكائه ، حضر الشاب الطبيب ليخبرهم بأنه عائد توا من سيناء وقد قضى وقتا عصيبة هناك وانتم تلاحظون حالته وقد تعاطفوا معى وسمعت سيدة تتحدث: "يا حبيبى يا ابني .. يا قلب أمك عليك .. يا ترى أمك عامله إيه دلوقتى؟".. لقد تذكرت الآن ان لى اما تحبنى وتنتظر عودتى ولى أب وإخوة كلهم فى شوق الى رؤياى كما انا فى شوق الى رؤيتهم .. مازالت دموعى تتفجر من عيونى كتفجر مياه عين ساخنة وأحاول ان أغلق تلك العيون او ان امنعها من البكاء دون جدوى وقد وجد الشاب أننا فى وضع سيء فقد التف الناس حولنا وكل دقيقة يزداد العدد على هذا الجندى الذى يبكى بكاء مستمرا ولهذا قاد السيارة مبتعداً عن الناس ووقف قريبا من قاعدة تمثال دليسبس قائلاً "هنا أروق وأحسن وفرج عن نفسك وإذا كنت شاعر بألم قوللى وانا أساعدك فنظرت إليه والى هيئته ونظافته وانظر الى ملابسى وما عليه حالى والأفكار والخواطر تتزاحم فى عقلى الصغير الذى لم يبلغ الثالثة وعشرين عاما. ماذا حدث لى؟ ماهى جنايتى وجرمى لأصل الى كل ما وصلت إليه الآن؟ اخرجنى من افكارى التعيسة قائلا: "ولا يهمك كله حيتغير ويتبدل بس انا مش عارف إيه اللى خلاك تبكى بالشكل ده أكيد فيه حاجه حصلت؟ قهر نفسى .. حاجه من النوع ده .. بكاؤك بيقول كده .. ممكن تقولى وإلا سر؟

أخبرته بقصة ما حدث لنا في الكاب بعد عودتنا واستقبال رجال المخابرات وقد اندفع الشاب هو الاخر فى بكاء حار وانا أحاول تهدئته دون جدوى وتكلم ويهذى ولكن ما عرفته من بعض ما قال: ليه إحنا بنعمل فى بعضنا كده؟ والله حرام .. ده شكل وإلا منظر بهدلة وشتيمه وضرب .. الله ينتقم منهم وقد هدأت نفسى بسرعة وانقطع تدفق الدموع بعد ان كاد الشاب ينهار هو الاخر ويلحق بى. اعتذر عما بدر منه قائلاً: لكن غصب عنى اعمل إيه ماهى حاجه تفرس وتجنن".

وصلنا الى المبرة واستقبلنا البعض فلاحظوا دموع عيوننا نحن الاثنين فهدؤا من روعنا مؤكدين لنا بأننا سنقوم بمعركة وننتصر فيها .. ودعنى صديقى المجهول او الملاك المجهول صاحب المروءة والأريحية والذى قلل من تأثير بركان الضيق الذى جثم علي صدرى منذ وصولنا الى الضفة الغربية لقناة السويس.

اتجهت الى داخل المبرة وهناك قابلنى طاقم من الأطباء والممرضين فاحصين حالتى وقد هالهم ما انا عليه سواء من الإصابة السابقة بيدى اليمنى او الإصابات التى حدثت عصر هذا اليوم وكان يغلب عليها التسلخات سواء فى الوجه او الجسد والكدمات التي بالوجه من اثار اللكمات التى تعرضت لها مع جنودى اما جسدى فكانت به الكثير من الكدمات من الشلاليت التى حصلنا عليها من مساعدى ضابط المخابرات.

طلب الطبيب مشاهدة قدمى فأخبرته اننى منذ شهر لم اخلع حذائى ولم أغير جوربى ولم استحم ولكنه لم يبالى بكل ما قلته له ، لسوء الحظ لم استطع خلع حذائى او الخروج انا منه !!!.. طلب من احد مساعديه قص الحذاء بالمقص وقد علمت بعد ذلك بان لهم تجارب سابقة بخصوص ذلك وفعلا قص المساعد جلد الحذاء وقد ظهر جوربى بلا لون ورائحته تزكم الأنوف ولكن الشىء اللافت ان قدمى كانت منتفخة ، قص الشراب أيضا وعندما شاهدت قدمى تملكني الخوف

لقد أصبحت مثل المرضى بداء الفيل كانت ضخمة وتهتز إذا تحركت كأنها بالونه ممتلئة بالمياه. اخبرنى الطبيب بأنه سيقوم بعمل فتحة فى كل قدم لإخراج المياه التى بها من عناء السير لمسافة ولفترة طويلة.

قطع فتحة فى باطن قدمى لم اشعر بها ولكنى شعرت والمياه تصفى فى حوض صغير معد لذلك ، كانت آلاما شديدة كأنها شطة حامية ألقيت بداخل قدمى وقد اخبرنى بدون ان اشتكى باننى سوف اشعر بـ .. كذا .. وكذا .. وهذا شىء طبيعى وسيزول بعد ساعة.

اخبرنى الطبيب بأنه سيفحصنى بعد ان احصل على حمامى وهنا تسلمنى احد رجاله بالمبرة وتوجهنا الى حجرة المهمات فتسلمت افرولاً جديداً وفوطة وجه وغيار داخلى وصابونة وجه وشراب وحذاء كاوتش. كل تلك الأصناف ذات الأحجام الكبيرة والتى لا تناسب مقاسى ولكنها أحسن مما انا عليه.

صعد بى المرافق الى حجرة كبيرة بها بعض الضباط الذي إذا شاهدتهم تشعر للوهلة الأولى بحالتهم من العيون الزائغة والحركات العصبية من حين لآخر ، أشار لى المرافق قائلا هذا سريرك وحضر نوبتجى العنبر ليخبره بان الضابط "أسامه الصادق" منذ الآن يصرف له كل شىء أسوة بزملائه وان هذا السرير خصص له وودعنى بينما اصطحبنى النوبتجى الى الحمامات تاركا لى الاستحمام براحتى وطالبا منى خلع ملابسى المتسخة ووضعها فى هذا البرميل وأشار الى برميل صاج موضوعا فى منطقة الحمامات.

انا بداخل الحمام لأحصل على أول حمام لي منذ شهر ونصف الشهر تخلصت من ملابسى الرثة التى وصفها طويل اللسان ضابط المخابرات"بالجلة" تخلصت من ملابس الجلة وفتحت الدش وانا غير مصدق لما انا فيه والمياه تندفع فوق رأسى وتحيط بجسدى وانا مازلت فى حلمى الكبير وأقول هل عُدت وقابلت هؤلاء القوم؟ هل تناولت مشروب المانجو الساحر وأكلت آيس كريم؟ هل انا هنا

واحصل على حمامى وسأبدل ملابسى التى لم تعد قذرة فقط ولكنها أصبحت شيئا آخر؟ كنت متخوفا بان يكون هذا حلما مثل ما حدث لى فى اليوم الخامس وهجوم أسراب الغربان على جسدى فى محاولة لافتراسي وانا ما زلت حيا.

مررت بالصابونة على جسدى وانا اشعر بأن جواليص طين وقاذورات تندفع الى البلاعة وأقول فى نفسى ستسد البلاعة مما علق بي من قاذورات كان يجب على ان أقف بحديقة المبرة وان يحضر الجناينى بخرطوم المياه ويرشنى به حتى اتخلص من تلك الشوائب العالقة.

انتهيت من حمامى وجففت جسدى واستبدلت ما كنت ارتديه بملابس جديدة. صحيح ان الملابس الداخلية فضفاضة وواسعة لكنها نظيفة ولبست الافرول برائحته المميزة للقماش الجديد حيث تكون كرائحة النشا. ألقيت بكل اوساخى فى هذا البرميل واحتفظت برتبتي العسكرية القماش رغم قذارتها. اتجهت الى الحجرة الكبيرة ومنها الى السرير جالسا فوقه مستندا بظهرى ناظرا امامى ومن حين لآخر انظر الى جيرانى الذين ينظرون الى وكاننى شىء غريب عليهم. السكونُ مطبق على الجميع لا حديث ولا ضحكات.

حضر مندوب المبرة ليخبرنى ان الطبيب فى انتظارى. ساعدنى المندوب فى الهبوط للدور الأسفل حيث كنت غير قادراً على السير الطبيعي مثل باقى الناس لما ألم بقدمى من فتحات فى باطنها. استقبلنى الطبيب مرحبا وأعاد الكشف على جسدى بالكامل وعالج جروح يدى وكدمات ظهرى ووجهى ولكنه اخبرنى بان التسلخات وأثار اللكمات ستظل باقية لعدة أيام وستمحي بمرور الوقت ، طلب مني نزع ملابس الجزء العلوي ، فعلت هذا وتفحص جسدي وكان في دهشة ثم طلب من مساعده عمل أشعة لي ووزني علي الميزان ، سمعت المساعد وأنا أقف فوق الميزان يحدث الطبيب ٣٤كيلو ٨٠٠ جرام . نظر إلي الطبيب وقادني جهة المرآة متسائلاً : إزاي أنت عايش لحد دلوقت .. دا العضم والجلد يدوب ده وزنهم

أنا في دهشة طلب مني النظر في المرآة لم أكن أتوقع بأن تلك حالتي ، جميع العظام واضحة تغطيها كساء من الجلد، عظام القفص الصدري واضحة ويمكن لأي شخص أن يقوم بمعرفة عددها، اما عن الكوع والركبة فكانت عبارة عن كورة من العظم مغطاة بالجلد، حزنت لحالي ولم أكن أشعر بأنني وصلت إلي تلك الحالة الصحية المتأخرة.

وجهنى بعد هذا لطبيب الأسنان الذى فحصنى وأزال بعض الجير المتراكم على اسنانى وضروسى من جراء الحرمان من الطعام فترات طويلة ثم طلب من احد مساعديه مساعدتى فى العودة الى سريرى. جلست على سريرى وحضر مندوب الطعام ليقدم لكل سرير صينية وعليها بعض السندوتشات من المربى والجبن والزبادى وكوب شاىُ محلى باللبن.

حضر المسئول عن العنبر ليخبرنا بان الوقت قارب من العاشرة وعلينا الانتهاء من الطعام حيث ستطفىء الأضواء فى العاشرة حسب التعليمات. أتناول طعامى دون شهية فكل شىء غريب على سواء نوعية الطعام او نظافتى الشخصية او السرير المريح الذى أنام عليه ، كلها أمور مخالفة لما عشت عليه فى ايامى السابقة كما ان المحيطين بى ادخلوا الخوف والرعب الى قلبى من نظرات عيونهم الزائغة.

أثناء تناول الطعام سار احد الضباط بين "الأسرة" مرتديا بيجامه مثل الباقي بخلافى مستفسرا من كل واحد عن اسمه ورتبته وهو غير مسئول عن ذلك بل هو نزيل مثل الباقى. جاء الدور على. وحينما علم باننى ملازم رفع صوته مناديا مندوب العنبر وجاء الرجل مسرعا وتوترت اعصابى ولا اعلم سبب في هذا وأشار إلى المندوب قائلا له:

ازاى يا مغفل تجيبوا زبالة "يشير الى" زى ده وتخلوه ينام معانا ، أسرع المندوب ليخبره باننى استحممت وغيرت ملابسى ، عاد وقال كل الموجودين هنا ضباط

كبار رائد فأعلا تقوم تجيبو المفعوص ده ويبقى رأسه برأسنا. هزلت وبقت ميغه .. خده بره من هنا .. وقف المندوب وهو شخص مدنى ينظر الى وانا انظر إليه والى المجنون الذى يتحدث وقد أيده بعض زملائه وكان احدهم اقل اندفاعا فقال"مش معقول كده .. ظابط صغير زى ده تشوفوا له حته تانيه .. ونظر لزملائه مستفسرا .. مش كلنا رائد فاعلا . أشاهد من يزوم مؤيدا وآخرين يهزون برأسهم دلالة على الموافقة.

تحير المندوب وأعاد حديثه: دى أوامر وتعليمات الحاكم العسكرى كل الظباط فى المبرة وماقلش حاجه عن حكاية الرتب. اعمل إيه دلوقتى؟ يصيح هذا المجذوب: اتصرف مش ممكن يبيت هنا .. هأ..هأ.. خلاص. عيلت. كنت اسمع وأشاهد وانا مازلت جالسا والسندوتش فى يدى ولقمة واحدة قضمتها فى فمى وقد توقفت عن المضغ والتصرف منتظر ما يقرره هؤلاء القوم فى شأنى وعقلى تائه ولا اعرف أيه حكاية الظابط الصغير اللى عامله دوشه وألم مع كل من أقابله منذ لقائى فى بداية الانسحاب عند جبل لبنى حتى الآن حتى الصول عبد الراضى رحمه الله استكبر على شخصى الضعيف ان أقود الجنود فى بداية انسحابنا وعين نفسه قائدا أعلا لمجموعة المنسحبين المنهزمين. صرخ الرجل مشيرا إلىّ "انا ومندوب العنبر" انتم لسه قاعدين قوم فز أنت وهوه.

فجأة سمعنا صوتا قويا مثل الانفجار ، هنا صرخ من بالعنبر جميعا قائلين غارة وارتموا تحت الآسرة يرتجفون صارخين من طائرات العدو ، وجدت نفسى وحيدا فى العنبر ومازلت جالسا فوق سريرى ولم أتحرك لسبب لا اعلمه ولكن لاحتمال المهاترة التى حدثت امامى وبخصوصى او ان حكاية الغارة لم تكن شيئا جديدا على شخصيا ، تنبهت لما انا فيه وهم جميعا مختبئين تحت الأسرة وكلهم ارفع منى منزلة ورتبة كما يتوهمون وكيف لا أتصرف مثلهم فهم أصحاب العلم والخبرة وأبناء الملائكة اما امثالى الذى خلقه الله لكى يشعر كل من يقابله بأنه

شيء تافه لا قيمة له ، تركت ما فى يدى وانا انظر للمندوب الذي كان ينظر أن الحق بموقعى تحت السرير أسوة بهم والرجل مبتسماً مشيراً الى عقله بما يعنى أنهم مساكين. صاح المندوب قائلاً :

إنتهت الغاره .. ترك القادة الإنبطاح أسفل الأسرة وعادوا الى مواقعهم

علمنا بعد هذا ان صوت الانفجار الذى اعتقد الجميع بأنه غارة جوية انما ناتج من ارتطام البرميل الصاج الذى يحوى المهملات من ملابسنا القذرة وبعد ان فرغه عامل النظافة وأعاده الى مكانه لم يضعه برفق على أرضية الحمامات ولكنه سقط منه أرضا فاحدث ذلك الصوت المدوى الذى أخاف القادة الكبار. عاد إلى القائد الرافض لوجودى وهو يصدر لى أمرا. اخرج بره العنبر .. فاهم .. تدخل احدهم قائلاً : نرفق بحاله ونتركه ينام فى البلكونة وقد استحسن الباقون هذا الحل ولهذا حملت بطانيتى واغراضى وطعامى وذهبت الى البلكونة لأكمل نوم العراء لليوم التاسع والعشرون حتى وانا فى بلدى وبين أهلى يحرمنى من هم اكبر منى رتبة من هذا الحق الطبيعى.

هذه المرة لم احزن او أتضايق فقد رأيت بعينى وشاهدت ماهم عليه. صحيح ان حالتى الصحية مؤلمة ولكن عقلى واتزانى مازال سليما اما هم فلا حول ولا قوة. جلست ليلتى مُسهدا وانا أشاهد أضواء النجوم ومن حين لأخر تهب على رأسي نسائم البحر تدغدغ حواسى ولكن الشيء الذى كان يؤلمنى هو الهرش فقد تخلصت من أشياء لصيقة بجسدى تعودت عليها ليل نهار والآن أصبحت غير موجودة. أين القاذورات الشخصية التى كانت عالقة بنا طوال تلك الفترة وعرقنا الغزير الذى ترسب فى ملابسنا وأصبحنا مثل الأغنام التى تشم رائحتها النفاذة ولا تتضايق منها وعندما يقصون أصوافها تنتابها لعدة أيام حالات من الضيق تحاول تعويضها بان تنام مكان إخراجها حتى تعود رائحتها السابقة إليها بأقصى سرعة.

غالب النوم جفونى بعض الاوقات ولكننى كنت استيقظ على أصوات عالية تطالب بالماء ويسرع المشرفون على العنبر باحضار أكواب من الماء ويضع كل من المصابين الكوب على الأرض بجوار سريره وقد استيقظ احدهم يريد شرب الماء ونسى انه وضع كوبه فى الجهة اليمنى ومد يده للجهة اليسرى ليشرب ولكن صاحب الكوب علي اليسار تشاجر معه وقام زملاؤه المصابين من نومهم مذعورين ليحكموا بينهم وهذا مؤيد لهذا وهذا معارض لذلك وانا اسمع وأشاهد من بلكونة الحجرة ضاحكا ومتألما فى نفس الوقت.

شعرت ببرودة شديدة قبيل الفجر وتلصصت واسترقت النظر الى موضع سريرى الذى غادرته راغباً فى العودة إليه ولكن ما شاهدته من حالة القاطنين بالحجرة يدل على أنهم على استعداد ان يفعلوا اى شىء فهم كما يصفهم القانون "ناقصى الأهلية" وهو ما يحرم الإنسان من صحة التصرف فى ممتلكاته ويطلقون عليه اسما آخر"الصبى الغير مميز" وهو الأصغر من سبع سنوات. كانوا رجالا كبار الحجم ولكن عقولهم كانت فى جهات أخرى بسبب ما اصابهم من الحرب ومن النتائج المخالفة لما كان قد رسخ بعقولهم من القيادات. فهم الأقرب الى القيادات العليا عن شخص فى رتبتى الصغيرة .. لكن الشىء الذى ترسب فى ذهنى منذ مقابلة العميدين "جلال وحلمى" ثم شيخ العرب الذى كان يحتفظ برتب كثيرة ولم يعرض على تلك الخدمة مؤكدا ان التعليمات تأتيه بذلك ثم مقابلة رجال المخابرات الحربية وهنا بالمبرة .. أيقنت انه لا مكان لمثلى بين تلك القيادات الكبيرة ويجب على ان اعد نفسى لهذا .. وما الذى يجب ان اعد نفسى عليه .. انك يا أسامة وأمثالك "لا شىء" .. كمالة عدد مثلك مثل الجنود ويجب ان اقترب منهم فهم مثل حالى و ما اختلف عنهم فيه هو اننى اضع رتبة على كتفى ويطلقون على شخصى الضابط واحمل مسئولية لا يحملها الجندى .. لكن هم انا .. وانا هم.

ليلا شعرت برغبة فى التبول ولكن أين؟ .. لقد أغلق احدهم علي باب البلكونة الزجاجى لشعورهم بالبرد ، تحاملت على نفسى بصعوبة بالغة حتي الصباح ، فى الصباح ايقظنى مسئول العنبر مندهشا كيف أنام هكذا ومن اصدر لى تلك الأوامر؟ فاخبرته بما حدث وقد حزن الرجل لهذا "ووبخني"على انصياعى لهذه التعليمات بينما كان يجب على ان اخبرهم واعرفهم بما طلبه منى زملائي فى هذا العنبر .. حتى الرجل المدنى وبخنى على القهر الذى حدث لى .. وقد أخبرته بأنهم ليسوا زملائى فانا اقل منهم درجات وقد شعر بأنه أساء لى بدون قصد فاعتذر وسألنى ان رغبت فى إيصال الأمر الى المسئولين اضحكنى هذا وقلت: ليس على المريض حرج .. وقد راقه هذا التعليق شاكراً تسامحى وهذا ليس تسامحا منى ولكن ما باليد حيلة فلقد شعرت بالقهر منذ اليوم الاول للانسحاب.

اصطحبني الى الدور الأرضي لتناول طعام الإفطار فقد تأخرت عن موعده وهم هناك منذ أكثر من ساعة يتناولون طعامهم. يكمل حديثه: بعد الإفطار عليك التوجه للحلاق. سرت معه وهناك فى المطعم أراد الرافضون لي التحدث واعتراض وجودى ولكنه كان حاسما أمامهم قائلا سيادة المحافظ موجود وحاعرفه باللى عملتوه امبارح مع الظابط الصغير ده .. فاهمين ؟ صمتوا جميعا خوفا من محافظ بورسعيد والذين يعلموا عنه الكثير عندما كان قائدا للبعض منهم. تناولت طعام افطارى وذهبت للحلاق وانا اعد الساعات والدقائق لأهرب من هؤلاء القوم الكارهين لوجودى متمنين ألا أكون قد عدت لهم من سيناء. هذا ما روادنى واعتقد انه غير حقيقى ولكنه إيحاء نابع بأنه فى كل خطوة اشعر باننى غير مرغوب فى شخصى. انه لشيء صعب على النفس خاصة مع صغر السن وعدم الخبرة.

أسرعت الى الحلاق .. كانوا مجموعة من الحلاقين وجاء حظى مع رجل كبير السن مثله مثل الآخرين وكأن حلاقي مصر وُضعوا جميعا فى قالب واحد فخرجوا منه على تلك الهيئة من الحكاوى والأحاديث الطويلة. الرجل يعتني بشعرى

عناية لم أعهدها من قبل فى حياتى السابقة ويسألنى أخلى القصة والفرقة. يمين وإلا شمال وانا أريد منه الانتهاء حيث اجبرنى على ان أكون أسير محاضراته مايقرب من النصف ساعة محركا رأسي يمينا ويسارا كأنه يحرك دركسيون سيارة مستخدما القوة والعنف ويضع يده على رأسي وفى كل مكان بدون مبالاة وانا اصرخ من اصابات الأمس فيقدم اعتذاره ثم يعيدها وكأنه أعجب بصوتى ونغماتى وانا أتأوهه ألما.

اعتذر عن حلاقة ذقنى الخفيفة من الشعر لأن وجهى كله إصابات وتسلخات ولن يستطيع ان يقرب الموس منها ثم جاء بعطره الغير معروف وعندئذ أخبرته قائلاً : بصراحه يا اسطي انا ما معاييش فلوس بلاش تكلف نفسك. توقف عن عمله وحديثه أيضا ثم ترك قفايا وغير وضعه ليقف امامى قائلاً : بنبرة حزينة وكلها مشاعره صادقة. انا يا بيه مُكلف بالشغل هنا .. ومش عايز فلوس لا سمح الله لكن تصدق بالله. انا بأقص شعرك وانا فاكر ابني ممدوح. ربنا يجيبه بالسلامة .. أصله أتجند فى أول ألسنه وراح مع اللى راحوا الحرب وكل شعره بأقصها منك باقول امتى يرجع ابني من الحرب وأقص له شعره زيك.

بكى الرجل وجاء زملاؤه يحيطون به ويخبرونه بان ابنه سيعود مثل هؤلاء الذين يعودون كل يوم .. ولكن الرجل ظل يبكي ورافقهم الى مكان جلوسى قائلا لهم: بالذمة مش البيه ده شبه ابني؟ يطيبون خاطره مؤيدين قوله .. يعود الرجل بعد ان جفف دموعه قائلا: لى شفت ازاى انا حبيتك؟ أنت تعرف عمال افكر وأقول فى نفسى إيه؟ اقول للبيه الى قدامى لو ييجى يزورنى فى بورسعيد حتى لو كل كام شهر. يمكن المقسوم والقدر يحرمنى أشوف ابني تانى وتكون أنت العوض. ربنا يخليك لأهلك ويفرحوا بيك زى ما انا منتظر ابني وبافكر أسعده وأشوفه عريس.

"نعيماً" .. قالها ووقف امامى ينظر الى وسامتى وقيافتى ليتأكد من اننى على ما يرام وعلى أحسن ما يكون. اقترب منى هامسا قائلاً: قلت ليا انك مش معاك فلوس .. خد دول يا ابني ولو سمحت انك توافق انى أقولك كده .. احتضنته وانا أقاوم رغبة قوية للعودة للبكاء وقلت له ولا يهمك يا بابا .. انا ابنك زى ممدوح وربنا يسهل ويرجع بالسلامة واوعدك لو فيه وقت وظروفى سمحت حآجى بورسعيد واشرب الشاى معاك وازورك. احتضننى ثانية ومازال يمد يده لى ببعض فكة الجنيه "ربع جنيه وبعض العملات الفضية" شكرته فنظر الى معاتبا .. يعنى عشان فقير مش عايز تسعدنى وتاخد الملاليم دول؟ أجبته اوعى تقول كده .. بس انا حاستلم مرتب شهرين النهاردة "مايو ويونيو" وقبلته وسمعته وانا اغادر المكان قائلاً: متتساشى .. اسمي "عليوه" .. اسأل عن الأسطى عليوه المزين دكانى جنب الشامى بتاع البسبوسة الكل عارفنى .. ودعنى وهو غارق فى سعادته وانا غارق فى أحزانى لتلك المقابلة المؤثرة على اعصابى التى لم تعد تستطيع ان تتحمل ما اقابله من مواقف وأحداث.

تركت غرفة الحلاقة وفى بهو المبرة فوجئت بمحافظ بورسعيد امامى والذى صافحنى متسائلاً عن اى مشاكل قابلتها وما يستطيع ان يقدمه لى من خدمات ثم توقف فجأة وطلب الطبيب الذى أسرع بالحضور موجها سؤاله إليه عن الإصابات التى فى وجهى وهنا تدخل مندوب الاتحاد الاشتراكى الذى كان برفقته هو وبعض معاونيه بان قال له "ماهو ده يا أفندم الظابط بتاع أمبارح اللى بتوع المخابرات أتعدوا عليهم بالضرب وزى ما حضرتك شايف اثار عمايلهم .. توتر المحافظ لاعنا هؤلاء مستفسراً من مساعده العسكرى عما تم بخصوص هذا الموضوع والذى علم به بالأمس فاخبره المساعد بان إدارة المخابرات استبدلته بآخر وانه علم ان الإدارة سحبته الى القاهرة تنفيذا لقراركم كحاكم عسكرى بايقافه عن العمل لحين التحقيق معه .. اخرج الرجل أجندته الخاصة وكتب فيها بعض ملاحظاته ثم اخبر

مساعده قائلا لو ما تابعتش الحكاية دية حتحصله .. فاهم يا سيادة العميد؟ هنا انتفض العميد مخبرا المحافظ بان هذا الموضوع من أولويات اهتماماته .. أعاد الرجل اعتذاره لى وهنا تذكرت شيخ العرب الذى كان يحتفظ بعدد كبير من القادة لإعادتهم الى مصر وما يطلبه من الإمدادات الغذائية .. فأخبرت به المحافظ .. فنظر المحافظ الى سكرتير عام المحافظة مستفسرا منه عن هذا الموضوع وقد اخبره بأنه أرسل بعدد من اللنشات الى منطقتهم منذ ثلاثة أيام. نظر الى المحافظ متسائلا عن موعد لقائى بهؤلاء البدو وقد أخبرته ان هذا من عشرة أيام او يزيد. هنا اطمأن المحافظ على ان الرجل وصله ما طلبه معيدا أوامره الى مساعده بمتابعة تلك الإمدادات ثم ودعنى مصافحا لاستكمال جولته فى المبرة.

الساعة الواحدة تناولنا طعام الغذاء "سندوتشات خفيفة" وحضرت أتوبيسات لتقلنا الى محطة القطار ليتجه بنا الى القاهرة مع تخلف القادة الذين كانوا معى فى العنبر والذين رفضوا مجرد مبيتى تلك الليلة معهم وقد سألت مندوب العلاقات العامة عنهم وأجابنى بسخرية قائلا أنهم منذ أكثر من أسبوعين بهذا العنبر ويتذرعون بالمرض والجنون والطبيب لا يملك إلا ان يبقيهم حتى يستعيدوا حالتهم الصحية وأكمل حديثه قائلا"العملية كلها بكش".

ركبنا الأتوبيسات وحضر بعض عمال شركة بورسعيد للمنسوجات يقدمون هدايا تذكارية للمقاتلين العائدين من جبهة القتال وهى عبارة عن علم بورسعيد وعليه اسم الشركة مطرزاً بفن وبطريقة جميلة. سارت بنا الأتوبيسات وكنا نشاهد المحافظ يتابع أحوال الجنود والضباط أثناء وقوفه بالشارع ومعه بعض مساعديه.

فى محطة قطارات بورسعيد شاهدنا المحافظ بها وقد سبقنا الرجل إليها ليتأكد بنفسه من ان كل شىء على ما يرام.

تحرك بنا القطار الحربى من بورسعيد متجها الى القاهرة وبعد ان ابتعد عن المدينة شاهدنا قناة السويس التى عبرناها من الشرق الى الغرب وكل واحد فينا

ينتظر اليوم الذى نعود فيه عابرين القناة من الغرب الى الشرق ، ترى هل يأتى ذلك اليوم؟ انها أمنية كل واحد منا ، نشاهد سيناء من شباك القطار والبعض يدعو الله ان يعمى إبصار اليهود عنا لان اى دبابة تستطيع بعدة قنابل ان تحولنا جميعا الى قتلى وجرحى ولكن الله سلم ولم يحدث شىء وها نحن ندخل مدينة الإسماعيلية والتى كانت هادئة مع انتشار بعض الدبابات فى الشوارع مستغلة الأشجار للاختباء بها بعيدا عن أعين الطائرات المعادية.

انضم إلينا بعض العسكريين من الإسماعيلية وتحرك القطار الى القاهرة مرورا بمدينة أبو صوير ثم القصاصين ثم التل الكبير ثم أبو حماد والزقازيق ومنيا القمح ثم بنها وها نحن على أبواب القاهرة فى حى شبرا بعد قليل وصل القطار الى محطة مصر حوالى السابعة مساء وغادر الجميع القطار كل الى غايته وكانت غايتى هى إدارة المشاة فى العباسية فى باب (٣) وهو الشارع المؤدى الى قيادة المنطقة العسكرية المركزية والذى يقع على مدخله الآن مبنى كهرباء الريف التابع لوزارة الكهرباء حاليا وكانت المنطقة فارغة بدون مبانى سوى كلية الشرطة وكان هذا الشارع مخزنا للترام ومخيف ليلا وبعده منطقة خلاء او معسكرات حتى مستشفى الأمراض العقلية والباقى صحراء.

سلم نفسك لوحدتك فوراً

غادرت القطار الحربى ويجب ان يطلق عليه قطار الإهمال مع ألاف من الجنود والضباط الى أين هم سائرون لا اعلم ولكنى اعلم جهتى وبغيتى .. وقفت فى ميدان رمسيس انظر الى هذا الفرعون الشامخ هذا الجد الكبير الذى أذاق الهكسوس مرارة الهزيمة فى معاركة على يد القائد العبقرى أحمس. أتفقد ملامحه وأقول فى نفسى يارب تمن علينا بواحد من أحفاده يعيد عظمة اجدادنا ويرفع الهوان الذى لحق بنا على أيدي هؤلاء الاعداء لله ولنا نحن العرب والمسلمين.

اقترب منى جندى شرطة عسكرية قائلاً : واقف هنا ليه يا دفعه؟ روح وحدتك عشان لو أتأخرت لحد بالليل حيتقبض عليك. شكرته منفذا التعليمات وكأنما شعر باننى عائد لتوي من جبهة القتال لنزولى من القطار الحربى وما انا عليه من هيئة تدل عليها اصابتى.

ابتعدت قليلا افكر. كيف سأصل الى ميدان العباسية. انا لا املك نقودا. ولا مليم كما كنا نقول فى ذلك الزمان الذى كانت العملة تبدأ بالمليم ولا نعرف اى شىء من العملات الكبيرة الآن وكانت اكبر عملة هى الورقة ذات العشرة جنيهات. اما اكبر من هذا فلم تكن العملات قد استوت ونضجت لتصل الى فئة العشرين والخمسون والمائة جنيه .. عبرت الطريق الى الجهة الأخرى الى شارع الفجالة حيث يسير به الترام متجها الى العباسية وانا أقدح ذهني ولم اعثر بعد على حل يعفينى من الخمسة مليمات ثمن نصف تذكرة من رمسيس الى العباسية. ركبت الترام وبعد قليل جاء الكمسارى ووقف امامى قائلاً: تذكرة يا دفعة .."لم أتعرض سابقا لمثل هذا الموقف فى حياتى".. بصوت خفيض ومبحوح مقتربا منه. مش معايا فلوس .. لم يمهلنى الرجل حيث صرخ فى وجهى .. الله يخرب بيوتكم جبتولنا النكسة وكمان جبتولنا الفقر!!!

انتبه البعض من الجالسين وقد شاهدوا جنديا ضعيف البنية وكل وجهه كدمات وجروح وقد تضايق احدهم قائلاً: "إيه يا ريس بتزعق له كده ليه؟ ده غلبان مش شايف حالته؟ متزعلشى يا ابنى. تذكرته عندى" أراد ان يقدم الرجل ثمن التذكرة وشعرت لحظتها بسعادة كبيرة باننى تخلصت من هذا العبىء ومن حديث الكمسارى السىء ولكن الكمسارى شكره قائلاً "خلاص ولا يهمك يا دفعه خليك راكب ومتزعلشى منى اصل إحنا اتكوينا باللى حصل. صحيح أنت ذنبك إيه؟ لا حول الله على رأى المثل حالى يغنى عن سؤالى".

جلست أرضا لعدم مقدرتى على الوقوف ولكن البعض أفسح لى مكانا لأجلس فيه وتأثروا لما انا عليه من عدم مقدرتى على السير وهم ينظرون الى واحدهم يسألنى. ده من الحرب؟ ده من اليهود المجرمين أولاد الكلب؟ اللعنة عليهم واخرج احدهم حبة جوافة من كيس من الورق الأصفر من أكياس الاسمنت والتى كانت تعبأ بها الفواكه والخضروات لتعطى للناس صلابة الاسمنت قائلاً لى: خد يا ابنى .. بل ريقك .. سعدت بها وكأنها عزومة عامرة قد هبطت على وشكرته وقضمت الحبة فى قضمتين وأراد الرجل ان يكررها بواحدة اخرى ولكننى شكرته وقال احدهم الدفعة جعان يا ولداه. ثم أعقبها بكلمة "ربنا معاكم يعملها الكبار ويقع فيها الصغار بتوع أول امبارح السلام عليكم" ، غادر الترام وهو يرثى لحالى وبعد قليلٍ فرغ الترام من راكبيه ووصل الى محطته النهائية وجاء الكمسارى ليخبرنى بأننا آخر الخط مقدما اعتذاره لى مرة أخرى وممسكا بيدى لمساعدتى على النزول من الترام الى الأرض.

الحمد لله .. قلتها وانا سعيد فها انا قد عبرت محنة ركوب الترام بقليل من الألم النفسى ولقد تعودت على الاهانات ونحن فى سيناء. سرت متجها الى باب تلاته والذي يبعد حوالى خمسمائة متر عن ميدان العباسية وانا امنى نفسى بلقاء ممتع ونومه هانئة تسبقها وجبة دسمة تعيد الى جزءًا من قوتى وعافيتى التى

تهاوت خلال تلك الرحلة التى اقتضت شهرا أليما. اننى ذاهب لبيتى الكبير .. إدارة سلاح المشاة .. بعد مجهودٍ مضنى بالسير بعض الوقت والجلوس على الرصيف بعض الوقت للحصول على راحة من آلام قدمى التى مازالت تخرج منها بعض المياه منذ الأمس وكأن جرحا غائرا أسير عليه حتي وصلت الى باب تلاته والذى يغلفه الصمت والظلام. تحيرت وانا اقف أمام الإدارة وكيف ادخل الى هذا المبنى الضخم العتيق وإذا بأحد جنود الحراسة يحضر قائلاً: ايوه يا دفعه .. مالك .. عايز إيه دلوقتى؟ جلست أرضا أستريح لأحصل علي بعض الراحة وأخبرته برتبتى وهنا احترمنى الجندى قليلا مما ادخل البهجة الى قلبى وقلت فى نفسى اخيراً ستحترم "يا أسامة".

أخبرت الجندى بالغرض الذى حضرت من اجله فافادنى بان أعود فى الصباح لأن جميع الضباط غير متواجدين ، تهاوت كل قلاع الأمن والسعادة .. الى أين اتجه الآن؟ .. لقد قابلت ما قابلت من اجل ان احضر الى هذا المكان وأخيرا لا أجد أحدا هنا .. سألته بصوت هامس مافيش مكان أبيت فيه للصبح؟ هز الجندى رأسه بأنه لا توجد أماكن هنا. سألته وميس المشاة والذى اسمع انه فندقا "فقيرا" مخصص للضباط. اخبرني انه حُول لأشياء أخرى تخص الحرب. أسأله: الى أين اتجه الآن وانا من خارج القاهرة وجوعان وليس معى اى مليم. سكت الجندى ثم قال الجوع ممكن أديلك تعيينى لكن غير كده ما اقدرشى. شكرته عائداً الى ميدان العباسية لعل الله يرزقنى من عنده.

حادثت نفسى التى هى طوعى وتسمعنى وتريحنى وتطيب خاطرى ، الحمد لله ان فيه هوا وميه .. وصلت بعد جهد الى ميدان العباسية والذى كان شبه فارغ إلا من سيارة تسير كل عدة دقائق فقد اختفى البشر رغم ليالى الصيف بالقاهرة .. الى أين اتجه؟ .. سألت احد المارة عن الساعة فاخبرني بأنها قاربت علي الحادية عشر ثم أشار الى قائلاً: استخبى عساكر البوليس الحربى بيمسكوا كل العساكر

اللى زيك. سعدت بهذا الخبر فسوف أجد طعاما ومأوى لى حتى الصباح ولكن جنود الشرطة العسكرية أبوا ان يلقوا القبض علىّ وخاصة أنهم يسيرون بجوارى وأتعمد ان الفت نظرهم دون جدوى وقد قررت ان أهاجمهم. اثنان يمران امامى مباشرة. اتجه إليهما. مساء الخير: احدهم يجيب مساء الخير يا دفعه. أحدثهم قائلا: والله انا متأخر عن وحدتى وعايز منكم تقبضوا على لحد ما تسلمونى. نظر إلىّ أحدهم قائلاً : أنت عسكرى فى الجيش؟ أجبته ايوه امال. اجاب الاخر اركن هنا لحد الصبح لأن كل الأماكن مليانه عساكر ومافيش أماكن تانية. زميله ضاحكا خليك "كنجى" ومعناها فى الخدمة العسكرية الدور الثانى.

كنت شاعراً بالخوف والرهبة من الناس فما حدث لى بالأمس في منطقة الكاب والإعتداء علينا واليوم من حديث كمساري الترام دفع بى الى الابتعاد عنهم لشعورى بأنى مطارد ومكروه من الجميع وإذا احتجت الى شرب المياه لا اتجه الى المحلات التجارية او القهاوى لهذا الغرض بل كان امامى موقف أتوبيسات هيئة النقل العام فشاهدت برميل صاج يملأ بالماء لتزود به الأتوبيسات لملىء اوعية التبريد فكنت اتجه لهذا البرميل لأشرب منه واضعاً كف يدى اليسرى والعق الماء رغم قذارتها ورائحة الجاز وزيوت الأتوبيسات عالقة بها.

تركتهم حزينا ، حتى الشرطة العسكرية رافضة إلقاء القبض على. توجهت الى مبنى المؤسسة الاقتصادية للقوات المسلحة وكان وقتها مبنى قديم متهالك وجلست على سلمه ليلا فى الظلام لأغفو حتى يحين الصباح وأنسى الجوع ثم اذهب الى إدارة المشاة. ركنت رأسي على الحائط ورحت فى نوم عميق رغم شعورى الشديد بالجوع. استيقظت على صوت غليظ وشىء ما يدفعنى فى كتفى. فتحت عينى فشاهدت شابا ممسكا بمطواة" قرن غزال" ويصرخ فى وجهى قائلاً: طلع ياد يابن الكلب اللى معاك لادبحك. كنت اعتقد أنهم جنود اسرائيليون وهجموا علينا بين النخيل فرفعت يدى صامتا(علامة الاستسلام) .. صرخ ثانية .. إيه ياله

الملعوب اللى بتعمله معايا. أنت فاكرنى من بتوع السيما. لم يمهلنى حيث فتش كل جيوبى وقال يخرب بيت اهلك. دا أنت عسكرى "مقشفر" ولكننى أقسمت له بالله اننى نظيف ولست "مقشف" ضحك منى وقال طيب اقعد. بتعمل ايه هنا ياله؟ أخبرته باننى ذهبت الى وحدتى وعلمت أنهم سافروا وقال لى الضابط تعالى الصبح وانا غريب. يجيبنى وأنت غريب كمان؟ أجبته اى والله غريب ومن الساعة واحده مكلتش حاجه وجعان. يحدثنى بصوته الخشن: وله"ولد".. هو انا خلفتك ونسيتك ومالك وشك متشلفط كده ليه ومنظرك يخوف؟ تركنى سائرا وفوجىء بشاب أنيق يغادر سيارته فاخرج المطواة وطلب منه جنيه وانا سعيد بأنه ابتعد عنى وعثر علي فريسة أخرى. اخذ الجنيه من الشاب ونظر إلىّ قائلا جبنه لحلوح بحاله .. يخرب بيت فقرك.

سار وابتعد عن ناظرى وبعد قليل شاهدته قادما فى اتجاهى مرة ثانية فأردت ان اترك المكان واهرب وأختبيء خلف صناديق القمامة المجاورة خوفا منه فقال: خليك فى مكانك .. مش بأقولك وش فقر .. توقفت وشعرت لحظتها ان مصر وسيناء كلها كارهة لى وتطاردنى وغلبنى اليأس ووقفت انتظر قدومه وانا لا اعلم كيف أتصرف فكل شيء ضدى حتى بوضعى هذا وانا اقرب الى القطط الهائمة بجوار أكوام القمامة لا أجد قلبا رحيما يأخذ بيدى. جلست ثانية لأنتظر ما يخبئه لى القدر.

وضع لفافة امامى قائلاً: "كل" سألته ماهذا ؟اجابنى مش بتقول جعان ولضيان .. اتصرفت وخدت من الواد الخنفس جنيه ورحت جيبتلك سندوتشين كفته بـ تمانين قرش وباقى عشرين قرش .. كل .. كل .. (يهزنى فى كتفى صائحا) كل ياد مالك خايف كده ليه .. خليك سجيع!!! ثم قال : خمسه وارجع بكوبيتن شاى توزن دماغك .. غادرنى وانا متخوف .. هل آكل ما احضره من مال حرام ام انتظر لباكر؟ لم استطع الصمود أمام رائحة الكفته وحالة الجوع التي أنا عليها ،

كنت التهم السندوتشات مثل القطط الجائعة التى تحاول التهام اكبر كمية من الطعام وتزوم لتخيف الآخرين .. انا الاخر .. كنت الهث وانا أتناول تلك السندوتشات ، عاد صديقى اللص حاملا كوباين من الشاى ونظر الى قائلاً: يخرب عقلك لحقت تاكل السندوتشات ثم صرخ : إيه ياد أكلت حته من الورقة الملفوف بيها السندوتش .. ياه دا أنت باين عليك الغلب .. دا انا الى ببيت فى الشارع أحسن منك على كده .. أجبته فعلا أنت أحسن منى .. تناولنا الشاى واخرج علبة سجائر كليوباترا من الحجم الصغير ومطبقة وحالتها رثه .. فسألته : ليه أنت مبهدل العلبة كده ومخبيها فى شرابك؟ فاخبرنى بانه لم يفعل هذا ولكن الزبون اللى لطشها منه كانت مدفوسه فى هدومه ومطبقها "واصله لمؤاخذه كان نتن ومعفن والميه مخاصمه جتته" وأعقبها بضحكه عنترية .. إذن السجائر انضمت الى السندوتشات والشاى وكله فلوس حرام .. احدث نفسى أخيرا يا أسامه بعد ما ربنا أنقذك أكلت حرام .. ثم عدت الى رشدى حرام وإلا حلال يعنى أسوأ من حالتى اللى انا فيها الآن .. ياه على الظلم والألم اللى الواحد بيقابله حتى فى بلده .. ليه كله صعب فى صعب.

فجأة توقفت أمامنا سيارة شرطة "بوكس" ونزل منها شاويش ومعه جنديان والشاب الذى سطى عليه صديقى اللص وأشار قائلا: هما دول الحراميه يا حضرة الصول .. امسك بنا الجنديان ولا اعرف كيف وجدت نفسي لاصقا فى ظهر كابينة البوكس بعد ان طرت فى الهواء من دفعة احدهم لى والدماء تندفع من فمى وانفي حيث من شدة دفعة المخبر لى ارتطم وجهى بكابينة السيارة .. عادت بنا السيارة الى القسم "قسم الوايلي" .. غادرنا البوكس الى مكتب الضابط النوبتجى والمخبر ممسك بياقة الافرول لا اعرف كيف عصرها فى يده حتى شعرت بالاختناق رغم انه افرول فضفاض وكنت أشمر البنطلون والأكمام حتى استطيع السير .. استقبلنا المساعد(الصول) كبير الحجم غليظ القول والذى اخرج كل

قواميس رجال الشرطة من البذاءات على صديقى اللص .. ثم اتجه الى قائلاً: ما أنت يا ابن الرفضى" وقد اضحكنى هذا التعبير رغم ما انا فيه من حالتى حيث تذكرت الشاويش عطية فى فيلم ابن حميدو مع إسماعيل يس واحمد رمزى" فتضايق قائلاً: بتضحك .. لك نفس تضحك .. أبشرك ان بكره حتيجى الشرطة العسكرية تستلمك .. ثم تحولك الى النيابة العسكرية .. سكت فتذكرت نفس الفيلم .. فقلت ثم .. اجاب ثم المحكمة العسكرية .. ثم الإعدام رميا بالرصاص .. إحنا فى حرب وأنت عسكرى فى الجيش عامل تشكيل عصابى وبتسرق الناس بالإكراه مستخدما السلاح الأبيض ياجزمة يا ابن الجزمة .. نهار أبوك اسود ومطين على ليلتكم يا أولاد الابالسه بقالنا أسبوعين ما فيش مشاكل ومستريحين .. الشياطين اتخمدت.

جاء جندى يطلب من حضرة الضابط النوباتجى إرسال المتهمين لرئيس المباحث .. انفرجت أسارير الشاويش عطية"جمعه القناوى" وهذا اسمه ومشهور بعم جناوى .. ياله ياولاد الابالسه البيه رئيس المباحث سهرتكم معاه الليله حنسمع التسقيف اللى على القفا للصبح .. دفعنا الجندى من رقابنا الى مكتب رئيس المباحث ووقفنا أمام شاب فى الثلاثين او يزيد يرتدى الملابس المدنية وتذكرت حادث الكاب واستقبال المخابرات لنا فأيقنت إنني هالك ولا بد من ان أفصح عن شخصيتى.. أشار الضابط الى الجندى مستفسراً منه عن حالتى والدماء التى تملاء وجهى وفمى ثم طلب منه اصطحابى لكى اغسل وجهى من اثار الدماء.

عاد بى الجندى الى رئيس المباحث فمهد الرجل لحديثه قائلا: عسكرى فى الجيش وبيسرق وأيام الحرب شفتم المصيبة قاطعته .. لو سمحت .. وأخرجت رتبتى العسكرية القماش من جيبى .. فنظر إليها قائلاً .. قتلت ضابط جيش واخدت رتبه .. اجبته انا الملازم أسامه الصادق وجئت اليوم من بورسعيد .."وقصصت رواياتى أمامه" ثم قال (وهو يشير الى صديقى اللص) وأنت اسمك إيه ..

فاجابه .. فوزى خضر .. سأله عن اسم الشهره .. أجابه دبوس .. ضحك الرجل وقال يعنى عايز تعرفنى انك سرقت علشان الضابط ده جعان .. كويس كده.

ينادى :عسكرى .. جاء الجندى فأمره بان يأخذ دبوس"مشيرا إليه" خده لحجرة الضابط النوبتجى ومحدش يقرب له فاهم ، أشار الى بالجلوس .. ثم قال .. حمد لله بالسلامة .. انا غير بعض ضباط الشرطة اللى واخدين موقف من الجيش لان فكرى كبير وليس هناك تعارض بينا ولا منافسه ومش معقول النملة حتنافس الفيل الجيش حاجه كبيره وإحنا هيئة شرطة وشغلنا فى داخل الجمهورية لكن شغلكم على الحدود ومع الدول ، على فكرة انا ليا أخ زميلكم بس هو كبير عنك وعنى .. اخويا الكبير فى سلاح المدرعات .. نظر الى مكتبه ساهما قائلا: ربنا يرجعك بالسلامة يا وليم يا خويا.. سألته مندفعا .. قصدك وليم شفيق؟ .. انتبه الرجل الى سؤالى قائلا ايوه .. أنت تعرفه؟ .. ماهو انا عاطف شفيق .. شايف اسمي على المكتب .. لم اجبه ولكننى قلت له اقراله الفاتحة .. نظر الى بضيق وذهول .. يعنى إيه؟ .. تقصد إيه؟ .. انه مات .. أجبته .. مش باقصد .. هو مات فعلا بس قبل ما تتفعل حزنا وألما اسمع منى قصة استشهاده.

ياه .. قالها وهو يضرب يده على مكتبه قائلاً: تصور أول واحد مسلم اسمعه يقول على واحد مسيحى مات فى الحرب انه استشهد .. طيب كمل وانا أسمعك .. قصصت عليه ما حدث يوم أنقذنا أربعة من سلاح المدرعات كاد ان يقتلهم اليهود بدهسهم أحياء تحت جنازير دباباتهم كما حدث مع من قابلناهم قبل ذلك وبعد ان فككنا أسرهم عرفنا بنفسه وبزملائه .. رائد وليم شفيق قائد ك(....) دبابات وملازم أول مصطفى خيرى قائد ثان سرية دبابات .. رقيب ابراهيم فتحى حكمدار دبابة ورقيب أول سعيد لطفى رقيب أول سرية دبابات .. ثم أكملت حديثى معه باننى لاحظت انه "دق وشم" على يده برمز الصليب وقد أيدنى شقيقه كما أخبرته بمواصفاته مذكراً إياه بان لون الشعر والعيون العسلى يجمعهما .. عاد

الرجل بكرسيه الى الخلف دامع العين مردداً .. ياه يا وليم عملت كده؟ .. دمرت تلات دبابات وأسقطت طياره هليكوبتر ومات فى دول اربعتاشر واحد من أولاد الملاعين .. انا فخور بيك .. أيدته فى هذا قائلا فى تلك الظروف يقام احتفال ولا يقام تأبين .. اجابنى .. كلامك مظبوط .. لو الوقت مش متأخر كنت كلمت "ماما " وبلغتها الخبر السعيد كمان كلمت "روز" مراته وعرفتها .. انا مبسوط .. انا سعيد وقام من مكتبه يقبلنى ويحتضننى بكل سعادة قائلاً: أنت النهاردة ضيفى .. صحيح الفقد مؤلم ولكن كل الناس حتموت .. لكن بصحيح أنت قلت ليا اقرأ الفاتحة .. ممكن تقولها لأني طبعا مش حافضها .. اعتذرت له بأننا كمسلمين نقول هذا القول فى مثل تلك الظروف .. نفى ان يكون متضايق او حزينا ويعيد رغبته طالبا منى قراءة الفاتحة أمامه .. فعلت وكان يقرأ كل أية خلفي وبعد ان انتهى .. قال انا مش شايف انها فيها حاجه تخوف ان اى واحد مسيحى يقولها تحوله لكافر وكمان كلها بتتكلم عن ربنا او ما نسميه بالرب.

طلب الجندى الموجود على باب مكتبه ان يحضر له صاحب الشكوى .. حضر الشاب واخبره الضابط برغبته لو وافق ان يعطيه الجنيه الذى سُرق منه فى مقابل ان يتنازل عن شكواه ولكن الشاب اخبره بأنه يريد معاقبة المجرمين وأيده الضابط مضيفاً بأن ما قام به المتهم من اجل السرقة كان لهذا الضابط الصغير العائد حاليا من جبهة القتال(يشير الى) وهو جوعان فدفع بهذا اللص لأن يكون إنسانا ورحيما به وسرقك واحضر له طعاما. تأثر الشاب قائلاً تنازلت عن المحضر وسوف اذهب الى والدتى واطلب منها إعداد طعام لأقدمه لهذا الجندى الجوعان والذى دفع بالخارج على القانون الى ان يقف معه ويسانده. شكره الضابط على شعوره النبيل قائلا سأقوم انا عنك بهذا العمل ويكفيك انك تتنازل عن حقك. هنا حضر الى الشاب مصافحاً معتذرا بأنه اخطأ الظن بى وبمن ساعدنى وترك القسم بعد ان تنازل عن المحضر وخرج "دبوس" من تلك المشكلة ووقف أمام

الضابط وتعهد بأنه سيسلك طريقا شريفا ولن يضع نفسه مرة أخرى فى مثل تلك المواقف شارحا بان ما تم الليلة هو درس له وقد وعاه وفهمه وان هناك ألافاً من الشباب المصرى يموتون من اجلنا ونحن هنا نسرقهم ونهددهم .. ودعنى دبوس مصافحا ثم فوجئت به يقبلني ويحتضننى وفعلت مثلما فعل بل كنت أكثر سعادة منه.

قام الضابط عاطف ناهضا وفتح حجرة جانبية قائلا ستنام فى سريرى حتى الصباح واقوم بتوصيلك الى إدارة المشاة .. أنت صديق وحبيب آخى وآخر من رآه واخبرتنى بتلك الأخبار السعيدة المفرحة .. كنت اندهش وانا اسمعه يتحدث هكذا وقد تنبه الى ذلك وقال .. ألاحظ انك مندهش لهذا الشعور الذى يملؤنى فرحا باستشهاد آخى .. بعد ان تنتهى حياتى ويختارنى الرب الى جواره هل سأكون قدمت لوطنى مثل ما قام به وليم وزملاءه .. أجبته بالنفى .. قال إذن لى الحق ان افرح .. كنت سأحزن لو مات بدون ان يفعل شيئا ولكنه قام بعمل مجيد وأنت وجنودك شاركتم فيه .. أجبته نافيا ذلك وبأنه ومن معه هم الذين قاموا بذلك. ولكنه أشار بيده رافضا كلامى قائلاً: لو لم تنقذوا أخى وزملاءه فما الذي كان ينتظرهم من مصير؟ أجبته كانت الدبابة ستدهسهم . اجاب إذن أنقذتموهم من دهس الدبابة لتعطوهم الفرصة لان يكبدوا العدو تلك الخسائر التى هى ثأر لباقى المصريين الذين لاقوا حتفهم بدون ان يفعلوا شيئا .. أربعة شهداء أمام أربعة عشر وثلاث دبابات وطائرة .. لقد رقد بجوار يسوع والقديسين .. آه عليك ياأخى وليم .. وطوبى لمن كان معهم .. صرخ فى الجندى طالبا منه اخذ السيارة والوصول الى مطعم كذا (....) وإحضار وجبتين من الطعام وعدد الأصناف التى يرغب فيها وجميعها تحتوى" كبده وكفته والسلطات وبعض المياه الغازية" .. أمضينا ليلتنا نتحدث ونأكل وحدثنى قائلاً: ان حياتى كلها جد فى جد وليست حياتى كما ترانى الآن هكذا ولكن ما حملته لى من أخبار أثلج صدرى وسوف يسعد عائلتى.

أخيرا بعد مرور شهر منذ انسحابى أقضى ليلة سعيدة سواء من استقبال شقيق الشهيد الذى اشعرنى باننى وزملائى لا نقل بطولة وشجاعة عن شقيقه وزملائه كما أقام وليمة ممتعة كنت أتشوق إليها واعتبرها دربٌ من الخيال ونمت على سرير مريح بعد ان عانى جسدى الهزيل من الام النوم بالعراء فى الصحراء وتحت تأثير الطقس المختلف الحرارة ليلا ونهارا .. استيقظت حوالي العاشرة حيث اخبرني بان موعد عمله انتهى وسيحضر زميل له ليتسلم مهامه وانه الآن مستعد لتوصيلى الى إدارة المشاة .. تناولنا طعام الإفطار واخبرني انه كان يستعد لتناوله مع والدته ويخبرها بخبر مفرح وحزين فى آن واحد (فقد ابنها وشجاعته أمام الاعداء) ولكنه فضل ان يتناول إفطاره معى وكأى شخص مصرى يكون فخورا بان يقضى اكبر فترة من وقته برفقة مقاتل جسور ساعد الآخرين وكان سببا رئيسيا فى قلب كفة الشهداء الأربعة من موت بدون عائد الى موت بنصر يفرح كل إنسان وطنى غيور على بلده .. شعرت بأنه راغب بأن أتناول طعام افطارى قبل ان أصل الى إدارة المشاة حتى أكون قادرا على مواجهة هذا اليوم الجديد فى حياتى وكانُ محقا فى ذلك.

اتجهنا الى إدارة المشاة وقبل ان اغادر سيارة الشرطة اخرج من جيبه ورقة مالية واعطانى إياها ، رفضت هذا ولكنه صمم وأخيرا بعد ان اقسم بروح الشهيد وليم ان اقبلها وتصبح ديناً على ومرفقا بها اسمه ورقم تليفونه لأسعدهم بزيارتهم ومقابلة الأسرة خاصة أمه التى ستكون فرحة بان تقابل آخر من شاهد ابنها الشجاع. شكرته وتبادلنا القبلات والتحية وعاد الى منزله مودعا لى بكل حب دافىء بين اثنين من المصريين جمعتهم ظروف صعبة وتصادقا على ذكرى عزيزة على كل إنسان وهى روح الشهيد البطل وزملائه .. وضعت الرتب القماش على كتفى وحيانى الجندى أمام الإدارة واتجهت الى الداخل فقابلنى ضابط صف مستفسرا منى عن الخدمة المطلوبة وبإيجاز أخبرته بعودتى من سيناء أمس الاول.

طلب منى التوجه الى مدير شئون ضباط السلاح الرائد/صلاح أبو سريع .. بعد السؤال توجهت الى المكتب والذى يقف على بابه جندى وعلم اننى أريد مقابلة سيادة الرائد فطلب منى الانتظار ودخل إليه ثم عاد قائلا أتفضل يافندم سيادة الرائد فى انتظارك.

دخلت المكتب وشاهدت الرائد صلاح جالسا والذى استقبلني بكل بشاشة وترحاب وهنأني بسلامة العودة قائلاً: ايوه يا بطل همتك أنت وباقى رجالة مصر عشان نرد القلم اللى خدناه على خوانه .. حتسلم نفسك لوحدتك فوراً .. وقعت على كلمة فورا كصاعقة مؤلمة ، تحاورت معه بقليل من الكلمات .. أفندم انا من اكتر من شهر ونصف لم أقابل اهلى ولا يعلمون فى اى مكان انا.. حى ارزق ؟ او انتقلت الى جوار ربى .. أريد بضعة أيام .. طقطق بفمه دليلا على ان هذا لا يجب مكملا حديثه عيب راجل يقول كده .. رن جرس التليفون وكان المتحدث ضابطا برتبة كبيرة وكان هذا باديا من اهتمام الرائد صلاح بالرد عليه واحترامه وهو يحادثه بلقب حاضر يافندم .. حضرتك تؤمر.. ايوه .. وصلت من كام يوم .. عشرة أيام حمدالله على السلامة .. طيب أجهز جواب استلام العمل .. حضرتك بتقول امتى .. أسبوعين كمان .. حاضر عينيا .. تأمرنى .. طيب أبعت لحضرتك الجواب وإلا حد حييجى يستلمه .. حاضر .. مع ألف سلامه .. مع السلامه .. وضع سماعة التليفون وهو بادي السعادة كأنه سمع أغنية رائعة لام كلثوم .. ثم تنبه الى وجودى .. فصرخ قائلاً: أنت برضه لسه واقف .. روح على مكتب الصول رجب خليه يعملك جواب عودتك لوحدتك .. طلب الجندى الذى كان يقف على الباب قائلاً: روح مع حضرة الضابط للصول رجب وخليه يكتب جواب عودته لوحدته اليوم .. وحدته الكتيبة ٣٥٢ مشاه فى الشلوفه .. ثم أشار الى بقلمه"ناهرا" روح مع العسكرى ورجب حيقوم بالواجب .. حاولت الاعتراض

ولكنه أمرني بصوت قاطع .. أتفضل انصراف يا حضرة الضابط .. أديت التحية العسكرية صاغراً متبعا الجندى المراسلة الى مكتب الصول رجب.

لا ادري كيف كنت أسير حيث كنت اهذى بداخلى خاصة بعد ما سمعته من الضابط الكبير الذى عاد من عشرة أيام ويريد أكثر منها حتى يستريح اما انا فلابد من عودتى فورا وانصراف وإشارة بقلمه بطريقة باردة بعيدة عن الاحترام .. تمنيت من الله ان يقبض روحى ويخلصنى من هذا العذاب .. اهانة واحتقار والاهم الظلم البين .. غطت دموع الظلم عيناي وتوقف صوتى وشعرت ان قلبى سيتوقف عن النبض. مازلت اتبع الجندى واحدث نفسى باشارات من يدى.

وقفت أمام الصول رجب .. حجرة قديمة مهملة بها الكثير من الأوراق يجلس على مكتب من الصفيح قديم ومتهالك وبجواره "شنن"حديدى لحفظ الأوراق اما رجب فهو ضخم الجثة وبدين للغاية ويرتدى افرولا لا اعرف من أين أتى بهذا المقاس واعتقد أنهم افرولان وفتحهم على بعض حتى يتمكن من تغليف جسده الضخم كما وضع منديل اصفر"كاكى" من صرفية الجيش على رقبته لمنع تلوث الافرول من العرق الغزير الذى يهطل من جسده السمين وبجواره على الجانب الأيمن فوق الشانون حلة ألمنيوم وبها "طبيخ" فاصوليا بيضاء وعدة أرغفة خبز "جراية" من المخصص للجيش لتقوية الأسنان والمعدة على هرس الطعام وتكوين جدار اسمنتى بجسم الجنود لما يضاف إليه من الشوائب خاصة الرمال .. وزمزمية مياه وعدد من حبات البصل الجاف .. تحدث بعد ان حصل على أنفاسه المتلاحقة والتى يأخذها بصعوبة. ايوه أتفضل أستريح .. جلست على كرسى قديم خشيت ان يسقط بى أرضا فساعدت على انتصاب الكرسى بقدميى .. أشار الى الحلة قائلاً "بسم الله" .. شكرته .. فقال:

حاضر حاكتب جواب تسليمك لوحدتك .. سألته .. ألا نحصل على أجازات؟ ضحك قائلاً: حتشبع أجازات فى وحدتك. أول ما توصل حتاخد كام يوم. آمال

هما عارفين انك راجع من سينا. على طول حتاخد أجازة حلوه وأبقى ادعيللى. ناولنى الخطاب وهو ممسك به وكل أصابعه معطرة وملونه من طبيخ الفاصوليا الذى يعشق ان يضع الخبز بداخل الحلة وان تغوص أصابعه الى عمقها لاحتمال البحث عن لحوم او اسماك فى قاعها. قرأت الخطاب وسألته .. إيه؟ .. "الشلوفه"؟ فنظر الى قائلاً: ده مكان وحدتك بعد رجوعها من سينا. قلت أنا مش عارف الشلوفه؟ ضحك الرجل وبالتالى اهتز جسده الضخم فاهتز الشنن وحلة الفاصوليا. تحدث ضاحكا بسخرية ياه ظابط ومش عارف الشلوفه!! بكل ضيق وصوت مرتفع: ايوه مش عارف الشلوفه فين؟ أجرمت غلطت. حضر الرائد صلاح مسرعا على صوتى المرتفع مستفهما من المساعد الذى أراد ان يقف ترحيبا به فكادت مأدبة الطعام تسقط أرضا لولا ان الرائد طلب منه الاستمرار وعدم النهوض وعرف منه بانني لا اعرف موقع الشلوفه. كان رجب يوضح للرائد صلاح هذا الجهل بعدم معرفتى للموقع بطريقة ساخرة ولكن الرائد صلاح كان حازما إذ قال له وإيه العيب فى كده؟ ضابط صغير ومرحش الأماكن دية نقوم نتريق عليه ونتكلم معاه بالشكل ده بدل ما نساعده.اخذ الخطاب منى قائلاً: اتبعني يا أسامة .. تبعته الى مكتبه فليس لى خيار وهناك أشار الى خريطة على الحائط موضحا قناة السويس ومدينة السويس ثم منطقة الشلوفه وهى شمال السويس بعدة كيلومترات. وقع على الخطاب وزيله بخاتم النسر وأعطاه لى قائلاً على محطة كوبرى الليمون وتلحق بالقطر الحربى لحد السويس .. حيقوم بعد ساعه .. ياله يابطل ربنا معاك.

هكذا وجدت نفسى خارج إدارة المشاة ومعى خطاب بتسليم نفسى فى اليوم السابع من يوليو عام ١٩٦٧ .. سرت فى الطريق المؤدى الى ميدان العباسية وقد جاوزت الساعة الثانية عشرة ظهراً وشمس القاهرة ساطعة ملتهبة وانا أسير قليلاً واجلس كثيراً .. توقفت سيارة مرسيدس بجوارى وهتف من بداخلها .. مالك يا

ابنى .. تعبان؟ أجبت على الصوت الذى يحدثنى وكان صوتا نسائيا. ايوه تعبان مش قادر أمشى. أشارت الى سائقها الذى نزل من السيارة وعاوننى على الركوب بجانبه .. سألتنى السيدة وكانت متقدمة فى العمر ويظهر على وجهها الصلاح والمستوى الراقى اجتماعيا. ده أنت ظابط! رايح فين نوصلك؟ أجبتها محطة كوبرى الليمون .. سألت السائق هل تعرف هذا المكان فأجاب بالإيجاب فأمرته بالتوجه الى المكان المطلوب .. كنت افكر هل اعرض على السيدة نقودا مقابل تلك التوصيلة .. وما هو المقابل .. سيارة مرسيدس ملاكى بسائق .. كانت السيدة تتحدث كل فترة ثم تصمت ثم اندفعت فى بكاء شديد والسائق يحاول تهدئتها .. ربنا يرجعه لنا بالسلامه .. ثم مال على وهو يحدثنى وقال: البيه ابن الهانم زميل لكم ظابط ملازم أول ولسه منعرفش حاجه عنه لحد دلوقتى .. وكل يوم نلف على المستشفيات ورحنا إدارة سلاح المدفعية ومافيش فايده.

تتحدث السيدة الام والتى تخيلت وتذكرت امى الآن وهى تسأل من تعرفهم وهى التى لا تملك سيارة ولا سائق وجليسة فى مدينتها بالزقازيق .. تسألني متعرفش حاجه عن ابنى يمكن تكونوا تقابلتم سوا؟ .. اسمه مدحت من المدفعية .. اعتذرت لها باننى من سلاح آخر ولا اعرف عن المدفعية وان سيناء كبيرة وانا يا دوب وصلت من أول أمبارح .. تربت السيدة على كتفى وهى تقول حمدالله على سلامتك .. ياه أظن مامتك طارت من الفرح لما شافتك .. أخبرتها وانا حزين باننى لم احصل على إجازة ومطلوب منى ان اسلم نفسى الى وحدتى فورا .. استاءت السيدة وهى تقول طيب مش تعرفهم فى البيت .. طيب كلمتهم فى التليفون .. اخبرتها بان هذا لم يحدث لأنه ببساطة لا نملك بالمنزل تليفونا. اجابتنى طيب مافيش تليفون جيران .. صمت قليلا .. فلم يتبادر الى ذهنى هذا وأخيرا اخبرتها بتليفون خالى فى عمله الحكومى حيث يتقلد منصبا رفيعا .. كتبت

رقم التليفون واسم خالى واسمى وقالت ان شاء الله أول ما ارجع بيتى حكلمه يعرفهم انك بخير .. ربنا يسوقك يا مدحت يا ابني وأعادت بكاء الأم ونحيبها.

وصلنا الى محطة كوبرى الليمون وغادرت السيارة بين تلويحها لى وهى مازالت دامعة العين وانا الاخر أشعر بان بعض الدموع تجرى في مآقي عينى وقد هدأت من ضيقي رافضا هذا التصرف الصبيانى متسائلا كل شويه عياط وبكاء. لا لا يجب ألا يكون .. ان هذا تصرف طفل وليس تصرف رجل .. ورجل عسكرى قوى المراس. مازلت أتابع السيارة بعيونى وانا أدعو من كل قلبى لهذه الام ان يدخل الله السرور الى قلبها وابتسمت وانا أتابع اللوحات المعدنية لأرقام السيارة حيث كانت المفارقة انها تحمل رقم العام الذى ولدت فيه .. اى عام ١٩٤٤.. وقلت فى نفسى فأل طيب كما يقول الناس الطيبين.

توجهت الى القطار الذى كان قابعا على القضبان وكأنه اعُد خصيصا لنقل الأسرى والمهزومين .. قديم وسيء ومن يجلسون فيه على شاكلته وانا منهم. جلست فى ذلك القطار عبارة عن هيكل من الصفيح وعجل حديد وليس به سوى كراسى خشبية قديمة بالية اما شبابيكه فهى مفتوحة فقط ولا يوجد شيش او زجاج. تحرك القطار قبل الواحدة ظهرا وغطانا الغبار الناتج عن سيره فى طريق وعر لا تشاهد منه غير الصحراء القاحلة على الأجناب.

كنت اسأل المحيطين بى عن الشلوفة والغالبية لا يعرفون ولكن رقيب أول شرح لى أين تقع موضحا بأن علىّ الهبوط من القطار فى محطة المثلث لان القطار سيدخل السويس وطريق الشلوفه يبدأ من المثلث .. هنا أشار لى الرجل بان هذا مكان المثلث ، غادرت القطار خاوى اليد وقد تذكرت ما نفحنى اياه ذلك الضابط الرقيق من مال ، وضعت يدى فى جيبى فعلمت انه اعطانى خمسة جنيهات .. هتفت ياه خمسة جنيه!! هذا مبلغ كبير يقترب من سدس مرتبه ان لم يزد .. غمرني شعور بالارتياح ان أجد مثل تلك الأخلاق بين المصريين على

مختلف ثقافاتهم ومشاربهم وديانتهم .. هم فى الاول والاخر مصريين فقط اما باقى الألقاب والأسماء والشهادات والمراكز فهى كلام لا يقدم ولا يؤخر.

سرت قليلا فشاهدت نقطة شرطة عسكرية وهم اقرب الناس الى معرفة أماكن الوحدات كما ان جميع السيارات العسكرية تقف عندهم .. ألقيت بتحيتى على الجندى الخدمة والذى رد بمثلها وسألته برغبتى فى التوجه الى الشلوفه إذا أمكنه ان يساعدنى .. اجاب بالإيجاب طالبا منى الجلوس خلف نقطته حتى تحضر سيارة متجهة الى ذلك الموقع .. المنطقة صحراوية ولا يوجد بها سوى بعض العمارات السكنية والتى يقال عنها مساكن شعبية ..جلست أرضا أستريح ومازالت كلمات الرائد صلاح ترن فى اذنى .. انصراف يا حضرة الضابط ومازال منظره وهو يتلقى المكالمة التليفونية وصاحبها يتمتع بإجازات ونوم هانىء فى بيته وانا مازلت ألف صحارى الجمهورية والسبب في هذا اننى ضابط صغير لا حول له ولا قوة .. انهارت كل القيم والمبادئ التى تعلمتها وشعرت ان الدنيا كلها ظلم وقسوة والضعيف لا مكان له .. تنبهت على صوت سيارة وصلت فنظرت فإذ بسيارة جيب وبجوار السائق وجدت ضابطا برتبة مقدم جالسا بجواره

بعد ان تفحص جندى الشرطة أوراقها اتجه للجانب الاخر يحدث الضابط ويشير جهتى .. نظر الضابط الى وأشار الى بأصابعه بما يعنى اقترب منى .. قمت متكاسلاً أسير بصعوبة حتى وصلت إليه مؤديا التحية العسكرية .. بادرني وهو يركز نظره علىّ قائلا: إيه حكايتك؟ بتخوفنى بالشرطة العسكرية؟ .. طيب منتش راكب .. سوق ياعسكرى .. قفزت السيارة مسرعة وانا مازلت واقفا صامتا حيث لم استوعب الجملة وقد اقترب منى الجندى قائلا: والله اللى ربنا عمله فينا ده مش كتير على فرعنتنا وجبروتنا على بعض .. عربية جيش وموقع جيش وظابط من الجيش .. إيه المشكلة هيا عربية أبوك .. نظر الى قائلا خيرها فى غيرها .. شكرته وعدت أجلس في نفس المكان.

كان واضحا ان الظلام يسرع الخطى وانا أريد اللحاق بوحدتى حتى لا أبيت فى الصحراء بمفردى .. جاء لورى نصر مدنى .. توقف أمام جندى الشرطة وقد حدثه بصوت آمر .. يا أسطى حتوصل حضرة الضابط الشلوفه .. فاهم .. أجابه انا رايح قبل الشلوفه باتنين كيلو ينفع؟ .. أشار لى الجندى فحضرت واخبرنى بان الأسطى سيصل قبل الشلوفه بكيلومترين ومن هناك قد تجد أي سيارة أخرى. مع السلامة .. ركبت بجوار السائق المدنى كبير السن وباديا عليه الضيق والألم .. اللورى مكتوب على أبوابه الخارجية مخصص للمجهود الحربى .. لقد استولت الحكومة على لوارى القطاع العام وأدخلتها الخدمة للقوات المسلحة لنقل المؤن والمعدات لتعويض الفقد الهائل لأدوات النقل فى سيناء والتى بلغت أكثر من ٧٠% توقف الرجل بجوار مدق رملى واخبرنى بان هذا طريقه.

غادرت اللورى شاكرا صنيعه معي. وقفت انتظر قدوم اى سيارة ولكن بلا جدوى وأيقنت باننى سأمضى تلك الليلة في العراء وغربت الشمس ولم يتبق سوى الضوء الخافت الذى يعقب الغروب وماهى إلا عشر دقائق ويحل ظلام دامس علىّ فى تلك المنطقة القاحلة ، جلست أرضا لأتخلص من الام قدمى. بعد قليل شاهدت لورى قادما مسرعا فأشرت إليه ولكنه لم يتوقف ثم توقف بعد مسافة فأردت الحاق به ولكن قدمى لم تطاوعنى فسقطت أرضا أتألم من جراء السير وتسلخات باطن القدمين. حاولت النهوض من رقدتى وإذا بى أجد اللورى قد عاد ووقف بجانبى وهبط منه ضابط شاب ساعدنى على الوقوف. أقف أمامه. نظر إلىّ بدهشة قائلاً: مين؟ أسامه يخرب عقلك بتعمل إيه هنا يا مجنون؟ تفرست فى هذا الشكل وسألته اتعرفنى؟ فأجاب ايوه .. انا حسنى زميلك .. دفعتك وقضينا تيرم فى الكلية سوا بس انا أتوزعت على المهمات وأنت رحت المشاة .. تذكرت حسنى زميلى ابن محافظة الغربية والذى كان يخطىء ركوب خط المترو النزهة من ميدان رمسيس ويتخير خطا آخر المبرغنى ويتجه به جهة كلية البنات ..

احتضنني وساعدني على ركوب اللوري وأخبرته بهدفى ولكنه قال كتيبتك بقالها تلات تيام فى جبل عجرود .. بكره اشوفلك حاجه توصلك .. خليك معايا الليلة دية .. ياه دا أنت حالتك صعبه وازاى فى الاداره يبعتوك هنا وأنت تعبان بالشكل ده .. أخبرته بما سمعته فى الإدارة سواء كان موجها إلى او من المكالمات التليفونيه لضباط كبار يحصلون على أجازت وهم رهن منازلهم وبين أهاليهم.

كانت ليلة رائعة قضيتها مع زميلى حسنى الذي أعد لى مكانا مريحا للنوم بين بالات المهمات واحضر جنوده الطعام الطازج من قسم التعيينات وشربنا الشاى وضحكنا سويا وخلدنا الى نوم هادىء ، لقد أصبحت قاب قوسين او ادنى من هدفى وهو الوصول الى وحدتى. صباح اليوم التالى تناولنا إفطارا شهيا لا يقل كفاءة عن عشاء الأمس ثم اصطحبنى الى اللورى حتى يصل بى الى منطقة المثلث ثانيه لأعود الى موقعى قريبا من الشركة الشرقية للبترول.

وصلنا الى المثلث وتركت السيارة وطلب منى ان اعبر الطريق للجهة الأخرى حتى أكون فى اتجاه سير اللوارى ولكننى تعثرت وسقطت أرضا وأسرع هو وسائقه لمعاونتى وحملى الى اللورى وقال سوف أتأخر عن القائد ولكن لا يهم أنت تستحق هذا ، وصل بى الى موقع الشركة وأشار الى ان الكتيبة على مسافة خمسمائة متر من الطريق وشاهد جنديا يسير فسأله عن الكتيبة واخبره بموقعها واتضح انه احد جنودها .. اعتذر حسني عن عدم استطاعته الدخول الى داخل الموقع لصعوبة الطريق من الصخور التى تملأ المنطقة شكرته بينما عاد هو الى عمله. سرت قليلا وجلست كثيرا حتى تقابلت مع بعض الجنود القدامى والذين رحبوا بى وساعدونى فى التوجه الى مكتب رئيس العمليات لأسلم نفسى كما امرتنى إدارة المشاة،تقابلت مع رئيس العمليات وبعد أسئلة مستفزه ضمني لأحد سرايا الكتيبة وتقابلت مع البعض ومنهم جنودى الأربعة الذين إنسحبوا معى من سيناء.

العودة الى القاهرة

تسلمت عملى بالكتيبة وفى اليوم التالى رغبت فى التوجه للعلاج فى مستشفى السويس وقد تذمر رئيس العمليات. وقد سبقني للمستشفي للعلاج قبل هذا بيومين زميلي الملازم محمود قابيل "الفنان محمود قابيل" . استعد انا ومحمود للتوجه للمستشفى. تحرك بنا اللورى فى التاسعة صباحا لنصل الى المدرسة الثانوية للبنات بالسويس حيث اعُد كمستشفى فى جزء منه خصص لهذا الغرض والعلاج كان بسيطا وإمكانياته قليلة حيث مازلت اشتكى من آلام مبرحة فى باطن قدمى مما ألم بي من الثقب الذي قام بفتحه الطبيب بالمبرة بمدينة بورسعيد أول أمس. بالإضافة إلي جرح يدى اليمنى منذ بداية الحرب وقد مضى عليه شهران والجرح لم يلتئم واشعر بألم يعتصرني من شدته.

استمر علاجى عدة أيام دون نتيجة ملموسة وفى احدى الأيام تعطل اللورى الذى يقلنى الى المستشفى والسائق ليس لديه أي خبرة عن إصلاح اللوري. أقترح علي أن أسير أكثر من كيلومتر حتى نقطة الشرطة العسكرية لتقديم المساعدة بإيقاف سيارة تقلنى الى المستشفى. نفذت نصيحته ولكنى لم أستطع مواصلة السير وسقطت أرضا من الألم وجلست بعض الوقت. فجأة اقتربت منى سيارة جيب وتوقف سائقها بجوارى ينادى علىّ حضرة الضابط: نظرت جهة الصوت فإذا باللواء أركان حرب محمد فائق البورينى قائد عام الجبهة بداخل السيارة حيث كنت اعرفه حينما كان يعمل كبيراً للمعلمين بالكلية الحربية أثناء دراستي وانا طالب بها.

أشار الى مستفسراً عما ألم بى ولماذا أسير هكذا. أخبرته باختصار عن حالتى وعطل اللورى الذى كان يقلنى الى المستشفى. أشار إلىّ بالصعود والركوب بجواره ولكننى لم استطع فأشار الى حارسه نقيب بالشرطة العسكرية فهبط مسرعا وحملنى الى داخل السيارة الجيب وطلب من سائقه التوجه الى المستشفى.

كُنت سعيداً بهذا . كانت هذه المرة الأولي وأجد من يهتم بشخصى رغم رتبتى الصغيرة وقد آلمنى كثيرا تجاهل الآخرين لى ، هناك فى المستشفى انقلب الحال حيث ان قائد عام الجبهة متواجد وأسرع المدرسون والمدرسات بالاختباء وطلب من كبير الأطباء فحصى أمامه فأزال الطبيب الشاش من باطن قدمى وشاهد القائد حالتى وقد انزعج كثيراً لما انا عليه وتضايق وزمجر عندما علم ان إدارة السلاح كانت تعلم حالتى ورغم هذا أرسلوا بى الى كتيبتى فى الجبهة. أمرهم باستبقائى بالمستشفى حتى يتم علاجى وأصبح قادراً على السير كما شاهد جرح يدى الغائر وما به من اثر الصديد ، طلب من حارسه نقيب الشرطة إعلام كتيبتى بالموقف وحجزى بالمستشفى وتركنى منبها على الأطباء بُحسن رعاية المرضى. طلب منه كبير الأطباء تزويد المستشفى بالاحتياجات اللازمة ووعده بإرسال المختصين بذلك خلال نفس اليوم لحل كل المشاكل.

غادر القائد المستشفى وانهمك الطبيب مع مساعديه فى علاجى والحقونى بإحدى غرف النوم المخصصة لذلك واستمر هذا الحال خمسة أيام حتى شعرت بان آلام قدمى قد تماثلت للشفاء وحضر محمود قابيل فى اليوم التالي وشاهدنى وانا مستريح بالسرير فضحك من هذا قائلا ياليتنى كنت معك وحصلت على سرير مثلك.

أخيرا عُدت الى كتيبتى وقد شعرت براحة من تحسن حالتى ومقدرتى على السير وتماثل جرح يدى اليمنى من الشفاء من إصابة الحرب. بعد مضى أسبوعان وعودتى لوحدتى أرسل لنا القائد أنا وزميلى عادل بأن نجمع أغراضنا ونتجه الى القاهرة لإدارة سلاح المشاة لصدور قرار بنقلنا الى هناك.

صباح اليوم التالى كنا أمام إدارة سلاح المشاة وقابلنا الرائد/صلاح أبو سريع وحرر لنا خطاب بالتوجه الى "اللواء ١٣٦مشاه . الكتيبة ٥٣٨ " المتواجدة حاليا بالمنطقة خلف مطار القاهرة والكلية الحربية وارض السبق .. وهى ما تعرف الآن

بالنزهة الجديدة. غادرنا مكتبه واخبرني عادل بان نتلاقى بعد أربعة أيام عند محل البقالة القريب من كنيسة سانت فاتيما بمصر الجديدة الساعة الرابعة مساء على ان نتمتع بتلك الأيام الأربعة لرفضهم منحنا أجازة حسب المعمول به لأننا سوف نلحق بالكتيبة وهم معتقدين أننا حصلنا على إجازة قبل انضمامنا إليهم وبالتالى سنبقى حتى نهاية آخر دفعة أجازات وتذكرت المساعد/ رجب بإدارة المشاة والذى اخبرنى باننى سوف أحصل على أجازة ، لقد كان الرجل كاذبا ويعلم أكثر من غيره بان الأجازات لا تمنح للقادم الجديد طالما لم يكتب فى خطاب التقديم الى الوحدة بان المذكور يستحق أجازة .. كذا يوم.

لم ننتبه انا وعادل ونحن بداخل الإدارة ونتفق على اللقاء بعد أربعة أيام بان الصول رجب كان موجودا بدورة المياه وسمع الرجل حوارنا واتفاقنا فأسرع ليبلغ الرائد/صلاح والذى تأكد له بأننا اثنان من الضباط المشاغبين.

وصلت الى بلدتى وهناك قابلتنى اسرتى بلقاء ساخن تملأه العواطف الجياشة والانفعالات الإنسانية خاصة امى رغم ان السيدة ام مدحت التى اقلتنى بسيارتها اتصلت بخالى فى عمله فأسرع إلي بيت امى يخبرها بالخبر السار ويهنئها على نجاتى وعودتي بالسلامة ورغم هذا ما زالت أمي متخوفة تريد الاطمئنان على شخصى صوتا وصورة. ها انا أقف إمامها تقبلنى وتحتضننى باكية ودموع عينيها تسبق أقوالها. أمضيت أربعة أيام ممتعة بفضل عادل ومخالفة القانون واليوم ظهراً سوف استقل القطار عائداً الى القاهرة وتسبقنى هواجسى. ماذا سيحدث لى لو اكتشف الأمر وماذا سيكون عليه حالنا؟

اقف فى شارع رمسيس انتظر أتوبيس رقم (٥٠٠) الذى سيقلنى الى سانت فاتيما وقريبا منى شابين فى مثل عمرى واحدهم يسأل الاخر بصوت خفيض. (الحمار اللى جنبنا تفتكر انه سريع ولا سريع أول؟ التفت الصديق جهتى ثم عاد الى وضعه السابق محدثا صديقه .. ده صغير يعنى جحش يبقى سريع) .. لم

اكن اعلم ماهى تلك التعبيرات والإيماءات ولم أكن أتوقع أنهما يتحدثان عنى. تقابلت مع عادل وأخبرته بحوار الشابين وضحك ليخبرني بأنهما يتحدثان عن شخصي حيث قال: بص يا سيدى (سريع .. يعنى ملازم ،،، وسريع أول .. يعنى ملازم أول ،،، وفكيك .. يعنى فريق ،،، وفكيك أول .. يعنى فريق أول) ضحكنا سويا من قدرة المصريين على الفكاهة حتى فى أصعب الظروف رغم أننا لم نكن نملك سرعة ولا غيره لكنه التنفيس عما يجول بخاطرهم فلقد غُرر بهم بأننا منتصرون فضحوا بالغالى والنفيس من لقمة العيش ومن حياة الشباب فى تلك الحرب الفاشلة.

وصلنا الى موقع الوحدة خلف الكلية الحربية وعبرنا السلك الشائك وأصبحنا داخل الكتيبة وأثناءها كان اصطفاف طابور المساء والقائد يلقى بتعليماته. انفض الطابور واقبل علينا جندى يطلب منا الحضور الى خيمة القائد فتوجهنا إليه وقلبى يرتجف متوجسا شرا ويدق انفعالا وخوفا مما فعلناه ولكن الصديق عادل كان هادئ البال وبداخل الخيمة شاهدنا ما لم نتوقعه. الرائد/صلاح أبو سريع من إدارة المشاة جالسا ينظر إلينا موجه كلامه للقائد قائلا: شوف جواباتهم يا سيادة المقدم .. هتف القائد: نهاركم مش فايت خمس تيام غياب .. قاطعه عادل .. أربعة فقط .. نهره القائد قائلاً: أنت بتهزر .. أربع تيام غياب يعنى محكمة عسكرية صرفنا القائد للبحث فى آمرنا. ولكن نتيجة البحث لم نعلم بها حتى الآن!

ألحقت على السرية التالته مشاه اما عادل فألحق على السرية التانية. جميع الجنود حديثى التجنيد وغالبيتهم مؤهلات متوسطة او عليا والقليل منهم بدون تعليم "عادة" لكنهم يجيدون القرأه جيدا والملاحظ هو كثرة عدد الجنود كما كانت سرعة تنفيذ الأوامر لديهم سريعة.

أصبحت علاقتى مع عادل قوية وكنت فى أمس الحاجة لمن يبعدنى عن ألام الانسحاب التى كانت ذكراها تهاجمنى من حين لآخر خاصة عندما أنفرد

فسى مما يدفعنى للبكاء مما شاهدته وعانيته خاصة مناظر الشهداء وهم ملقون ى العراء.

كانت ظروف عادل أحسن منى حالا حيث يقيم مع أسرته فى حى مصر جديدة وجميع احتياجاته متوفرة بمنزله اما انا فلا امتلك الملابس المدنية حتي ستطيع الخروج من المعسكر للهو لأن ارتداء الزى العسكرى كان يعرضنا لبعض مضايقات من بعض الناس ، هدانى تفكيرى بان اذهب الى منزل جدتى بالسبتية بيت به واترك ملابسي هناك وقد اسعد هذا جدتى كثيرا كذلك أسعد عمتىّ اللتين يمان معها وعمى الأصغر.

تـوالى تـدريبنا وتـوالى نزولنـا او تزويغنـا ولهـذا انفرجـت حـالتي النفسـية ساعدنى هذا على خروجى من حالتي الانعزالية التى كادت ان تؤدى الى تعاستى لألـم النفسـى الـذي مـازال عالقـا بـذاكرتي حـين أتـذكر فتـرة انسـحابي مـن سيناء لأحداث الجسيمة التي ألمت بنا فبعد التدريب والشقاء نتوجه للفسحة او الجلوس ى أماكن عامة وفى بعض الحالات نذهب لدور السينما التى ازدحمت بالأفلام لأجنبية الفرنسية والايطالية لمقاطعة مصر للأفلام الأمريكية لوقوفها مع إسرائيل ى حربها ضد مصر.

مضى على وجودى بالقاهرة حوالى ثلاثة أشهر استعدت فيها هدوئى النفسى توالى التدريب الشاق الذى يغلب عليه استخدام الذخيرة الحية وكانت النتائج جيدة ى الرماية نظراً لاستيعاب الجنود للتدريبات والتكتيكات التى تدرس لهم بل كان لبعض يستفسر ويستوضح ويسأل عما لا يفهمه وكان هذا مدعاة لأن يقوم لضابط بإعداد نفسه لكل محاضرة حتى لا يسبب لنفسه حرجا أمام الجنود لمتعلمين وقد زاد هذا من حُسن الاستيعاب لأنهم يتمتعون بمستوى اجتماعي طيب وقد اثر هذا عليهم نفسيا لشعورهم بأنهم قد حصلوا على قسط من التعليم او سط عال لخريجى الجامعة وكأنها عدوى أصابت الجنود فالكل راغب بالا يكون

اقل من زميله الجامعى كما ان عددا من هؤلاء الجامعيين قد تولي منصب ضابط الصف المعاون للضابط وبذلك أصبح أكثر تفهما للأوامر ولا ينساها بعد مغادرة الضابط كما كان يحدث قبل ذلك.

أضافت القوات المسلحة عنصرين هامين للمساعدة فى تقدم ورقى هؤلاء الجنود .. الاول : هو زيادة راتبهم الشهري مما دفع بهم الى الشعور بالإكتفاء المادى الذى هو عنصر هام فى شعور الإنسان بأنه ذو كرامة وكبرياء فلا يدفعه ضيق ذات اليد الى التزويغ من الكمسارى وما يلاقيه من رد فعل كما كان يحدث مع الجنود فى السابق او مثل ما حدث معي شخصيا حينما قذفنى كمسارى الترام بكلمات قاسية مقابل عدة مليمات أثناء عودتى من سيناء. اما العنصر الثانى: هو التعليمات المشددة بعدم اهانة الجندى او التعدى عليه بالسب كما كان يحدث فى السابق وهذا عنصر انسانى ساعد علي ان يشعر الجندى بآدميته.

<u>ان الله لا يضيع اجر من أحسن عملا :</u>

تلعب الصدفة والحظ فى حياتنا الكثير من المواقف والأحداث والتى نندهش لها ونتساءل كيف تم هذا ولماذا مع هذا الشخص اوذاك ولكنها الأقدار التىُ تسير الإنسان فى بعض الظروف.

فى احد أيام إجازتنا انا وصديقى عادل وبعد لقائنا سويا اخبرنى بأنه سيتوجه الى مستشفى المعادى لتسليم شقيقته بعض أغراضها الشخصية حيث فوجئت بنوبتجية لها نظرا لمرض احدى زميلاتها والتى كانت تعمل هناك برتبة نقيب فهى خريجة المعهد العالى للتمريض وعرض على مرافقته ثم بعد ذلك نتوجه لاى مكان نتسكع فيه ونلهو.

وافقته على الفور فليس امامى مكان اتجه إليه وليس لى صُحبة الجأ إليها وهكذا توجهنا الى المستشفى حيث تقوم شقيقته بعملها مع بعض زميلاتها فى قسم جراحة المخ والأعصاب. استقبلتنا بترحاب وانتحت بشقيقها جانبا تخبره ببعض ما

يد إخباره اما انا فجلست على سرير صغير فارغ من النزلاء ولكن السرير مجاور لى كان يرقد عليه شاب جميل الصورة وعلى عينه ضمادات (العين يسرى) تحدثت معه وكان يبتسم ولا يتحدث وانا أحاول ولكن الشاب يسمعنى يهز رأسه بعدم قدرته على الحديث وأخيرا سمعته يردد بعض كلماتى وهنا حضرت شقيقة عادل وسألتها عن حال هذا الضابط فاخبرتنى بأنه ملازم أول وهو بوجود هنا منذ عدة أشهر تحت العلاج حيث فقد احدى عينيه وبه إصابات بالرأس وأجريت له عملية جراحية فى المخ لكنه حتي الآن مازال فاقدا للذاكرة وعندما سألتها عن اسمه اخبرتنى بان اسمه مدحت .. قلت: فقط .. أجابت فقط لان العلامة الفبر التى كانت حول رقبته كسرت ولم نر منها سوى كلمة مدحت ومن اى سلاح .. أجابت بأنهم لا يعرفون ويودون العثور على اى بيانات عنه إنه للان لم يحضر احد من أهله للسؤال عنه .. أجبتها بعد مرور أربعة أشهر على وجوده .. أشارت بتأكيد كلامها. سألتها ان كان يحتفظ بمحفظة او ماشابه ذلك ولكنها اعتذرت بأنها لا تعرف وامهلتنى عدة دقائق لتسأل رئيسة القسم وعادت قائلة كل ماعثرنا عليه تلك الصورة. شاهدت الصورة فوجدتها ممسوخة ولا يظهر منها شىء وعادل يستعجلنى لإنهاء تلك الأسئلة وانا أطالبه بالتمهل ثم سألتها هل يمكننى الاحتفاظ بتلك الصورة فقد تساعدنى فى التعرف عليه خاصة بعد ان قرأت خلف الصورة اسم الأستوديو وتاريخ الصورة ورقمها كما هو معروف عن مصورى الفوتغرافيا. ذهبت لتسأل رئيستها والتى افادتنى بأنه يمكننى ان احتفظ بها ثم توقفت عن الإجابة وسألتنى: أتعرفه؟ ولكنى نفيت ذلك وأخبرتها بان والدة احد ضباط المدفعية قابلتنى منذ أربعة أشهر واخبرتنى بان ابنها اسمه مدحت وهو مفقود واعتقد او احتمال ان يكون هو هذا الشخص لاننى لا اعرف شكله. تحدثت معه وسألته هل لديكم عربة مرسيدس فأشار برأسه بتأكيد ذلك ولكن شقيقة عادل سألته .. أعندكم عربه فيات فأجاب بصوت خفيض ايوه .. "فيات" وأعادت

السؤال .. عندكم عربة ستروين فأجاب ايوه .. "ستروين"..هنا قالت انه مسكين ويفعل مثل الأطفال ويقول آخر شيء يسمعه.

غادرنا المستشفى وانا ساهم شارد الفكر وعادل يحاول اخراجي من دوامة تلك الأفكار والأسئلة التي أطاحت باتزاني قائلا اللي أنت بتفكر فيه غلط .. ومش هوه يا ابن الناس .. طلبت من عادل مرافقتي الى الأستوديو ولكنه اعتذر وانه ينوى الذهاب لمشاهدة فيلم رجل وامرأتان.

افترقنا فتوجه لمشاهدة الفيلم بينما توجهت انا الى الأستوديو فى حى المنيل حسب ما هو مكتوب على ظهر الصورة .. هناك فى الأستوديو عرضت عليهم الصورة طالبا إعداد نسخة منها ولكن الرجل اخبرني بان التاريخ قديم واحتمال ان لا يعثر على النيجاتيف. سأل احد عماله عن النيجاتيف القديم الذى طلب منه منذ أسبوع التخلص منه .. هل تخلص منه ام لا؟ اعتذر العامل بأنه انشغل مع بعض الزبائن وسوف يقوم الآن بالتخلص من هذا النجاتيف لكن الرجل طلب منه التمهل وأعطاه الصورة الممسوخة للبحث عن النيجاتيف صاحب هذه الصورة لأنه يهم "الاستاذ" مشيرا الى. طلب منى الرجل ان أعوده بعد أسبوع وسألني عن عدد الصور فأخبرته صورة واحدة فاعتذر بأنه لا يقل عن ست صور وافقته طالبا منه صورة كبيرة ودفعت التكلفة وغادرت المحل حاملا معي الإيصال وانا افكر ليل نهار. هل تحدث المعجزة ويكون صاحب الصورة شخص نتعرف عليه ليقربنا من الحقيقة.

بعد عشرة أيام عند حلول موعد اجازتى أسرعت الى الأستوديو فاحضر الرجل الصور وعرضها على وانا أشاهدها صائحا صارخا ايوه هيه. دهش الرجل من انفعالي وسألني عن صلتى بتلك السيدة العجوز هل هى والدتك؟ ولكنى أخبرته بأنها صورة عمتى التى توفيت منذ أعوام ونحن نريد استخراج صورة لها للذكرى. آخذت الصور وانا أسير طائرا فى الطريق. انها نفس السيدة لقد تأكدت الآن ان

هذا الشاب المسكين هو ابن السيدة صاحبة المرسيدس والتى اقلتنى من باب تلاته حتى محطة كوبرى الليمون واتصلت بخالى لكى يطمئن امى علىّ رغم ما بها من آلام فقد الابن العزيز .. ياه .. قلتها وانا سعيد ولكننى توقفت ثانية فلا اعرف اسم السيدة ولا اعرف اسم الضابط بالكامل وكل ما اعرفه هو انها تركب سيارة مرسيدس ملاكى القاهرة .. ايوه نمرة السيارة .. آه لقد تذكرت بعد ان غادرتنى السيارة قرأت رقمها وكان هو نفس عام ميلادى .. إذن الرقم ١٩٤٤ ملاكى القاهرة مرسيدس بيضاء ياه !!!!!

أين وكيف أتعرف على صاحبة المرسيدس؟ أريد عونا من احد ضباط المرور ولا اعرف أحدا منهم .. مين يا أسامه؟ هتفت آه انه حبيبى وآخى النقيب عاطف شفيق .. شقيق الشهيد وليم شفيق والذى طلب منى زيارتهم فى منزلهم ..آه عليك يا عاطف يا صاحب المروءة والإنسانية يا من اقرضنى خمسة جنيهات كاملة .. أين رقم تليفونه .. ابحث عنه ولكنهُ فقد منى .. إذن لا يهم سأذهب لمقابلته فى قسم الوايلى .. ركبت الأتوبيس الذى اوصلنى الى القسم وهناك توجهت الى داخل القسم وسألت عنه ولكنى علمت انهُ نقل الى قسم النزهة بمصر الجديدة .. أسرعت مستقلا أتوبيسا آخر متوجها الى قسم النزهة وهناك اخبروني بأنه فى راحته الآن وطلبت مقابلة أحد زملاؤه .. قابلت زميلا له وسألته عن النقيب عاطف وانني أريد رقم تليفونه ولكنه كان فظا معى ولم يساعدنى او يحاول ذلك وعندئذ طلبت منه ان يبلغه بان أسامه زميل شقيقه وليم حضر لمقابلته وأرجو أن يترك رقم تليفونه لاننى فقدته .. أشار لى بلا مبالاة .. قائلا : انا مش موصلاتى رسايل .. أبقى تعالى فى نوبتجيته .. تركته غاضبا حزينا فلحق بى أمين شرطة مستفسراً عن أهمية تليفون النقيب عاطف فأخبرته بأنه طلب منى شيئا مهما .. فبادر لمساعدتى وزودنى بتليفون القسم للاتصال به فى الصباح وقد اسعدنى هذا الحل الذى لم يتبادر الى ذهنى.

اتصلت به عدة مرات ولم اعثر عليه ولكن احد زملاءه اخبرني بأنه ترك رسالة شفهية لديه وان عاطف علم باتصالك وهو سعيد بهذا وان رقم تليفونه هو..... وأضاف بان مواعيد نوبتجياته هى .... وزودنى بها.

الآن معى تليفونه ومواعيد وجوده بالقسم وغدا راحتى وفضلت ان أقابله شخصيا لكى أعيد إليه الخمسة جنيهات وأوفى بوعدي له بزيارة أمه واطلب منه المساعدة فى العثور على عنوان صاحبة السيارة. مساء الغد هبطت عليه فى القسم وسألت الجندى الواقف على باب مكتبه عنه وعندما أبلغته بان يخبره بان أسامة بانتظاره فتح الباب واندفع الرجل يحتضننى ويقبلنى قائلاً لقد فقدت الأمل فى اننى سوف أراك ثانية. اصطحبنى من يدى الى داخل مكتبه وجلسنا وشربنا الشاى وحدثنى عن اثر لقائى به منذ عدة أشهر وكيف استقبلت أمه النبأ والتى قررت عدم ارتداء الملابس السوداء المخصصة للحداد قائلة: لا يجب ان نلبس تلك الملابس على أرواح الأبطال أنهم الآن فى الأمجاد السماوية مع الرب ويسوع. كما ان "روز" زوجته بعد ان بكته عدة أيام عادت لرشدها خاصة انها أنجبت وليم الصغير منذ شهرين. اسعدنى هذا الخبر وأخرجت الخمسة جنيهات وأعطيتها له ولكنه رفض فأقسمت بروح الشهيد وليم ان يأخذها فرضخ لرجائى.

أخبرته بان وراء زيارتي شيئين هامين. الأولي: زيارة والدته حسب ما اتفقنا وقد أسعده هذا لانها دائما تسأله قائلة: فين يا عاطف الظابط اللى قال لك على حكاية وليم. مش قلت انه حيجى يزورنا". أخبرته اننى مستعد الآن ولكنه ضحك وقال اليوم خدمتى وغدا ننفذ ما اتفقنا وتعاهدنا عليه .. ثم سألني والشىء الثانى .. أخبرته بقصة السيارة المرسيدس وحكاية الرقم ، ينظر الى بدهشة وقال إحنا نروح ونقعد فى البيت وأنت تيجى تشتغل مكانا .. ضحكت وأجبته بأنها ام مثل ام وليم .. أدمعت عيناه قليلا ثم تنبه وقال "حاضر بكره حاروح إدارة مرور القاهرة واجبلك العنوان".

اتفقنا على اللقاء عصر غد لزيارة والدته بعد ان زودنى بالعنوان والوصفه وكيفية الوصول الي منزله وايضا الحصول على عنوان صاحبة المرسيدس .. مضيت ليلتى مسهداً قلقا وانا افكر هل ستحدث المعجزة؟ لقد رددتها قبل ذلك ومازلت. اننى مازلت أتذكر عيون الام الباكية على فلذة كبدها أثناء ركوبى معها في سيارتها. أتراجع قائلا: ان العديد من الأمهات فقدن أبناءهن فى سيناء ولتكن هى إحداهن ولكنى تذكرت ان الشاب مازال على قيد الحياة وانه مسكين لا يعلم شيئا من أمره وكل ما فعله انه احتفظ بصورة أمه فى يده حتى تحللت من اثر العرق وقد أخذها منه طاقم التمريض عنوة أثناء العملية الجراحية كما أخبرتنا رئيسة القسم بالمستشفى. انه مثل الطفل وسيظل هكذا فترة طويلة واحتمال ان يبقى هكذا للأبد طالما لم يستطع احد التعرف عليه وسيكتبون أمام اسمه فاقد المعرفة والأهل. استيقظت صباح اليوم التالى أدعو الله ان يوفقنى وان يكون هذا اليوم يوم خير وبركة عليهم وأتمتع بمشاهدة الابتسامة على وجه أمه الطيبة الحنون التى عطفت على رغم ظروفها الصعبة.

حسب الموعد اتجهت الى منزل عاطف شفيق حاملا معى هدية رمزية للوليد الصغير ابن الشهيد وليم. ضغطه صغيرة على الجرس وفتح عاطف الباب ليستقبلنى بكل ترحاب بصوته الجهورى صائحا: "ماما" .. أسامه زميل الشهيد وليم موجود. أقبلت نحوى سيدة متقدمة فى العمر وأثار السنون والهموم بادية عليها ولكنها تخفى كل هذا بابتسامة الفرح والسرور وهى قادمة لمقابلتى فأسرعت لملاقاتها مصافحا إياها قائلا لها ازيك يا نينه. صافحتني بكلتا يديها ممسكة بهما سائرة بى حتى اجلستنى وجلست امامى وهى تتفحص وجههى ثم قالت: انا دلوقتى شايفه وليم وكمان مسكت أيد وليم .. ياه .. أشكرك يا ابنى وربنا يخليك لامك ودمعت عيونها ثم عادت الى هدوئها وهى تقول: سامحنى الفراق صعب .. هيه .. قوللى وليم كان عامل ازاى؟ تفتكر كان خايف من اليهود الأنجاس اللى

قتلوا المسيح؟ وانا أنفى انه كان خائفاً بل كان شجاعاً واكرر سرد الرواية بناء على إشارة من عاطف ، حضرت زوجة وليم حاملة رضيعها "عزيز" وصافحتنى بحرارة فقدمت إليها الهدية قائلا: هذه لابن آخى وليم شفيق"عزيز واعز الناس وابن الشهيد" شكرتنى كثيراً وقدمت سيدة تعمل لديهم مشروبا لنا جميعا وهنا قطع عاطف حديثنا قائلا: كده تدوخنى وفى الاخر يطلع الرقم اللى اديتهولى لعربية نص نقل. ظهر الظلام فى وجهى وتحطمت كل احلامى السابقة بان انجح فيما قمت به من اجل تلك الام الطيبة الباكية الدامعة ولكنه عاجلنى بابتسامته المريحه قائلا: لكن انا مباحث .. أنت نسيت رقم واحد فى الشمال .. يعنى الرقم١١٩٤٤ مش ١٩٤٤ وأدى يا سيدى العنوان والاسم .. السيدة "وداد على محمود"أشرق وجهي وكأنما ضياء الشمس سُلط عليّ وانا فرح وسعيد وكلها ساعة واذهب لام مدحت واحمل لها نبأ العثور على ابنها.

بعد ان أمضيت أكثر من نصف ساعة استأذنتهم في المغادرة وعرض على عاطف مرافقتى فى تلك المهمة ولكنى شكرته ويكفيه ما قام به. اخذت تاكسى الى المنيل فقد كنت راغبا فى كسب الوقت ، وصلت الى العنوان ، شارع هادىء وفيلا جميلة ولكن السكون وشبح الموت يخيم على المكان ، ضغطت على جرس الباب الخارجى وجاء البواب مستفسرا عما أريده ، أخبرته باننى أريد مقابلة السيدة وداد. نظر الى بعض الوقت ثم قال فيه حاجه نقولها عليها ، أخبرته اننى زميل مدحت. انفرجت أسارير الرجل وافسح لى المكان وطلب من "فكيهه" زوجته بان تخبر الست هانم بان صديقا لمدحت بيه موجود وعايز يقابلها قائلا لى ربنا يطمنك يا بيه الست حالتها وحشه خالص. أصل مدحت بيه الوحيد على بنتين. قادني الرجل لأجد نفسي جالسا فى الصالون ، شاهدت السيدة وهي تهبط درجات السلم من الدور العلوى بمساعدة شابه جميله وتوقفتا امامى والسيدة تتفحص وجهى ثم قالت: ايوه بيقولوا انك صاحب مدحت. وقفت احتراما لها وسألتها حضرتك مش فكرانى؟

نظرت الى قليلاً ونفت انها تعرفنى او شاهدتنى. شرحت لها ما فعلته معى ولكن السيدة لم تتذكر اى شىء.

أظهرت صورتها المكبرة والتى استخرجتها من محل الصور وشاهدتها وكذلك ابنتها وهى تستفسر من أين حصلت على تلك الصورة. سألتها: اهى لكِ. اجابت: ايوه بس دى صوره قديمه كانت مع المرحوم مدحت صوره زيها وشايلها معاه فى محفظته. طلبت منها ان تستريح ولكن الابنة تشككت فى امرى وتحدثت بصوت مرتفع وبانفعال. أنت باين عليك نصاب. عبده اقفل الباب وحابلغ البوليس. تسمرت على الكرسى الذى أجلس عليه حيث انقلبت الأمور رأسا على عقب والجميع ينظرون الى ثم تعيد الفتاة قولها: أنت عايز مننا إيه؟ قول .. انطق .. والأم تطالبها بالهدوء قائلة: مش كده "يا علا" يا بنتى مش نشوفه عايز إيه؟ أظهرت لهما الكارنيه العسكرى من محفظتى وناولته للام التى نظرت الى إبنتها قائلة:ايوه الملازم أسامه. يا بنتى ده ظابط يصح نعمل معاه كده. ايوه يا ابنى انا سمعاك. أجبتها "ماما وداد" ابتسمت لهذا الاسم وهي تقول طولة العمر لك كان مدحت دايما يسكت زيك كده ويقول ماما وداد. ايوه ياحبيب ماما عايز إيه؟ أجبتها عايز منك تلبسى هدومك عشان نزور حبيبك مدحت فى المستشفى. سكنت السيدة قليلاً: ثم قالت والنبى يا ابنى تعيد الكلمة دية تانى ولكن الابنة تحدثت بصوت مرتفع: حرام عليك تعشم ماما. سيبها خلاص إحنا عرفنا ان مدحت بقى عند ربنا وتأكدنا من كل ده. إدارة السلاح عرفتنا بكده. اعتذرت لهم وانا حزين باننى أخطأت وتأهبت لمغادرة المكان ولكن الام لم يطاوعها خروجى قبل ان تسمح لبصيص أمل ان يطل عليها عن ابنها. قصصت عليهما ما رأيته وما سمعته منه وعن حالته وفقده لإحدى عينيه وهما ما بين مصدق ومكذب. ثم وصفت شكله والفجوة "الفلجة" التى بين سنتيه الأماميتين وهنا هتفت الام ايوه هوه مدحت مش ممكن يكون غيره.

أسرعت بدون مساعدة احد للدور العلوى ولم تنتظر نداء ابنتها والتى جلست فى مواجهتى مبتسمة ووجها اطل منه الضياء بعد ان تلاشى الضيق والحنق من مقابلتى فى أول الأمر قائلة: لو اللى قلته ده حصل مش عارفه نكفائك بإيه؟ أجبتها بسعادتك أنت ومامتك ، أسرعت تطلب من السائق إعداد السيارة. هبطت الام على عجل وقد أغفلت ارتداء حذائها فنبهتها ابنتها ولكنها لم تبال فأرسلت فكيهه لتحضر لها الحذاء وهى تنظر الى. قوللى يا ابني أتكلمت معاه؟ وقالك إيه؟ يعنى فايق؟ معلش بعين واحده حلو وكمان من غير عيون. لو رجل واحده باقيه منه حأقبلها. الله على السعادة. اشكرك يارب. ياه يا ابني انا كانت عيني حتضيع من البكا.

تحركنا وقد اقتربت الساعة من التاسعة مساء وصاحبت الام وابنتها"علا" اما الابنة الصغرى"دينا" فأمامها نصف ساعة لتعود من محاضرتها بكلية الآداب. رفضت الام انتظار دينا وتحركنا بنا السيارة تقطع الطريق حتى وصلنا الى مستشفى المعادى فعرقلوا دخلونا فى بادئ الأمر ولكننى أخبرتهم بانى شقيق النقيبة (.....) فتحوا الباب واتجهنا الى قسم الأعصاب وتقابلت بشقيقة عادل في الممر فنظرت الى قائلة مش أنت صاحب عادل؟ أجبتها بالإيجاب وأخبرتها باننى حضرت مع عائلة مدحت ولم تصدقنى فى بادىء الأمر وبعد ان شاهدت الأسرة عادت تصحبنا الى سريره ، كان جالسا على سريره ورأته أمه دون ان تتكلم صرخت. مدحت حبيبى وتقبله وتبكى وأقبلت رئيسة العنبر طالبة منها الهدوء وشقيقته هى الأخرى سعيدة به وهى غير مصدقة ووقفت بجواري تعتذر وتمسك بيدي وتشدها بسعادة وفرح تشكرني لما قمت به حتى استطعنا الوصول الى شقيقها.

تنبه مدحت الى أمه فبكى محاولا التحدث وضاعت منه مفردات الكلمات ولكنه بعد قليل تحدث عدة جمل وقبل يد أمه مشيرا الى شقيقته بما يعنى انه

يعرفها ولكن اسمها هرب منه وهنا أخبرتهم رئيسة القسم بان هذا شيء عادى وسيتحسن مع مرور الوقت طالبة منهم مغادرة المستشفى ويمكنهم الحضور باكر لاصطحابه الى منزله ولكن الام لم توافق علي ذلك مقررة المبيت بجواره او ان يخرج معها. حاولت رئيسة القسم إقناعها بمغادرة المكان والعودة باكر دون جدوى. غادرتنا لعرض الأمر على إدارة المستشفى واتصلت بهم وعادت باشة الوجه لتخبرنا بأنه من حُسن الحظ ان نائب مدير المستشفي موجود ووافق على خروجه معكم.

بعد ساعة من دخولنا المستشفى خرجنا جميعا بصحبة مدحت. استأذنت منهم بان أعود لوحدتى ولكن الام كادت ان تقسم بالا اتركهم. اخبرتها بأنه سيوقع على جزاء إذا تأخرت وأنها لا ترضى بان ينالنى عقاب.

ودعتهم مع وعد بان أزورهم كل إجازة وزودونى برقم تليفونهم وحصلوا على رقم تليفون وحدتى. عُدت الى منزل جدتى وقد اقترب الليل من منتصفه والبرد قارص فى الشارع. دخلت السرير لأنام بضع ساعات حتى أعود لوحدتى صباح اليوم التالى.

صباح اليوم التالى استيقظت وانا مصاب ببرد شديد والآم ورشح وصعوبة فى التنفس ، طلبت منى جدتى ان اعتذر لهم بمكالمتهم تليفونيا ولكنى أخبرتها بان ذلك لا يجوز. فأما ان اذهب للوحدة او الى المستشفى العسكرى. تحاملت على نفسى وعدت الى وحدتى بعد أن تأخرت أربع ساعات وقد وقع القائد عليّ جزاء أربعة أيام حجز بالمعسكر لا أغادره عقاباً على تأخري كنت خلالها راقداً فى سريرى أعالج من أثار البرد ولكن الأثر النفسى الذى تركه العثور على مدحت وعودته لأهله كان مصباحاً منيراً لى دائما. كنت احلم بما تم وانا مستيقظ وكأنه درب من الخيال وفى بعض الاوقات كنت استبعد ذلك من خيالي غير مصدقاً معتقداً انها هلوسة من اثر اصابتى بنزلة برد.

فى اليوم الثالث لعودتى وعدم نزولى أجازة وفى المساء اخبرنى جندى المراسلة بان أسرتني تطلبنى على التليفون. تحاملت على نفسى وتحركت الى مكتب القائد لأتلقى المكالمة وانا فى دهشة بان عائلتى بالزقازيق تتصل بى من السنترال وماذا حدث هناك من اجل ان يتصلوا بى. كانت هواجس وأفكار سيئة مصاحبة لحالتى المرضية. أجبت على المكالمة وكانت علا شقيقة مدحت على الجانب الاخر وبعد ان اشبعتنى بعبارات تحمل مشاعر الشكر والامتنان عما حدث معهم منذ يومان استفسرت منى عن سبب عدم حضورى لهم فأخبرتها باننى مصاب بنزلة برد وبعد ان أتماثل للشفاء سأحضر لزيارتهم. شكرتنى كثيراً واخبرتنى ان والدتها ترغب فى محادثتى. تكلمت معى السيدة وداد بكل حنان الام وبكل مشاعر الود الكامن لإنسان أنقذها مما ألم بها من آلام نفسية وفتح بارقة أمل متجددة أمامها وأمام أسرتها. تسألنى: مش بتقوللى ماما تانى ليه؟ ضحكت رغم مرضى قائلا: حاضر يا ماما. اجابتنى ماما بتقولك أول أجازة تنزلها تيجى قوام عشان تبوس أيدك وراسك على اللى عملته لها. كمان ماما بتقولك انها جهزت لك اوضة جنب اوضة مدحت حتكون بتاعتك. اعتذرت ولكنها غضبت قائلة: من أربعة أيام مكنش فيه راجل فى البيت ودلوقتى حيكونوا اتنين. اولادى اتنين. أسامه ومدحت. كده ترفض كلام ماما. اشعرتنى بالخجل وفي نفس الوقت كانت الإفرازات المخاطية تسبب لي ضيقا وكنت راغباً بالتخلص منها. وافقتها وُعدت الى سريرى سعيداً هانئاً لما سمعته من كلام ماما الجديدة وابنتها علا التى كان باديا على حديثها كل الود مخالفة للقائى الاول بها عندما قابلتني صارخة فى وجهى تتهمنى بالنصب والاحتيال عليهم.

التدريب الشاق علي العبور

يناير من عام ١٩٦٨ تاريخ لا أنساه او يتناساه بعض القادة والعسكريين ففي هذا الشهر من العام التالى لعام الانكسار العسكرى العنيف على مصر وبعد مرور خمسة أشهر على تكوين الفرقة ١٨ مشاه تقرر البدء فى التدريب على العبور تمهيدا لجولة جديدة مع أعدائنا وكانت البداية فى القوات المسلحة لفرقتنا المتمركزة بالقاهرة والتى استكملت كل المعدات والأسلحة من الاتحاد السوفيتي.

أقلتنا اللوارى العسكرية الجديدة من نوع "جاز٦٦" وهى من طراز حديث الى محطة سكة حديد الهايكستب وهى محطة عسكرية لوجودها فى هذا الموقع ومخصصه للقوات المسلحة وانهمك الجميع فى تحميل المعدات على عدة قطارات وكان اللواء١٣٦ باكورة وحدات الفرقة ١٨ مشاه لهذا النوع الحديث من التكتيكات على قواتنا المسلحة " الهجوم عبر مانع مائى " والمقصود به هنا قناة السويس. نواصل التدريب وكانت المنطقة التي يتم بها التدريب تبدأ من الرياح البحيري وتمتد عمقا عشرين كيلومتر بالصحراء وهى امتداد لصحراء مدينة (٦ أكتوبر) الحالية. التدريب كان عنيفا ومستمراً.

***

تقاربت مع أسرة ماما وداد وقد أضفى عودة مدحت الى الفيلا السعادة والبهجة لهم جميعا وبعد عدة أشهر شعرت بميل عاطفى نحو علا والتى بدأت علاقتها معى بالهجوم العنيف على شخصى وأصبحت كل أجازه اقضيها معهم تضعنى محور اهتمامها وكنت اشعر بهذا وسعيدا به ورغم هذا كان لدى دائما شعور بعدم الأمان والخوف من ان لا تدوم تلك العلاقة كما شعرت بان ماما وداد أصبحت أنشط حركة عما شاهدتها أول مرة وقد تحسنت بشرتها وكثيراً ما كانت تضحك وتبتسم. اما مدحت فقد تحسنت حالة فقد الذاكرة كثيرا خاصة انه تسلم عمله فى إدارة التوجيه المعنوى وأصبح نقيبا مُهابا ويرتدى نظارة شمسية لستر العين

الصناعية التى تم تركيبها له فى المركز الطبى للقوات المسلحة. كانت ماما وداد تحدثنى بمشاعرها وأحاسيسها وما تشعر به من سعادة وكان يراودها دائما شعور بالخوف من المستقبل ان تزول تلك السعادة وهى تخبرنى بان ابنتيها حولها وابنيها أسامة ومدحت. انها دائما ما تسبقنى فى البنوة عن مدحت وهذا تكريم منها لى.

تسلمت علا عملها فى شركة فايزر للأدوية وشقيقتها الصغرى دينا أصبحت فى السنة الأخيرة من دراستها والتى كانت دائما لا تكف عن مشاكستي وقد ضايقنى هذا كثيراً وطلبت منها ان تلاعب علا ولكنها اخبرتنى بأنها ليست طفلة لتلعب وأخيرا تحدثت الام قائلة يا ابني هيا شاعره أنكم فوق رووس بعض.

مازلنا نواصل التدريب الشاق في منطقة أبو غالب القريبة من سجن القطا والتابعة لمحافظة الجيزة وهي صحراء شاسعة وهذا هو التدريب الليلى على مستوى فرقة مشاه بكامل أسلحتها. تواجد بعض المفتشين من قادة ومن وحدات أخرى ليسجلوا ملاحظاتهم وقد بدا المشروع منذ غروب الشمس وبعد حوالى ثمان ساعات والبرد القارص يلفحنا تأتى سيارة جيب حديثه اربعه باب وينادى من بداخلها على ويستفسر منى عن عدد الوثبات التى قمت بها مع سريتى فأجيبه باننى لا أتذكر فيصرخ بى متهما لى بانى مهمل. تكرر هذا العمل من القادة المفتشين حيث أنهم مكلفون بهذا ولكن أثناء التدريب والبرد القارص والمجهود المبذول يصبح الإنسان غير قادرا على تحمل مثل تلك التوجيهات وبصوت مرتفع.

بعد فترة زمنية قليلة جاءت سيارة جيب قديمة. هبط منها شخص متسائلاً: الضابط اللى هنا ييجى بسرعه يكلم سيادة الرئيس. قذفت بكل شىء معى وبدون خوذه وبلا نشيته وادواتى وذهبت إلي ذلك الرجل مستهتراً لان كل فترة مطلوب منى ان أقابل أحدا من القادة ويسمعني الانتقادات والتوجيهات. ساءلت نفسى من يركب تلك الجيب القديمة ويريدنى. من هو الرئيس الذى يريدنى؟ ان رئيس عملياتى له سيارة احدث من تلك. اتجهت الى السيارة وانا انظر لمن بداخلها

معتقدا بأنه رئيس العمليات "برتبة رائد" وقفت صامتا مشدوها. انه هو. اى والله هو الرئيس جمال عبد الناصر وليس رئيس العمليات. ياه صافحنى الرجل وسألنى مدفعية هاون؟ لم اجب فلقد اصابتنى حمى الصمت. فتح باب السيارة الجيب وشاهدته واقفا امامى يرتدى "زنط" اى جاكت من الصرفية التى توزع على الجنود لحمايتهم من البرد أسير خلفه فينظر الى مشيرا بأن الحق به. افكر هل اتركه واذهب لأضع الخوذة علي رأسي ثم أعيد تفكيرى بأنه لا يجب على ترك الرئيس واعدو أمامه. وصل أمام الجنود المرهقين وقد اثر البرد على حالتهم بالإضافة الى الإرهاق. وقف قائلاً: مساء الخير جنودى. اسمع أصواتهم ترد التحية بنغمات مختلفة ومتتابعة. وقد اندهشوا مثلى فانتفشوا وجاءتهم صحوة وقوة. والبعض هتف له. أشار لهم بالسكوت ، وقف يخاطبهم ونحن فى وسط الموقع وأكثر من خمسة وأربعين جنديا بأسلحتهم ورشاشاتهم وبين المدافع ومازال الظلام يعم المكان مما اضطر احد الجنود لإحضار "جركن المياه" الصاج ليجلس عليه وآخر احضر الوسادة التى يضعها على ظهره لتحميه من ثقل قاعدة مدفع الهاون الحديدية ووضعها فوق الجركن واصبحت كرسيا مريحا. ارتسم على وجهه الإشراق والسعادة وهو يشاهدهم يتبارون لراحته وتقديره فشكرهم وجلس يخاطبنا جميعا وقد ارتديت الخوذة وادواتى التى استخدمها فى المشروع ولكنه طلب من الجميع الجلوس براحتهم.

قال: جنود مصر الأعزاء وشباب مصر وفخرها. لقد تابعت كل التدريبات بنفسى حتى أكون على بينة من المستوى الذى وصلتم إليه وشاهدت عصر امس تدريبات القوات الجوية واسعدنى ما وصلوا إليه من براعة فى التدريب العملى كما شاهدت منذ ساعات الدبابات والمدفعية والمهندسين وأسلحة أخرى وها انا ذا اتجه لمشاهدة سلاح المشاة. صمت قليلا وقال: انتم عارفين انى كنت ضابط مشاه. يعنى زيكم. اسعد هذا الجنود وخرجت أصواتهم بالتعبيرات المناسبة لهذا القول.

يكمل: حرب مع إسرائيل مافيش منها خيار. لازم حرب ومش حرب عادية .. لأ.. حرب الصعايدة!!! ضحك الجنود .. أوضح .. يعنى حرب التار .. حرب الشرف .. لو مليون مصرى استشهدوا فى الحرب الجاية مش حتأخر عن انى أقوم بها. لازم الحرب وانتم أبطالها. الشباب هما كل شىء فى الوطن. أوصيكم بالاهتمام بالتدريب والمحافظة على سلاحكم .. وفقكم الله.

أشار لهم محييا وتوجه الى السيارة يتبعه اثنين من حرسه الخاص وانا أسير خلفهم بعد أن صافحني استقل السيارة. عدت إلي الجنود بعد مغادرة الموقع والسعادة تغمرنا بان رئيسنا وقائدنا المتواضع جلس بيننا. انتهى التدريب وعادت القوات الى المعسكر لنكمل تدريباتنا العادية.

انتقلت وحدتنا الى جبهة القتال كنسق ثان فى الجيش الثانى الميدانى واحتلت الوحدة موقعا فى منطقة ابوسلطان رديئة المناخ فى تلك الاوقات. احصل على الأجازة الميدانية لأمضى نصفها فى القاهرة مع ماما وداد واخوتى "مدحت وعلا ودينا" والجميع سعداء بقدومى واصبحت علا أكثر تركيزاً معى وتطلب من أمها ان يقلنا السائق الى وسط البلد لمشاهدة المحلات والتنزه. كانت الام سعيدة بكل ما افعله بإدخال البهجة عليهم بضحكاتى بعكس مدحت الذى كان هادئا ومتزنا وقد يكون سبب ذلك انه اكبر منى عمراً كما انه كبير أشقائه ولهذا كان يجدنى انا ودينا عيال نلهو ونلعب حولهم. اما دينا فقد كانت تشكل اكبر مشكلة امامى وكنت أدعو الله ان أجدها مشغولة بامتحاناتها او اى شيء آخر يبعدها عنى نظراً لكثرة مشاغباتها وقد شكرتنى علا حيث اخبرتنى بان حضورى يمنع مشاغبات دينا عنها حيث تتحول الى.

علمت ان مدحت يعتزم خطبة ابنة خالته "سعاد" وهى مهندسه حديثة التخرج وكانت شابة لطيفة على مستوى عال من الجمال والهدوء ولهذا شعرت ماما وداد بان منزلها غمره الفرح والسرور داعية الله بان يكملها بخطبة علا وهي تنظر إلي

ثم قالت وعقبالك أنت كمان لما تلاقى بنت الحلال الى تسعدك. اندفعت دينا لتخبر الجميع. طيب يا ماما ماهو أسامه وعلا بيحبوا بعض. شعرت ان دمائى الحارة تغلي بجسدى وغطت كل شيء كما ان علا هى الأخرى أسرعت الى الطابق الثانى. نظر الى مدحت نظرة لم أعهدها منه من قبل. بينما عادت الام بظهرها على كرسيها قائلة: كلنا بنحب أسامه مش علا بس. نزل عليّ هذا القول بالسكينة وراحة البال على جسدى ولكننى مازلت غاضبا مما قيل بتلك الطريقة.

شعرت بأنه من الواجب على أن أحدث كلّ من ماما وداد ومدحت بما قالته دينا وقد أخبرت علا بأنني سوف اطلب يدها من مدحت. نظرت الى ساهمة ثم أعقبتها بابتسامة رقيقة ولكن السعادة لم تكن بادية عليها.

فى المساء أخبرتهم بان ما قالته دينا حقيقي وانا اشعر بميل عاطفى جهة علا وارغب فى التقدم لها ولو قرآة فاتحة. سكنت الام قليلا ونظرت الى ابنها ولكن مدحت نطق بما كانت تشعر به علا .. قائلاً: انا مش موافق .. ساد صمت مطبق علينا نحن الخمسة ثم أعقبها ليس لأنك اقل منها ولكنك الآن فى ظروف حرب ولا نعلم ما تخبئه الأيام القادمة ولا ارضى لشقيقتى ان تصبح أرملة.

لحظتها أسرعت علا تغادر المكان ترافقها شقيقتها وقد وصل إلينا صوت بكائها اما الام فقد أغضبها هذا القول قائلة له "بشر ولا تنفر" لماذا تلك النظرة المتشائمة للمستقبل .. أجابها بهدوء المعهود .. ماما بنتك عندك والرأي الاول والأخير لكِ ، نهض تاركا المكان الذى تحول مابين ليلة وضحاها الى محزنة حاولت معها الام ان تهدىء من توترى وتخبرنى بأن مدحت مازال يعانى من آلام إصابته نفسيا ولكن أوعدك بان علا لك ، نهضت مستأذنا للنوم مبكراً حيث ان اجازتى ستنتهى ظهر الغد ولابد لى من القيام مبكرا للسفر. ودعتها .. ودعت الام الطيبة والتى وقفت هامدة لا تستطيع ان تتصرف بعد ان كبرت وكبر ابنائها

وأصبح لكل شخصيته ورأيه اما هى فقد أصبحت ضيف الشرف بدون بطولة ولو ثانوية.

"جفانى النوم يامسهرنى" على رأى الست ام كلثوم. لم اعرف للنوم طريقا بعد ان كنت أعيش واحيا في سعادة لا توصف بان لى قصة حب هنا.

استيقظت فى الصباح الباكر اى قبل موعدى المعتاد بساعتين وبهدوء تسللت خارجا من الفيلا حتى البواب لم يلاحظ مغادرتى حيث كان يغط فى نومه العميق ويمصص أطراف شواربه الطويلة وها انا الآن فى ميدان رمسيس وتوجهت لمحل لتناول طعام الإفطار وأغنية يا صباح الخير ياللى معنا لام كلثوم تنساب من الإذاعة مبشرة بيوم جديد قد يكون سعيداً او رديئا على بعض الناس وكنت انا من النوع الأخير والذى بدأت أيام حزينة بائسة فى حياتى الخاصة والتى كانت مثل الفيلم الخام ولكن أول صورة خرجت منه باهتة.

مضى شهران على آخر لقاء بينى وبينهم وكنا نحصل على أجازتنا الميدانية كل (٢٦ يوما) فنحصل على أربعة أيام وبالتالي يكتمل الشهر. بعد قضاء عدة ساعات مع القائد فى عملية استطلاع وتوجيهات لضباط الكتيبةُ عدت مرهقا وسائرا عدة كيلومترات الى موقعى راغباً فى الحصول على قسط من الراحة فاتجهت إلى مكان استراحتي حتى أعيد الهدوء النفسى والبدني إلى جسدي المنهك ولكننى شاهدت أحدا بالداخل واخبرنى الجندى المراسلة قائلاً:

جريب حضرتك جوه مستنيك من ساعة. دخلت الى استراحتي لأشاهد مدحت جالسا فوق سريرى ومجرد ان شاهدني وقف مرحبا لإستقبالى قائلاً: كنت فين؟ انا من ساعه هنا. تبادلنا الأحضان واخبرني انه تناول غذائى حيث كان جوعانا فشعرت باننى الذى تغديت بدلا منه وأرسلت الجندى لإحضار طعاما آخر وبعدها تناولنا مشروب الشاى سألنى: لماذا لم اعد اذهب لزيارتهم؟ هل هى مشاغل فى العمل او غضب منا؟ أجبته لا هذا ولا ذاك كل ما فى الأمر اننى كنت ارغب فى

مصاهرتكم ولكنك رفضت هذا وليس من الحكمة ان أتواجد فى منزل راغبا فى الاقتران بفتاة تعيش به وقد تم رفضي فى نفس الوقت فوجدت ان الابتعاد أفضل الى من الاقتراب ، ضمنى الى صدره قائلاً هذا رأى من عدة آراء ولكن الحقيقة ان ماما تعبانه كتير كمان علا ودينا. إحنا كلنا عايزينك. ارجع تانى وحتلاقى ان رأيى قد تغير عن السابق. أمضينا ليلتنا وغادرنى فى الصباح الى القاهرة.

حصلت على أجازتي وقضيت منها يومان مع أسرتي بالزقازيق وفى اليوم التالي توجهت الى فيلا "دينا" واستقبلنى الجميع بالترحاب والحفاوة وخاصة ماما وداد التى دمعت عيونها فرحا وسعادة بعودتى قائلة: عاد إبنى ثانية الى منزله ليعيش بين أهله. اما دينا فقد حضرت وبعدها بقليل حضرت علا من عملها والتى شعرت خلال بُعدى عنها بمدى ما أكنه لها من حب.

معارك مع العـدو

نهاية عام ١٩٦٨ تحركت الوحدة إلي منطقة أبو سلطان سيئة المناخ ذات العواصف الرملية المستمرة . كنت قد توليت قيادة سرية الهاون منذ عدة أشهر بعد حصولي علي فرقة دراسية بالقاهرة لهذا النوع من الأسلحة والتي إستمرت شهرين ، قررت ماما وداد أن اقيم معهم طوال فترة الدراسة ، كنت أشعر بحرج بالغ من هذا الوضع ، نحن أبناء الطبقة الوسطي من الموظفين نتحرج من مثل ذاك الكرم حتي لا نشعر بأننا أقل منهم مكانة أو قيمة مادية ولهذا كنت أحاول سداد هذا الدين ببعض الهدايا لكل من ماما وداد وعلا بل والصغيرة دينا وكانت تلك الهدايا مثار مزاح ونقاش.

إنتهت الفرقة وكدت أن أرسب بها وهذا معناه في الحياة العسكرية عقوبة وجزاء مع خصم تكلفة الدراسة من راتبي ، الحمد لله نجحت بالكاد وعدت لوحدتي وأنا أشعر باني خالي الوفاض من المعلومات حيث كنت مهملا الواجبات وأقضي أوقات المذاكرة في الخروج والتنزه برفقة علا.

في منطقة أبو سلطان وفي أحد الأيامُ دعيت مع قادة السرايا لمؤتمر مع قائد الكتيبة وعدت ليلا والظلام حالك مستخدما سلك االتليفون الواصل بين سريتي وقيادة الكتيبة خوفا من أن أفقد طريقي كما كان يحدث لكثير من الجنود ، كانت سيارة التعيين "الطعام" بالسرية توزع طعام العشاء علي الجنود والبرد قارص ولم أحادث أحداً ، دخلت إلي اللوري الذي أعد ليكون مقرا لي لعدم وجود تجهيزات هندسية للإقامة.

كان جميع الجنود مشغولين بالحصول علي وجبة العشاء بما فيهم الخدمات ولهذا لم يلاحظني أحد ، جلست بداخل اللوري أعيد ذكري آخر لقاء مع علا والابتسامة تعلو شفتي لهذا الحب السامي بيننا.

سمعت حوارا بين الجنديين الذين يتوليان الحراسة قريبا مني ، أحد الجنود يخبر زميلة بأن الملازم أول أسامة ضابط أبن حلال وطيب بينما الآخر يعارضه بأنه ضابط مش بيعرف حاجه في خصائص سرية الهاون ومعلوماته ضعيفة!!

لقد فوجعت مما سمعت ، لقد شعر جنودي بأنني عاري المعلومات وأين أنا بالمقارنة بقائد السرية السابق النقيب/عدلي حسان المتمكن من معلوماته وخبير بالسلاح ، لقد فقدت أهم نقطة في عنصر القيادة وهي ضعف المعلومات ومعرفة خصائص السلاح ، أنها لكارثة ، شعرت بفورة داخل جسدي وقررت أن أجابه الجنديان وأوقع عليهما أقصي سلطة جزاءات بيدي.

جلست قليلا أراجع نفسي ، وجدت أن حديث الجنديين صحيح وأنا أشعر بأنني جاهل بالمعلومات والخواص التي تخص وحدتي ، أصابني الرعب من هذا النقص الرهيب في شخصي ، مازلت أتساءل: كيف أقود الجنود وكيف أقوم علي تدريبهم وكيف يطيعون أوامري وهم يعلمون بأن معلوماتهم أفضل وأغزر مني ، لقد أصبحت أضحوكة بين جنودي ، شعرت بأنني خائن للوطن متسائلا ألا يكفي هذا البلد ما حدث منتصف العام الماضي من هزيمة منكرة لهذا الجيش الذي يعمل به المهملين من أمثالي ، يجب علي أن أتوجه للقائد وأخبره بأنني ضابط فاشل ، ماذا يفعل الشعب المصري أكثر مما فعل ، لقد أمنني علي تراب هذا البلد ومنحني خمسة وأربعين شابا من أفضل الشباب علما وصحة وإشتري لي السلاح من الخارج ومنحني العلم لفترة شهرين وأحصل علي مرتبي بداية كل شهر وأتناول طعاما وأحصل علي ملابس وأدوات من الجيش ، إيه ناقص الشعب مش أعطاه لي ، بئس ما فعلت يا أسامة.

غمرني حزن وأسي شديد وتوقف تفكيري لفترة ، نهضت مقررا أن أصلح ما كسر مسترشدا بما قمت به مع جنودي الأبطال العام الماضي بسيناء ويجب عليّ أن أكون أو لا أكون.

نهضت وأحضرت كتاب مدفع الهاون المترجم عن اللغة الروسية وتصفحت الفهرس وتذكرت المُعلم في معهد المشاة وهو يعيد ويزيد في أهم درس والخاص بمعايرة المدفع أي ضبط الخط الفسفوري علي ماسورة المدفع مع جهاز التصويب ويجب تلاقي الإثنان عند علامة الصفر علي جهاز التصويب حتي يصبح الرمي دقيقا ومؤثرا علي العدو ، نبهنا المعلم بأن الكثير من الضباط يهملون هذا الدرس.

قرأت الدرس بهدوء وروية وتفهمته وقررت أن صباح الغد سوف تكون أول مواجهة لي مع جنودي وسوف أثبت لهم بالدليل القاطع من هو قائدهم والتي بدأت الألسنة تلوك سيرته وجهله بالسلاح.

صباح اليوم التالي تجمعت السرية مثل كل يوم وتحدثت مع جنودي حديث طيب بعيد عن التشنج ثم أخبرتهم بأنني متفرغ لهم هذا اليوم وأطلب من كل طاقم أن يقوم علي عيار مدفعه أمامي ، نظر الشباب لبعضهم البعض وعلي أفواه البعض منهم بسمة خبيثة بأن ضابطنا وقع في الفخ ، تحدث أحدهم بأن هذا من شأن الضباط وأجبته بأن كل شيء في المدفع من شأن الحكمدار والجنود أما الضباط فعليهم إدارة النيران ، أعتذر الجميع بأنهم لا يعرفون هذا الموضوع.

طلبت أدوات المعايرة من المدفع وجهاز التصويب وجهاز الدايركتور وقمت أمامهم بكل خطوات الكتاب حتي إنتهيت من معايرة المدفع والذي تبين لهم بأن به خطأ ٢٥ DC يمين ، قمت بإصلاح الخطأ في جهاز التصويب مستخدما المفك المخصص لهذا.

توالي تدريب الجنود وكل يوم درس جديد وكل يوم ثقة بالنفس وإحترام من الآخرين حتي تأكد لهم بأن قائدهم خبير في هذا السلاح بل في المسابقات التي كانت تتم بين الوحدات كان ترتيبنا الأول علي باقي الوحدات مما دفعنا إلي الثقة بالنفس ولم يكن ينقصنا شيء سوي الاشتباك مع العدو ، تذكرت الآية القرآنية " إن الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم" صدق الله العظيم.

ليسمح لي القاريء بأن أضيف فقرة بتلك الطبعة ولم تضاف في الطبعتين الأولي والثانية لرفض المراجع أن نعرضها علي القاري خشية المزايدة بأننا نتكمل عن أشياء من قبيل الخرافات والغيبيات ، الحقيقة ما أتحدث عنه هو من صميم الحياة لأنه من خلق الله وهذا هو السبب في أنني أوضحت في بداية الكتاب أن بعض الأشياء تحدث وهي قدرة من عند الله ، لن أطيل ولأدخل في الإضافة التي أرغب بأن يقرأ عنها الجميع ومن يصدق فهو يؤمن بأن الله هو القادر وفعل هذا ومن لم يصدق ويعتبرها جنوحا وشططا فسوف نحترم رأيه.

***

بداية عام ١٩٦٩ إنتقلت الكتيبة إلي منطقة الفردان ، المنطقة عبارة عن أرض صحراوية قريبة من قناة السويس وتقع شمال كوبري الفردان ، علي شاطيء القناة مباشرة ، يوجد مبني لإرشاد السفن ومازال العمال والموظفين متواجدين فيه ، غرب هذا المبني يوجد طريق القناه المرصوف الواصل ما بين السويس جنوبا حتي بورسعيد شمالا ، غرب هذا الطريق توجد خطوط سكة حديد للخط الواصل ما بين الإسماعيلية وبورسعيد والذي نقلني عام ١٩٦٧ من بورسعيد إلي القاهرة بعد العودة من سيناء.

محطة سكة حديد الفردان .. يوجد رصيفين للمحطة .. الرصيف الشرقي به أماكن الموظفين وشباك التذاكر وأسفل هذا الرصيف توجد أماكن إيواء عمال الدريسة وهم العمال المسئولين عن إصلاح خط السكك الحديدية والفنكات المتآكلة ، عبارة عن سبع حجرات من الطوب الأحمر ، علي الجانب الآخر أي الرصيف الغربي يوجد سكن ناظر المحطة بعائلته ، منزل كبير مكون من حجرات ثلاث ومنافع المنزل ، المحطة ليس بها موظف واحد وموقع سرية الهاون يقع بصحن المحطة ، الليلة الأولي لي توجهت لمنزل ناظر المحطة والمغطي بنباتات كثيفة وخلفه مساحة واسعة من الملاحات والمكان يخيف نهارا فما بال المرء ليلا.

أنام علي باب خشبي رفع من علي الأرض علي حمالتين حديد من الذي يستخدمهم النجارين لقطع الأخشاب ، كنت في حالة سيئة من الإرهاق والتعب فدائما ما يكون يوم غيار القوات متعبا مرهقاً ، نمت بالأفرول وخفضت ضوء المبة الجاز نمرة خمسة ورحت في نوم عميق.

لا أعلم الوقت الذي مضي علي نومي ولكني فزعت من نومي وشعرت بأن شيئا غريبا في المكان ، رفعت جسدي أنظر في الغرفة وقد تسلل الخوف تدريجيا إلي نفسي ، سميت الله وأنا مازالت أنظر بالغرفة الفارغة ذات الأرضية الخشب والسقف أيضا بالخشب ، المبني قديم وذا حوائط عريضة وبالتالي الشباك بالغرفة به مساحة مثل الرف الخشبي ، شاهدت بجلستي تلك حيوان أقرب الشبه إلي القط ولكنه أكبر حجما وشكله جميل وغير مخيف ، الحيوان خليط اللون ما بين الأبيض والمشمشي ، لكن ما أثار فضولي ودهشتي أن الحيوان محصور ما بين الشيش وزجاج الشباك وتلك المساحة لا تسمح لعصفورة بالبقاء بل أن الحيوان يقوم باللف والدوران في المساحة بين الشيش والزجاج.

دهشت لهذا وإعتقدت بأن أحد من جنودي فتح الشباك ودخل هذا الحيوان وأغلقه عليه دون أن ينتبه ولكن الأهم هو كيف يتحرك بداخل الشباك ، قررت أن أنهض لأقوم بفتح الشباك وفك أسر الحيوان لكن المدهش أن رياح أقبلت بشدة وشعرت بأنها تطوف من حولي وشاهدت إضاءة اللمبة تتراقص بشدة وشعرت بأن شعر رأسي وقف وسمعت طقطقة به وهالني الأمر ، ظلت تلك الرياح تدور حولي كأنها سحابة بيضاء ثم توقفت وبعد قليل بدأت ثانية بسرعة غريبة وأطفأت إضاءة اللمبة وأصبحت في ظلام دامس مما سبب لي الخوف أكثر فطلبت جندي المراسلة دون جدوي.

شعرت بأن قلبي سيتوقف من الخوف نهضت مسرعا وحملت حذائي وشرابي والبالطو الصوف مغادرا الحجرة وكل خطوة أصطدم بالحائط وهكذا حتي غادرت

المنزل والعرق الغزير يغلفني والرعب كاد أن يقضي علي آخر نفس بحياتي ، شاهدت جنود الحراسة قريبا مني فتماسكت بصعوبة وإرتديت الشراب والحذاء وذهبت إليهم أحادثهم لأخرج من هذا الذي حدث وفي نفس الوقت أخفي مشاعري وتوتري ، الجنديان في حالة من الخوف والإرتباك وحادثني أحدهم: " أفندم الحتة دية مسكونه وفيها عفاريت" نزل علي هذا التعبير قاسيا أي أن ما حدث لي بالداخل هو عفاريت والجندي يؤيد هذا ، تبادل الجنديان توضيح حديثهما وأنهما منذ ساعة أو أكثر يشاهدان دوامة هوائية تدور حولهما بل زاد الأمر بأنهما قذفا ببعض حصوات من حصي البازلت الموجود حول القضبان ، أثناء حديثهما أقبل جندي مضطربا ولم يتوقع وجودي حيث أننا جميعا نرتدي البلاطي الصفراء ، إندفع يحدثهم ويسب الموقع وأنه أثناء وقوفه خدمة وملتصق بالحائط شعر بأن شخصا ضربه بالشلوت.

حدث إضطراب وأقبل الجنود بالتوالي وكل واحد يقص حكايه مشابه أو مخالفه لما سمعته وما العمل ، أنظر إليهم فهم جنودي أبناء الإسكندرية وبورسعيد والقاهرة ونصفهم تخرج من الجامعة والنصف الآخر حصل علي الدبلوم أي أنهم شباب ناضج وبعيدا عن قصص الوهم ، الجميع يطلب مني الحل وأنا ليس لدي حل ولم أتحدث وأخبرهم بما حدث لي حتي يقصوا ما أرعب قائدهم ويتركوا ما أخافهم.

حوالي العاشرة صباحا وأثناء تواجدنا بالموقع نرتب أعمال المدافع ونراجع الذخيرة وترتيبها وقد إنتهي جنديان من حمل أغراضي من المنزل المخيف مقررا عمل حفرة أسفل رصيف المحطة لأنام به حتي أكون قريبا من جنودي لمشاهدة العفريت الذي يتحدثون عنه.

قارب الجنديان من الإنتهاء من إعداد الملجيء الذي سوف أقيم به وإذ نسمع ونشاهد إنفجارا ضخما بالمنزل الذي تركه الجنود منذ ساعة بعد أن حملوا أغراضي منه ، قذيفة دبابة إسرائيلية أطاحت بالمنزل وإشتعلت النيران به نظرا لأنه

مقام من الأخشاب ، تبادلت وجنودي النظرات ، نهاية ذاك اليوم أقبل أحد العاملين بالهيئة يشاهد المنزل وهو في دهشة بأنه منذ نهاية الحرب وحتي الآن لم يحدث قصف لتلك المنطقة.

منتصف الليل وبعد الأحداث التي حدثت من تدمير منزل ناظر المحطة والذي نجوت منه كنت نائما أسفل الرصيف وقد وضع الجنود ستارة من مشمع الفرش علي الحفرة إتقاء البرد ، نهضت ليلا لشعوري بتعب وبأن شيئا ثقيلا جسم علي صدري ، رفعت إضاءة الفانوس الهوركين وكانت الصدمة الشديدة ، لقد شاهدت حيوان الأمس نائما علي صدري وعينه بعيني ولكن بلون مخالف أبيض علي أسمر ، حاولت النجدة فحبس صوتي حاولت أحرك يدي دون جدوي ومازال ناظرا في وجهي العين بالعين وهو نائم بوضع ابي الهول.

أخيرا تشجعت وضربته بظهر يدي صارخا فيه وهرولت من حفرتي لمتابعته ولكنني لم أعثر علي شيء وتسائل جنود الحراسة عما ضايقني فشرحت لهم فأخبرني أحدهم بأنه شاهد بعد صراخي شيء أسمر اللون قفز أمامهم وإرتفع طولا وعرضا ولف حول نفسه عدة لفات وإختفي ، عدت لمكاني متخوفا ومتسائلا ماذا أفعل وجائني إعتقاد بأنني سوف أموت دون حرب مما أشاهده.

نهارا أثناء تواجدي مع الجنود سمعنا صوت إرتطام وبعض الغبار ، أسرعنا جة الصوت لقد سقطت الألواح الأسمنية التي كانت تغطي الملجأ الذي كنت أنام بداخله ، نظر إلي الجنود البعض في دهشة والبعض أقبل مهنئا فهذا ثاني حادث وينقذني الله من الموت.

نتبادل الأحاديث ونشاهد ذاك الحيوان نهارا جهارا علي تلة مرتفعة بالموقع أسرع الجنود بالعصي والكواريك لقتله ولكنه لف حول نفسه لفة سريعة وإختفي ، قال أحد الجنود أن هذا الحيوان كان يحفر بمخالبه في هذا المكان ، طلبت من الجنود الحفر في المكان الذي كان الحيوان يحاول الحفر فيه ، صعد كل من الجنديان

المنوفي وعيد إلي التل وقاما بالحفر ، توقفا وقال أحدهم الكوريك بيصد يا فندم وهذا معناه وجود جسم صلب أسفل الرمال ، هبطا ونهض آخر محاولا الحفر مستخدما يداه ، بعد قليل شاهدت ومعي جنودي ذراعا بشرية تظهر من أسفل الرمال سرعان ما إنفرد الذراع إلي الخارج ، أصابنا الهلع والخوف وترك الجندي الذي كان يحفر المكان متخوفاً ، تراجعنا إلي الخلف بضع خطوات ، تقدم العريف عبدالمنعم "مهندس زراعي بالحياة المدنية" تقدم وملس علي الذراع بهدوء فتبعناه وتشجع الجنود وأزالوا الرمال من علي الجثمان الذي ظهر واضحا كاملا يرتدي أفرول ولا ينتقص منه شيء سوي بعض الرمال التي غبرت الملابس ووجهه ، الجسد كامل لإنسان كأنه توفي منذ ساعات قليلة الجثة مرنة لا توجد رائحة كريهة أوصاف الجندي واضحة كأننا نعرفه لا شيء يخالف أي جندي كان يعمل ويحفر وأصابته عفرة العمل ، سجي أمامنا وأنا أنظر إليه ، شاهدت تجمع دموي من بين طيات ملابسه وليست متجلطة او متماسكة بل تشبه في تماسكها المربي أو الصلصة وتبين أن سبب ظهورها هو إصابة من كوريك الحفر الذي حاول الجندي الحفر به ، صاح الحد الجنود ليخبرنا بأن هناك جثة أخري ، توالت لتصبح ثلاث جثث كاملة مرنة وينثني الجسد والرائحة لا أجامل بأنها جميلة وتشبه رائحة زهور الموالح.

توقفت لبعض الوقت افكر ماذا عليّ ان أفعل واتصرف؟ هل أبلغ القيادة وندخل في أسئلة وس و ج ولماذا تم هذا وأسئلة عديدة ، كان القرار السريع والحاسم بناء مقبرة لهؤلاء الشهداء تليق بهم ولهذا أسرع الرجال بنزع بعض ألواح رصيف المحطة الأسمنية وقاموا بعمل حفرة كبيرة بأبعاد ٢متر عرض و٢متر طول وعمق أكثر من نصف متر ، كنت أقف والجنود يعملون وأتطلع بعمق لهؤلاء الشهداء وأنا غير مصدق ما أشاهده ، لقد كانت لحظة فارقة بين حياة البشر وحياة البرزخ التي يحيا بها هؤلاء ، بعد مضي ثلاث ساعات من العمل المتواصل

إنتهي الجنود من إعداد المقبرة التي تليق بهم ، بدأ في رفع جثامين الشهداء وكان منظرا فريدا وكل إثنان من الجنود يحملون شهيدا من قدميه وذراعيه وأشاهد كيف أن الجسد مرن وساقط لأسفل كما نشاهد إنسان يحمل وينقل من مكان لآخر وهو في حالة من النوم أو الإغماء ، وضعت الجثث متجاورة وغطيت الحفرة بثلاث ألواح من الأسمنت ، وقمنا بالصلاة علي أرواحهم الطائرة وكان إمامنا المهندس عبدالمنعم ، أحطنا المكان ببعض الأسلاك الشائكة لمنع السير فوق المقبرة الطاهرة ، أخبرني عبد المنعم أنهم في راحة الآن وإذا كانت المقبرة لا تليق بهم فسوف يأتيك أحدهم بالمنام ليخبرك بهذا ، توترت وخشيت هذا.

توجهت لحجرتي البديلة لأنام بها وأنا أخشي مشاهدة أحدهم أثناء نومي ، رحت في سبات ولكني فزعت بعد قليل علي صوت يهف علي وجهي ، نهضت من نومي وأضأت الغرفة أتوجس خيفة ، متسائلا ما هذا يا ربي؟

جلست بعض الوقت أتلفت حولي وأنا في حالة من الإضطراب ، أحادث الشهداء: فيه إيه تاني؟ أنتم مش مستريحين وأنا عملت كل إللي أقدر عليه ، والنبي بلاش تتعبوني وخليكم نايمين في راحة ، بعد قليل شاهدت شيئا يطير في الحجرة ويقترب مني بسرعة ويعدو ثم يأتي وأنا في حالة من الخوف ، طلبت جندي الحراسة وأخبرته بمخاوفي وقد طلب العون من زملاءه الجنود فأقبل بعضهم يشاهدون ما أشاهد ، بعد قليل شاهدوا الطائر وهنا ضحك بعضهم ليخبرني بأن ما خشيته لم يكن سوي "خفاش" كان بالحجرة ، هدأت نفسي وعدت لنوم مستريح ولم يحدث شيء غير طبيعي بعد هذا.

اليوم التالي توجه بعض الجنود لمبني الإرشاد لهيئة القناة وأفضوا بما حدث لبعض العاملين والذين أفادوا بأن جثث الشهداء الثلاث تخص طاقم مدفع مضاد للطائرات وفي خلال اليوم الأول لحرب ٦٧ أغارت بعض الطائرات المعادية علي المنطقة فتصدوا لهم وإستطاعوا إسقاط طائرة إنفجرت بمن فيها فأقبلت طائرة أخري

وقصفت طاقم المدفع مما أدي إلي دفنهم أسفل الرمال وقد قمنا بدفنهم في هذا المكان ، دهشت لهذا فهذا يعني بأن تلك الجثث مضي علي دفنها عشرين شهرا أو يزيد.

كنت دائما ما أتذكر هذا الحادث وأقارنهم بشهداء سيناء والذي شاهدت تحلل أجسادهم ورائحتهم النفاذة وسؤال واحد يطن بأذني: ما الفارق بين الإثنين؟ لكن أحد رجال الدين أخبرني بأن الشهادة لها درجات وأعظمها درجة من يقابل العدو مقبلا أي بالوجه مقاتلا وأقلها من يقابل العدو مدبرا أي يهرب أمامه ، الآن علمت ووعيت هذا الحدث اللإهي الذي شاهدته وعاصرته ، سارت حياتنا طبيعية ولم تحدث أي مضايقات بعد هذا لجنودي أو لشخصي.

***

بداية شهر مارس من عام ١٩٦٩ وما زلنا بموقعنا فى الفردان وفى اليوم السابع اخبرني النقيب فاروق متولى قائد السرية بان أتحرك بجنودى ومدافعى الى تبة الفردان فى آخر ضوء للموقع التبادلى لاحتمال الاشتباك مع العدو وقد زودته مدفعية اللواء بأهداف مطلوب منا قصفها بالذخيرة الحية من نوع شديد الانفجار. التبة فى مواجهة كوبرى الفردان مباشرة وهذا المكان هو الحد الأيمن لكتيبتنا وكان على الجانب الأيمن لنا الكتيبة رقم ٥٣٧ من نفس اللواء وتحتل الموقع رقم "٦" أو نمرة ستة وهى منطقة معروفة بالإسماعيلية وبها مستشفى معروف للان بهذا الاسم.

المسافة ثلاثة كيلومترات سنقطعها الى هذا الموقع سيراً على الأقدام حاملين مدافعنا اما الذخيرة فهى مخزنة بالموقع منذ تسلمناه من الوحدة السابقة وكل فترة أرسل بجنديين لمتابعتها والتأكد من سلامتها. المكان مكون من الكثبان الرملية الدقيقة التى تشبه الغبار فاقل رياح تثيرها. تحركنا الى تلك التبة واعددنا كل شىء لزوم هذا الاشتباك الفعلى مع العدو للمرة الأولى لوحدتنا.

الطقس شديد البرودة وخاصة بالليل فلا زلنا فى الشتاء رغم ان مارس يعتبره البعض بداية فصل الربيع ولكن فى أجواء الصحراء له إحساس آخر ولسعة برد تجمد الأطراف وقد تزودنا جميعا بملابسنا الثقيلة حتى نتقى البرودة ليلا وصدر الأمر الى بواسطة التليفون الميدانى بالاستعداد لقصف الأهداف "أرقام.....،

بمجرد ان وصل الأمر إلينا بالقصف عزفت مدافعنا لحن نحن المصريين مستعدين ونقوم بدك مواقع وأسلحة العدو. استمرت وحدات المدفعية الثقيلة والمتوسطة المدى فى قصفها وكان سلاحنا بالسرية هو اقل عيار فى أسلحة المدفعية وأقصى مدى له ثلاثة كيلومترات ولكنه فعال إذا أحكمت إدارة النيران. قائد السرية النقيب فاروق متولى الذى يدير النيران هذا الرجل البارع الشجاع الذى لم يكن يهاب الإصابة يقف فى مركز ملاحظته شديد البأس ليصحح باجهزته ومعاونيه من جماعة إدارة النيران ومعه الجندى مؤهلات حسين سامى السيد الحاد البصر والدقيق فى تقدير المسافة ويرافقه العريف مؤهلات سعد معروف على أجهزة الإبصار ليحدد موقع تساقط قنابلنا ليقوم قائد السرية بتصحيحها. استمرت المعركة بالنسبة لنا ساعتين وكل أهدافنا دمرت عن آخرها ولكن المدفعية الثقيلة مازالت تقوم بعملها الى وقت متأخر من الليل.

أتصل بي قائد السرية من مركز الملاحظة علي شاطيء القناة يخبرني بأن فلول العدو هربت من القصف ولجأت إلي شاطيء القناة تحتمي من قصف المدفعية الثقيلة ولهذا فقد صدرت له الأوامر بقصف تلك الفلول بعد ساعة من الآن ، طلب مني الاستعداد لهذا القصف ، أخبرته بأن الذخيرة المعدة للقصف انتهت ولابد من تجهيز ذخيرة أخري فأجاب أمامنا ساعة من الآن وعليك تجهيز الذخيرة.

كنت في وضع سيء ، فالذخائر تحتاج لوقت كي نزيل الشحم المغلفة به وتلك الذخائر صناعة روسية ومعروف شدة تماسك الشحم الروسي ونحن نبعد عن

موقعنا الرئيسي بأكثر من ثلاثة كيلومترات ولا توجد لدينا "كهن القماش" التي سنجفف بها الذخيرة بعد غمسها في السولار لإزالة الشحم ولا أستطيع أن ندفع بالجنود بنزع ملابس الميدان "الأفرول" لهذا العمل للصعوبة التامة حيث درجة البرودة بالإضافة إلي مخاطر القذف المضاد الذي قد يطال الموقع فيحترق الجنود بسهولة.

خلف الموقع قطعة أرض صغيرة حوالي فدان يقوم علي زراعتها صاحبها فلاح من تلك المنطقة ولزم أرضه ولم يهاجر وكان يعيش مع زوجته وأبنته الوحيدة ذات الأربعة عشر ربيعا ، توجه أحد الجنود إليهم وكنا علي علاقة طيبة بهم منذ شهرين حين تسلمنا الموقع للسؤال عن توفر قماش بالي نقوم به علي تجفيف الذخيرة.

جاءني الجندي باش الوجه بأن عم متولي سوف يقوم مع عائلته بمهمة تجفيف الذخيرة من آثار السولار حتي يساعدنا ويقوم علي معاونتنا حتي نلحق بموعد القصف ، من الناحية الفنية لا يمكن أن نستخدم الذخيرة المبللة بالسولار لاشتعال السولار بداخل مواسير المدافع مما يؤدي إلي آثار سلبية علي الماسورة كما سينتج لهب قوي يظهر موقعنا ويعلم العدو ويحدد الموقع ويقوم بقصف مضاد تساعد علي زيادة الخسائر بين الجنود.

بهمة الرجال قام جنودي بكل عزيمة وجهد خارق رغم المجهود المضني من الاشتباك وعدم التماس الراحة والنوم بإزالة الشحوم عن دانات المدفع وكانت كمية الذخيرة المطلوب إعدادها كبيرة ، البعض يحمل صناديق الذخيرة للخلف مأتي متر لمنزل عم متولي الذي باشر مهمته بنجاح بمساعدة زوجته وأبنته ، انتهينا من إعداد الذخيرة ونحن مستعدون لتنفيذ أوامر الاشتباك مع العدو.

أسر رقيب السرية في أذني بأن عم متولي وزوجته وابنته جففوا السولار العالق بالدانات بملابسهم التي يرتدونها ، تألمت وتخوفت فهذا خطر عليهم ، قلل

الرقيب من ضيقي بأنهم الآن قد أبدلوا تلك الملابس بآخري ، تمنيت هذا ودارت الاشتباكات مع العدو وكانت ناجحة حيث قصفنا فلول القوات الهاربة والتي حدثت بينهم خسائر مما أضطر الكثير إلي الهرب شرقا فتسلمتهم المدفعية ذات العيار الأكبر.

أشرق الصباح ونحن لا نستطيع التحرك من السهر والمجهود المتواصل لأكثر من أربعة عشر ساعة ، أرسلت بأحد الجنود للاطمئنان علي عم متولي وأسرته ، بعد قليل شاهدنا الجندي مقبلا مسرعا والاضطراب يغلفه وصاح قائلا: العيلة باين عليهم ماتوا ، مش بيتحركوا فضلت أكلمهم ولا واحد رد عليّ.

أسرعنا إلي دار عم متولي وكان باديا علي الأسرة حالة الموت التي تحدث عنها الجندي فلا حركة ولا إستجابه ، حركت عم متولي فشاهدته يفتح عيناه ثم عاد إلي نومه ، كانت يداه باردتان مثل قطعة الحديد ، طلبت من الجنود إعداد الشاي لهم علي وجه السرعة وأرسلت ببعض الجنود لموقع السرية الرئيسي لإحضار ملابس تقيهم البرد بديلا عن الملابس التي لم يستبدلوها بآخري فما زالت ملابسهم المغطاة بالسولار علي أجسادهم النحيلة ، نزع بعض الجنود البلاطي ووضوعها علي أجسادهم ، بعد أن تناولت الأسرة الشاي دبت فيهم العافية من جديد وبسؤال عم متولي لماذا لم تبدلوا ملابسكم بآخري إبتسم ساخرا ونظر إلي الأرض ولم يفصح وأنا لم أكرر السؤال لقد كانت الأسرة فقيرة لدرجة أنهم لا يمتلكون ملابس أخري وظلوا طوال الليل شديد البرودة وأجسادهم مبللة بالسولار.

أقبل الجنود والذين أرسلتهم فأحضروا ملابس "أفرولات" وبعض الملابس الداخلية وصابون وفوط وعدد من البطاطين حتي تشمل الأسرة بالنظافة والدفء ، قدموا شكرهم وثنائهم علي ما قمنا به ، تعجبت لهذا فنحن المدينون لهم وليس هم ، كانت حالة إنسانية رائعة من المصريين الذين يدافعون عن وطنهم بكل شيء غال إذا كانوا يملكون هذا الشيء ولكنهم فقراء ويعلمون أن حياتهم رخيصة ولا

مة لها ، لقد كان درسا عظيما لنا مما دفع ببعض الجنود إلي ذرف الدموع تطوع أحدهم بجمع مبالغ نقدية من الجميع لمساندة تلك الأسرة ورغم هذا رافض رجل وكان في أشد الحاجه لأي مليم يعينه ويعين أسرته.

مازلنا فى موقعنا يغالبنا الإرهاق والنعاس رغم إننا بالنهار وفجأة حوالي تاسعة صباحا أشاهد صواريخهم الموجهة تضرب بكل قوة موقع اليمين نمرة ستة لانفجارات تتوالى قريبة منا واستمر تبادل القصف معهم بالأسلحة الثقيلة.

فى الظهيرة أمرنا بان نعود الى موقعنا الرئيسي فعدنا مرهقين مما ألم بنا من جهود ولم يبادلنا العدو القصف ولكن علمنا بان الفريق عبد المنعم رياض رئيس يئة أركان حرب القوات المسلحة نال الشهادة فى موقع نمرة ستة وكان أثنائها فقد قواتنا على الجبهة وأصيب معه كلا من قائد الجيش الثانى اللواء عدلي وقائد لكتيبة المقدم ليون مسعد تادرس ، لقد فقدت القوات المسلحة الرجل الاول بها هذا المنصب هو ارفع منصب بالقوات المسلحة رغم انه يلى وزير الحربية ولكن لوزير هو فى المقام الاول منصب سياسى لكن القيادة الفعلية فى العمليات تخص ئاسة الأركان.

شملنا الحزن بعد فرحنا بما أصاب العدو ولكن كل نفس ذائقة الموت واستشهد القائد بين جنوده على الخطوط الأمامية وماله من شرف له ولنا ان تكون قيادتنا التنفيذية الأولى بتلك المكانة والشجاعة.

سعدت أيما سعادة بمهارة قائد السرية وإدارته للنيران وتماسك أعصابه واعتبرتها درسا مستفادا لنا جميعا وكنت أركز على هذا الشرف الذى يستحقه الرجل نظرا لضيق بعض جنودى من اهانتهم ولكن تطور هذا الضيق الي أن أصبحوا يتقبلوها بروح الدعابة لما يصاحبها من كلمات جادة ولكنها تدخل المرح والسرور عليهم وهكذا أصبحنا وحدة مقاتلة ونجحنا فى أول اختبار فعلى مع العدو ورفع هذا من روحنا المعنوية تاركين المزايدات التى تحدث أحيانا بين المصريين

بأن هذا أحسن وذاك أفضل وما المانع بان يكون العديد امتياز وان يصبح الكثيرين شجعانا فهذا أجدى لنا بان نزيد من أعداد النابغين والمتفوقين فى أعمالهم وخاصة فى الحروب. ان الحروب ليست قاصرة على شخص ما.

حصلت على اجازتى الميدانية بعد تلك المعركة بأسبوع وشعرت بمدى فرحة الناس بان لهم جيشا يستطيع التعارك مع العدو على قدم وساق .. قضيت نصفها مع عائلتى بالزقازيق والنصف الاخر مع عائلتى الحبيبة بالقاهرة وحصلت على حبهم وعطفهم ومودتهم التى كانوا يقابلوننى بها مثل ما احصل عليها من عائلتى ببلدتى ولكن كان يزيد عنها هو امكانياتهم المادية التى يعيشون فى كنفها وثانيا وهو الأهم القلب وما يريد فكانت حواسى تستعجلنى بان أصل إليهم لأشعر بكل حب اموى وأخوى وانسانى عاطفى من علا. كانت تقرأ افكارى وتعلم مدى رغبتى فى التنزه والتحدث وسماع الموسيقى والاغانى. هي توأم احساسى وتعلم ما هو الجزاء لشخص مثلى يعيش فى جبهة القتال ستة وعشرين يوما وأعودهم يومان كل شهر فيحيط بى الأربعة كل يريد مكافئتى بما استحق وحسب درجة القرابة بينى وبينهم .. فماما وداد تعاملنى كأمى وتزيد وآخى مدحت هو الأكبر والذى ينظر الى هذا الأخ بكل حب الأكبر الى الأصغر مغدقا على حُبه ونصائحه اما دينا فهى تكيل المشاغبات والضحكات لتعوضنى عن أيامُ بعدى عنهم وأيام شقائى بجبهة القتال اما علا فهى كل شىء لى لا استطيع رد رغبة لها ولا نزهة معها ولاهدية منها.

نهاية نفس العام انتقلنا الى موقع آخر بالقنطرة غرب. اى نعيش بداخل مدينة مهجورة من سكانها. موقعى فى مدخل المدينة مباشرة بطريق متفرع من طريق الإسماعيلية بورسعيد وبعد عبور "سينما شطا" نجد المدخل الرئيسى للمدينة وكان هناك مدخل آخر جديد وحديث عريض شمال هذا المدخل ولكن لم يتم الانتهاء منه قبل الحرب. كان واضحا من شرح قائد السرية التى سنقوم بغياره ان

لاشتباكات مع العدو يومية ولا تتقطع لوجود تركيز لقواتهم بمدينة القنطرة شرق مواجهة لمدينة القنطرة غرب. كان باديا ذلك من الانفجار المتبقي أثارها حول موقع. زودنا بكل الأهداف وبياناتها كما هو متبع وتسلمنا ذخيرتهم لانها ذخيرة وقع اى فى التحركات نترك خلالها الذخائر ويتم تسليم وتسلم بين الوحدات. موقع يقع فى حديقة منزل بمساحة لا تقل عن نصف فدان تكثر بها أشجار خوخ والرمان والتين. خلف هذا الموقع يوجد مبنى مكون من أربعة طوابق وكان ستأجرا من صاحبه وتقيم به وحدة مخابرات من خفر السواحل تراقب العدو ترسل بمعلوماتها لقيادتها وقيادة الجيش. أمام الموقع بعض عمارات قصيرة الارتفاع ثم مبنى بلدية القنطرة ثم عمارتين سكنيتين من المساكن الشعبية. الأولى التى جهة العدو فارغة نظراً لقصف العدو لها باستمرار اما الثانية فكان بها مركز ملاحظة سرية الهاون والفاصل بينى وبين الملاحظة حوالى ثلاثمائة متر الاتصال بيننا عبر خط التليفون الميدانى. خلف سريتى بمائتى متر توجد فصيلة بابات تابعة لكتيبة دبابات اللواء وبها ضابطين. قائد السرية وهو الملازم أول حسام ناصر وزميله ملازم أول احتياط محمود خميس السيد.

لم يمض يوم واحد إلا وشعر العدو بأنه حدث غيار بين الوحدة القديمة ووحدة جديدة فأراد ان يرسل بتحيته إلينا فقصفنا بقصفات متتالية بقنابل شديدة الانفجار والفسفورى ليلاً. اضطربنا فى تلك الليلة واختبأنا خشية الإصابات فالمنطقة جديدة علينا ولأول مرة نقصف اما فى الفردان كنا البادئين بالقصف وكنا نشاهد اشتعال نيران وحرائق لم نعتدها فى الذخيرة التى معنا. كل ما نملكه من أنواع الذخيرة ثلاثة أنواع(شديد الإنفجار...دخان...مضىء) ولم نكن نعلم ان العدو يمتلك هذا النوع وكان يجب إخبارنا بهذا حتى لا نضطرب.

دق جرس التليفون وأجبت فإذ قائد السرية يستفسر عن أحوالنا وانا اخبره انى الان لم اتمم على وحدتى ويستعجلنى لان قيادة الكتيبة تريد إبلاغ قيادة اللواء

بنتيجة القصف ، طالبنى بأن أتوجه للجنود للاستفسار عن حالتهم وانا اخبره بدورى ان القصف مازال مستمراً ولا ائمن على نفسى من الإصابة لأنه قصف عشوائى يحيط بالموقع كله وطال الطريق الاسفلت الذى سوف أسير عليه للتوجه لجنودى.

انتهى القصف وتأكدت انه والحمد لله لم يصب احد بسوء ولكن الاضطراب مازال يلازمنا لانها المرة الأولى. أعاد قائد السرية الاتصال والاستعداد للرد على العدو وقصف الهدف رقم(...) وابلغنى برقم الهدف. حدث هرج ومرج بين جنود السرية والسبب كان واضحا لى انها المرة الأولى للاشتباك الليلى معهم فلم نشتبك ليلا إلا مرة واحدة وقد اعددنا كل شىء قبل الاشتباك اما الآن مطلوب منا الاشتباك. لابد من إضاءة فانوس يعمل بالجاز او السولار ومصنوع من الصاج الأسود والذى يمنع الإضاءة إلا فى شريط رفيع يسمى خط الشعرة يصوب كل مدفع على عمود من الحديد ومعلق عليه الفانوس ليعلم كل مدفع أين عمود تصويبه. الفوانيس تحتاج جاز ونبحث عن الجاز وبعد العثور عليه وتعمير الفوانيس فإنها تحتاج لإشعال ونطلب من المدخنين ان يشعلوا الفوانيس بين الرياح التى لا تساعد على الاشتعال وبعد ان تم كل شىء ربطت زوايا الهدف وتم إطلاق أول قنبلة بالمدفع الاول ويسمى"بهاون الأساس" بعدها يقوم قائد السرية فى مركز ملاحظته بضبط الضرب حتى يتأكد بان كل شىء جاهز فيبدأ الضرب بباقى المدافع الستة دفعات مابين خمس قنابل الى عشر حسب الهدف.

نسمع أصوات قنابلنا تنفجر شرقا ونحن سعداء بأنهم الآن اما ينامون خوفا مثلنا او يصابون من جراء هذا القصف. انتهى القصف ونحن اشد عوداً وقوة ولكن بعد منتصف الليل أعاد العدو القصف وأعاد قائد السرية الاتصال ولنبدأ بقذف الهدف رقم .... نعيد الكرة ولكننا كنا أحسن حالا وتماسكا عن حالتنا أول مرة. فى اليوم التالى معلومات الاستطلاع تفيد انه لا خسائر لدى العدو.

كنت فى حالة ضيق مما نحن فيه وانا اندهش انه فى منتصف القرن العشرين مازال الرووس يرسلون لنا بمعدات قديمه وهل من المعقول لكى نقوم بالضرب شعل فانوس يعمل بالجاز.

فى أول إجازة ميدانية لي من القنطرة وكانت فى سبتمبر ٦٩ وانا فى الزقازيق شاهدت يد مقشة خشب فى منزلنا فشعرت ان تلك اليد تفيد كعمود تصويب للمدفع لكن المشكلة ليست فى العمود بل المشكلة فى الفانوس الذى يضاء بالكيروسين. حولت بيد المقشة الى نجار قريب من منزل والدى واعرفه ويعرفنى وطلبت منه عمل فتحة فى الخشبة من جهة طرفها "مثل الكوسة المقوره" بشنيور يدوى فعلها الرجل لكنى شعرت انها ضيقة ، وضعت بها قلمه الرصاص الذى يستخدمه فلم تدخل.

كانت فكرتى ان نقيم فتحة من أعلا ونضع به لمبة كشاف ونعمل به خط شعرة ونضع خلف تلك اللمبة "بطارية جافة" من المستخدمة فى تشغيل الراديو ترانزستور. ساعة الاستخدام يندفع احد الجنود بالضغط على قطعة كاوتش بأعلى العمود فيندفع مسمار صغير ليصل الدائرة فتضىء اللمبة وهنا يظهر خط الشعرة وبعد إلانتها نعكس ما قام به الجندى حفاظا على الطاقة.

طلب منى الرجل ان اشرح له فكرة ما أريده. شرحتها له فقال ان يد المقشة ذات قطر صغير واحضر عمود خشبى قطرة اكبر وأقام الفتحة وخط الشعرة وجرب الحجر فوجده على ما يرام ، شكرته مستفسراً عن الثمن ولكنه رفض قائلاً طالما انها لخدمة الجيش والحرب لن احصل على مليما طلبت منه ولو التكلفة ولكنه رفض ان يحصل على اى عائد مادي شكرته وانصرفت وعدت بهذا الاختراع البسيط الى سريتى وعرضته على جنودى وجربته ليلاً فكان فعالا سريعا الى أقصى درجة وقليل المجهود .. فى أول اشتباك قمنا باستخدامه وكان محط إعجابهم وطلبوا مثله فأرسلت احد الجنود الى هذا النجار الوطنى فاعد عشر قطع

حتى إذا كسر عمود من شظية يكون لدينا احتياط منه واشترى كل ما يحتاجه هذا العمود وطبقته على المدافع الستة وأصبحنا لا نهتم بمشكلة الفوانيس وألغينا استخدامها.

نجحت تلك الخطوة لكن خطوة الضرب والتأثير على العدو كانت وما تزال مشكلة لأن قصفنا لم يوقع به خسائر واخبرنا جنود الاستطلاع بان هذا الحال مثل باقي السرايا التى كانت قبلنا .. كانت هناك مشكلة ما .. العدو يقصف والقنبلة تستمر مابين خمسين الى خمسة وخمسين ثانية فى الهواء الى ان تنفجر وبعدها ننتبه يكون كل مدفع من مدافعه قصف من ثمانية الى عشرة قنابل على قواتنا وأزعجتنا جميعا ويحدث بعض الخسائر. بعد ان نستعد له يكون قد فك مدافعه وذهب الى الملجأ لينام فتصله قنابلنا بعد خمس دقائق على الأقل بعد ان يكون داخل الملجأ فلا يؤثر فيه القصف.

جلست فوق سطح يشرف على موقعى ليلاً فشاهدت بالصدفة إضاءة خروج أول قنبلة من قنابل العدو وبسرعة أمرت المدفع المواجه لى بالضرب عدة قنابل بدون انتظار أوامر من قيادة الكتيبة ، فعل ذلك بسرعة. لم يكمل العدو قصفه وبعد ان انهينا قصفناُ بلغنا بان هناك بعض الأشخاص أصيبوا لدى اليهود. آه لقد وجدتها كما قال آينشتين مع الفارق بيننا. إذن على ضوء المدافع الذى يظهر فى لحظة انطلاق القنابل يمكننا الضرب علي الإضاءة التي تظهر لنا مباشرة ونحن نملك الأهداف المرصودة.

بمدينة القنطرة شرق يوجد لليهود أربعة نقاط قوية كل نقطة خلفها موقع لمدافع الهاون ومحددة منا بدقة ولكننا كنا نضرب بعد فوات الأوان .. لهذا حددت المدافع على تلك النقاط .. كل مدفع مخصص له هدف وعلى الجانبين الأيمن والأيسر مدفع لإطلاق القنابل المضيئة لو طلب منا. دربت حكمدارية المدافع على الاتجاهات ووضعت أمامهم عدة عُصى مابين كل عصا والأخرى رقم المدفع الذى

نوم بالقذف. خمس قنابل شديدة الانفجار متتالية. لم أكن أتصور مدى نجاح تلك الفكرة التى انزلها الله علىّ وما حدث لهم من خسائر لدرجة ان مدافع هاوناتهم صمتت لفترة طويلة واستمروا لفترة لا يقذفوننا بتلك المدافع خاصة ليلاً.

شعرنا جميعا أننا محترفى هاون وكان هذا أكيد وليس خيالاً او ضربا من الثقة فكل المعلومات التي كانت تصلنا من القيادة او من مركز مخابرات السواحل خلفنا والذى يتابع كل شيء بشرق القناة تؤكد ذلك.

فى كل أجازة كانت علا تفاتحنى قائلة: لماذا لم نتخذ حتى الآن أية خطوة للارتباط وهى التى كانت تعتقد باننى سأكون البادىء والراغب فى بداية تلك العلاقة الرسمية لتتوج بها حبنا. كانت تلك افكارى أيضا ولكنها تبخرت بمرور الأيام ليس لعدم رغبة منى فى هذا ولكن لما شاهدته من خسائر وشهداء كثرت بهم الجبهة فى نهاية العام وبداية العام الجديد ٧٠ .. أصبحت كثرة الضحايا تخيفنى ويرن فى اذنى كلمة شقيقها مدحت عندما رفض طلبى منذ عامين "لا أريد لاختى علا ان تصبح أرملة" طغى هذا الهاجس على عقلى خاصة من الضربات المتبادلة والتى كان يغرقنا بها العدو وعلى الأخص على سريتى لدرجة ان بعض الوحدات التى كانت قادمة لمعاونة كتيبتنا سواء مدفعية او مدرعات تركت مواقعها بجوارنا خشية الإصابة وعلق احدهم قائلا "اسامة .. النبله اللى معاك دية عامل بيها دوشه وإزعاج ويتخلى الملاعين اليهود يكسروا الدنيا حواليك .. انا حأجمع رجالتى وصواريخى وأسيب لكم المكان .. موقعك شبهه ومشكلة" يقصد بالنبلة صغر حجم مدفع الهاون ٨٢مم قصير مسافة الرمى ثلاثة كيلومتر .. أصبحنا دائما فى اشتباكات مما دفع باليهود ان يطلقوا علينا مدافعهم الكبيرة من هاوتزرات عيار ١٠٥مم ،١٥٥مم وهى شديدة القوة وفى بعض الأحوال كانت تغير علينا طائراتهم وتقصفنا بل أنهم احضروا وحدات صواريخ ارض /ارض موجه بسلك

لضربنا وهرع إلينا سلاح المهندسين بإقامة شبكة من الأسلاك الشائكة لتفجر الصواريخ بعيداً عن موقعنا قبل ان تصلنا.

لا انسي هذا الشاب الجسور محمود خميس(ضابط المدرعات) والذي يسرع إلينا برجاله بعد كل قصف للاطمئنان علينا ومساعدتنا ان كنا دفنا تحت القصف المتتالى. نحن فى حالة استعداد للضرب سواء من دقتنا فى ضربهم او من سعى قائد السرية بتصديق على طلب ذخيرة أكثر من المقرر للاشتباكات ويخبرنى تليفونيا استعد يا بطل "حنلب اليهود علقه النهاردة .. بس خللى بالك من عساكرك مش عايز خسائر" ونقوم باللب وتعود على موقعى باللبات والسودانيات والبطيخات ولهذا بعد كل لبه من لبات قائد السرية نسرع تاركين الموقع منتشرين فى منازل المدينة حتى تنتهى البطيخات التى يهدوها إلينا.

قيادة مدفعية اللواء حولت كل ذخائر الهاونات بالكتائب الأخرى لسريتنا التى دائما فى حالة اشتباك مع العدو وأصبحنا على درجة عالية من الدقة والسرعة فى رد اشتباكاتهم بل نحن البادئين أولا وغمر هذا قيادة الكتيبة بشعور قوى بان لديهم قوة ما للوقوف أمام استفزازات العدو بتلك المنطقة التى تعتبر بكل المقاييس هى الأكبر قوة وعتادا نظرا لوجودها بمدينة وايضا أربعة نقاط قوية تمثل قاعدة كبيرة لهم فى تحركاتهم وعدوانهم على القوات المحيطة بنا وقواتنا.

هذا هو شهر فبراير من عام ٧٠ والاشتباكات تدور رحاها على الجبهة وفى قطاعنا مدينة القنطرة غرب أصبح الجميع يعلمون ان بها سرية هاون لا تمل من الاشتباكات مع العدو فأعطى هذا انطباعا لقوات المشاة على خط القناة بان خلفهم قوة نيران مستأسدة وجاهزة للرد والدفاع عنهم وان جميع مواقع العدو الأمامية القريبة من القناة فى مرمى سلاحنا هى تحت سيطرتنا التامة.

كلفت السرية بان تحضر مرتبات الضباط والجنود عن هذا الشهر والنقيب فاروق متولى هو ضابط عظيم الصرف .. حضر الرجل بالمرتبات والاستمارات

زاولها لى مكلفنى بإتمام صرف تلك المرتبات لأنه غدا فى الصباح يستحق جازته الميدانية. صباح اليوم التالى اتصل بى الرائد/ سعد يونس رئيس عمليات الكتيبة مؤكدا لى ان يتم صرف جميع المرتبات لجميع الأفراد المتواجدين خلال ثمانية وأربعين ساعة طبقا للتعليمات وانا بدورى اخبره باني بمفردى بالسرية وماذا يحدث للاشتباكات فقال مازحا إحنا مش بنبطل ضربهم واشتباكا معهم وأنت فى محيط الكتيبة ويمكنك الرجوع مسرعاً الى موقعك ويفضل ان تتم الصرف ليلاً.

استلمت المبالغ واستمارات الصرف من النقيب فاروق قبل مغادرته فى الصباح لبدأ أجازته وبدأت بصرف مرتبات سريتى ثم الوحدات القريبة منى وقمت بجولة حتى العصر أتممت صرف نصف وحدات الكتيبة الفرعية وملحقاتها من الأسلحة المختلفة التى تعمل فى نطاق الكتيبة. مساءا توجهت الى السرية الثانية والتى كانت يسار الكتيبة وأتممت صرف فصيلتين وتبقى فصيلة فاخبرونى انها قريبة منهم بحوالى خمسمائة متر فى اتجاه منطقة الحرش وبينهم فاصل غير محتل نظراً لان طبيعة الأرض لا تساعد بوضع قوات هناك استفسرت عن الطريق فوضح لى احد ضباط الصف بأنه يمكننى بان اسلك طريق القناة ولكن فى الميول الخلفية لأكون بعيداً عن مراقبة العدو.

لم أكن قد شاهدت المنطقة من قبل فكل عملى فى الخلف او فى مركز الملاحظة أثناء تواجد النقيب فاروق بأجازة عدا ذلك فلم يكن هناك داعى للتجول فى أرجاء الكتيبة نظرا لانشغالنا دائما بالاشتباك مع العدو كما انى كنت من الضباط الذين لا يرغبون بترك مواقعهم والتجول بزيارة هذا او ذاك فى موقعه.

سرت فى الاتجاه الذى ارشدنى إليه. سرت دون ان انتبه الى وعورة المنطقة وانكشافها أمام قوات العدو المتواجدة للمراقبة فى الشرق. عن يمينى السكة الحديد والطريق الاسفلت وترعة صغيرة تصل مياه النيل الى مدينة بورسعيد وانا أسير قريبا من منطقة تكسوها الحشائش المرتفعة الجافة ومنظرها يخيف ليلاً واحمل

معى مبالغ نقدية كبيرة وأسير بمفردى وهذا ناتج من سوء تصرفى وجهلى بتلك الأمور التى لا ينتبه إليها الضباط الاصاغر وهى تأمين أنفسهم ضد مخاطر السرقة فمن الممكن ان يخرج على بعض الجنود ويصيبوننى ويحصلون على ما معى من مرتبات وأكون انا ضحيتها وأقدم للمحاكمة سواء بالسرقة او الإهمال. على يسارى أشاهد مبانى متفرقة من طابق واحد وهى مهجورة ومظلمة.

وانا سائر افكر فى موعد اجازتى وماذا افعل والهدوء يغلف المكان سمعت صوت كبسولة من كبسولات مدافع الهاون المعادية والتى أحفظها عن ظهر قلب فأيقنت ان العدو سيقوم باشتباك مع سريتى وانا بعيد عنهم وكيف سأصل إليهم وانا على مسافة أكثر من ثلاث كيلومترات فقبل ان أصل يكون الاشتباك قد انتهى ولكن ما حدث كان شىء آخر إذ هوت القنبلة قريبة منى وهذا يعنى اننىُ كشفت وان العدو رصدنى فإنبطحت أرضا وتوالى القذف وكان مختلط بين شديد الانفجار والفوسفورى الذى أشعل الحشائش المحيطة بى وأصبح الظلام نهاراً حاراً بفعل النيران وانا مازلت راقداً على هذا الوضع لا اعرف سبيلاً الى النجاة والتصرف وشعرت بان الشظايا تتناثر حولى. لقد كان تصويبهم دقيقا والنيران مازالت مشتعلة والدخان أطبق على صدرى وكدت اختنق وأشاهد على تلك الأضواء زواحف من كل نوع ما بين السحالى والثعابين هاربة من النيران وانا لا استطيع ان أقلدهم واتبعهم لأنه أثناء ذلك يدوى الرشاش نصف بوصة للعدو حولى من كل جهة ووقوفى يعنى ببساطة اننى أصبحت هدفا سهلاً لهم بدفعة واحدة سألقى حتفى.

ناجيت الله ان يرفع هذا الغضب عنى ولا اعلم هل استجاب الله لتوسلاتى وانا أتضرع إليه فى تلك المحنة الهالكة او ان السماء بالصدفة هى التى أنزلت المطر ليطفىء النيران. كان مطراً شديداً ومعروف عن تلك المناطق شدة أمطارها سعدت بتلك الأمطار التى هبطت لتطفىء نار حقدهم على المسلمين ، كنت ارتدى

فرولى ولم اعبىء وانتبه بان استتر بملابس ثقيلة ونحن فى الشتاء وقد خاننى لطقس عصر هذا اليوم كان دافئا ولم التفت بأن يأتى الليل وانا خارج موقعى.

تركت مكانى مسرعا بعد ان انطفأت النيران ومازالت آثاره باقية من تصاعد الدخان واتجهت الى الجانب العكسى من العدو فى اتجاه المنازل الفارغة التى كانت على يسارى ولكننى للأسف فى غمرة الخوف والفزع وجهلى بالمنطقة اصطدمت بسلك شائك سقطت من سرعتى على الأرض وسمعت طقة فى يدى اليمنى شعرت بان يدى كسرت وجرح فى فخذى مؤلم من السلك الشائك تحسسته فإذا الدماء غزيرة تندفع منه نهضت واقفا مستعينا بيدى اليسرى التى تحمل ملفات واستمارات الصرف وشنطة الخرائط موضوع بها المرتبات ومعها تلك الاستمارات وهذا ستر من الله وإلا أتلفتها مياه المطر.

وقفت بصعوبة ولكن الرشاش نصف بوصه مازال يلاحقنى وهنا شعرت بأول خطورة حقيقية فلقد وقفت على لغم أفراد سمعت الطرقة التى بعدها ان رفعت قدمى سوف ينفجر اللغم فأهلك لا محالة ممزقا جسدى الى قطع وقد يسقط جزء منه على لغم آخر فتتوالى الانفجار ، جلست القرفصاء لأتحاشى الرشاش الذى مازال يعربد من حولى وانا اسمع صوت السكترما الناتجه من اصطدام الرصاص بزوايا السلك الشائك التى تحدد حقل الألغام الذى لم انتبه له فى الظلام وتحت الضغط والجري خوفا. جلست هكذا لفترة وانا عاجز عن التصرف وكيف لى بالتصرف حتى سلاح المهندسين لا يستطيع علاج حالتى وتأمين اللغم. انه لغم أفراد والمرور فوقه معناه هلاك من داس عليه او اصطدم به. يا ربى .. أناجيه هلعا وخوفا وتعبدا ان يقف معى وألا يجعلنى من الهالكين وما شعور اى إنسان يرى الموت أمامه وان اى هزة ستطيح بحياته ممزقا الى أشلاء.

البلل من مياه الأمطار وبرودة الشتاء قامت بمفعول معاكس ضدى أيضا فانا ارتجف خوفا وبرودة والآم يدى وفخذى شديدة علىّ وارتعد ويدى اليسرى تكاد تنفك

من على حافظة النقود واستمارات المرتبات. مازالت أناجى الله باكيا بصوت مسموع وانا اسمعه وأحاول خفض صوتى بدون مقدرة او سيطرة عليه ، ثوان وأقابل ربى تلوت الشهادة متلعثما فكل آيات الذكر الحكيم طارت من ذاكرتى حتى فاتحة الكتاب وانا على هذا الوضع المأساوي والذى لم أقابل له نظيراً حتى وانا فى سيناء وإذا به امامى. انه الشيء الشبيه بالقط والذى شاهدته مرتين فى منطقة الفردان فى العام الماضي ، ارتعدت وصرخت وانا أحاول ان أبعده عنى بيدي اليمنى الكسيرة ولكننى لا استطيع ان أحركها. اصرخ بصوت عال ولكنه لم يبالى وهنا اقترب منى وكاد ان يحدث لى إغماء لولا رجفة أصابت جسدى الذى نبهنى ثم نظر الى الجهة الأخرى معطيا لى ظهره سائراً ثم نظر الى ثانية بعد ان توقف وعاد الى مرة ثانية ووقف على قدميه الخلفيتين ناظراً الى وعيناه بعينى ، إنه حيوان ابيض اللون ناصع البياض ويضيء حوله مثل المسبحة ليلاً وقف هكذا واضعا يديه الأماميتين على كتفى شعرت خلالها ان جبلاً على كتفى وليس حيوانا بين القط والكلب حجما ثم سار ثانية وَعلم بقدميه فى الأرض بخطوط واضحة وانا مازلت فى وضعى وإذا به يحدث صوتا صارخا مثل صوت العرسه او ماشابه ذلك انه صوت قوى حاد مخيف ، نهضت سائرا خلفه وانا أدعو الله ان ينجينى مما انا فيه رفعت قدمى من فوق اللغم لم يحدث شيء اسعدني هذا وشعرت بان هذا من عند الله ، سرت خلفه على الخط الذى أقامه بقدمه ويا للعجب فان الخط كان عريضا كأنه حافر جاموسه اى بعرض أكثر من عشرة سنتيمتر حتى خرجنا من حقل الألغام فشاهدت السلك الشائك المحدد له من الجهة الأخرى نظر الى ثم رقد مثل وضع أبى الهول او اى قط ولكنى لم افعل مثله نظر الى ثانية يقف ويفعل هذا وانا مازلت واقفا متسمرا فى وضعى قفز علىّ وإذا انا مندفع من وقفتى منبطحا على الأرض بصدمة قوية وهنا سمعت صوت انفجار الألغام متتابعة خلف بعضها البعض. لحظتها أطلق العدو قنبلة مضيئة ليعلم ماذا حدث لى

ولكنى مازلت راقدا على ظهرى ناظرا الى السماء اتسائل احى انا ام فى السماء ، سمعت همسا بجوارى صوت إنسان يطلب منى ان استمر على وضعى هذا حتى لا يطلق على العدو النيران. تسمرت فى رقدتى هذه كما طلب منى هذا الشخص اوالصوت المبهم لى فى الظلام وبعيداً عن اى مخلوق كان حتى انطفأت الشعلة المضيئة وحضر إليّ شخصان هما جنديان من الفصيلة التى كنت متجها إليهم يستطلعان سبب تأخرى عنهم عندما علموا ان الوحدة قامت بصرف المرتبات ومشاهدتهم لقصف العدو وما حدث الى وما شاهدوه من هذا الحيوان الأبيض والذى تخوفوا منه لأنهم لم يشاهدوا مثله من قبل.

قدما يد المساعدة لي وانا مازلت ارتجف واشعر اننى محموم واهذى ولا استطيع السير. سارأ معى حتى وصلت الى سريتى وهناك إلتقيت بجنود الخدمة من سريتى وهم ينظرون الى مستفسرين عما اصابنى والدماء غزيرة على بنطلونى الأيمن وكف يدى اليمنى بجانبى لا استطيع تحريكه.

اخبرهم الجنديان بان حضرة الضابط سلك الطريق المكشوف لليهود ولم يستخدم الطريق الخلفى المستتر من المبانى ووقع فى حقل الألغام وكادت ان تنفجر به لولا شيء لا نعلمه حضر وأنقذه. انه شيء شبيه بالقط .. آه تذكر جنودى حادثة الشهداء وما شاهدوه من هذا الحيوان الغريب الوصف والشكل والتصرف .. تعاونوا على ادخالى الى ملجأى تحت الأرض وحضر جندى المراسلة واعد لى كوبا من الشاى وحضر بعض ضباط الصف بعد ان أيقظهم زملائهم ليخبروهم بان ضابطنا كاد ان يقتله اليهود وما قصه عليهم الجنديان رواه لهم .. طلبت من احد ضباط الصف العريف عياد حكيم شنودة ان يقوم بصرف مرتبات هاذين الجنديين وان يذهب احد ليخبر الطبيب بحالتى.

هرعوا إلي الطبيب وأصابهم شيء خطير. فها هو قائدنا نراه ونشاهد حالته وسمعنا مما شاهدوا الحادثة يروونها بكل تفاصيلها الغير معقولة ولا تحدث إلا فى

الروايات والقصص ولكنهم هم الذين اختبروا تلك الاحداث قبل ذلك .. طلبت من الجندى حنتيره المراسلة ان يعد لى ماء ساخن لكى استحم وأزيل كل ما علق بى من قاذورات حتى استعيد انفاسى فاخبرني أنه مجرد ان انتهى من كوب الشاى يكون قد أنهى تسخين المياه ووضعه فى حمام منزل مهجور استخدمه .. حضر واخبرني بان كل شيء معد وعاونني فى حمل ملابسى النظيفة حتى الحمام واضعا به فانوس ميدانى"هوركين" واخبرني بأنه احضر تلك مياه بارد"جركن" لأضيفه على الماء لو كانت ساخنة شكرته وانصرف ليعد لى طعام الغذاء الذى احضره من ميس الضباط منذ الظهيرة ولم أتناوله لمرورى على الوحدات لتسليمهم مرتباتهم التى كادت ان تودى بحياتى.

شعرت ان المياه ساخنة لا استطيع تحملها أضفت بعض الماء البارد. استحم وانا اشتم رائحة السولار كما اشعر بان أصابع يدى تلمس شيئا ناعما يخالف ملمس المياه انتهيت من حمامى بعد ان أضفت إليه السولار الذى احضره حنتيره باعتقاده انها مياه!! فلم يكفينى ما حدث ولكن قدر علىّ ان استحم بالسولار. عدت الى حجرتى التمس الراحة والدفء أسفل البطاطين وافحص ملابسى التى خلعتها لأشاهد على ضوء الفانوس الميدانى قطع طولية محروقة من شظايا قنابل العدو وصلت الى ملابسى الداخلية فتحسست فخذى ومقعدتى فوجدت اثار دماء عليهما. إذن لقد طالنى القصف أيضا. حضر الطبيب على عجل .. لم يكن الطبيب انه صيدلى مجند رقيب صيدلى وخريج كلية الصيدلة جامعة الإسكندرية انه الإنسان المهذب خلقا وعملا .. يا لك من شاب رائع ، انه شنودة عبد المسيح .. حضر الرجل وهو لاهث الأنفاس من الاتصال التليفونى به ومن زملائه بالسرية والذين اخبروه بحالتى فحضر ومعه كل ما يلزم من تلك الأدوات .. شاهد جروحى الخلفية وطمأننى عليها بأنها سطحية وعقمها ووضع عليها البلاستر المعقم ثم فحص يدى وحركها وانا اصرخ ألما .. ثبتها على وضع معين وطلب المساعدة

فهو يريد قطع خشب ليعملها جبيرة ولم يعثروا على طلبه وسأل عن وجود مسطره فاحضروا له المسطرة التى نستخدمها فى القياس من على الخريطة وهى خشبية فكسرها نصفين أعدها كجبيرة طلب بعض الماء الفاتر وبلل الشريط الجبس الذى معه ولفه حول معصمى ثم شاهد الجرح الغائر فى فخذى فرش عليه قليلا من مادة الاتير التى آلمتنى كثيراً وقام بخياطة الجرح بأربعة غرز ثم ناولنى دواء مهدىء ليساعدنى على النوم واخبرني بأنه سيعاودنى صباح الغد.

رحت فى نوم عميق بعد ما حدث لى فى تلك الليلة وقد تكالبت على كل الأنواء والأوجاع .. بقيت هكذا لفترة خمسة أيام حضر خلالها قائد السرية والذى دهش مما حدث لى فابلغ قائد الكتيبة بأنه من المستحسن ان أنال اجازتى مبكراً ولكن القائد طلب عرضى على المستشفى ورافقنى الرقيب صيدلى شنودة الى مستشفى القصاصين وتأكدوا ان ما قام به هو إجراء سليم بعد الفحص بالأشعة ومُنحت أجازة عشرة أيام سافرت من القصاصين الى بلدتى بالزقازيق وفزعت امى واخوتى لما شاهدونى عليه ولم اخبرهم بالقصة بل أخبرتهم بأنها إصابة أثناء التدريب فلا أريد القصص والروايات ويتجمع الأقارب والأصدقاء ليعلموا سر هذا الكائن الذى كلما تذكرته يتملكنى شعور بالخوف واشكر الله أن اغاثنى منه.

أمضيت ثلاثة أيام فى الزقازيق توجهت بعدها الى القاهرة وهناك كان اللقاء الدافىء وحبهم وتعاطفهم معى على الإصابة وحضرت بعض صديقات علا لزيارتى ومشاهدتى والتعرف على شخصى بعد أن أخبرتهم بان حبيبها ألمت به إصابة أثناء العمليات. أمضيت عدة أيام راحة وسعادة بفيلا دينا وكان السائق يصطحبنا أنا وعلا للفسحة او التوجه لدور السينما .. يا لها من حياة ويا لها من مصاعب الحرب وقسوتها تصديقا لقول الله تعالى"فرض عليكم القتال وهو كره لكم" .. أمضيت أيام خمسة لم تتحدث خلالها علا عن موضوع علاقتنا والبدأ

بخطوة للأمام كما دأبت فى الآونة الأخيرة .. فقد شعرت انه وقت غير ملائم او قد تكون تنبهت الى انه كان من الممكن ان أقضى نحبى فيما حدث لى.

عدت فى اليوم السادس الى عائلتى لأقضى باقى اجازتي معهم خاصة اننى بدأت اشعر بان والدتى ليست راغبة فى ان أقيم عندهم باستمرار طالبة منى بان تكون زيارة من الصباح حتى المساء وأعود إليهم يشبعوا منى واشبع منهم. ولكن مدينة الزقازيق هى الأخرى خط جبهة خلفى والأنوار تطفىء ليلاً والشوارع مظلمة معتمة ولا توجد وسائل التسلية والبهجة مثل القاهرة كما انى أتمتع بحديث ولقاءات علا فانا محروم من متاع الحياة التى يتمتع به الآخرون رغم ان غالبية شباب مصر تحت خط النار اما ضابطا او جنديا.

انتهت اجازتى عائداً لوحدتى وقد التأمت جروحى ولم يتبق سوى الجبيرة والجبس والغرز وبعد أسبوعان سيقوم شنودة بنزع الجبيرة والجبس دلالة على تحسن حالتى. استقبلنى جنودى بفرحة غامرة فلم يتعودوا غيابى عنهم فترة طويلة ثم تأكد لهم بتمام شفائى وها انا أعود إليهم أحسن صحة وأوفر نشاطا وسعادة مستعداً لتكملة مشوار كفاحنا وكما تقول ام كلثوم الكفاح دوار.

لا يمر علي يوم إلا ويأتي الضابط محمود خميس لزيارتى نتناول الشاى ونقص الحكايات ونضحك على أيامنا نريد تسلية أنفسنا بكل طريقة معقولة ومهذبة وهو مثلى لا يريد ترك وحدته والخروج الى تلك الوحدة ومجالسة هذا او ذاك. كان شديد الاهتمام بنفسه سواء فى مظهره وسلوكه كما انه لا يعطى الفرصة للقادة بان يوجهوا له انتقاداتهم لأنه معتز بكرامته وكبريائه فارتبطنا ببعض.

لم يكن أمام الشباب في جبهة القتال أي شيء للتسلية فلا كهرباء ولا جرائد وتلفزيون والإذاعة تغلق برامجها في الثانية عشر منتصف الليل والكثير من لأعمال التي تتم مع العدو تتم ليلا سواء من القصفات والإشتباكات المتتالية أو من عمليات الكوماندز والعبور علي قواتنا.

الانتقام من العـدو

الحمد لله ، فقد أسبغ علىّ الله نعمته وشفيت مما ألم بى فى بداية شهر فبراير من هذا العام بحقل الألغام ونجاتى منه بفضل الله وعونه بان سخر لى كائنا من عنده ليرفع عنى هذا البلاء ، لقد كان هذا الحادث بكل ما أحاط به من ظروف سواء الوقوع فى تلك المنطقة المكشوفة والتى منع قائد الكتيبة اى فرد من السير بها بعد ذلك او من اغاثتى وانقاذى كان حديث الجنود والضباط بالوحدة وقد صدقه البعض ونفاه البعض مدعيا انها أضغاث وتهيئات حدثت لى نتيجة خوفى واصابتى مما ألم بى ويعترينى فى بعض الحالات تلك الأفكار وهل صحيح ما انا كنت فيه وإنقاذ الله لى بهذا الكائن الذى لم أشاهد مثله حتى الآن فى حياتى ولكن الوقائع تثبت انه صحيح وما المانع فى ان يسخر الله من كائناته وعباده من يرفع المقت والظلم والأذى عن الآخرين. الم يدفع الله بعمال هيئة قناة السويس فى بداية يوليو من عام ٦٧ للدفاع عنا ضد الهجمة التترية المفزعة المؤلمة لنا بعد عودتنا من سيناء ونحن بين الحياة والموت دون ان نطلب ذلك ولكنه علام الغيوب الذى يعلم بكل شىء يدور فى الكون وليس بالأرض وحدها ولا فى جبهة القتال.

فككت غرز خياطة الجرح بواسطة القدير الماهر فى عمله شنودة عبد المسيح وبعدها باسبوعان فك عنى الجبس طالبا منى عدم الضغط على كف ومفصل ذراعى الأيمن حتى تقوى العضلات. نفذت ما طلبه منى رغم صعوبة تلك الفترة نظرا لاحتياجى لاستخدام يدى اليمنى خاصة فى حلاقة ذقنى وربط حذائى لكننى تحاملت علي نفسي وبمساعدة المراسلة تم كل شىء على ما يرام.

قائد كتيبتنا هو المقدم/ عبد العزيز قطب. انه قائد عاقل متزن هادىء الصوت ومعه رئيس العمليات الشجاع الرائد/ سعد يونس ، كانا متفاهمين وطباعهما منسجمة ولهذا كانت الأمور متوازنة فانعكس هذا على ضباط وجنود الكتيبة كما ان القائد ورئيس العمليات من المشجعين للعمليات مع العدو خاصة ان اليهود

وفى تلك الفترة اصابهم نوع من الجنون لمحاولة تدمير قواعد الصواريخ التى تقيمها الدولة ممثلة فى وزارة الحربية على جبهة القتال بعد ما نجحت الدولة فى إقامتها فى عمق البلاد وحمت بذلك الأهداف الإستراتيجية للدولة من هجماتهم القاتلة ، كان الطيران المعادى يفعل ما يريد فقطعت اليد الطولى التى كان يتباهى بها ويخيف الجبهة الداخلية والآن جاء الدور على القوات المواجهة لخط القناة.

لا يمض يوم إلا والاشتباكات دائرة على قدم وساق واصبحت منطقة القنطرة شرق بعمق أكثر من اثنين كيلو من خط القناة السيادة البرية لنا بفضل ضرباتنا لدرجة أنهم عينوا مراقبين بأجهزة تصنت تنذرهم بصفارات متتالية لقصفات وحدتنا عليهم ، طلب قائد الكتيبة من قيادة اللواء ان تقوم مدفعية اللواء سواء كتيبة الهاوتزر ١٢٢مم او سرية الهاون ١٢٠مم بالمشاركة فى المعارك نظرا للمجهود الذى تقابله سرية الهاون ولكنهم اعترضوا لضخامة تلك الأسلحة والتى سوف توجه إليها طائرات العدو وتحدث بهم إصابات شديدة بعكس سرية الهاون ٨٢مم التى تتحصن بين المبانى والتى تحميهم من تلك الغارات وأخيرا رضخ القائد لقيادته ومازلنا نواصل ضرباتنا لدرجة أنهم طلبوا من مدفعية اللواء قصف هدف بالشرق ولكن قائد كتيبة الهاوتزر طلب منى باتصال تليفونى ان اشتبك انا بدلا من كتيبته خشية من الخسائر والرجل كانُ محقا فى تخوفه نظرا لما لاقوه من خسائر سابقة.

طلب منى الانتظار الى ان تقترب وحدات العدو وسيخبرنى بالمسافة التى تسمح لنا بقصفهم حسب مدى مدافعنا. كانت تلك الأمور تسعدنا وقد بدا الخوف والشك يتسلل الى جنودى بأنهم يضحون بنا لحماية الوحدات الأكبر ولكننا كنا قادرين على تحقيق النجاح وكما قال قائد كتيبتنا المقدم /عبد العزيز قطب لو ان مدافع سرية الهاون ذات مدى طويل لكنا فعلنا بالعدو الأفاعيل.

ظهر اليوم وصلت إلينا أنباء سيئة حيث قام الطيران المعادي بمهاجمة مدرسة بحر البقر وحدثت خسائر بين الأطفال كما كان من نتيجة هذا تدمير

بعض لواري النقل التابعة لكتيبتنا والقريبة من المكان وأستشهد العديد من الجنود ومن بينهم السائق عزت والذي كان تحت قيادتي في بداية التجنيد وحينما رُشح ليصبح سائقا شملته السعادة والفرحة لأنه بعد إنتهاء خدمته سيصبح سائقا يستطيع ان تدر عليه تلك المهنة المال الذي يساعده في إتمام زواج شقيقاته ، حزنت عليه كثيرا هو وزملائه كما حزنت علي قائد فصيلة النقل الملازم/مخلص علام والذي لم يكمل عامه الثاني بعد تخرجه ، لقد كان شابا فتيا وسيما ولكنه القدر.

أصبحت الكتيبة في حالة حزن مضاعف سواء من قصف أطفال المدرسة أو من الخسائر التي لحقت بحملة الكتيبة ، هذا اليوم لم أنساه لقد كان يوافق ١٩٧٠/٤/٨ ، القائد ورئيس العمليات راغبين في الانتقام ولهذا بحثا عن أي فرصة لتكبيد العدو خسائر مؤلمة تشعرهم بأننا لن نستكين وسوف ننتقم ولتظل الحياة بيننا سجال من قتل وتدمير حتي يرتدع العدو عن ممارساته الهمجية.

اليوم الموعود الموافق ١٩٧٠/٤/١١ أي بعد مضي يومين علي مذبحة بحر البقر أتصل بي رئيس العمليات حيث كان النقيب فاروق متولي في أجازته الشهرية ، كان الاتصال قبيل العصر وفيه أخبرني بأن قوات العدو تفرغ كميات ضخمة من الذخيرة محملة علي عدة لواري بالنقطة القوية رقم ٣ بالقنطرة شرق ، طلب مني قصفهم بذخيرة فسفوري ، أفدته بأننا لا نملك هذا النوع ، دهش الرجل فطلب مني التصرف!!

طرأت فكرة علي بالي ، ما المانع في استخدام قنبلة مضيئة بديلا عن القنابل الفسفورية؟ لم تكن تلك الفكرة قد جربت أو تطرق إليها احد من قبل فكل نوع من دانات المدفعية له استخدام وإذا أستخدم نوعا مكان آخر تعود علي المنفذ بالخصم وعقاب شديد مثل لفت النظر الذي يعمل علي التأخير في الترقي عن الزملاء ، عرضت الفكرة علي رئيس العمليات فطلب مني التنفيذ وأخبرته بأن ثمن الدانة ٨٤

جنيه وأنا راتبي ٣٢جنيه وسوف تخصم عليّ ، صاح غاضباً ، إيه يا أسامة مش ح تكون أغلي من الأرواح اللي كل يوم بنفقدها.

كان الرأي صائبا ولكن القيادات يصبح لهم رأي آخر وكما يقول المثل أللي أيده في الميه مش زي إللي إيده في النار ، القنبلة المضيئة لها طبة رقمية أي تضبط بمفتاح خاص بناء علي جدول مثل جدول اللوغاريتمات وكل مسافة أو ارتفاع تربط لها درجة بالمفتاح الخاص بها لكن في تلك الأحوال لا تفيد الطبة T1 الخاصة بالقنبلة المضيئة فيجب إستخدام طبة طرقية من نوع T5 , T6.

طلبت من حكمدار المدفع الأول العريف زينهم الشويحي إبن المنصورة أن يعد مدفعه علي الهدف رقم ٣ وطلبت مغادرة باقي أفراد السرية الموقع ، عارضني الجنود خوفا من خصم القنبلة وتوقيع جزاء علي شخصي ، لم أهتم بتعاطفهم معي وكنت راغبا في قصف الأعداء انتقاما مما حدث في بحر البقر ، أعد زينهم المدفع وضبط جهاز التصويب وسطح فقعات المدفع وكنت قد أعددت القنبلة مزودة بطبه طرقية من نوع T6عديمة التأخير والتي تنفجر مجرد لمس أي جسم.

سميت بإسم الله " وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي" ، وضعت القنبلة في ماسورة المدفع وإنطلقت من المدفع وأنا متأكد أنها طاشت ولن يكون لها أي تأثير ، مضت دقيقة منذ خروج القنبلة وزمن مرورها للهدف هو ٥١ثانية ، سمعت صوتا مرتفعا صادرا من رجال مخابرات حرس السواحل المحتلين المبني خلفي "الله أكبر ، إضرب تاني يا فندم ، القنبلة ولعت في مخزن العدو" بسرعة أطلق رقيب السرية صفارة الإستعداد للضرب فأسرع الجميع بإحتلال الموقع كلّ خلف مدفعه ، رن جرس التليفون الميداني والمتحدث رئيس العمليات مهللاً في التليفون بعبارات الثناء والتقدير آمرا لي بالقذف بالذخيرة بكميات كبيرة متتالية ، زمجرت المدافع والضرب متتالي وبدا أن مواسير المدافع إلتهبت من النيران فقام الجنود بوضع المياه عليها من الخارج للتبريد ومازال القصف مستمرا ، الأخبار تتوارد من مكتب

المخابرات خلفي ومن رئيس العمليات بشدة الإصابات ونشاهد من موقعنا الإنفجارات تتعالي والأصوات تصم الآذان.

إتصال من مدفعية اللواء بإيقاف القذف ، نفذت التعليمات ، بعد قليل إتصل رئيس العمليات مستفسراً مني عن سبب إيقاف القصف أخبرته بتعليمات مدفعية اللواء طلب مني تنفيذ تعليماته وعليّ أن أغض السمع عن أي تعليمات اخري فأنا قائدك المباشر ، فتحت نيران المدافع علي الأعداء ، تليفون المدفعية يرسل إشارة عاجلة بوقف النيران وأنا ما زلت مستمرا ، تعليمات قيادة الفرقة ثم الجيش وأنا ما زلت مستمرا في القصف ، اقترب مخزون الذخيرة من الانتهاء وتبادل الجنود نظافة الذخيرة من الشحم فقد استهلكنا جزءا كبيرا واتجهنا الى مخزون العمليات حتي جاءت إشارة مباشرة من القيادة العامة بالقاهرة بوقف القذف فورا لأن قيادة الأمم المتحدة حانقة علي القيادة السياسية وإلا تعرضت لمحكمة عسكرية ميدانية ، إتصل بي سعد يونس رئيس العمليات ، برافو ياد أنت والعيال الجدعان بتوعك تسلم إيديكم ، سرح الجنود بعيدا عن الموقع خشية رد فعل اليهود".

إنتشرنا بداخل مباني المدينة مع ترك جنديان لحراسة الموقع والرد علي التليفون لتنفيذ أي تعليمات أخري ، كان الموقف بالقنطرة شرق لدي اليهود ساكن بعد هذا الإشتباك الدامي ولم يلاحظ تحرك أي قوات ، جائتني البشارة بأن عدد من أصيب وقتل لا يقل عن خمسة وثلاثون فردا ، البعض يقول عشرون قتيلا وخمسة عشر جريحا والبعض يعكس النسبة فيقول خمسة عشر قتيلا وعشرون جريحا وتدمير مخزن ذخيرة بالكامل وإستمرت الإنفجارات بمخازن الذخيرة حتي فجر اليوم التالي مع تدمير العديد من العربات المدرعة وثلاث سيارات إسعاف.

وصل النقيب فاروق من إجازته وعلم من قيادة اللواء بما حدث ، كان فى غاية السعادة واخبرهم بان هؤلاء الرجال هم أشباله وأبدى رغبته فى نقل الجنود

إلى موقع آخر ولكنى طلبت الابتعاد عن الموقع فقط حتى نرى ما هو قادم مع توزيع المدافع بين بنايات المدينة وإعادة رصد زوايا للأهداف لقصفها.

الكتيبة فى حالة ترقب الى ما سوف يخبئه القدر. مضى اليوم التالى دون رد فعل لكن معلومات الاستطلاع تخبرنا بأنهم يحشدون وحدات مدفعية كثيرة شرق القنطرة فى مواجهة كتيبتنا. اليوم الثالث لتلك المعركة. فتحت وحدات مدفعيتهم نيرانها الكثيفة على موقع سريتنا بقصف مستمر لحوالى الساعتين تطايرت على إثره المبانى من حولنا ونحن مختبئين فى مجارى المدينة الجافة وفى حفر الصرف الصحى أسفل المبانى كما تواجد الطيران فوقنا لمنع مدفعيتنا من الرد عليهم.

انتهى القصف دون اى خسائر بشرية فى الكتيبة وبالتالى فى سريتنا إلا من بعض خسائر فى المهمات من الحرائق التى اشتعلت بموقعنا واحتراق عدد من افرولات الجنود وبطاطينهم كما تهدم جزء من إنشاءات الموقع.

فضلنا المبيت بعيداً وطلب منى النقيب فاروق قصفهم من أماكننا الجديدة فقصفناهم وهم يقصفون موقعنا القديم ثم اكتشفوا إننا نقصفهم من أماكن اخرى وهنا بدا لقصفهم العشوائى لمدينة القنطرة باحثين عنا بكل طريقة دون جدوى.

اليوم الرابع للقصف عُدنا باحتراز الى موقعنا بعد ان أخبرتنا قيادتنا بان حشود المدفعية غادرت مواقعها التى احتلتها منذ عدة أيام. نقوم بترميم موقعنا الذى تهدم جزءاً كبيراً منه تحت ثقل قصفهم الشديد ، استمر العمل يومان على هذا الوضع. جاءنا إنذار بتوقع هجمة جوية فطلبت من جنودى الاحتماء بالحفر البرميلية.

كما سبق وذكرت اننى أقيم فى منزل قديم وبداخل هذا المنزل اعد الجنود ملجأ لتحمل القصفات التى نتعرض إليها من حين لآخر لأنه أصبح واضحا أننا محور اهتمام العدو وأنهم يريدون الثأر منا لما اصابهم فى يوم ٧٠/٤/١١ ، وصل الإنذار الى جنودى واختبأ الجميع فى حفر برميلية أعدتها سرية الهاون السابقة بعناية حيث حفروا تلك الحفر الاسطوانية واحضروا براميل صاج مفتوحة

من الجانبين وأسقطوها بتلك الحفر وبهذا أصبحت الحفر متماسكة ولا تنهار تحت عوامل الطقس او الانفجارات ولم يستخدموها نظرا لعدم حدوث اشتباكات بينهم وبين العدو كما أبلغتنا وحدة الاستطلاع القريبة منا قبل ذلك.

جميع الجنود فى حفرهم. صعدت الى مبنى مكون من ثلاثة طوابق ويأخذ شكل المثلث لاى إنسان يتوجه الى مدينة القنطرة غرب وبجواره سوق الخضار حاليا وشاهدته منذ عدة سنوات. الدور العلوى لم يكن اعد للسكنى ولكنه مزود بشبابيك "شيش فقط". وقفت أشاهد منه موقعى الذي يشرف عليه جيدا وبالخلف اتجاه العدو ولهذا كنت آمنا بان العدو لن يرانى ولن أصاب من نيران مدافعه.

فجأة لمع شىء فى السماء وانا مازلت واقفا فى وسط هذا الشباك وكل ما حدث هو اننى سمعت انفجارات وأصوات تحيط بي وغبار أحمر ناتج من تهدم أحجار مبنى الشقة التى كنت أقف فيها ومدفوعا بقوة الى السلم متدحرجا مثل من الدور الثالث الى ان استقريت فى ملجأ ببدروم المبنى. لقد تكور جسدى مثل "القنفذ" ومن شدة الانفجارات دفعتني وتدحرجت هكذا الى ان وصلت الملجأ لانتبه وانا أشاهد بعضا من جنودى ينظرون الى والهلع فى ملامحهم وانا اتسائل: انا فين؟ هوه مش انا برضه أسامه وإلا انا مين؟

لقد أصاب الذهول الجميع من قصف طائراتهم الشديد والتى استمرت بغارتها حوالى نصف ساعة ووصل حال بعض الجنود أنهم تبرزوا بوضعهم هذا من شدة الهلع ولا ألومهم فهم محقين وهم ينصتون للغارات وأصوات ارتطام القنابل الضخمة بجوارنا وأصوات انهيارات الأبنية حولنا. انتهت الغارة وكأن على رؤوسهم الطير ما بين كسيح غير قادر على الحركة ومابين آخرين يسيرون بدون وعى.

تنبهت على رنين جرس التليفون. قائد الكتيبة يطلبنى مستفسراً عن الموقف وعن الخسائر من قتلى وجرحى وانا اخبره اننى لا اعلم لاننى لم اجمع السرية بعد وان الجنود مشتتين فى أماكن كثيرة في مبانى المدينة. شعر الرجل اننى فى غاية

الاضطراب شد من أزرى طالبا منى سرعة إبلاغه بالموقف. عناصر الاستطلاع الخلفية لنا والتابعة لحرس الحدود أبلغت قيادتها وقيادة الجيش بما نتج من الغارة وشدة التدمير الذى لحق بموقع سرية الهاون وكان أكثر المتفائلين قد حسموا الأمر بان تلك السرية فقدت على الأقل نصف قوتها قتلى والباقى جرحى.

لكنُ عمر الشقى بقى والأعمار بيد الله وحده. لم يحدث لاى جندى أوصف ضابط مكروه سوى اثنين من الجنود انفجر صاروخ واندفعت رمال ساخنة عليهما فى حفرهم فأدى هذا الى تسلخ بسيط فى أيديهما مع العلاج تعافى بعد عدة أيام كما لم تحدث خسائر فى الأسلحة او الذخيرة لكن من شدة القصف دفنت غالبية المدافع وصناديق الذخيرة من الانفجارات القريبة ولم تلحق إصابة مباشرة وإلا كان الموقع انفجر نظرا لكميات الذخيرة التى استعوضت بعد تدمير مخزن ذخيرة العدو كما أصابني بعض الكدمات والجروح والخدوش من إندفاعي من الدور الثالث إلي البدروم فأصابت الرأس والوجه ببعض الكدمات.

صعدت الى مكان مراقبتى والذى اندفعت منه ساقطا بشكل كوره من الدور الثالث حتى بدروم المبنى فى الملجأ المقام به. ولشدة دهشتى وعناية الله اننى شاهدت ان المفاصل الحديدية "لشيش" الشباك قد تهشمت من الشظايا الكبيرة التى فى حجم كف الإنسان وان الشيش سقط بداخل الغرفة التى كنت واقفا بها. اى ان الشظايا انتشرت يمين ويسار وقوفى. قلت سبحان الله والذى ينجى الإنسان فى بطن الحوت ويجعل النار بردا وسلاما على ابراهيم ويحمينى من الشظايا القاتلة لان اى شظية منهم كفيلة بشطر جسدى نصفين.

مازالت الضمادات التي قام الطبيب بوضعها علي وجهي وبعض أجزاء جسدي من الكدمات التي حدثت من سقوطي من أعلي المبني إلي البدروم تغلف وجهي بالإضافة إلي تلك الجروح والكدمات ورغم هذا ظللت أتابع رجالي لمدة أسبوع ونحن نعمل في إصلاح ما تهدم وكل يوم يحضر ضابط المدرعات الملازم

أول محمود خميس ببعض جنوده معنا مساعدين مؤازرين وقد تأكد للإسرائيليين أننا انتهينا فمضى على قصفنا عدة أيام ولا نقوم بالرد علي استفزازاتهم وشعر جميع رجال الكتيبة بمدى أهميتنا سواء بحمايتهم من قصفات مدافع الهاون او من شدة القصف الذى خصصوا له مجهود جوى خاص بنا.

أتممنا أسبوعا وعاد موقعنا كما كان واستمرت حياتنا مثل سابق عهدها ونحن نناطحهم القصف كما كنا نفعل سابقا وقد أيقن هؤلاء أننا محجبين او ان وحدات أخرى حضرت لتحل محلنا. أغدق قائد الجيش بالمكافآت المادية على جميع أفراد السرية مكتفيا بان أرسل لى والى النقيب فاروق متولى خطابى شكر على تدمير موقع ذخيرة العدو فى هذا التاريخ (مرفق مع باقى المرفقات).

نقترب من نهاية شهر أغسطس ومبادرة وزير الخارجية الامريكى وليم روجرز لوقف إطلاق النيران والتى ستدخل حيز التنفيذ بعد أسبوع. انه أسبوع جهنم فى جبهة القتال. الطرفان يريدان الثأر وتعاظمت الاشتباكات والمعارك بين الطرفين وكان وقودها الأفراد والذخيرة وتساقط القتلى من الطرفين وامتلأت المستشفيات العسكرية بالشهداء والمصابين وحملت لوارى الجيش رفات الكثير من الجنود والضباط الى أهاليهم وقد نالنا نصيب من هذا وهو قائدنا النقيب فاروق متولى الذى لاقى ربه اثر استشهاده عن شجاعة وحبه للآخرين حيث كان يقف يدفع بالجنود الى الملجأ هربا من قذف الطائرات المعادية لكتيبتنا فى القنطرة وبعد ان تأكد ان جميع الجنود بالداخل أراد ان يلحق بهم فلحقت به شظية كبيرة لتقسم جانبه الأيمن فيقع صارخا يردد الحمد لله (لبنهام) ولاد الابالسه. ثم يكمل حديثه وهو يقاوم الموت. عرفوا الجميع انى مش خايف وانا حاقابل ربنا وانا سعيد. ينقل الى مستشفى القصاصين العسكرى ولكن الطائرات المغيرة على الطرق أخرت وصوله فوصل متأخرا وبعد دقائق لاقى ربه راضيا مرضيا شجاعا محبا للآخرين لم يضر إنسان ولم يغضب منه احد والرجل كان على سجيته صريحا فى القول.

تساقطت الطائرات المعادية كالفراش المبثوث وكان منظرا رائعا ونحن نشاهد تهاوى تلك الطائرات من طراز فانتوم وسكاى هوك تسقط وتشتعل بها النيران والاشتباكات على أشدها حتى تم وقف إطلاق النيران وهدأت المدافع.

خالجنى شعور غريب لم أتبينه انا وجنودى الأوفياء لقائدهم قبل هذا رغم ان النقيب فاروق كان كثير التغيب فى الفرق التعليمية ولكنى لم أكن اشعر بقيمة ما لغيابه عنا ولكن بعد استشهاده شعرت بأنه أخى الأكبر الذى يعطينى النصيحة والمرشد والموجه والصديق الذى نقضى معا بعض الاوقات فى المرح والسعادة وشعرت ان باقى ضباط الكتيبة يشعرون بهذا الشعور فكل من تعامل معه شعر بصدق مشاعره فلم يذم فى احد ما وإذا أراد ان يذمه فيكون أمامه لاعنا كل شىء ويدخل فى معارك لفظية معهم ولكن من خلفهم لم يتلفظ عن احد منهم بسوء. حتى لوقت قريب وفى عطلة عيد الفطر المبارك فى نهاية شهر أكتوبر من عام ٢٠٠٦ وكنت فى زيارة عائلية للدكتور محمود خميس زميلنا فى القنطرة وأستاذ علوم البحار بجامعة الإسكندرية ووكيل الكلية وتذكرنا هذا الإنسان المحبوب ونحن أكثر الناس التصاقا به ، رحم الله الرجل وادخله فسيح جناته.

صدر قرار وقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل بناء على مبادرة أمريكية اعدت للتطبيق. بعد عدة أيام علمنا بالخبر الحزين ، مات القائد جمال عبدالناصر ، كانت الجبهة وقتها فى حالة وقف لإطلاق النار ورغم ما بى من جراح وألم مثل الآخرين وخاصة إننا ودعنا قائدنا المباشر النقيب فاروق منذ اقل من أسبوعين إلا اننى واجهت موقفا سيئا من الحالة التى وصل إليها الجنود وانا أشاهد عيونهم الزائغة. عادت بى الذاكرة الى عام ٦٧ والانسحاب ونحن بهذا الشكل لكن كان مبعثه العطش والجوع والإرهاق ورغم كل تلك الظروف كان الأمل يغلفنا بأننا سنعود لبلدنا وهناك جمال عبد الناصر. كنت أتذكر ان غالبية الشعب

كانت تقرن جمال عبدالناصر بحل مشاكلها فكان الناس خاصة الفقراء يصيحون بطلب النجدة من جمال عبدالناصر.

جمعت جنودى أحادثهم بأن هذا ليس نهاية المطاف ، ينظرون الى كأننى إنسان قاس ولا قلب لى وسألنى احدهم بضيق بأسلوب بعيد عن الاحترام والانضباط العسكرى قائلا: أمال لو مكنتش سلمت عليه وكلمك وكلمته كنت عملت إيه؟ ارتبكت قليلا ولكنى أجبتهم: لو أنكم تحبون هذا الرجل حقيقة وليس شعاراً لنفذتم نصائحه. الم يطلب منا الاهتمام بالتدريب والمحافظة على سلاحنا. هذا هو مطلبه والذى يحبه ويقدره ينفذ ما طلبه منا جميعا منذ عدة أشهر. صمتوا قليلا وكأنهم نفثوا عن ضيقهم وأخيرا تشجع احدهم قائلا: اعذرنا يا فندم .. أصلها حاجه كبيره.

جائنى قائد مدفعية اللواء المقدم حسن سليمان وهو رجل من أبناء المنصورة مهذب لا تسمع سيء يخرج من لسانه واخبرني بأنه راغب فى ان يلحقنى على الكتيبة المجاورة ٥٣٧ لان الكتيبة مكلفة بعمل خاص ضد العدو بعد وقف إطلاق النار ولن أجد أكفأ منك لتلك المهمة. وافقت على الفور وهناك تعرفت على مجموعة جديدة من الضباط.

توليت قيادة سرية الهاون يعاوننى الملازم أول احتياط نبيل عزيز صليب ، التدريب يسير على قدم وساق واستمرت خدمتى بالكتيبة لمدة ستة أشهر ثم تغير موقعنا لنحتل المنطقة خلف مستشفى القصاصين العسكرى بعيدا عن الخط الأمامي للعمليات.

رتبت اجازتى الميدانية مع موعد زفاف مدحت والذى اقترب موعده كما تسلم شقة حديثة فى الجهة الأخرى من النيل فى اتجاه حديقة الأورمان اى انه أصبح من سكان الجيزة. سعدت سعادة كبيرة وانا أشاهده فى كوشة الزفاف بجوار عروسه يماثل البدر المنير ليلة ضيائه ، عاودتنى الذكرى الأولى والتى شاهدته

فيها لأول مرة وهو راقداً فى مستشفى المعادى تائها لا حول له ولا قوة لا يعرف من هو ومن يكون؟ ان الله يسخر من عباده لمعاونة الآخرين وقد سعدت بهذا ان أنال هذا الشرف وان أكون احد هؤلاء الذين يدخلون السعادة على قلوب الآخرين كما كانت عائلته غاية فى الكرم معي فقد اقتربت تلك العلاقة من عامها الرابع وكانت على أحسن ما يكون ولم اشعر فى يوم من الأيام اننى ألقى معاملة اقل ان لم يكن أفضل وكان هذا نابعا من أصالة الأسرة.

تهمس علا فى اذنى. عقبالنا يا أسامة وانا أؤيدها فيما تقول ثم تضيف هل اقترب موعد اللقاء ام مازال هناك بعض الوقت؟ كنت لا ادري كيف أجيبها وقد اشتعلت نيران الحب والشوق بيننا وتكمل حديثها: إذا كنت تفكر فى الماديات فهذا آخر شيء نفكر فيه. نحن بشر أولا وأخيرا وهذا هو الباقى. اما ما يقاس بالمال او غيره فهو زائل ومن ليس معه اليوم يصبح معه غدا. نفيت هذا التفكير من فكرها فلقد من الله على بخيره وها انا قليل النفقات فأضع مبلغا من المال فى بداية كل شهر بيد امى لتساعد فى نفقات المنزل المتزايدة اما ما يتبقى معى فأضعه فى حسابى بالبنك أجنبه حتى استخدمه فى إعداد مستقبلى العائلى وأكون مستعدا لكل نفقات الزواج.

انا اعلم ان عائلة علا ثرية فقد تبقى لهم بعد مرحلتى قوانين التأميم بعض الأموال حيث كان والدها رحمة الله الحاج هشام عليوة صاحب مطحن دقيق فى منطقة مصر القديمة وأممت الحكومة مطحنه خلال قوانين يوليو الاشتراكية.

طمأنت علا بان كل شيء قادم فى موعده ومازالت تستحثنى على اتخاذ إجراء ما خاصة ان مدحت ترك الفيلا وسيقيم بعيدا عنهم وبالتالى تكون زيارتى مؤيدة باننى خطيبا لابنتهم علا ، لقد نبهتنى علا الى شيء خطير وأنني لن استطع بعد اليوم ان اذهب وأعيش بينهم كما كان يحدث فى الماضى وبأى صفة؟

أجبتها باننى مازلت متخوفا من الزواج ومازالت البلد تنتظر حربا ولكنها تجيبنى بان كثير من الشباب يتزوجون ولا دخل للحروب بالزواج ، أحاول إقناعها باننى إذا تذوقت هذا الجمال الرائع والسعادة الغامرة كيف استطيع تركه وأعود لوحدتى انتظر أربعة أسابيع ثم أعود إليها ثانية ، تضحك لهذا الإطراء قائلة: شيء قليل أفضل من لا شيء ، كنت أوّيدها فى هذا.

كان مبعث خوفى هو ما شاهدته وعاصرته من روايات عن شهداء تركوا زوجاتهم حوامل فى الشهور الأولى وسوف تنجب الزوجة وبعد فترة تتزوج شخصا آخر يقوم بتربية ابن الشهيد. أيحسن معاملته؟ كنت أشك فى هذا. إذن ما الذى يدفعنى الى هذا ولماذا العجلة ، تلمح لى بان عمرها اقترب من الثماني والعشرين وان شقيقتها دينا تعمل الآن وهناك شخص يطلب ودها ويرغب فى الحضور لقراءة الفاتحة وكلها أمور تثير النفس وتساعد على الاندفاع نحو العاطفة المؤجلة.

أشاهدها تسير بين المدعوين رائعة الجمال وما وهبها الله من جمال طبيعى وجسد متناسق وطول فارع وقسمات وجه معبرة والبعض من المدعوين ينظرون إليها خلسة ليمتعوا أعينهم بهذا المخلوق بديع التكوين وانا شاعر بسعادة غامرة ان يكون قلب هذه الجميلة لى وحدى وإنها ترغبنى اليوم قبل الغد خاصة ان علاقتنا كانت سامية ولم تخرج عن تبادل كلمات الإعجاب بتسريحتها او ملابسها وأناقتها ولم نكن نتصرف مثل الآخرين لأننا نعلم ان كل خطوة لها حقوق وواجبات وطالما لم نقم بسداد الواجبات فليس لنا حقوق كما كان شعورى الداخلى بشعور ماما وداد بالأمان على ابنتيها معى هو عامل هام فى زيادة الأمانة والسمو بها فوق كل رغبة عابرة او مكبوتة.

***

عُدت إلي الوحدة بعد إنتهاء أجازتي واليوم التالى توجهت مع قائد الكتيبة للقاء قائد قطاع بورسعيد لتنظيم تعاون وهناك استأذنتهم بعد ما انتهي عملنا الذي

حضرت من اجله ، تركتهما يتناولا طعام الغذاء وركبت السيارة الجيب يقودها العريف/ سعيد متجها الى محل "الشامى" بائع البسبوسة. هناك سألت احد أصحاب الدكاكين عن عم علوه المزين وافادنى البعض بأنه بعافية من يومين "مريض" وإذا أردت زيارته فسأدلك على منزله.

أقف الآن أمام منزل عم عليوة المزين والذى قابلنى فى بورسعيد بعد عودتى من انسحاب عام ٦٧ وقص شعر رأسي والذي كان ينتظر عودة ابنه من الحرب. معى مرافقى من أبناء بورسعيد بعد ان دق على باب منزل قديم فتحت الباب فتاة جميلة حباها الله بنعمته. أخبرتها بان ضيفا راغبا في لقاء عم عليوة. أشارت إلى الفتاة بالدخول وهى تنظر الى مليا ثم بعد دقائق طلبت منى التوجه لحجرة والدها المريض.

شاهدت الرجل جالسا فى سريره وبجواره زوجته وابنه البالغ من العمر اثني عشرة عاما كما اخبرني بعد ذلك. أصافحه قائلاً له أزيك يا بابا عليوة. نظر الى الرجل بتمعن قائلاً: والله الشكل غريب علىّ ولكن الصوت وكلمة بابا دية محدش قالها لى من يوم المرحوم ممدوح غير واحد ربنا يعيده وأشوفه. سألته ومن هو؟ اجابنى ظابط ابن حلال قابلته فى بورسعيد من تلات سنين صحيح كان متبهدل ووشه وارم ومسلخ لكنه ابن حلال تصور قال لى بابا عليوة.

انحنيت عليه واحتضنته وانا اخبره باننى هذا الشاب. بكى ضاحكاً مردداً: والله الدنيا دية صُغيره. نظر جهة زوجته قائلا: فاكره يا خديجة (وقفت زوجته مرحبة بى)" مش قلت لكِ انى نفسى أشوف الشاب ابن الحلال اللى قاللى بابا عليوة. والنبى تقولها. اردها بابا عليوة وابنته تنظر الى وتسأل وعلى وجهها الجميل ابتسامة ساحرة. طيب واسم اخويا إيه؟ اخبرهم: أسامه.. أسامه الصادق.

اعد هؤلاء القوم الطيبين الفقراء احتفالا مبعثه الحب النابع من القلب ولا شىء سواه فتشاهده وتشعر به ولولا اننى عائد آخر اليوم الى وحدتى مع قائدى

لأمضيت الليل عندهم. تعرفوا على اخبارى وعرفت أخبارهم وان ممدوح مازال يعتبر مفقوداً والرجل يقول استعوضته عند ربنا والبركة فى حمدى ابنى الصغير حيبقى راجل ويخلى باله منى ومن أمه ومن سحر بنتى. شفت بنتى سحر حلوه ازاى؟ نظرت إليها وقد تورد وجهها من ثناء والدها فقلت من ناحية حلوه مافيش بعد كده .. تدفعنى فى يدى وهى تقول: ما بلاش الكلام اللى يكسف يا خويا .. حضر حمدى وجلس بجوارى واضعا كوعه على صدرى ونام على هذا الوضع مستيقظا. اما الام خديجة فأرادت انْ تعد طعاما لنا وقد اقترب الوقت من الثانية بعد الظهر ، طلب منها ان تسألني عما أريد تناوله فأجبتهم الموجود بدون ان تعدوا شيئا جديداً حتي أشعر بأنهم منى وانا منهم. جلست في ضيافتهم حتى تعدت الساعة السادسة واستأذنتهم مغادراً على وعود بالعودة لزيارتهم مرة أخرى ولكن سحر اخبرتنى بان أوامر التهجير الإجبارية وصلتهم وسيقيمون فى بيت عمتهم القديم بحى القلعة وزودتني بالعنوان. غادرت أسرة عم عليوة عائداً الى قائدى وشعرت بسرور عظيم لهذا اللقاء الانسانى وانا احدث نفسى قائلاً: بقيت عامل شيخ حارة يا أسامة .. ولكنها ظروف الحرب.

مواقف طارئة في العمل :

رُقيت إلى رتبة النقيب فى الأول من شهر يوليو عام ٧١ و شعرت اننى محترم نسبيا فقد ودعت رتبة الملازم والملازم أول التى اصابتنى كثيراً بالإحباط من تجاهل القادة الكبار ومعاملتهم لي باننى مازلت صغيراً احتاج للتوجيه والتقريع من حين لآخر. أثناء تواجدى بالقاهرة لحضور حفل زفاف مدحت وسعاد فكرت فى زيارة عاطف شقيق الشهيد وليم فاتصلت به تليفونيا وقد مضت عدة أعوام تناسينا اللقاء والزيارة وما لهم من مكانة فى قلبى ومشاعرى ودائما صورة الشهيد وليم امامى لا أنساها أبدا حتى هذا اليوم كأنه مازال ماثلاً امامى بكبريائه وقوته وتحديه للعدو واعتقد انه شيء طبيعى ان يكون تصرفه هذا وهو قائد كتيبة دبابات

وشاهد وعلم ما حدث لزملائه وجنوده ومصيرهم المحتوم وهم مسحولون خلف الدبابة الإسرائيلية وشاهد الاثنان اللذان توفيا ولاقا حتفهما من جراء ذلك ، كان حُب الانتقام شيئ أهم من بقاءه حيا هو ومعاونيه مثلنا بالضبط فقد دخلنا تلك المعركة اليائسة ونحن لا نملك سوى اثنتي عشر طلقة من بنادقنا الضعيفة أمام ترسانة أسلحة الدبابة.

كان اللقاء طيبا جميلا بهذه الأسرة وفيه استمتعت بحبهم وحنانهم حيث كانت ماما ماري تنظر إلي بأنني وليم الابن الغائب أو بأنني الأوفر حظا وألتقي به قبل لقاء ربه بدقائق بل ودخل معركة انتحارية من أجل إنقاذه هو وزملاءه ، كانوا جميعا يلتفون حولي وكنت أحمل عزيز أبن الشهيد علي ساقي ألاعبه واقبله وأغدق عليه في كل مره بهدية تسعد الأطفال الصغار ، كانت روز أرملة وليم تنظر إلي بطيبة وسعادة وفي بعض الأحيان تهاجمها دموع الفراق للزوج التي لم تمكث معه سوي عام واحد ثم أصبحت أرملة ، ماما ماري تجلس بجواري وتهمل عاطف الذي كان يضحك من تصرفها ويداعبها بأنها مثل القطط تتساه مجرد حضور أسامه وتقاطعه بأن من يجلس بجوارها هو وليم!!

إتجهت الى القاهرة للدراسة بمعهد المشاة لفترة سبعة أشهر او يزيد وقررت أن أعيش بعيداً عن فيلا دينا فلقد جد جديد وهو زواج مدحت وكيف سأوفق بين وجودى بالقاهرة وزيارتهم ، كانت تلك هى المشكلة التى تواجهنى فهم لا يرون اى مشكلة فى ان اكرر التجربة وأقيم معهم ثانية وانا أجد فى ذلك مائة مشكلة. أولها اننى لا أريد ان اكرر مأساة فرقة الهاون وأعود خالى الوفاض من المعلومات ، انها سرية مشاه وفرقتها صعبة وتحتاج مني إلي مجهود وتركيز ، ثانيا ان مدحت غير متواجد بالمنزل والفرقة طويلة وعلا وصلت الى مرحلة الاندفاع العاطفى الذى لابد انْ يلبى عن طريق اتخاذ إجراء ما لبداية زواجنا وهى التى كررت مرارا انه لابد من قراءة الفاتحة وبعدها بشهرين تتم الخطبة وهكذا

وف أجد نفسى منزلقا الى وضع لم استعد له نفسيا. ثالثا خشيتى ان أجد نفسى ى يوم ما غير مرغوب فيه فسيكون هذا مؤلما على نفسي ، ولهذا أهلت نفسى ان أقيم بميس المشاة بالعباسية وبعد قضاء أسبوعين شعرت اننى أقيم فى معسكر وعنفت نفسى كيف لى ان أعود من جبهة القتال بعد أكثر من أربع سنوات لأقيم فى معسكر هل هذا معقول؟

فى اليوم التالى قابلت زميل لى يدرس معي فى معهد المشاة وأخبرته بحالي وعرض على ان أقيم بشقة شقيقه بالهرم والمتغيب نظرا لوجوده فى بعثة تعليمية بالخارج حتى نهاية العام وعائد الإيجار يستفيد به بعد عودته. راقتنى الفكرة وعاينت الشقة واتفقنا على ان يخصص لى حجرة واحدة ويغلق باقى الحجرات حفاظا على أثاث الشقة وفى نفس الوقت لا تكلفنى مشقة نظافتها واتفقنا على كل شىء.

شعرت بعد ان انتقلت الى الشقة باننى أعيش مع الناس واننى حر طليق رغم كثرة المذاكرة والواجبات إلا اننى كنت سعيد بأني ابتعدت عن المعسكر الذى كنت أقيم به.

فى عطلة نهاية الأسبوع أقوم علي زيارة ماما وداد وأسرتها والأسبوع التالى أتزاور مع عائلتى بالزقازيق ، استفسرت مني علا أين أقيم فأخبرتها فانزعجت من هذا التصرف منددة به وتدخلت الام تعتب عليّ قائلة نحن الآن فى اشد الحاجة إليك أكثر مما مضى وقد شُغل مدحت بزوجته وأصبح قليل الزيارات خاصة انه لا يستطيع قيادة السيارة ليلا لظروف إصابته.

أوضحت لهم باني أقيم مع زميلين لإعداد المشاريع والخرائط المطلوبة منا. آه يا أسامه لقد كذبت والكذب هنا منجاة من غضبهن او أكون طوع بنانهن واحصل على تقدير ضعيف او مقبول. اننى أريد التركيز كما ان عمرى اقترب من الثمانية وعشرين عاما وهذا يدفعنى إلى المزيد من التفكير فى علا بطريقة تختلف عما

كنت افكر فيها قبل ذلك وقد يدفعنى هذا الى ارتكاب أخطاء لا اعلمها ولكن على الإنسان البصير ان يتقى مواطن الشبهات.

فى نهاية شهر ديسمبر انتهيت من فرقتى الدراسية ونجحت بتقدير جيد وشعرت باني حصلت على الكثير من المعلومات واستفدت استفادة كبرى من المعلومات التي حصلت عليها فقد حصلت على معلومات وتدريبات قيمة في تلك الفرقة الدراسية بمعهد المشاة خاصة التركيز والاهتمام بالتحصيل واهم ما لفت نظرى هى تلك المعلومات الواردة من المخابرات الحربية عن خط بارليف.

هذا هو خط الدفاع المتواجد على شرق قناة السويس. الخط عبارة عن دشم خرسانية على الشاطىء الشرقى مباشرة. الدشمة تتكون من عدة طوابق. ما بين طابقين او ثلاث محفور لها فى باطن الأرض ومغطاة بالرمال لحمايتها من نيران أسلحتنا الثقيلة. بتلك الدشم فتحات او مزاغل يمكن من بداخلها ان يفتح نيران الأسلحة المزودة بها تلك الدشم على اى قوة تحاول العبور من الضفة الغربية للهجوم عليهم. هذه النقاط وتلك الدشم يوجد بوسطها منطقة فضاء او صحن من الرمال لتخزين المركبات المدرعة والدبابات. ومزودة بكل شيء من وسائل الإعاشة والتسلية. بها أماكن مريحة للنوم وقاعات طعام وأماكن للتسلية وإرسال تلفزيونى ومزودة بخزانات مياه نظيفة ومولدات كهرباء بالإضافة الى الأسلحة المختلفة التى تفتح نيرانها على قواتنا للقضاء على اى محاولة للهجوم عليهم. تتواجد فتحات "مزاغل" بتلك الدشم سواء أمامية او جانبية يمين ويسار وتستطيع إطلاق النيران على اى قوة مهاجمة على النقطة القوية المجاورة لها بعدة كيلومترات وحمايتها سواء يسارها او يمينها. وتلك النقاط بها أسلحة مضادة للدبابات ورشاشات وهاونات للقضاء على الأفراد كما زودت بمواسير بأسفلها تدفع منها كميات هائلة من مادة النابالم الحارق الذى بعد دفعه من أسفل القناة يطفو فوق المياه منتشرا

مسافات بعيدة مشتعلا بتأثير الهواء حارقا اى محاولة للعبور. تنتشر على طول جهة قناة السويس ٢٨ نقطة قوية.

تلك النقاط تحيط بها حقول ألغام من عدة طبقات بعضها فوق بعض حتى من تمكن من تأمين الألغام السطحية تنفجر فيه الألغام السفلية. كل نقطة مزودة ببرج مراقبة لمراقبة التحركات لقواتنا كما اعدت سماعات تلتقط الأحاديث بين المصريين وتسجيلها وإرسالها الى جهاز المخابرات الإسرائيلي.

يربط تلك النقاط اتصال سلكى ولاسلكى على مستوى عال والفواصل بين النقاط ما بين ١٠ إلي ١٢ كيلو متر حسب طبيعة الأرض وأهمية المواقع لمواجهة لها بغرب القناة ، كما توجد مدقات تسمح بسير المركبات ويحميها عن عين قواتنا ساتر ترابى مرتفع مابين عشرين الى خمسة وعشرين مترا بزاوية ميل ستون درجة. خلف هذا الساتر توجد مرابض للدبابات"أماكن لفتح النيران وتحمى دباباتهم من أسلحتنا" ومزود بالذخيرة وتتدفع الدبابات لها وتقوم بالاشتباك مع قواتنا سواء بغرب القناة او التى استطاعت التسلل والعبور. يربط بين تلك النقاط "المدقات" أي الطرق لتقديم العون العسكرى والادارى ، نزول الأجازات بواسطة أتوبيسات سياحة مكيفة كما يحضر للترفيه عن الجنود بعض الزوار من فنانين وغيرهم وبالطبع العنصر النسائى متوافرا سواء بالجيش او من الزائرات لهم.

خلف تلك النقاط بحوالى عشرين كيلومترا تتواجد نقاط قوية لحماية نقاط الخط الامامى للقناة وبها عناصر مدرعة سواء الدبابات او المشاة الميكانيكى ووحدات مدفعية ومهندسين عسكريين. في حالة الخطر على تلك النقاط تندفع تلك الوحدات من المدرعات "دبابات او مشاه ميكانيكى" للهجوم على المهاجمين من قواتنا وتسبقها قصفات مدفعية ميدان كثيفة مع معاونة جوية تصل حتى مستوى الفصيلة المشاة او المدرعة. الإسعاف بطائرات الهليكوبتر للخلف.

طائرات الاستطلاع محلقة باستمرار على خط القناة تصور وتسجل كل شيء قبل وقوعة بعدة ساعات مع تواجد عملاء لهم داخل المنطقة الغربية للقناة وقد ألقت المخابرات الحربية القبض علي بعضهم وقدموا للمحاكمة.

***

فى أول يوم وصولى الى موقع كتيبتى فى الموقع الثالث بعيدا عن خط القناة طلبنى قائد الكتيبة وكان التوقيت ليلاً وكنت عائداً مرهقاً من الفرقة الدراسية ، اخبرنى بان عليّ التوجه الى مقر السرية الثالثة مشاه ميكانيكى فقد اصبحت كتيبتنا محملة على مركبات "تواز"وباقى اللواء أيضا.

أصبح قائد السرية السابق مساعدا لى لأننى أقدم منه ومازلنا نواصل التدريب وأمورنا على أحسن ما يكون. نواصل التدريب بمناورات شديدة ولمسافات بعيدة مستخدمين المركبات المدرعة لعدة أيام وهناك تسابق وتعاون بيننا وبين كتيبة الدبابات لان تكتيكات المشاة المترجل تختلف فى بعض المواقف عن تكتيكات المشاة الميكانيكى.

بداية عام ٧٣ استعد لحضور حفل زفاف"أكليل" المقدم عاطف شفيق على عروسه مريم ميخائيل ، افكر .. لقد تأخر عاطف فى زواجه وفى اجازتى السابقة استفسرت منى والدتى لماذا لم اتخذ خطوة حتى الآن مع علا طالما ان العائلة ترغبك وترغبهم والفتاة من حين لآخر تطالبك باتخاذ خطوة ما والعمر يجرى بكما خاصة بها كفتاة وانا أعرب لها عن مخاوفى الغير مباشرة حتى لا تنزعج فمن غير المعقول اخبرها اننى أخشى ان اتركها مثل ما ترك وليم زوجته.

عدت الى وحدتى وانا عاقداً العزم على ان اتخذ خطوة ما لشعورى بفتور من جهتها ، مضى على ذاك الفتور شهرين شعرت خلالها بقتامه سوداء فى حياتى ، كنت أعود من زيارتهم حزين القلب ومشاعرى تائهة ولا اعلم كيف الخروج من تلك

دوامة واعتقدت ان السبيل الأوحد لتقليل تلك الفجوة هو اتخاذ خطوة ما لإعادة نبض القلوب ثانية كما كنا دائما.

قررت كتابة خطاب لها وسوف أرسله مع شخص أثق به وينتظر حتي اليوم التالى ليعيد رد الخطاب لى حتى تستعد لقيام أسرتي بزيارتهم ثم اتصل بعائلتى وذهب للزيارة وقراءة الفاتحة وتصبح تلك أول خطوة أخطوها فى حياتى العاطفية والاجتماعية. صحيح اننى راغب فى الاقتران بها خاصة فى الفترة الأخيرة حيث كنت ألاحظ مدى ما تتمتع به من جمال طبيعى كما ان زواج عاطف شجعنى ولكن ليكن ما يكون وهل انا علام الغيوب واعلم متى تبدأ الحرب ومتى تنتهى وهل سأنجو منها وانا الذى شاهدت المآسى فى سيناء من شباب يافع قوى يلقى حتفه ظلما وقهرا من العدو والطبيعة.

أرسلت فى طلب صف ضابط مجند عمل معى فى سرية الهاون وهو من أبناء القاهرة وكان دائما ما يقص على أخباره وأخبار أسرته وهو ابن رجل فاضل كان رئيسا للبعثة التعليمية بإحدى الدول العربية ، إنه محمد فوزى .. حضر الشاب سعيدا باننى تذكرته وأريد محادثته ، جلسنا نتناول الشاى سويا بعيدا عن أعين الجميع وأخبرته باننى أريد ان أرسل معه بخطاب الى شخص يهمنى أمره يسكن حى المنيل وسألته أتعرف حى المنيل لأنني أعلم أنه من أبناء حى شبرا ، أرغى وأزبد فى معرفته بهذا الحى الجميل فأردت ان أنهى حكايته التى لا تخرج عن كونها الرغبة فى النزول لتنفيذ تلك المأمورية وقضاء يومان مع أسرته ، قلت له سوف أزودك بالعنوان والوصف ، أوضح له انه ليس المنيل بالضبط ولكنها منطقة الروضة والبعض يطلق عليها منيل الروضة.

ضحك الشاب قائلا ان تلك المنطقة صغيرة المساحة وله فيها من الذكريات الجميلة أيام ان كان يجمعه مع زميلته فى الجامعة وبنفس الكلية قصة حب قوية تحدث عنها جميع زملائه وزميلاته لان الحبيبة كانت من نفس الكلية. آه يا فندم

انها فتاة جميلة آه عليك يا علا وعلى جمالك "انتابنى بعض التوتر لتشابه الاسماء" سألته انه اسم جميل .. علياء .. صحح الاسم .. لا ليست علياء بل علا هشام !!! ارتبكت قليلا ولم استطع ان أتحدث فكنت ابتلع انفاسى التى بدأت تلهث من تلك الكلمات القليلة .. استطرد .. تقيم فى فيلا "دينا" فيلا رائعة وهم من الأغنياء ميسورى الحال ولها شقيق ضابط بالجيش يكبرها بعدة سنوات ذهبت لمفاتحته بالاقتران بها ولكنه رفض طلبى قائلا بعد التخرج وأخبرته اننى سوف أتخرج هذا العام وكنا قبل حرب ٦٧ اى فى عام ٦٦ ولكنه صمم علي التأجيل. تصور يا فندم .. أفندم أنت نمت؟ .. أشير إليه بان يكمل قصتى المأساوية والفرصة السيئة التى جائتنى على غير موعد .. يكمل حديثه .. كنا نتنزه معا واحضر معى العود لأعزف عليه أغنية أول همسه للفنان فريد الأطرش .. ياه كانت بتدوب لما تسمع منى العزف .. أتنحنح سائلا إياه .. لكن كان فيه بينكم حاجات ومحتاجات .. يضحك ويطلب منى ألا اذكره بتلك الأيام السعيدة ونحن هنا نقاسى التعب والألم البدنى والنفسى قائلاً: "ايوه كان فيه أمال .. اتنين بيحبوا بعض حيعملوا إيه .. لازم فيه من لمسات وآهات"انا اقول فى نفسى آه .. آه".. لازم يا فندم الواحد يشعلل البنت اللى معاه كلام وبس بقيت زى اى زميل لكن مدام فيه حب ورغبة لازم نتمتع قبل الجواز. دا أنت سيد العارفين"انظر إليه وانا احدث نفسى قائلاً: دا انا سيد الخايبين. يكمل حديثه: بصراحة اتمتعتلى يومين حلوين. لكن والله كنت ناوى على جواز لكن اخوها يخرب بيت أهله هو السبب. ياه اتلاقيكى اجوزتى ومعاكى عيلين دلوقتى خلاص بقيتى ذكرى .. ياه .. لكنها ذكرى حلوة ما تتنسيش".

جلست صامتا وما زال يتحدث ويتكلم ، حدثته: محمد طيب روح دلوقتى سريتك وانا حابقى ابعتلك لما أجهز الجواب. وقف شاكرا يودعنى قائلاً أهى تبقى

رصه أعدى على فيلتهم واعرف الأخبار من البواب او يمكن أقابلها صدفه ماهى لصدف الحلوة كتير وربنا يكترها.

أدى التحية العسكرية وانا لا افترق عن تمثال رمسيس فى شىء سوى فى لعمر الزمنى ، تسمرت وتجبست فى مكانى. ياه يا علا لكِ قصة حب عنيفة مع محمد فوزى وكمان أول همسه وتلاقى أول لمسه وأول قبلة. آه لا استطيع ان تذكر ولا أريد ، الله يخرب بيت دى فرصه والله يخرب عقلك يا محمد يا فوزى. عمل إيه ياربى؟ يعنى البت اللى طلعتلى فى البخت اعرف "بالصدفة المُرة" انها كانت على علاقة واعرف الشخص وأشاهده امامى وهو يقص على تلك الغراميات.

أعيد التفكير ومراجعة عقلى المنهار المضطرب. يمكن حكاية تأليف من بتوع الشباب وانه واد عفريت ودون جوان. أمضيت ليلة سيئة لا يقارنها ليلة سوى تلك الليالى التى كنت مدفونا فيها مع الذئاب. فتحت ظرف الخطاب المرسل لها واقرأ عبارات الحب التى أرسلها لها واخبرها فيه بلهفتى للارتباط بها وانى قادم فى اجازتى المقبلة وسيكون برفقتى والدى ووالدتى لقراءة الفاتحة وأرجو ان تخبرينى مع حامل تلك الرسالة هل هذا التوقيت ملائم من عدمه وسلامى وقبلاتى الى ماما وداد والحبوبه الصغيرة دينا واخى الأكبر مدحت وعروسه سعاد .. وختام من الحبيب الولهان ..... أسامة.

فارت الدماء فى رأسى وكنت فى غاية التوتر على تلك الخيانة ، كيف لى ان ارتبط بإنسانه خائنة ولقد تسلمتنى مكان محمد فوزى كبديل بدلا من الحب الضائع. اجلس قليلا ثم أعيد الفكر والتقدير لتلك المأساة التى لم تكن تجول بخاطرى. ثم أعود لتبرئتها.

صباح اليوم التالى نهضت من نومى وعيونى منتفخة من السهد والأرق والشواء على نار الغيرة والخيانة التى أشعلها فى قلبى الغبى محمد فوزى بدون ان

يدرى. يا له من أحمق يفتح فمه ولسانه عن الآخرين بأسوأ الأخبار ، آه على ديننا الحنيف الذى حرم اغتياب الناس وخاصة النساء وجعلها من اكبر الكبائر" قذف المحصنات المؤمنات الغافلات".. ان الغيبة والنميمة مثل السهم الذى إذا خرج لا تستطيع استعادته.

حاولت استرجاع السنوات السابقة بينى وبين علا. ياه يا علا الرقيقة اللطيفة ولماذا اصدق هذا الأحمق واكذب عيونى وحواسى. طوال السنوات الماضية لم يحدث بيننا اى شىء وكنا متفقين انه لا حقوق بدون واجبات اى بدون خطوات تعد فى صالحنا للارتباط ، كما ان شقيقتها دينا تلعب معى كأننا فتايان صديقين ولم أشاهد عليها اى ميوعة او مياصة اما ماما وداد" أدمعت عيناى على تلك الام الرقيقة الكريمة التى ساعدتنى واوصلتنى الى محطة كوبرى الليمون منذ عدة سنوات وانا شبه كسيح عاجز عن السير عدة خطوات وجشمت نفسها عبء الاتصال باسرتى بالزقازيق وهى التى فقدت ابنها الوحيد ومازالت تبحث عنه ورغم هذا لم تدع فرصة لمعاونة المحتاج إلا وفعلتها ، لم تكن تفعل هذا تيمنا من الله بان ينقذ وحيدها ولكنها مازالت تفعله وتلقبنى بابني أسامة وتعتبرنى احد ابنائها طوال تلك السنوات وتعلم بان ابنتها راغبة بى وانا لم اتخذ اى خطوة حتى الآن ، الله يخرب بيتك يا محمد يا فوزى يا مجنون.

****

شهر إبريل عام ١٩٧٣ حدث لي حدثان خطيران كادا أن يؤديا إلي معاقبتي بالمحكمة العسكرية :

الحدث الأول: صدور تعليمات شفهية من قائد الجيش الثاني الميداني بمنع اصطياد السمك في تفريعة البلاح الغربية التي تسيطر عليها قواتنا باستخدام المفرقعات ، كان يحدث يوميا قيام بعض الضباط من الرتب الكبيرة باصطياد الأسماك باستخدام المتفجرات مما أدي إلي تذمر قوات الطوارىء الدولية التي لا

ستطيع التمييز بين صيد الأسماك وخرق اتفاق وقف إطلاق النار بين مصر إسرائيل.

كانت تعليمات قائد الجيش هي إطلاق النار فورا علي من يقوم باصطياد لأسماك مستخدما المتفجرات ، أحد أيام شهر إبريل نهضت من نومي فزعا علي صوات انفجارات فخرجت من مكمني أتعرف علي هذا الصوت فأخبرني المراقبين السرية بأن انفجارا شديدا وقع لصيد الأسماك باستخدام لغم مضاد للدبابات مما دي إلي نفوق أسماك كثيرة غطت سطح الماء.

لقد خالفوا أوامر قائد الجيش والتي أرسلت إلي جميع الوحدات ، طلبت مدفع ماكينة معبئ بالذخيرة ، أقبل طاقم المدفع وخشيت إن طلبت منهم إطلاق النار للتهويش أن يصيبوا القائمين علي الصيد وأنا أعلم بأنهم أركان حرب قيادة الفرقة ١٨ والتي أنا وحدة منها ، ضبطت اتجاه ومسافة المدفع وأطلقت النيران علي دفعتين مما دفع بمن قاموا بالصيد للقفز بالماء والبعض أحتمي بالأرض كم أصيبت العربة الجيب التي كانوا يستقلونها بأضرار بسيطة.

بعد قليل أتصل بي قائد ثان الكتيبة متسائلاً: هل النقطة القوية المواجهة لي فتحت نيرانها علي قيادات الفرقة؟ نفيت هذا وأبلغته بأن من قام بهذا العمل هو أنا ، تضايق الرجل وأشعرني بأن كارثة مطبقة سوف تحل علي رأسي ، لم أبال وعلي الذي أصدر الأمر أن يتحمل تبعاته ، بعد عدة دقائق أتصل بي نائب أحكام الفرقة "وكيل النيابة العسكري" طالبا مني التوجه إلي مكتبه بقيادة الفرقة للتحقيق معي في كيفية إطلاق النار علي القادة بقيادة الفرقة ، أخبرته إنني أنفذ أوامر قائد الجيش ، أصر علي طلبه وأنا صممت علي الرفض ، قرر إرسال سرية الشرطة العسكرية لإلقاء القبض علي شخصي ، أغلقت سماعة التليفون.

شعرت بأن الأمور سوف تزداد تعقيدا خاصة أن من قام بالصيد هم قادة الأفرع الرئيسية بالفرقة وسوف ينال القادة الكبار من الحب جانب ، لقد عكرت

علي أمزجتهم جميعا ولم أجد من يساندني أو يدافع عني ، قطعت كل اتصالات موقعي بخارج الجزيرة ومنعت أي قوارب تقترب من الجزيرة ووضعت جماعة مدافع ماكينة لإطلاق النار علي قوة الشرطة العسكرية ، كل تلك الاستعدادات قامت عناصر المخابرات بالجزيرة بإبلاغها لقيادتها وشعر القوم بأن إحدي وحدات الفرقة مقبلة علي عمل طائش خاصة أنه قد تم إطلاق النار قبل هذا عليهم.

أقبلت سرية الشرطة العسكرية وشاهدت فوهات المدافع في مواجهتهم وخشي قائدهم أن يُصاب جنوده فعادوا جميعا ، ظللت علي هذا الحال ثلاثة أيام وقد حوصرنا وحوصرت معنا عناصر المخابرات والمدفعية فأنا القائد في هذا القطاع ، الجميع رضخوا للأمر الواقع وعشنا علي القليل من الماء والطعام حتي أقبل قائد الفرقة العميد فؤاد عزيز غالي من مصر لكي يعالج هذا الموقف خوفا من أن يصل الأمر إلي قائد الجيش.

وقف الرجل في الجهة الأخرى يحادثني عبر المياه طالبا مني أن أرسل له بقارب لحمله للجزيرة ، اقبل الرجل وشد من أزري وأخبرني بأنه وقع الجزاءات الرادعة علي الضباط المخالفين ، أرسلت قيادة الجيش بتعليمات إلي جميع الوحدات بما حدث وبعدها لم نسمع أي انفجار حتي نشوب حرب أكتوبر.

الحدث الثاني: منتصف نفس الشهر إبريل ١٩٧٣ وبعد مرور أيام قلائل علي الحدث الأول ، قائد فصيلة اليمين بالسرية أبلغني بأن طائرة هليكوبتر إسرائيلية عبرت القناة وتقف مباشرة فوق فصيلته بعدة أمتار وتضيء بكشاف قوي موقعه ، أسرعت من موقعي أراقب الموقف ، كانت الأحوال الجوية سيئة لأقصي درجة فالعواصف الرملية شديدة وحجبت الرؤيا إلا من مسافة قريبة ، شاهدت الطائرة وأيقنت بأن الطائرة قد تأسر أحد جنودي ، علي الفور اتصلت بقائد الكتيبة والذي أمرني بعدم التهور وإطلاق النار مثل ما حدث الأسبوع الماضي علي ضباط قيادة الفرقة ، قام باتصالاته ولكن الوقت يمر سريعا علي قرار مثل هذا وكل عدة دقائق

أتصل به ويطلب مني الهدوء لأنه منتظر تعليمات ، حسبتها بسرعة مثل ما حدث يوم لقاء وليم شفيق ودخولنا في معركة غير متكافئة ، ماذا يحدث لي لو أن الطائرة قامت بخطف بعض الجنود؟ النتيجة محكمة عسكرية وفضيحة في القوات المسلحة ، جاء قراري وأعتقد أنه مدروس وليس اعتباطا ، طلبت جميع مدافع الماكينة قريبا مني " ستة مدافع" وكل مدفع معمر بـ ٥٠٠ طلقة خارق حارق ، قمت بالتصويب من أحد المدافع علي الطائرة والتصويب ليس للتدمير ولكن للإرهاب ، أطلقت العديد من الذخيرة علي الطائرة التي أطفأت الكشافات وفرت هاربة ، الحمد لله لم تعلم القيادة عندنا بما حدث وبعد ما انتهت المعركة أتصل بي قائد الكتيبة طالبا مني الهدوء والإنتظار وإذا قامت بعض قوات كوماندز بمحاولة أسر أحد الجنود فأعترضهم وحاول أسرهم ، " فكرت وقلت الراجل بيحلم".

أول همسة :

مضى يومان وانا لا اعلم ما أقوله. اهو صحيح ام خطأ؟ سألت النقيب حسن .. حسن أنت واخد بالك منى اليومين دوول ملخبط شويه؟ ضحك بصوته الذى يشبه أصوات المعلمين وأولاد البلد قائلاً: إيه اللى بتقوله ده .. .دا أنتُ فله وميه ميه وآخر حلاوة وكله على بعضه حاجه كده سمك .. لبن .. تمر هندى .. أيقنت من حديثه الفكه ان حالتى ملخبطة. انشغلنا جميعا فى مشروع الرماية التكتيكية بالذخيرة الحية للسرية المشاة الميكانيكى المدعمة. مشروع كبير وتستخدم فيه الذخيرة الحية وأسلحة المركبة التوباز وأسلحة من الهاون ٨٢مم وسرية الم/د بالكتيبة وفصيلة مهندسين عسكريين وقواذف لهب وعناصر استطلاع. أمضينا ثلاثة أيام فى موقع الرماية بإمكانيات إدارية تعتبر اقل عن إمكانيات تواجدنا بمواقعنا.

حصلت على اجازتى الميدانية واصبحت ثقيلة على نفسى بعد الأخبار المفزعة التى صبها محمد فوزى فى رأسي عن علاقته بعلا ، فى المساء توجهت

الى حفل زفاف عاطف شفيق واسعدنى هذا وكانت تلك هى المرة الأولى التى أشاهد فيها كنيسة من الداخل وسعدت مع المقربين له بهذا الاحتفال بينما الام مارى ملاصقة لى سعيدة بى وهى مازالت تكرر فى بعض الأحيان قولها: تعالى يا وليم أعرفك بالأب متى او أعرفك بالأم دميانه او أعرفك بالخال يعقوب. أصافح هذا وأصافح تلك والآخرين يسألوننى عن لقبى ، اى وليم ماذا بعده؟ تضحك وتقول انه بديل إبني وليم فيصححون موقفهم.

صباح اليوم التالى رافقت علا إلى حى الحسين وكنت اعرف قهوة يرتادها السائحون وبها رجل كفيف لكنه بارع فى العزف على العود ، طلبت منه وانا أحادثه على جنب دون ان تلاحظنى علا ان يعزف مقطوعة أول همسه لفريد الأطرش ، بعد قليل بدأ الرجل فى العزف والناس تتمايل طربا وبهجة وسعادة وانا من بينهم وخلال ذلك كنت ألاحظ تأثير العزف علي علا والذي جعلها إنسانة أخرى هائمة ممسكة بيدى سعيدة نائمة على ذراعى تنظر إلى من حين لآخر سارحة فى تخيلاتها.

أيقنت صدق ما اخبرني به محمد فوزى وكدت اصرخ بها مويخا أفعالها ولكنى وجدت ان مثل هذا التصرف ليس له اى مبرر فهى لم تخطىء فى حقى حيث كانت خالية بدون اى علاقة ما ، ايقظنى ضميرى بأنه لايجب على ان أكون ظالما واحلل لنفسى ما احرمه على الآخرين لكنه تأكد لى ان الذكرى الماضية مازالت عالقة بخيالها ، لم اعد استطيع التفكير أو اتخاذ أي قرار فى هذا الشأن فكلما لجأت الى المهادنة مع النفس أعود ثانية وتشتعل نيران الغيرة فى قلبى متذكرا محمد فوزى معى فى كل مكان وانا أحدثها وانا اخاطبها حتى وهى تضحك معى أقارن ذلك بأنها كانت تفعل هذا مع ذاك الشاب وقررت بعد عودتى إلى وحدتى بان أفاتحها فى علاقتها مع محمد فوزى.

رفض النقيب حسن هذا الراى وباني بذلك أضع اصبعى فى عينها وأتدخل فى حياتها السابقة مؤكدا لى انها لن تعترف بهذا الحب وسوف تزداد عنفا وضيقا منك لأنك تنبش فى ماضيها ومن منا ليس له ماض وفي الغالب هذا ماض ابيض ناصع شفاف لصغر أعمارنا ومنذ متى وقد أصبح الحب مكروها وغير مطلوب ، ان الحب هو سبب الحياة وهو المرافق للشمس والهواء والماء فى استمرار الحياة فوق الأرض وبدون الحب تنشأ الحروب وتدمر المدن ويقتل الرجال وتغتصب النساء ويبتم الأطفال ، أرجوك لا تكن كريها وإذا شعرت بأنك غير قادر على تحمل غيرة هذا المنافس الخيالى فكن رجلاً حصيفا واهجر هذا الحب وتحمل عذاب الهجر بشجاعة وإقدام.

حديث حسن اثلج قلبى وصدرى بكلماته المعبرة ونصائحه الغالية التى مسحت غبار الغيرة من أمام عينى فأصبحت أرى الطريق أكثر وضوحا وبالتالى أصبحت أواجه حياتى وقراراتى بدقة أكثر فالطريق واضح وشوشرة الغل والكره قلت إلى درجة كبيرة واستقر قرارى على ان علاقتى بعلا قد انتهت وانه ليس لى بها اى ارتباط بعد اليوم وما علاقتى بهم سوى معرفة سابقة يترتب على بقائها ونموها تصرفاتنا المتبادلة.

مازلنا نواصل تدريباتنا واقترب شهر يونيو من نهايته وتبلغنا إدارة أفراد الفرقة (١٨) بنجاحى فى امتحان الترقى وترقيتى الى رتبة رائد اعتبارا من الاول من يوليو القادم واسعدنى هذا الخبر المتفائل فى غمرة الخسائر المتتالية فى محيط العواطف. ياه كثير من المعجبات ولم أحظى بقرار سليم وكل معجبة لها مشكلة وقصة ومعضلة.

مُنحت أول أجازة لى بعد الترقى الى رتبة الرائد وما تمثله تلك الرتبة من معان كثيرة ، انها بداية لرتب القيادة ، كرئيس عمليات بعد عام او أكثر ثم قائد ثان كتيبة ثم قائد كتيبة وهكذا ، اتجهت إلى زيارة ماما وداد وعلمت بان السيدة تعانى

الآم فى معدتها واشتكتنى لنفسى باننى لم اعد أقوم بزيارتها طيلة شهرين ومازالت دينا تلاحقنى بشقاوتها اما علا فكأنها الصمت المطبق وكانى أصبحت غريمها وهى غريمتى مع إيقاف التنفيذ ، نظرات بعيدة باردة وابتسامة بسيطة مضطربة وغير دافئة ، جلست جلستى بين رجاء الام ان أبقى معهم تلك الليلة لتستأنس بى وتسألنى: لماذا لا تزور أخوك مدحت فى منزله؟ انه يسأل عنك ويريد رؤيتك ، تحدثت علا وأخبرت أمها قائلة دعيه يا ماما ولا تضغطى عليه فلقد أثقلنا عليه وضايقناه أو قد يكون عثر على من هم أحسن منا ويريدهم ولا يريدنا.

الكلمات قليلة ولكنها قاسية مؤثرة على نفسيتى التى اثرت على مشاعرى والآن علا لا ترغب فى بقائى وما كنت أخشاه من عامين حدث وتحقق ، حدثت نفسى: فر وأهرب أيها المعتوه قبل ان تطلب من البواب طردك إلى الشارع. قبلت ماما وداد وغادرت الفيلا متجها إلى زيارة مدحت وزوجته وشعرت بعد لقائه أنه يرفل فى نعيم السعادة والحب مع زوجته الرقيقة الباسمة أيضا ، تساءل مدحت. أقمت بزيارة ماما؟ أخبرته باننى قادم من عندها الآن ، سألتنى زوجته بدلال النساء. وامتى يا ترى حنفرح بيك مش كفاية عزوبية مش بتغار من أخوك مدحت؟ ابتسم ابتسامة مفتعلة ثقيلة على شفاهى وانا اخبرها قريبا بإذن الله ، تفحصنى مدحت بعينه وقال: هيه .. يا ترى لا قيت بنت الحلال؟ أسرعت زوجته قائلة بنت الحلال معروفه. الله يبخت لكِ يا علا ، انتفضت وانا مازلت جالسٌ صامتٌ. لاحظ مدحت بأن هناك سحابة صيف قادمة فقال:اتركيه يقرر شأنه ، إننا جميعا إخوته.

<u>وما نيل المطالب بالتمني :</u>

هذا هو الأسبوع الاول من شهر سبتمبر عام٧٣ وقائد الفرقة العميد أركان حرب فؤاد عزيز غالى اصدر أمرا بعقد اجتماع لجميع قيادات الفرقة حتى مستوى قائد السرية فى المنطقة التى خلف مستشفى القصاصين العسكرى وهى منطقة

صحراء قاحلة ، حضر جميع القادة بالفرقة وهم نخبة كبيرة من قادة الألوية المشاة والمدرعات ومدفعية الميدان والدفاع الجوى ومدفعية قيادة عامة وعدة وحدات مهندسين عسكريين وصواريخ مضادة للدبابات وقواذف لهب والكتيبة الطبية وحشد كبير من القادة.

العيون تتطلع الى سيارة القيادة التى يستقلها قائد الفرقة والتى وصلت وهبط منها بجسده الضخم وقامته الممشوقة وبعد ان رحب بالجميع اخذ يتفحص فى وجوه الموجودين والمصطفين. عادة فى تلك الأحوال يكون الوقوف او الانتظار حسب اقدمية الرتب. فالعمداء فى الصدارة وخلفهم او يجاورهم العقداء ثم المقدمين ثم الرواد رؤساء العمليات والتخصصات ثم قادة السرايا من رتبتى الرائد والنقيب. عدد القادة المتواجدين يفوق المائة وانضم ألينا قائد أسراب قاذفات مقاتلة وقائد القاعدة البحرية ببورسعيد.

ظل الرجل يبحث عن شخص ما. ولم تسعفه عيناه لالتقاط هذا الشخص من بين جموع الحاضرين. نظر فى أجنده صغيره وتسائل بصوت مرتفع: أين الرائد أسامه الصادق؟ أسرع البعض ينبهنى الى ان قائد الفرقة يطلبك. دهشت ودهش الآخرون لأننا فى زيل الاهتمام فى مثل تلك الأحوال. اتجهت إليه مؤديا التحية العسكرية. تمام يا أفندم رائد/ اسامة الصادق قائد السرية الثالثة مشاه ميكانيكى بالكتيبة ٥٣٧ اللواء ١٣٦.

صافحنى وشد على يدى بقوة متحدثا أمام الجميع: وانا مازلت واقفا فى وضع الانتباه. أسامه. سوف أكلفك بمهمة واعرض عليك موقف قتال وأريد منك قرارك.

الموقف: أنت قائد مفرزة قتال متقدمة ، تقدمت عن قواتنا مسافة من ستة الى سبعة كيلومترات وفاصل بينك وبين القوات الرئيسية مانع مائى وهو قناة السويس وليس معك عنصر مدرع ، كل الذي معك جنودك المائة والعشرون وسرية الهاون

٨٢ وسرية الـم/د بالكتيبة وفصيلة صواريخ "فهد" مضادة للدروع وجماعة"حية"صواريخ سترلا او سام (٧) لإسقاط الطائرات المنخفضة وفصيلة مهندسين عسكريين وفصيلة قاذفات لهب.

استطعت عبور المانع المائى بأقل خسائر سواء بشرية او فى المعدات وظللت تتقدم الى المسافة المحددة كما سبق وان ذكرت ، بعد اقل من ساعة هاجمك العدو بسرية دبابات وسرية مشاة ميكانيكى.

اتفضل اشرح لى سير المعركة المتوقعة واخبرني عن المدى الزمنى الذى تستطيع ان تدمر فيه القوات المهاجمة علي قواتك حتى تنتهى القوات الرئيسية من إعداد الكبارى وتطوير الهجوم. تحدث الرجل بهذا الكلام وانا أقف أمامه كالعصفور نحيف الجسد أمام هذا الرجل قوي البنية والجميع يرغب معرفة ما سوف أقوله واجابتى عليه

أول كلمة قلتها: سيادة القائد لن يكون هناك تكافأ بيننا وبين قوات العدو. اجابنى بصوته القوى ، لماذا؟ ان قطعة م/د فى الخنادق تدمر دبابة فى العراء وأنت معك الكثير من الصواريخ وقطع الـ م/د. أجبته: هذا فى كتاب التكتيك اما فى ظروف الحرب فلا يمكن حساب ذلك. صرخ الرجل كيف تقول هذا؟ اخبرنى ما يمكنك ان تدمره ومدة فترة ثباتك أمامهم وانا مازلت واقفا أمامه وأشاهد نظرات الاستنكار من القادة الكبار لجرأتى فى اجابتى على قائد الفرقة ودهشتهم من هذا الضابط الضعيف المتخاذل. ما زلت افكر.

صمت قليلا ثم اجبته ٥٠% من قوتهم واصمد مابين ثلاث الى أربع ساعات. صفق قائلا هذا عظيم لو استطعت تدمير نصف قوتهم لارتدوا ثانية للخلف لأنهم لا يستطيعون استكمال الهجوم بالنصف الباقى خاصة قرب القناة وقواتنا ستكون كثيرة وقوية اما عن فترة الصمود فهى تعتبر رائعة بكل المقاييس. هيا أيها السادة لنتكلم عن مشروعنا..

تحدث قائد الفرقة لجموع القادة موضحا أننا الآن سنتوجه لمكان ما(حدده) وتحركنا وتبعناه وهناك أعدت تختة رمل بمعرفة عمليات الفرقة موضحا فيها أماكن تمركز وحدات الفرقة والوحدات المعاونة والملحقة من القيادة العامة والمطارات التى تعمل فى مواجهة الفرقة والقاعدة البحرية التى ستغطى بنيران مدافعها مواجهة الفرقة لتكثيف القصف وتدمير اى أهداف بحرية معادية تحاول التدخل فى المعركة ضد الفرقة وقواتها. كان الرجل حاذقا دقيقا فى شرحه المسهب وكان واقفا وبيده عصا التأشير ويشير بها على مواقعنا وينبه كل قائد لمهمته كما وضح أماكن العدو طبقا لآخر معلومات حصل عليها من وحدات الاستطلاع والمخابرات الحربية والمخابرات العامة ووحدات خلف الخطوط التى تعمل خلف القوات الإسرائيلية فى عمق سيناء.

بعدُ مضي أيام قليلة على هذا اللقاء تحرك اللواء بأسلحته كاملة الى منطقة القصاصين والبعالوة ترافقه أسلحة الدعم المزود بها من قيادة الفرقة والقيادة العامة وتم عمل نموذج كامل للعبور ومهاجمة القوات المعادية على الجهة الأخرى من ترعة الإسماعيلية والتى كانت تمثل قناة السويس وتلك الترعة لا تضارع القناة سواء فى اتساعها أو سرعة المياه والأمواج بها ولكنها اقرب مكان للوحدات المتمركزة فى قطاع الجيش الثانى.

كل شيء كان مرتبا برقم القارب لكل جماعة مشاه وترتيب وضع الأسلحة بالقوارب أثناء عملية الهجوم ، كلفت بالمهمة التى اقرها قائد الفرقة لوحدتى وهى العمل كمفرزة نطاق امن الفرقة بقوة سريه مشاه ميكانيكى مدعمة أمام مواجهة الفرقة وفى الجانب الأيمن لمواجهة هجوم الفرقة ١٨مش وبدأ الهجوم بالنسبة لى الساعة الثانية وخمس دقائق أثناء غارات قواتنا الجوية ويرافق تلك الغارات قصف مدفعى لقوات وتجمعات العدو ونقاطه الحصينة فى مواجهة الفرقة واحتياطيه

القريب المدرع ثم تكوين رأس كوبرى والتمسك به وإنشاء مواقع دفاعية فى الشرق وإقامة رؤوس كبارى ثم يلى هذا تطوير الهجوم.

كنت في دهشة لموعد الهجوم وهو منتصف النهار ، كل ما تعلمناه فى تكتيكاتنا منذ نعومة أظفارنا ان يتم الهجوم اما فى الصباح الباكر لنأخذ العدو على غرة ليصبح أمامنا النهار بأكمله لننهى فيه جزء كبير من مهامنا معه او يتم في آخر ضوء وتتم عمليات ليلية تربك العدو لكن فى هذا التوقيت والعدو يلاحظ استعداداتنا ونهاجمه فى وضح النهار فهذا كان مستغربا لى ولباقى القادة على جميع المستويات ولكنه على كل حال هو نوع من التدريب مثل ما قمنا به من تدريبات سابقة مرات بالصباح ومرات أخرى فى المساء.

لم يتبق على حلول شهر رمضان الكريم سوى عدة أيام وكان هذا دأب القيادة منذ عدة أعوام ان نعمل علي رفع درجات الاستعداد فى الأيام والمناسبات الدينية مثل رمضان أو الأعياد أو ذكرى المولد النبوى ولهذا فطن العدو إلى هذا فبعد ان كان يستعد لمثل تلك الاجراءات ويستدعى قوات الاحتياط أصبحت ألاعيبنا تلك مكشوفة عليه ولا يعيرها أدنى أهمية.

انتهى التدريب والذى ظل عدة أيام وما عرف عنه وقتها بالمشروع التعبوى للقوات المسلحة أو ما عرف عنه بالمشروع الاستراتيجي للدولة وهو تدريب كل قطاعات الدولة على الاستعداد لظروف الحرب مع العدو وهى ظروف قهرية ولا بد أن تحدث فى يوم من الأيام والعدو يعلم هذا وأن مصر مصممة على شن حرب ضده مهما مضت الأيام لاستعادة الشرف العسكرى الذى فقد فى حرب الأيام الستة واسترجاع أراضينا المغتصبة خاصة أن الجبهة الداخلية كانت مشتعلة تنادى بالحرب وكان هذا الهاجس فى نفوس ووجدان جميع المصريين خاصة فى قطاعين هامين وهما طلبة الجامعات والعمال وهما أهم فئتين فى المجتمع تعمل لهم الدولة ألف حساب فى غضبهم ونفورهم مما حدث لبلدهم مصر.

انتهى التدريب وعقد قائد اللواء العقيد/ احمد عبده اجتماعا لجميع القيادات باللواء شرح فيه السلبيات والايجابيات ولكن الرجل أشاد بوحدتى وقيادتى أمام الجميع شاهدا بأنه شاهد ولاحظ الرائد أسامه الصادق متواجدا ويقظا مع جنوده أثناء الليل وهم يعدون الموقع الدفاعى بشرق القناة أثناء التدريب. حدث هذا بالفعل.

بعدُ مضى عدة أيام من التدريب التعبوى اتصل بى قائد كتيبتى طالبا منى أن استقل اللورى الذى سيصلنى الآن وعليّ التوجه الى "كوبرى المخابرات" الكائن على طريق المعاهدة جنوب القنطرة غرب واخبرني بان قائد الفرقة راغبا في لقاءك طالبا منك ان تحمل معك "راديو" يعمل .. أعدت سؤالى .. ماذا يريد؟ .. اجابنى يريد ان تقابله ومعك راديو يعمل يعنى شغال يعنى بيطلع اغانى.

استفسر منه وما السبب؟ يجيبنى: لا اعلم. التعليمات تصدر ونحن نقول حاضر يافندم علم وسأنفذ أليس هذا صحيحا؟ أجبته: أفندم علم وسأنفذ. ضحك النقيب حسن من تلك التعليمات قائلا: "ان قائد الكتيبة بيعمل فيك مقلب وحتروح تلاقى قائد الفرقة منتظرك ومعاه كبار القادة وأنت داخل عليهم قالع راسك ومن غير غطا رأس ومعاك راديو وبيغنى "تحت السجر يا وهيبه".

ضحكنا سويا ، وصل اللورى وقفزت فيه حاملا راديو معى وكأننى ذاهب لأعين مذيعا فى الإذاعة واحمل معى مصوغات التعيين ، توقف بى اللورى بجوار كوبرى المخابرات وبعد قليل حضر لورى آخر فنظرت إليه فشاهدت العميد فؤاد قائد الفرقة يقود اللورى بنفسه ومعه رجل كبير السن وشعره وشاربه ابيض اللون ولم أشاهده قبل ذلك ، صراحة اعتقدت انه احد أفراد قيادة الفرقة أتى مثلى لنلاعب العميد فؤاد عشرتين طاولة ونسمع الراديو بلا حرب بلا هباب.

اشار إلىّ العميد فؤاد: أسامه اركب على ضهر اللورى. أجبته: حاضر يا فندم حاولت تأدية التحية العسكرية. استوقفنى قبل ان اقفز فوق اللورى مثل عمال

التراحيل. هل أتيت براديو يعمل؟ ايوه يا فندم. أعاد حديثه مرة أخري: مش عايز أسمعك تقول يا فندم أو تؤدى التحية العسكرية. تقف وتتكلم معانا عادى لأننا طالعين مصطبة الروضة قدام اليهود مش عايزهم يعرفوا شخصياتنا. فاهم؟ أريد ان اصرخ فاهم يا فندم ولكني تراجعت. بهدوء قلت: ايوه فاهم. ضحك قائلا ايوه كده خليك واد عتره وبتفهم الدرس من أول مره. اطلع فوق. ثم أشار إلى سائقى قائلاً: وأنت خليك هنا. فاهم؟ أجابه السائق: معلوم فاهم دا انا بافهما وهيا طايره.. ضحك الرجل لان الجندى السائق تفهم حديث قائد الفرقة ونفذه على نفسه أيضا.

وصلنا أسفل المصطبة وتحرك قائد الفرقة وضيفه ، الاثنان بدون رتب ونستعد لصعود المصطبة والتى يبلغ ارتفاعها أكثر من عشرين مترا بزاوية صعود ثلاثون درجة وانا الأصغر عمراً شعرت بإرهاق من صعود تلك المسافة ، نحن الآن فوق المصطبة وكأنك تقف فى بلكونة وتشاهد الناس بالشارع ، القناة أمامنا وبالأسفل مواقع اليهود ونكشف من سيناء ما يستطيع نظرنا الوصول إليه على مدى البصر.

تحدث فؤاد عزيز الى ضيفه شارحا له بدون ان يحرك يده بعد ان أمرني بتشغيل الراديو حيث قال: أسامه "شغل الراديو على اغانى بصوت مرتفع". أنفذ تعليماته بينما يواصل الرجل حديثه بان المفرزة المتقدمة بقيادة أسامه حتحتل التبة اللى قدامنا على طول ودية على مسافة اكتر من ستة كيلو يعنى مابين ستة وسبعة كيلو حسب طبيعة الأرض. التبة جنوب الطريق"المحور الشمالى" اللى جاى من العريش. فى الناحية التانية اى شمال الطريق منطقة سبخة ومش تتحمل تقل الدبابات والعربيات المدرعة. بأسلحة الدعم مع أسامه حيعطلهم ويعمل معاهم معارك وإرباك. انا محتاج تلات ساعات.

اعترض الضيف بان هذا الوقت طويل على "مفرزة نطاق أمن الفرقة" وعلى هذه المسافة وبدون عنصر مدرع وان تتركهم علي هذا الوضع قائلاً: "أنت كده حتخليهم يتفرموا منك ، مش معقول يا فؤاد لحم قدام حديد" .. قائد الفرقة معلقاً

سوف نسرع بعبور بعض الوحدات المدرعة والتى ستعاون الهجوم ولكن الضيف طلب منه سرعة الانتهاء بعبور قواته والعمل على تأمين عود المفرزة ثانية للنسق الثانى بعد تلك المهمة.

سألني الضيف والذى شعرت انه شخصية مهمة لأنهُ يحدث قائد الفرقة بدون لقاب. أنت فاهم مهمتك كويس؟ أجبته فاهمها كويس. يعيد حديثه: حتقدر تنفذها زى ما قائدك بيشرحها كده؟ أجبته ح اقدر بس انا اعترضت قبل كده وسيادته عارف ان القوة اللى حاقابلها كبيرة. نظر إلي قائد الفرقة قائلا: طيب ماهو قائد العملية والمسئول عنها عرفك انها حتبقى فوق طاقتهم. مش ممكن تزيد فى أسلحة الدعم اكتر؟ اخبره قائد الفرقة ممكن بعد العبور بنصف ساعة لان كل قوات المشاة بتعبر ومش حيبقوا لوحدهم وينضربوا كهدف واحد وظاهر.

شكره الضيف وُعدنا الى اللورى عند كوبرى المخابرات وهناك صافحنى الضيف متمنيا لى النجاح فى مهمتى قائلاً ومحذرا: أنت عارف لو نفدت منك دبابة حتبقى فيه خطورة كبيرة على السبع نقط القوية اللى من موقعك فى البلاح لحد بورسعيد ، يشير بأصبعه السبابة "خللى بالك لان كل المهاجمين على النقط القوية حيكونوا فى خطر ونجاحنا فى تدمير النقاط دية واحتلالنا مدينة القنطرة شرق متوقف عليك أنت ورجالتك. فاهم؟ أجبته: فاهم يا فندم. وانا مازالت جاهلاً شخصية هذا الأفندم.

استقللت اللورى عائداً الى الكتيبة وتقابلت مع قائد الكتيبة الذي سألني عما حدث مع قائد الفرقة وعندما علم مني بان بصحبته ضيفا هاما سألنى اهو قائد الجيش؟ أخبرته باننى اعرف قائد الجيش عندما شاهدته مع الرئيس السادات فى معسكر الجلاء بالاسماعيلية. ثم تطرق في تحديد الشخصية ، احتمال ان يكون رئيس الأركان الفريق الشاذلى؟ أجبته اننى اعرف الفريق الشاذلى عندما كان برتبة عميد وهو قائد لقوات المظلات عام ٦٦ .

اليوم التالى طلبنى قائد الكتيبة فدخلت عليه المكتب وشاهدته جالسا ضاحكا وقال: فيه ظابط ما يعرفشى وزير الحربية ؟!! اسأله من هو وزير الحربية. يندهش ويكمل سيادة الفريق أول احمد إسماعيل. الحقيقة لم يسبق لى رؤية هذا القائد الفذ الهادىء الشبيه بالفهد وهو يقتنص فريسته ، كانت هذه أول مرة أشاهده ، سبق وشاهدت الفريق أول محمد فوزى ، ثم الفريق أول محمد صادق وقبلهم المشير عبد الحكيم عامر. لكن الفريق أول احمد إسماعيل على فلم أشاهده قبل ذلك أبدا حتى فى الصور.

نحن الآن نحتل الحد الامامى لقواتنا على الشاطىء الغربى لقناة السويس بداخل جزيرة البلاح أي أن أمامي قناة وخلفي قناة وقد انضغطت مواجهتى إلى خمسمائة متر بدلا من ألف وخمسمائة متر وهذا وضع الهجوم فى العمليات كما أن جميع أدواتنا ومعداتنا الإدارية سُحبت منا ولم يترك لنا سوى ملابسنا الشخصية وبعض البطاطين وكنا ننام أرضا ، الجميع سواسية من قائد الفرقة حتى احدث جندى.

حادثنى حسن متسائلاً؟ تعتقد أننا سنحارب؟ نظرت إليه وأجبته: للان لا .. يعيد ولماذا كل تلك الاجراءات الجديدة علينا ولم تحدث من قبل؟ أجيبه .. حسن طالما لم تصل القوارب فكله تهويش وتدريب. الشىء الهام هو القوارب وللآن لم تصل القوارب. يكمل حديثه. ألا تتذكر أنهم فى الشهر الماضى حصلوا على توقيعاتنا جميعا ومن نرغب لنرشحه لاستلام رواتبنا بالنيابة عنا وما هو البنك الذى ترغب فى ان يحول عليه راتبك؟ ضحك وتذكر احد الجنود قادما إليه يحدثه وهو حزين لان رقيب فصيلته اقترح عليه ان يكتب رغبته بتحويل المرتب على بنك الإسكندرية وجاء يسأل حسن قائلا: بجى معجول يا فندم ابوى يدلى كلتها شهر ويسافر اسكندريه يروح يجُبض راتبى؟ ده يرضى ربنا؟ ليه الشاويش محمد يجولى على الفكرة الملخبطة دى؟ آه يا بوى!! ضحك حسن موضحا له ان بنك

الإسكندرية هذا اسما وليس بلداً وان له أفرع فى كل مكان فى مصر وانه يمكن لوالدك ان يأخذ "نبوته" ويدلى على "ملوى" ويجبض لك راتبك!!!

عصر اليوم التالى لهذا الحوار بينى وبين النقيب حسن ومازلنا مشغولين بانضمام وحدات معاونة لسريتنا وكلها وحدات لم نشاهدها ألا فى التدريب الذى سبق هذا منذ عشرة أيام وقد أنضم إلينا بعض الجنود الذين سرحوا من الخدمة منذ عدة أشهر وعادوا بناء على استدعاء القوات المسلحة لهم للتدريب وحضور هذا المشروع التعبوى.

أشاهد حسن قادما وكنت جالسا أرضا وكان يحمل إناء به بعض القواقع لا اعرف كيف حصل عليها وقال لى حتاكل أكله حلوه النهاردة ، انا عارف ان مافيش فى الشرقية حاجات زى دى ، أسرع واحضر إناء وغلى ما به من ماء ثم وضع به تلك القواقع التي كانت صغيرة الحجم فى حجم قطعة الطعمية او اصغر قليلا. أشاهد القواقع والغطاء ينفصل عن بعضه البعض ورائحة الزفارة تنبعث ، بعد قليل احضر ملعقة واخرج شيئا متجانس مع بعضه مثل اللحم ولكنه ليس بلحم وأضاف بعض التوابل واعطانى طبقا صغيراً لأتناوله.

الحقيقة لم أتناول طبقا فى حياتى أشهى من هذا فله طعم رائع ومذاقه أشهى من الجمبرى. لاحظت وانا أتناول الطعام بان شيئا مثل الحصوة او الزلطة أسفل اسنانى ، أخبرته بهذا فطلب منى إخراجها. فأخرجتها وتناولها منى فاحصا تلك الحصوة صارخا. الله لؤلؤ .. والله لؤلؤ .. وانا غير مصدقا ذلك!! لأنى اعلم ان هذا فى بلاد البحرين لكن هنا فى مصر لم اسمع بهذا وانهمك فى فرز المعجون الذى أعده فى الطبق. استطاع ان يستخرج منه حوالى خمسة عشرة حبة لؤلؤ. فى حجم حبة الذرة وهى دائرية الشكل ولون الحبة ابيض قاتم واخبرني انه بعد قليل يجف وسيصبح شفافا ، لاحظت هذا بعد ساعتين واعطانى سبع حبات وحصل هو على ثمانية.

صباح الرابع من أكتوبر مجموعة من المهندسين العسكريين "خبراء فى إزالة الألغام" تصل الموقع لفتح عدد من الثغرات أمام مواجهة سريتى استعدادا للهجوم عبر قناة السويس. حددت لهم عدد الثغرات وأماكنها حيث شرعوا فى العمل تحت مراقبة الإسرائيليين. استمروا فى عملهم حوالى الساعتين. يرفعون ألغام الأفراد ثم ينزعون منه المفجر ثم يعيدون اللغم حتى يعلم اليهود أنهم يقومون بصيانة لحقل الألغام. بعد ان الانتهاء من عملهم قاموا باختبار ثغرتين من الثغرات العشر المحددة لى. وإذا بالثغرتان تنفجران محدثة إصابات بينهم.

أسرعوا بإصاباتهم الى السرية الطبية ونحن جالسين متخوفين ان تتم عمليات وندخل فى حقول الألغام ونلقي فيها مصرعنا قبل ان نصل الى الاسرائيليين. اليوم التالى اتصلت بسرية المهندسين العسكريين من اجل إعادة تأمين الثغرات واتصلت بقيادة الفرقة دون جدوى.

مساء هذا اليوم بعد ان انتهينا من وضع ملابس "افرولات" جميع المقاتلين من مختلف الرتب فى مادة أحضرتها سرية الحرب الكيماوية بالفرقة ولا أتذكر اسمها لكن رائحتها مثل النشادر واخبرونى بأنها تقلل من اشتعال ملابسنا لو سقط عليها اى شيء مشتعل خاصة "النابالم".

فى الثانية عشرة من منتصف ليلة ٦,٥ أكتوبر أوقظنى جندى الخدمة ليخبرنى بان المقدم خليل زايد قائد ثان الكتيبة مستقلا لورى وينتظرك. اندهشت واتجهت له يتبعنى النقيب حسن.وكانت الدهشة بان ياتى لورى إلي جزيرة البلاح. فلا معدات ميكانكية بالجزيرة لانها تحتاج معدية تعبر القناة وتحمل تلك المعدات الثقيلة كما ان تضاريس الجزيرة غير صالحة لسير المعدات. اتجهت إليه حيث قابلني قائد ثان الكتيبة باشا فى وجهى على غير عادته واخبرني: أسامه قوارب وحدتك موجودة باللورى. أرجو إحضار الجنود لإنزالها على انها بطاطين حتى لا

تخرج الاصوات ويتلقفها العدو ويعلمون بما ننوى ان نفعله. حدث لي اضطراب ، فقد صدق حدثى وما تنبأت به ، قوارب يعنى حرب.

فى العادة تحصل كل سرية مشاه على عشرة قوارب للعبور على موجة واحدة " اى عبور دفعة واحدة" اما بالنسبة لى فكان العدد اثنان وعشرون قارباً للعبور على ثلاث موجات كل موجة اثنان وعشرون قاربا اى ان عدد القوارب التى ستعبر فى منطقتى (ستة وستون قارباً) وقد انضم إلينا منذ عدة أيام مائه جندى احتياط مهمتهم حمل الذخيرة لموقعنا المتقدم الى مسافة الموقع المختار الذي سوف احتله مع جنودى شرق القناة وعلى مسافة ستة كيلومترات. عُدت بذاكرتى الى الوراء أكثر من ستة سنوات .. الجنود الاحتياط الكسالى الخاملين .. كانوا كما رأيتهم فى سيناء .. الكروش المدفوعة لأعلى والسير ببطىء ويتعاملون معنا كأننا السبب فى استدعائهم ويتعالى كأنهم يعرفون ويعلمون أكثر منا لقد أصبحوا بعد المعركة السبب الرئيسي فى الخسائر الكبيرة التى حدثت فى حرب أكتوبر سواء للمقاتلين او بالنسبة لأنفسهم لان خسائرهم تحسب على وحداتنا.

لقد اعد المهندسون العسكريون فى السابق اى من عدة أشهر أماكن إيواء مغطاة تحت الأرض لعدد اثنان وعشرون قاربا فى هذا الموقع. توجهنا بالقوارب الى تلك الأماكن وسلمني قائد ثان الكتيبة تعليمات قائد الجيش الثانى "الله يعطيك الصحة والعافية يا سيادة اللواء سعد مأمون" الذى سطر وخطط لتلك التعليمات. كما أشيد بهذا الإنسان البارع الذى فكر فى طبعها وتوزيعها على الوحدات فهو لا يقل براعة عنهـ

قيادة الجيش الثانى الميداني

مكتب القائد

بسم الله الرحمن الرحيم:

ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم وينصركم على القوم الكافرين"

صدق الله العظيم

الى شباب مصر الأوفياء .. الى رجالها المخلصين .. الى كل قائد وضابط وصف وجندى .. هذا هو اليوم الموعود .. يوم ان نزيل عن عاتقنا أمام شعبنا وأمام التاريخ عار هزيمة لحقت بنا دون دخولنا الحرب .. لقد أنهيتم استعدادكم لهذه الحرب بالتدريب والمعدات والأسلحة وتخطيط القيادة على أعلا مستوى .. ثقوا ان النصر حليفنا مع مراعاة الانضباط أثناء المعارك ولا داعى للتهليل بعد إصابة تحدث للعدو فى دباباته ومدرعاته لأنك بهذا تحدد للعدو مكانك وتعرض نفسك لان يقتلك كما أرجو الدقة فى التصويب والاحتراز من حقول الألغام وثقوا ان شعبكم خلفكم ينظر إليكم ولتكن هديتنا الكبرى الى أمنا مصر الحبيبة هى النصر على أعداء الله وأعدائنا هؤلاء هم الكفرة الإسرائيليين .. ومن يلقى الشهادة فهو عند الله حىٌ يرزق لا يموت تصديقا لقول الله عز وجل:

ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله " صدق الله العظيم

فى نهاية كلمتى أرجو ان يفتح الضباط اى راديو معهم على إذاعة البرنامج العام قبل الثامنة بعشرة دقائق صباحا ثم يستمعوا الى دقات ضبط الساعة الثامنة من الإذاعة لضبط الساعة التى ستكون توقيتاتها متطابقة فى جميع أفرع القوات المسلحة لهذا اليوم بدون تأخير او تقديم ثوان لانها هامة ومصيرية فى تلك المعركة وفقكم الله وسدد خطاكم .

لواء أركان حرب / سعد مأمون

قائد الجيش الثانى الميدانى

فى يوم الجمعة الموافق التاسع من رمضان ..

الخامس من أكتوبر عام ١٩٧٣

كانت تلك الرسالة التى وصلتنى مع القوارب ، قرأتها وشعرت بان خلفنا رجال ساهرون يعملون ويفكرون فى كل شىء ، لم يغمض لى جفن فغدا سنعبر. غدا اليوم الموعود ، لقد كنت افكر منذ انتقلنا الى جبهة القتال وانا أنظر الى الجهة الأخرى من صحراء سيناء متمنيا من الله ان يعطينى العمر والقوة وأن يأتى يوم لكي أعبر إلى الشرق وألقى الشهادة هناك ، كانت تلك الأمنية تراودنى وأقول لنفسى هل سيأتى هذا اليوم ، كنت اعتقد اننى وعدد كبير نفكر فى هذا ولكننى ويا للعجب فقد اكتشفت ان هذه رغبة الجميع ، ولماذا يا للعجب وان رسولنا الكريم ميزنا عن سائر المسلمين بحديثه الشريف: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا فتح الله عليكم بمصر فاتخذوا منها جندا كثيفا فهم خير أجناد الأرض .. قيل لما يارسول الله .. قال لأنهم كنانة الله في أرضه"

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

ويفسر أهل العلم والعلماء بان الكنانة هنا تعنى الجراب الذى يحمله المقاتل على ظهره ويضع به سهامه.

معركة العبور

الهدف الرئيسى

النقطة ٥١ أو حصن ميفركت

أوضح للسادة القراء موقع وحدتى. أحتل المنطقة الإبتدائية للهجوم فى جزيرة البلاح "جزيرة البلاح جزيرة صناعية ظهرت للوجود نتيجة حفر قناة السويس طولها يقارب الثمانية كيلومتر وهى رملية غير ممهدة ولا يصلح السير فيها باللوارى ولكن معدات الجنزير من دبابات وعربات مدرعة يمكنها التحرك بها. من جهة الشرق والغرب تفريعتين لقناة السويس بعرض مائتى متر لكل فرع".

الساعة السادسة إلاربعا من صباح السادس من أكتوبر وصلت إلينا فتوى شيخ الأزهر بحتمية إفطار الجميع ومن يخالف تلك التعليمات يكون آثما. طفت على الجنود لإقناعهم بالإفطار وكأن جميع الجنود قد أصابتهم قوة الإيمان رافضين هذا الأمر إذا كان لهم هذا الحق. شربت الماء أمامهم موضحا ان الانتصار أهم من الصوم. لان الانتصار سيكون انتصارا لجميع المسلمين على أعداء الله والإسلام كما انه يمكننا ان نستعوض هذه الأيام بعد النصر بإذن الله. أتابع إفطار جنودى واستمع الى الراديو منذ الصباح وأغنية ام كلثوم الجميلة "يا صباح الخير يالى معانا" وانا مازلت أطوف عليهم جميعا وعلى باقى الوحدات الملحقة على قواتى.

وصل عددنا الى ثلاثمائة وعشرة جندى وصف ووصل عدد الضباط الى خمسة عشرة ضابطا. تعلن ساعة جامعة القاهرة تمام الثامنة من صباح هذا اليوم السادس من أكتوبر العاشر من رمضان ؛ زاد عدد دقات الساعة عن المعتاد كأنما حدث خلل بها ؛ ضبطت ساعتى والتي كان بها تأخير ثلاث دقائق ، طفت على الجميع ليضبطوا ساعاتهم وبعد ان تيقنت من ذلك وصلتنى رسالة مكتوبة من قيادة الفرقة بأنه فى تمام العاشرة نبدأ بنفخ قواربنا ، قارب بعد الاخر وعلى الجنود

الآخرين التظاهر بالضحك والتحدث لعمل شوشرة على أصوات أدوات نفخ القوارب ، فعلنا هذا ؛ قاربا بعد آخر حتى أتممنا الاثنين وعشرين قارباً.

الساعة الثانية عشرة والنصف حضر سائق قائد الكتيبة"العريف مجند أبو الخير" ليخبرنى بان القائد يطلبنى فى مركز الملاحظة ؛ أرافقه ونعبر القناة الخلفية "التفريعة الأخرى للقناة ويطلق عليها اسم تفريعة البلاح "وبالسيارة قطعنا أكثر من كيلو لأجد قائد الكتيبة في وضع الإستعداد فى مركز الملاحظة مبتسما ومرتفع الروح المعنوية وأسعدني هذا وقد يكون هذا الإحساس قد وصل إلىّ أيضا لأجد قائدى منشرح الصدر غير هياب للموقف ، صافحنى سعيداً قائلاً: هذا يومك يا بطل أنت ورجالك الشجعان ، ناولنى مظروفاً صغير وطلب منى قرأته بعد ان أصل الى موقعى فى حضور الضباط وضباط الصف وابلغهم بمحتواه ، احتضننى مودعاً وتبعه كل ضباط القيادة من رئيس العمليات الى ضابط الإشارة والأمن ، طلب منى إبلاغ تحيته الى الجميع ؛ عاد بى السائق وانتظر معى حتى حضر القارب ليعيدنى الى الجزيرة وهنا عانقنى السائق داعيا الله ان يوفقنى.

أقف فى وسط جنودى وضباطى بعد عودتى من لقاء القائد وهم يترقبون منى شيئا جديدا ، البعض بدأت تخور قواه فقد أصبحت الأحلام حقيقة وأصبح من يفتعل البطولات يجدها قريبة منه قرابة أنفاسنا اللاهثة وهذا هو المحك الرئيسى قادما وليس لك بديل اما النصر او الشهادة ، قرأت كلمات قائدى والتى لا تخرج عن سطرين بأننا جاهزون ومستعدون لمعركتنا القادمة وموعد عبورنا الساعة (١٤٠٥) وهذا هو التوقيت العسكرى. اى الثانية وخمسة دقائق بعد الظهر وهذا التوقيت سيكون لحظة عبور القاذفات المصرية من سلاحنا الجوى.

***

استأذن القارىء بان أتطرق الى معركة العبور رغم اننى فى مقدمة الكتاب نوهت اننى لا اكتب عن المعارك التى لا يتقبلها الجميع ولكن هذا اليوم وتلك

المعركة هى شىء غير طبيعى سواء للعسكرية المصرية او للنفس البشرية ولهذا فسوف أتحدث عنها فى فصل كامل نظراً للمهمة الخاصة التى أوكلت إلي وحدتي والتي تعتبر فى بنود فن القتال من أصعب المهام بكل المقاييس فهى تعتبر من المهام الانتحارية بدون أدنى شك ، اى شخص يخالف هذا الرأى يكون مخطئا وبعد أن يقرأ عنها سوف يكتشف حقيقة ما اقول كما انها تتحدث عن بطولات للعشرات من الشهداء والمصابين فى فترة زمنية قصيرة وما تلا ذلك من نتائج باهرة للعمل العسكرى فى مواجهة الفرقة ١٨ مشاه والتى تحتل جزءاً كبيراً من جبهة القتال كما كان بقطاعها مدينة القنطرة شرق والتى أدي سقوطها في أيدي قواتنا إلي إسعاد الأمة العربية وما جاورها من نقاط حصينة بلغت سبع نقاط من جملة نقاط العدو على جبهة القتال من خط بارليف.

***

تعدت الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر هذا اليوم الرائع فى تاريخ الشعب المصرى والعربى ، لقد كان شيئا غريبا وملفتا للنظر ما يجرى على جبهة القتال وخاصة فى الخط الامامى ، هذا الخط الذى لا يفصلك عن العدو سوى قناة السويس بمسافة مائتى متر على أقصى تقدير.

أتطرق لهذا الحدث ومن منى أحسن نفراً أن يكتب عن هذا ، يكتب عن ملحمة جنوده من الشهداء والجرحى والأبطال بدلا من الدمى التى يحضرها التليفزيون لتتحدث عن هذا العمل البطولى الرائع والكل يتغنى به ، انا لا أتحدث عن بطولة شخصية فلم أدمر دبابة بيدى ولكن كان لى دورى القيادى والذى لا يقل أهمية عن ما قام به ابطالى من الرجال.

لقد قرأتم مشاهداتى أثناء انسحابى فى معركة عام ٦٧ ولم أتولى بطولة ولم نبدأ معركة ولكنها كانت مفروضة علينا باستثناء معركة الشهيد وليم ومعركة تدمير فنطاس الوقود لليهود فى آخر يوم انسحاب لنا ، لكن هنا فالوضع يختلف ، نحن

لمهاجمون ، نحن العابرون. "نحن مفرزة نطاق أمن الفرقة "والتى يعرفها من المتخصصين يعلمون انها المدفوعة للاشتباك مع العدو وبالتالى يكون العدو فى أشد قوته ويستطيع بإمكانياته الكبيرة وخشيته على قواته الواقعة تحت نيران قواتنا من القتل والتدمير والأسر ان تقوم بكل ما تستطيعه لان تسحقهم ويحصلون علي حموة الموس وهذا معروف لدى كل القيادات الكبرى فى اى جيش من جيوش العالم ، أنهم الفدائيين ورأس السهم المندفع أمام القوات ، هم التى تسير باقى القوات الرئيسية فى أثرهم ونصرهم هو مما لاشك فيه نصر لهم ولا قدر الله لو فشلوا فى مهمتهم فهذا معناه تكبيد قواتهم الرئيسية خسائر كبيرة أو فشل خطة الهجوم ولهذا سوف أتحدث عن هذا العمل.

***

جبهة القتال فى الأيام السابقة للحرب كأنها سوق كبيرة به الحركة والنشاط ، لو أعطيت مثلا لذلك: لقد كانت شبيهة بيوم من أيام شهر رمضان فى الساعات التى تسبق موعد الإفطار، فكل شيء يتحرك ويجرى هنا وهناك وهذا يعود لمنزله وذاك يستعد حاملا معه الطعام أو الفاكهة أو الكنافة ، كلٌ مشغول حسب تخصصه أو رغبته ،. فجأة قبل موعد انطلاق المدفع بعدة دقائق تسير فى الطرقات فلا تجد أثرا لحياة ؛ أين البشر؟ أين الآلاف والملايين التى كانت تملأ الشوارع والمواصلات حركة ونشاطا وتسابقا من أجل موعد هام؟ أنه موعد الإفطار أو موعد إطلاق مدفع رمضان ؛ أو قل مدافع الكبرياء التى ستنطلق على هؤلاء.

سكون تام فلا حركة وكل خلف سلاحه وإذا كان اى إنسان يريد معرفة ما يحدث لهؤلاء الرابضون فعيون يقظة وعقول نائهة وقلوب تنبض بقوة كأنها أصوات مدفعية ميدان ، الكل صامت ولا تعرف عن أفكار هؤلاء شيئا ولكن المؤكد أنهم يفكرون مثلى ومثل الآخرين فقد وصلنا إلى نقطة اللا عودة اى أن العد التنازلى قد بدأ ولن نخطأ خطأ عام سبعة وستون ثم فجأة نعود صامتين وإلغاء ما تم دفعه

وهنا تكون القوات فى وضع خطير للغاية حيث أن جميع القوات قد تم حشدها بمسرح العمليات فإذا طلب منهم إغلاق معداتهم والعدو مازال مستعدا فسوف يضرب ويدمر للقوات المحتشدة فى مساحة ضيقة فتكون الخسارة كبيرة ولا تستطيع القيادة ان تطلب منهم العودة ثانية لوضع الاستعداد للحرب فهى تحتاج وقت طويل ، انها مثل الفرن الذى يحتاج الى فترة إعداد حتى تصل درجة حرارته الى الدرجة المناسبة لإعداد الخبز ولكن إذا قذفته بجردل ماء انطفىء فى الحال وإذا أردت إعادة إشعاله فتحتاج الى فترة اكبر من الأولى حتى تزيل اثار المياه التى أتلفت الأرض والوقود الذى ابتل ، هذا ما حدث فى يوم السادس من أكتوبر ؛ فقد سبق السيف العزل.

قريبا منى المعاونون لى فى مركز القيادة ؛ هو مركز قيادة متقدم بكل الأحوال بالمسافة التى لا تقل عن ستة كيلومترات وبدون قوات صديقة على الأجناب أو فى الخلف فهو وضع شائك للقادة الذين دفعوا بى لهذا المكان ولتلك المهمة وهى بكل المقاييس مهمة خطيرة جداً لتنفيذ مثل تلك العمليات وهى ليست من أنواع المهام المظهرية والعنترية فهى فى صلب الدراسة فى العمليات الهجومية ، معى فى مركز ملاحظتى عدد ثلاثة عمال أجهزة لا سلكى متوسط المدى لا يقل مداه عن خمسون كيلومتراً وثلاثة أجهزة اتصال لاسلكى قصير المدى مداه خمسة كيلومترات من نفس نوع المتواجد مع ضباط السرية والوحدات التى تعمل معى ثم عدد ثلاثة جهاز تليفون ميدانى للاتصال بقادة الوحدات الكبرى ، كانت الأجهزة والتليفونات المتواجدة معى تتصل بكل من قائد الفرقة وعمليات الفرقة وقائد اللواء ، كنت خارج سيطرة قائد الكتيبة ولكنى استمع لاتصالاته بقائد اللواء لأننا جميعا على شبكة واحده مع تواجد عنصر طبى معى "رقيب طبى" وحامل للقاذف الصاروخى المضاد للطيران المنخفض "ستريلا أو سام ٧.

بلغ عدد المتواجدين معى عشرة من الجنود المثقفين المتعلمين كما يدير المقذوفات المضادة للدروع والمضادة للطائرات عدد من الضباط المهندسين أيضا ، تعدت الساعة الواحدة والنصف وانا منتبهه وجنودى صامتين والحركة على جبهة القتال خاصة في منطقتى تدفع على الرعب ، انه الانتظار القاتل ولا يريد عقرب الدقائق ان يتحرك ، كل فترة أشاهد ساعة يدى وأقول كل هذا فى ثلاث دقائق ؛ كان وقتا طويلاً علينا لقد كان الانتظار وما خلف الانتظار من أحداث وكل ينظر إلى الآخر ولسان حاله يتساءل: هل سيشاهد هذا الزميل مرة أخرى سواء نال هو الشهادة او زميله؟ كنا قد وصلنا الى حالة من الروحانية العالية وقد أدى هذا الى ان سرح البعض منا مع عائلته أو أحبائه وقد كنت منهم فلقد طار بى الفكر والخيال بعيدا ولم افكر فيه راغبا.

انظر إلى مياه القناة الرائعة والتى تخبرنا بأنه بعد دقائق سينقلب الحال بها وكأنها تطالبنا ان نذهب لنستحم ونتمتع بها لا ان نعكرها بالقصف والدماء ، طار خيالى وانقلب اللون الفيروزى على الشاطىء الذى هو اخضر فاتح ، سكن تفكيري وكل ما انا فيه نظرات حالمة لمياه القناة وسعادة بالغة بذكرى الأحباء فى القاهرة والزقازيق ، هتف هاتف بداخلى ، لا تغضب ان الحرب قادمة وستعالج كل شىء وستبتعد عنهم ان آجلا أو.... افزعنى صوت الطائرات الهادر المفاجىء لنا جميعا وهتفت هذا هو "عاجلاً".

وقفتُ مضطربا فقد كانت لحظة سكون وحلم وخيال لانتبه على هذا الصوت الجبار وانفجار الصواريخ والقنابل تتساقط امامى فى الشرق ، لقد عبرت الطائرات القناة من فوقنا مباشرة وهذه هى المرة الأولى التى نشاهد فيها قواتنا الجوية تعبر من فوقنا وتقصف العدو فدائما ما نشاهد طائرات العدو هى التى تقصف وتدمر وتقتل وطائراتنا عاجزة ان تفعل مثلها ، جاء اليوم ولنفعل بهم مثل ما فعلوا بنا طويلا ولا اعتقد ان ارتفاعها يزيد عن عشرين متراً كان واضحا الأرقام المكتوبة

على بطن الطائرات ، انها الميج ٢١ .. هاجمت الطائرات أعماق سيناء ونحن نشاهد الانفجارات تتوالى وأعمدة الدخان تتصاعد دليلاً على إصابة الأهداف بدقة.

وقفت صائحاً: احملوا القوارب. كان ترتيب عبورنا يبدأ بعبور ثلاثة قوارب تحمل فصيلة مشاه بقيادة النقيب حسن وبعد وصولها للشاطىء الشرقى للقناة تتسلق الساتر الترابي وتحتله لتؤمن باقي القوة حتى نكون مؤمنين من تدخل القوات المعادية وتقضى على هذا العدد الضخم فى القناة ، أعيد الأمر .. ارفعوا القوارب .. حملوا القوارب بوهن أو قل ان أعصابهم وقواهم قد خارت ، لقد عذرتهم فما حدث فى الثوانى السابقة أربكنا جميعا وليس هذا خوفا أو جُبنا فمنذ ثلاث سنوات ونحن بدون قتال أو اشتباك. حملت الفصيلة المحددة قواربها وانا صارخا بهم ، تحركوا إلى الثغرات لعبور القناة ، شاهدتهم متحجرين مثل ما يشاهد الإنسان حماراً يستعصى على السير لعبور جدول مياه صغير حيث لا يعرف عمقه ولهذا يتردد ، أطلقت عدة دفعات من سلاحى قريبا منهم وقد أفاقهم هذا الصوت وتناثرت شظايا الرمال حولهم فاندفعوا وشعرت لحظتها بأنهم قد يعرقلون العبور والنقيب حسن متواجد معهم وانا اعلم مقدار تهوره أثناء ذلك.

بصوت آمر حاد : نقيب حسن ؛ سأعبر انا معهم وأنت تحضر مع باقى القوة اى بعد وصولنا إلى الشرق واحتلالنا الساتر الترابى ؛ تسلمت منه علم الجمهورية والذى زودتنا به قيادة الجيش لهذا الغرض ، الآن القوارب الثلاث فى المياه ويدفع كل قارب جندى ثم يقفز بداخله وانا أقف فى وسط احد تلك القوارب ملوحا بعلم مصر أمام الجميع هادرا بصوت مرتفع. والله زمان يا سلاحى. وأشير الى جنودى هاتفين خلفى الله اكبر .. الله اكبر وابتعدت عن الضفة الغربية لقناة السويس وانا الذى شاهدتها منذ أكثر من ست سنوات فى آخر مرة ، شتان مابين التاريخين وأشاهد قواتنا الأخرى والتى ستعبر مع باقى القوات الساعة ١٤٢٠ (أي الساعة الثانية والثلث بعد الظهر) أشاهد مركز ملاحظة قائد الكتيبة وهم يلوحون

لنا مصفقين هاتفين الله اكبر وتبتعد الصورة أكثر فأكثر كلما اقتربت قواربنا من الضفة الشرقية للقناة.

القناة على الأجناب فارغة ليس بها قوارب سوانا ونحن الذين سنحصل على حموه الموس وقبل ان ابلغ الضفة الشرقية أشاهد باقى القوارب والقوة الرئيسية ومعهم حسن يحركون مجاديفهم سابحين خلفنا غير منفذين التعليمات كما أصدرتها لنا قيادة الفرقة وأصبحنا أكثر من ثلاثمائة ضابط وجندى بداخل المياه ولا توجد قوات خلفنا وعلى عن اليمين سوى موقع نمرة ستة والذى يبعد عشرة كيلومترات جنوبا فنحن بدون حماية ، دعوت الله ألا تكون وحدة من العدو متربصة بنا وتطلق نيرانها علينا فيقتل من يقتل ويغرق الباقى فى مياه القناة رغم أننا جميعا نرتدى جواكت النجاة.

الحمد لله ، قلتها حين وصلنا إلى الضفة الشرقية لقناة السويس ، هاهو الساتر الترابى أقف أسفله أشاهده مرتفعا بصورة لم أكن أتوقعها وأتذكر خطأ قرارى بان طلبت من جنودى عدم حمل السلالم معهم من ضخامتها وإرباكها فى القوارب ، وقفت على السياج الحجرى المبطن للقناة افكر: هل من المعقول ان ننتظر عالقين هكذا ونرسل فى إحضار السلالم ، ستكون كارثة وسوف نتأخر وما العمل والمطلوب منا ان نتجه بسرعة لاحتلال مواقعنا وتجهيزها قبل ان تصل قوات العدو وتقابلنا ونحن سائرون وتقضى علينا برشاشاتها.

إذن فلا مجال ولا جدال إلا ان نصعد هذا المرتفع ، بسرعة تسلقته بين تكبيرات الجنود الذين يجدون خلفى ، وقفت اعلي الساتر ملوحا لقواتى بداخل الماء بعلم مصر الذى ألهب مشاعرهم ودفع بقواهم لأعلي درجاتها وهم فى منتصف القناة وهاهم يشاهدون قائدهم الرائد أسامة يقف فى الجهة الأخرى غير هياب ولا خائف ولم يحدث له مكروه فزادهم هذا اشتعالا وحماسا لكنى كنت لا احمل أثقالا كما تحملها القوة الرئيسية القادمة ، وقفت لأنظر ماذا هم فاعلون طالبا من الله

العون والنجدة فى تلك المحنة التى خاننى فيها تقديرى لارتفاع الساتر الترابى مؤنبا نفسى بأنه كان يجب على تنفيذ التعليمات فهم أعلم منى بهذا الارتفاع ولماذا احضروا السلالم إذن؟ كل قارب به سلم ، اثنان وعشرون قاربا باثنان وعشرون سلما تركتهم الجهة الأخرى ، لقد كان تصرفا أحمق وخطأ فى حق قواتى وحق بلدى ، لم يمهلنى جنودى وانا اشاهدهم يتسلقون الساتر بمدافع الهاون ، كتلة واحدة اى والله المدفع الذى يحمله ثلاثة أفراد لكل فرد جزء يحمله الآن فردا واحدا صاعدا به ارتفاع أكثر من عشرين مترا بزاوية صعود ٦٠ درجة.

توالى صعود رجالى وهاهو المدافع ب ١٠ ثم تليها المدافع الأثقل ب١١ وانا انظر الجهة الأخرى بعيدا عنهم حتى لا أشاهد الجندى وزميله يحملون المدفع ويسقط بهم فى القناة ، وصل احدهم بجوارى ولم اصدق ان المدفع الذى تجره سيارة لورى قد وصل بجوارى ولم املك سوى تقبيلهم لهذا المجهود وهم غير عابئين وكأن صحتهم حديد ولا نهجان ولا رهقان "قوة من عند الله" اكتمل عددنا فوق الساتر الترابى.

استعدوا كما سبق فى التدريب السابق ، توزعوا فصائل ووحدات. وهاهم أول من سيعمل ، المهندسون العسكريون الذين يقومون بتلغيم مرابض دبابات الجيش الاسرائيلى خلف الساتر الترابى الذى تسلقناه منذ دقائق حتى إذا وصلت اى دبابة معادية تنفجر ولا تستطيع الاختباء وتكون هدفا سهلا لقواتنا.

أشاهد الرقيب مؤهلات عليا / محمد فتحى منصور رقيب الفصيلة الثامنة بالسرية والذى كان يعانى من مغص كلوى منذ الأمس وتوجه لطبيب الوحدة ولكنه عاد فى الصباح عندما بلغه خبر وصول القوارب ، أشاهده ممسكا بحفنة من رمال سيناء ويضحكته البريئة يحدث الرمال قائلا " يخرب عقلك .. هوستينا .. نفسنا فيك مووت .. لكن متزعليش إحنا جينا لكِ .. اصرخ به: لا وقت للغرام مع الرمال!! .. ينظر إلى ونحن مازلنا سائرين لهدفنا وبنفس الابتسامة ثم يرفع يده

الأعلى مخاطبا رب العزة قائلا: خلاص يارب انا مش عايز من الدنيا حاجه لو مت دلوقتى حاكون مبسوط انى شفت ولمست أجمل حاجه فى حياتى .. أعيد تحذيري ثانية .. جرى إيه يا شاويش .. شوف شغلك .. يقبل على مسرعاً وقليل من الرمل بيده ويضع أصبعه فى فمه ويتذوق الرمل قائلاً: سكر والله يا فندم .. تركته على حاله لا تابع عملى ، شاهدت العديد من الجنود ينحنى الواحد منهم ويكبش بيده حفنة من الرمال ويضعها فى جيبه وهو يتلفت يمينا ويسار كأنه يسرق شيء عزيز ، كامن المشاعر صادقة عالية.

نواصل التقدم فى اتجاه التبة الموعودة تبة **الكنتور** ، أشاهدها تقترب منا او نحن نقترب منها فهى هدفنا ، ما زلنا نتقدم وبدا يحدث رد فعل من العدو بقصفات مدفعية على الساتر الذى كنا فوقه منذ دقائق ، لم نبالى وكأن شجاعة الدنيا بين أيدينا وانقلب حال التوتر الذى صاحب هجوم الطائرات الى شجاعة وبسالة خاصة ما شاهده الآخرون من شجاعة وإقدام فى حمل الأسلحة والذخائر والصواريخ أثناء صعود الساتر ، أشرت إلى الفصيلة ألولى بأن تحتل موقعها القريب من قناة السويس وبالتالى تركوا تشكيل الهجوم لتنفيذ الأمر ، بعد نصف كيلومتر تقريبا أشرت إلى الضابط مهندس محمود المسئول عن القواذف الصاروخية المضادة للدبابات بان يترك بهذا المكان طاقم صواريخ "لوحة توجيه إليكترونى + أربعة قواذف صاروخية + ١٦ صاروخ إحتياط" ، أشرت إلى قائد الفصيلة الثانية بأن يحتل موقعا دفاعيا فى المنطقة التى كنا بها وهى تبعد أربعة كيلومتر عن قناة السويس ، توجه الضابط مع جنوده للتنفيذ بعدها بنصف كيلو أشرت إلى ضابط الصواريخ المضادة للدبابات بأن يترك طاقم صواريخ مثل السابق ، توجه للتنفيذ ، بعد مسافة كيلو ونصف الكيلومتر أشرت لقائد الفصيلة الثالثى بإحتلال موقع دفاعى وتخير أماكن جنوده للضرب الجيد ثم أشرت إلى قائد فصيلة الصواريخ بترك الطاقم الأخير بهذه المنطقة وعليه ألا يقذف الدبابات المعادية بالصواريخ إلا

بعد أن يشاهد أول دبابة تسير كطابور قد دمرت وهى قريبة من قناة السويس ، حددت مكان مركز قيادتى وقام عمال الإشارة سواء أجهزة تليفونية أو خطوط تليفون ميدانى بأعمالهم ، عدت للخلف نصف كيلو وحددت لقائد سرية الهاون موقعه ثم طلبت من قائد سرية المدافع المضادة للدبابات الل ب١٠ وأل ب١١ تحديد أماكن المدافع.

مازلنا نتقدم بدون اى مجهود ، فكرت فى تلك السيمفونية الجميلة وكل يعزف واجبه ، لم يحدث صراخ ولا سباب للمخطئين موقنا بان التدريب الجيد الذى تدربوا عليه منذ فترة وما يمتازون به من هدوء الأعصاب وما يمتلكونه من نواصى الأمور بيدهم.

الحمد لله ، وصلنا التبة المحددة "**الكنتور**" وقد بدأ كل فرد فى إعداد حفرة يختبىء فيها عن النيران المباشرة وخاصة الرشاش النصف بوصة الموجود ببرج الدبابة الإسرائيلية فهو خطير وهالك للأفراد ، استعد الجميع للحفر والكل اتخذ موقعه كما تدرب سابقا.

كانت تعليماتى لقواتى بعدم فتح النيران على قوات العدو إلا بعد ان يشاهد المراقبون فى كل فصيلة تدمير الدبابة التى فى أول القول لأنهم لا يستطيعون التوجه إلى شاطىء القناة إلا بقول "طابور" لان يمين التشكيل ملاحات لا تستطيع الدبابات او ناقلات الجند المدرعة للمشاة السير بها فسوف تغرس الجنازير بها اما على جانبهم الأيسر فنحن محتلون أماكننا ولهذا لم يعد أمامهم سبيل لنجدة نقاطهم الحصينة إلا السير بهذا الوضع قول أو رتل مركبة خلف الأخرى ولا يستطيعون فتح تشكيلهم كما هو معروف فى تلك الأحوال ، كما ان فتح النيران مجرد اقترابهم سيحرم باقى الأسلحة المضادة للدبابات من استخدامها وخاصة المدفع "ال ر ب ج" ومدافع ال ب ١٠ وال ب ١١ .. كنت قد رتبت قواتى على هذا الأساس كما وضعت فى الجانب الأيسر لقواتى القريبة من القناة لوحة الكترونية لتوجيه

الصواريخ وبها أربعة قواذف مضادة للدروع وبجانبها القواذف الصغيرة ولنبدأ بالأصغر مسافة والتي لا تتعدى ثلاثمائة متر.

ابلغني قائد الفرقة بان الاحتياطي المدرع الاسرائيلى تحرك فى اتجاهنا مؤكدا على حديثى السابق معه "أسامة لا اقل من تدمير نصفهم على الأقل حتى تؤمن قواتنا شرهم أثناء العبور" أجيبه: حاضر يا فندم. نقترب من المعركة التى قال عنها الوزير امامى .. فؤاد "العميد فؤاد قائد الفرقة التى انا أحد ضباطها" هكذا تضع لحم أمام الحديد ، بأقصى سرعة تقترب الوحدات المدرعة الإسرائيلية "الحديد" غير عابئة بقواتى "اللحم" إما انها لا ترانا او انها تستهين بالمشاة وكل ما فعلته ان أطلقت رشاشتها للتفتيش والإزعاج حتى تصل الى النقاط القوية التى تحاول قواتنا احتلالها وانا استمع الى ندات القادة وهم يبلغون قيادة الفرقة بالمعارك الطاحنة التى تدور فوق وأسفل النقاط القوية والبعض وصل الى داخل النقاط القوية ومازالت مدفعيتنا تزمجر قاصفة أهدافا هنا وأهدافا هناك ، الطائرات الإسرائيلية هى الأخرى أشاهد بعضها يهوى فوق مياه القناة أو على احد الأجناب واصبحت السماء تكسوها الدخان والانفجارات تصم الآذان كما تقوم قواتنا الجوية بمعارك وعمليات هجوم على قوات العدو تاركة السماء لقوات الدفاع الجوى.

عبرت الدبابات الإسرائيلية من امامى وعامل اللاسلكي يبلغ القيادات المختلفة على كل صغيرة وكبيرة ويأتى إلى صوت قائد الفرقة صارخا لماذا لم تشتبك حتى الآن؟ سيفلتون منك ولحظتها تنفجر أول دبابة للعدو وتتوقف الدبابات خلفها فلقد اغلق عليهم الطريق ، الدبابة التالية تحاول فتح الطريق بإزاحة الدبابة المشتعلة والتى دمرتها النيران سواء من القاذف او من الانفجارات الداخلية لانفجار ذخيرتها ونشاهد الدبابة الأخيرة تنفجر.

هكذا تم حجز الدبابات والعربات المدرعة بداخل تلك المصيدة لقواتى ونجحت خطتى لجنودى والتى نفذوها ببراعة وانهالت القذائف عليهم حاولوا الإفلات منها

باى طريقة مما دفع بدبابة الى السير جانبا فغرزت فى الملاحات ، حاولت الخروج وكل مرة تحاول الخروج فيزداد غرسها فتركها جنودها هربا للحاق باى دبابة أخرى او عربة مدرعة وكانت رشاشاتنا وبنادق المشاة لهم فأردتهم قتلى فى الحال ، اعتقد ان كل جندى منهم حصل على اكبر كمية من الرصاصات القاتلة ؛ بمدفع احدى الدبابات فتحوا ثغرة بقصف دباباتهم الأخيرة ولكن تلك الدبابة أصابها صاروخ آخر ودمرت فى الحال والانفجارات متتالية ومازالت تنفجر وعربة مدرعة يطالها القذف فتنفجر وتندفع منها الأجساد مشتعلة والبعض لم يمكنه الخروج والذى خرج وجد الأسلحة الصغيرة فى انتظاره فيقتل فورا ولم نُعد مكانا للجرحى أو الأسرى ، مهمتنا القتل فقط ، القتل فليس أمامنا وقت لجرحى أو أسرى ، ليست هذه مهمتنا إننا فى مهمة خاصة وهى التدمير لأكبر عدد من الدبابات.

حتي الآن تم تدمير ثلاث دبابات وعربتان مدرعتان ، لم أتدخل فى سير المعركة فكل المقاتلين يعلمون الواجب الملقي علي عاتقهم وليسوا بانتظار تعليمات جديدة فكل شيء يسير حسب التعليمات والتدريب وحسب الموقف أمامهم ، أصبحت المعركة مفتوحة وكل من يجد ان الهدف فى مرمى سلاحه يقذفه فورا ، الوحدات المدرعة للعدو تعود للخلف بعد ان دمرت عربتان مدرعتان أخريان وفى نهاية انسحابهم دمرت دبابة فأصبح العدد رباعيا أربع دبابات وأربع عربات مدرعة ودبابة خارج العمل فى الملاحات.

اقتربت من تحقيق الهدف. الـ٥٠% الذى وعدت بها قائد الفرقة. الساعة تقترب من الرابعة مساء ، أغارات علينا بعض الطائرات المنخفضة ولكن احد صواريخ الكتف " سام ٧ " للدفاع الجوى أصابت إحداها سقطت قريبة منا وقد لفحت الانفجارات والشظايا وجوهنا ، ابتعد الإسرائيليين وهكذا مضى من الوقت الساعتين وأبطال تدمير النقاط القوية يحاولون بكل جهد جهيد تدمير اكبر عدد منهم وتلتقط قواتنا مكالمات الإسرائيليين اللاسلكية ويذيعها قائد الفرقة فى إرسال

شبكته وجنود العدو في حالة من الصرع صارخين يستغيثون والرجل يعلق ؛ همتك معانا يا أسامه يا بطل أنت ورجالتك الجدعان ، اسمع نداء قائد اللواء برافو عليك يا بطل الله اكبر، يردد البعض من حوله النداء عدة مرات الله اكبر.

قصف شديد من مدفعية العدو على قواتى وبدأت الصرخات تسمع فى موقعى وآهات وآلام من المصابين والشهداء وقادة الوحدات يبلغونى بعدد من الشهداء وتوالى سقوط الضحايا وانا مازلت فى موقعى لا استطيع التحرك فنيران المدفعية شديدة وتركز بقصفنا بغلالات ثابتة وبطريقة الأرض المحروقة اى قتل كل شىء فى المنطقة ومالها من كثافة نيرانية واسمع قائد اللواء يستغيث بقائد الفرقة بفتح نيران المدفعية والرجل يطلب منه التمهل لان المدفعيةُ تقصف الآن بطائرات العدو وانا أشاهد من موقعى استمرار تساقط طائراتهم.

أربعون دقيقة كنت ألاحظ دانات المدفعية تنفجر تباعا حتى وصلت المسافات بين كل دانة وأخرى خمسة أمتار تقريبا وهذا يؤدى الى الهلاك. الدانة التى تنفجر تحدث شظايا على خمسة عشر مترا على الأقل فى جميع الجهات كما ان بعض الدانات تسقط على الجندى مباشرة فتقذف به خارج حفرته صارخا وقد تمزق جسده الى أشلاء. عمت الموقع رائحة الموت ورائحة شواء الأجساد المحترقة والمتفحمة ومازال قائد اللواء يحاور قائد الفرقة ولكن كان هناك شىء ما قلل من تأثير مدفعيتنا على مدفعية العدو وزادت وحدات الدفاع الجوى من صواريخها وقد أدى هذا الى انفراج للمدفعية وقذفت مدفعية العدو والتى هدأت من قذفها علينا كما قذفت طوابير دباباتهم خاصة بعد ان وصلت بعض المعلومات بسقوط نقطتين من نقاط العدو فى ايدى قواتنا فحدث لهم هلع من جراء ذلك لان النقاط متخمة بالجنود والأسلحة وسقوط نقطة يؤدى الى انفراط عقد دفاعهم على القناة ويسهل سقوط الباقى وهذا أدى الى ازدياد مشاعر الجنود للبسالة ، قائد الفرقة ورئيس

عملياته يبلغوننى بان الاحتياطي المدرع عاد مرة أخرى استعد له وقد تدعم بكتيبة دبابات "٣١ دبابة" عوضا عما خسره.

فى الهجوم التالى لم يتخذوا طريق المحور الشمالى المرصوف ولكنهم اتبعوا تكتيكا آخر وهو التسلل إلينا من بين الرمال التى نحتل فوقها اى من الحد الأيمن الذى يفصل الفرقة ١٨ والفرقة الثانية وهذا الفاصل يبلغ اتساعه عشرة كيلومترات ولا توجد به قوات ، أصبحت فريسة سهلة لهم فلا عون ولا جوار قريباً منى يساعدنى فى تلك الهجمات المتتالية ، غيرنا وأبدلنا اتجاه أسلحتنا فى اتجاههم وكان هجومهم على هيئة قوس مع نيران كثيفة تسبقهم وحدث ما حذر منه الوزير معركة اللحم مع الحديد خاصة لقرب نفاذ الذخيرة والصواريخ فجنود الاحتياط المكلفين بحمل الذخيرة لنا وأثناء سيرهم للمرة الأولى مجرد ان شاهدوا الدبابات قادمة القوا بما فى أيديهم وأسرعوا بالفرار عابرين القناة الى الجهة الغربية فأردتهم قوات الشرطة العسكرية قتلا برشاشاتهم وهكذا حُرمنا من إمداد الذخيرة وأصبح الحصار خانقاً علينا خاصة دون ذخيرة وزيادة قوات العدو وما أصابنا من خسائر من قصف المدفعية المركز.

تدمرت دبابتين للعدو وأسرعت بعض الدبابات فى اتجاه القناة مع ترك فصيلة مشاه ميكانيكية ، شاهدتهم قادمين فى اتجاهي من جهة القناة اى الجهة العكسية وترجل عشرة منهم ومع احدهم ميكرفون صغير متحدثاً "قائد مصرى سلم نفسك فورا". جنود الاتصالات يبلغون قيادة اللواء وقيادة الفرقة بالموقف واسمع قائد الفرقة صارخاً بى إذا أمكنك سحب قواتك فافعل ، أحدثه والجنود اليهود قادمين فى اتجاهى لأسرى لا يمكن هذا ، مجرد ترك الجنود لحفرهم سيهلك أكثر من نصفهم كما لن استطيع السيطرة عليهم ونعود لكارثة ٦٧ يعيد قولة أمن الجنود البعض ينسحب والبعض الآخر يحميهم.

أصدرت أمرا إلى اقرب فصيلة لى بأخذ وثبة للخلف ولكن اليهود المتصنتين على الشبكة وتندفع الرشاشات النصف بوصة تحصد في جنودي فينكفئ الجميع أرضا البعض منهم هربا من النيران والآخرين لاستشهادهم ، ألغيت أمر قائد الفرقة الذى مازال صارخا بى لعدم تنفيذ الأمر وانا أحدثه انه من الصعوبة تنفيذ هذا وسوف يؤدى إلى هلاك الجنود واخبره باستشهاد سبعة جنود من اثني وعشرين كانوا يستعدون لذلك ، يطلب منى التمسك بموقعى ويخبر هيئة قيادته باننى ادري منهم بالموقف. يعيد قائد اللواء صراخه واستغاثته بقائد الفرقة. يافندم "المفرزة "هالكة أرجوك إعمل علي إنقاذهم.

هذه هى الإجابة من قائد الفرقة وانا اسمعها على جهاز اللاسلكى. يا أحمد يا عبده "قائد اللواء". لقد نفذ الرجال ما أردته منهم بالضبط لقد تدمر نصف قوة العدو ومكثوا أكثر من ثلاث ساعات. يسأله ماذا يعنى هذا؟ فيخبره سنحاول انقاذهم. خلينا نشوف الأهداف المتبقية والهامة ونشوف النقطة ٥١ اللى خلف أسامه لسه بتقاوم وانا خايف يفضلوا كده وخصوصا ان أسامه مش حنكلفه بحاجه. خلاص زى ما قلتلك حنحاول المساعدة. انتهى.

أغلق الاتصال مع قائد اللواء والرجل يشد من أزرى بان أعمل علي تقليل الخسائر بقدر الامكان وانه سوف يدفع بسرية الخدمة لمساعدتى. آه سرية الخدمة ستدفع لمساعدتى هؤلاء الجنود التعساء والذين يعملون فى الخدمة بقيادة اللواء كمراسلة سيحضرون هنا لتزداد الخسائر البشرية ، لم أشاهد من أطلق قذيفة"الـ ر ب ج" على احدى العربات المدرعة التى جاءت لأسرى فانفجرت والصراخ تعالى منها والدخان يغطيها ولم يخرج منها سوى فرد واحد اشتعلت به النيران فحصل على نصيبه من نيران الأسلحة الصغيرة ، لحظتها انكفأ الجنود المترجلون أرضا واحتموا بالأرض والمسافة قليلة بيننا لا تتعدى ثلاثمائة متر.

اشاهدهم ويشاهدوننى بوضوح وقد أصبحت المسافة بيننا لا تتعدى الآن المائة متر ولكنهم يجدوا فى أسرى. أطلقت عليهم نيران سلاحى الشخصى وطلبت من الجنود الإشارة فعل ذلك فتركوا أجهزة الاتصالات لندافع عن أنفسنا بنيران أسلحتنا ضدهم ، شاهدت طاقم مدفع ماكينة يجره طاقمه المكون من ثلاثة أفراد قادما فى اتجاهي مسرعا ونيران العربة المدرعة الأخرى توجه لهم مدفعها الرشاش بدفعات فيتساقطون تباعا ولكن تبقى احدهم وانا صارخا فيه. احتمى بالأرض بلاش جرى ولكنه كان يرى ويشاهد نفسه فى الجنة. لم ولن أرى مشهدا مثل هذا فى حياتى. الشاب احمد همام أبن العشرين عاما والذي ألتحق بالقوات المسلحة بعد أن جند منذ ستة أشهر . يجرى بمفرده ومعه المدفع خلفه وأشاهده وهو ينفض عن جسده الطلقات التى تخترقه وهى من النوع الكاشف لاننى كنت أشاهد الضوء الفوسفورى المشتعل بجسده وافرولـه ثم انكفأ خلف مدفعه موجها جهة الجنود الإسرائيليين الذين نهضوا متقدمين فى اتجاهى ، لقد كانوا مصممين على أسرى بأى وسيلة ، ضغط على عتلة الضرب ليفرغ مائة طلقة بهم فيقضى على ثمانية منهم وهم يصرخون بهستيرية وتتكالب قوات العدو على الموقع وانا متأكد انها دقائق أو ثوان ونصبح هالكين فقد أصبحت المعركة كسر عظام بيننا وبينهم خاصة أنهم فشلوا فى الوصول إلى النقاط القوية والتى سقط أكثرها والإصابات بينهم كثيرة ومفجعة غير الأسرى والجرحى وإنصب حقدهم عليّ وعلي قواتي هؤلاء هم السبب وهم يريدون هذا القائد لأسره وإذلاله.

***

النقيب عصام سلطان قائد السرية الثانية مشاه ميكانيكى ومن نفس كتيبتى ومكلف مع جنوده بالاستيلاء على النقطة القوية رقم (٥١) وهذا الرقم هو ترقيم النقاط من بورسعيد حتى السويس والرقم هو علامة الكيلو متر وتلك النقطة التى عبرت بجوارها. استمر فى محاولاته للسيطرة عليها واليهود يصدون هجوم وحدته

ثانية كلما اقترب من تحقيق هدفه. أخيرا اندفع بعض الجنود للقفز داخل مزاغل النيران بتلك النقطة وتتهتك أجسادهم من نيران الرشاشات الإسرائيلية ولكن المزاغل أغلقت بأجسادهم واليهود بداخلها يريدون فتح تلك المزاغل دون جدوى فالجثث ملأت الفتحات وحرمت الرشاشات من ان تعرقل هجوم عصام وجنوده. حاول عصام الدخول لصحن النقطة الخلفى ولكن حقول الألغام ذات الطبقات المتكررة تعرقلهم فيندفع الجنود للنوم أرضا فوق الألغام فتنفجر فيهم ويكمل آخر المسافة بعد ان تم استشهاد زميله بها وهكذا. سبعة من الشهداء فتحوا الثغرات بأجسادهم وهنا يندفع عصام بقواته الى الداخل لتدمير النقطة من الخلف والمزودة ببوابات حديد سميكة عرضها عشرة سنتيمتر مثل الموجودة بالبنوك لحمايتها من السرقة. يندفع أحد الضباط الصغار أعلي النقطة دون مبالاة حاملا علم مصر هاتفا الله اكبر. يكبر الجنود خلفه ويضعون الألغام المضادة للدبابات على الأبواب الصلب الفولاذية التى يحتمى خلفها الإسرائيليين وتنفجر الألغام مدمرة أبواب النقطة وتقذف بالداخل القنابل اليدوية ثم تعقبها قواذف اللهب والتى تحمل مواد مثل "النابالم" وتحرق من تحرق وقتل من اثر هذا الانفجار الشديد الكثير من الإسرائيليين والقنابل اليدوية أيضا قتلت البعض.

سقطت النقطة ودخلها عصام ورجاله يطهرونها من الجنود اليهود كما احضروا بعض الأسرى ، هذه النقطة الرابعة الى سقطت بفضل بسالة رجال المفرزة المتقدمة التى كنت أقودها ولولا هذا لكانت الدبابات قد حصدتهم وهم يحاولون التوجه الى النقطة ، ليست هذه بل النقاط السبع والتى سقطت بالتوالى وفى اليوم التالى كانت معركة القنطرة شرق قد كتب فيها السطر الأخير بالنصر لنا حيث لم يتمكن العدو من دخول أى قوة مدرعة سواء بسبب بسالة رجالي أو بعد هذا عند إقامة الكبارى ووصول دباباتنا وقيامها بالمعارك التصادمية مع دبابات العدو. معركة حديد فى حديد تدمر فيها العديد من الدبابات من الطرفين.

قوات المدفعية مازالت تصب نيرانها المدمرة على قوات العدو ووحداته وتزيد من خسائرهم. اما قواتنا الجوية فتقوم بغارات على العمق القريب نظرا لقلة مدى الطائرات الروسية ولكنهم يقومون بعمل أعلي مستوى من البطولة والبراعة ، رجال الدفاع الجوى الأبطال الصناديد الذين ألهبوا السماء بصواريخهم واسقطوا العديد من الطائرات التى تهاوت ولولا هذا لكانت الطائرات أفشلت الهجمات البرية لقواتنا.

مازالت باقى الوحدات تقوم بواجبها ومنهم الحرب الكيماوية التى تدفع بقاذفات اللهب بنيرانها لتطهير النقاط القوية من العناصر الموجودة بها ، عناصر الاستطلاع هى الأخرى دخلت الى عمق سيناء ترسل بكل جديد عن العدو الى قيادتها والتى تعلم بها هيئة عمليات القوات المسلحة لتعد الخطط الجديدة لظروف المعركة المتغيرة.

هؤلاء هم الأبطال الحقيقيين ، سلاح المهندسين الذى لغم مرابض الدبابات وأدى هذا الى خسائر جسيمة بينهم ثم قادوا عملية التصويب بالصواريخ المضادة للدبابات والتى كانت تساعدنى بعضا من وحداتهم انه العلم الحديث فى مجال الصواريخ ، مازالت القوات البحرية تقصف المحور الشمالى من بدايته عند العريش بينما أغلقته سريتي فى نهايته عند قناة السويس ، الوحدات الإدارية تقوم بعملها بمد الوحدات بالوقود والمؤن من طعام وخلافه ، وحدات الخدمات الطبية بالخلف تقوم بعملها باستقبال الجرحى والمصابين.

***

طلبت من الجنود الذين معى بمركز الملاحظة الحفر أكثر فقد ظهرت شراسة العدو وبأن تلك الوحدة تسببت فى ضياع النقاط الحصينة لهم وكبدتهم خسائر فادحة ولهذا أرادوا الانتقام ، كان هذا واضحا من تكالب الأسلحة ضدنا سواء المدفعية او الطيران او المدرعات بل وظهر هذا جليا لمحاولة أسرى وما يمثله هذا من نصر معنوى بأسر رتبة كبيرة مثلى فى الخطوط الأمامية وحصولهم

على معلومات ، كان هذا اعتقادهم ، فشلت عملية الأسر بسبب شجاعة احد رجالي وهو الشهيد احمد همام.

بحق هذا الشهر الفضيل " رمضان" سمعت كبسولة خروج مقذوف من دبابة وقلت لهم بسرعة ارقدوا انها لنا ، لم أكمل بعد ، سمعت انفجار شديد وطقطقة فى الخوزة التي علي رأسي ودماء غزيرة مندفعة منها ، أيقنت اننى أصبت واننى الآن سوف أصبح شهيداً وانا اسمع أنات حولى وآهات وصراخ وتذكرت أشياء ثلاثة وهى:

تلاوة الشهادة وتلوتها فى سرى ولم اسمع صوتى ، الثانية ماذا سيحدث لأبى وأمى عندما يبلغهم نبأ استشهادي؟ والثالثة انه يوم ميلادى ١٩٤٤/١٠/٦ لقد أتممت تسعة وعشرون عاما. بدأت الاصوات تخفت من حولى ولكنى سمعت وشعرت بان أحدا يدفعنى ويهزنى بقوة قائلا (قوم يافندم الدبابة جايه علينا حيفعصو ..... آه) وسمعت طرقعة وطقطقة مثل أصوات بطيخ يسقط على البلاط ويحدث صوتا ويتهشم وشىء ثقيل الوزن على جسدى وكل ما حدث اننى سمعت نفسى وانا أتأوه.

قبل حدوث هذا كانت الساعة قد جاوزت السادسة ، اعتقد ان الإصابة كانت مابين السادسة والنصف والسابعة مساء ، اسمع أصوات جنازير الدبابات فى موقعى ومازالت أصوات الصواريخ والأسلحة المضادة للدبابات اسمعها ولكنها اختفت ولم يكن شىء يعمل فى جسدى بعد التنفس سوى اننى وسمعى.

غبت عن الوعى ولم اشعر بشىء حتى السمع انتهى ولا اعلم المدة التى قضيتها هكذا وانا على هذا الحال ولا اعلم هل انا راقدا على احد أجنابى أو مدفون بوجهى فى الرمال لكننى شاهدت حلما أو قل رؤيا لان البعض يقول ان الحلم من عمل الشيطان. اى المسميات لا يهم ولكن سوف أروى ما شاهدته بعد

أن أعاد الله الى الحياة وحرمنى من ان أكون بجواره مع من سبقونى فى تلك اللحظات الإيمانية والإنسانية الرائعة.

أقف فى موقعى هذا وانا انظر الى اعلي جهة السماء وأشاهد كائنات تلوح بأجنحة شفافة وليس جناحين عدة أجنحة وجوههم غير واضحة كما ان أجسادهم غير محددة يدورون فى موقعى والذى مازلت به أحارب العدو ولا اسمع أصوات انفجارات أو دخان القذائف ولكنى أشاهد شيئا دائريا مثل الاسطوانة الشفافة وعلى هيئة فقاعة الصابون اللامعة الخفيفة الشفافة وأشاهد وجه. اتسائل : من هذا؟ انه احمد سباق عامل الإشارة. أنادى عليه: الى أين أحمد؟ُ عد. ثم فقاعة أخرى. هذا هو العريف محسن عامل الخطوط الذى معى أيضا فى مركز الملاحظة. محسن. أشير إليه الى أين أنت يا أمباشى الى أين تتجه وتتركنى؟ ُ عد. لا يعود ثم حامل الرشاش المتوسط والذى ألهبته نيران الرشاش النصف بوصة. احمد همامُ عد. الى أينُ؟ عد لماذا تتركونى بمفردى؟ توالت الوجوه الهلامية الشفافة يحيط بها هذا الشكل الدائرى وعلى جانبى تلك الاسطوانة شىء مثل الجناحين اكبر من الأذن قليلا مرفرفة وكلها وجوه بيضاء ناصعة فرحة وانا مازلت واقفا فى مكانى وكل دقيقة او اقل ترتفع مثل تلك الوجوه اعرفها جميعا فهم كانوا معى فى مركز الملاحظة وانا مندهش لهؤلاء الجنود الذين تركونى وانا على هذا الحال وتلف الدائرة حولى بتلك الأشباه التى لها أجنحة كثيرة شفافة وبداخل تلك الدائرة تلك الوجوه حتى اكتمل عددهم العشرة وهنا وقفت صامتا ثم صارخا والله حرام تتركونى بمفردى بين هؤلاء الشياطين؟ لا أريد ان أبقى خذونى معكم. وإذا بشخص خلفى يمسك كتفى برفق قائلاً: لا تحزن ان الله معك ولم يحن موعدك. اهدىء يا بنى ، انا وهؤلاء معك ، انظر الى الخلف لأشاهد كوكبة من البشر وماهم ببشر ولكن هيئتهم تدل على ذلك أناس او أشباه الناس كثيرة العدد بملابس بيضاء واغطية بيضاء على رؤوسهم. آه انتم معى ؟ يبتسم لى هذا الشكل ويجيبنى آه نحن معك

لا بل نحن معكم جميعا. ان الله لا ينسى عباده المؤمنين. اشعر بفرحة فلقد عوضنى الله عن هؤلاء الشهداء ثم مازالت الدائرة تلف حولنا وينضم إليها آخرين. آه انه مصطفى أبو عيده أحسن رامى "ر ب ج" فى اللواء والذى دمر بمفردة دبابتين وعربة مدرعة بمن فيها. هذا هو الرقيب محمد فتحى رقيب الفصيلة الثانية وهذا مصطفى ابوجبل رقيب الفصيلة الثالثة. وآخر من هو؟ انه الرقيب عبد الحى رقيب الفصيلة الأولى. لقد استشهد الثلاث رقباء فصائل عندى بالسرية. وأشاهد آخر من هو انه النقيب حسن ابراهيم قائد ثان السرية. الى أين يا حسن تتركنى هنا. عد يا حسن سوف يسأل عنك قائد الكتيبة. يعود إلى هذا الشخص الذى حدثنى قبل ذلك مرة ثانية قائلاً: لا تقل لهم عودوا. هم لن يعودوا. لقد سبقوك ونالوا ما يتمناه اى إنسان منكم يريد هذا الشرف الرفيع. أنهم شهداء ولكن كما تراهم أحياء عند ربهم يرزقون!! نظرت إليه قائلا: شهداء!! دهشت وهنا اسمع نوعا من الزغاريد مثل الزغاريد الشامية او السورية والتي أضفت على شعورى بالبهجة والراحة ثم داروا ثلاث دورات سريعة ومعهم العديد من الذين عبروا معى وطاروا الى اعلي وانا أقف انظر إليهم أتابع طيرانهم الى ان غابوا عنى.

سقطت على الأرض وانا اسقط هكذا إذ أشاهد هؤلاء القوم وهم يقاتلون. لا استطيع ان اجزم ولكن هذا ما شاهدته أثناء سقطتى أرضا واسمع أنات اليهود وصراخهم وما هو معروف عنهم لحظة الخطر او الموت ورحت فى ظلام دامس.

فجأة شعرت بان شيئا شديداً يؤلمنى أفقت فجأة فإذ بنيران شديدة اشد قسوة من نيران لحام الأكسجين واشد قوة واكبر مساحة واندفاعا وانا فى تلك اللحظة الفجائية وضعت يدى على وجهى وشعرت بشيء قاس شديد لا استطيع وصفه ولكننى اشتممت رائحة شواء لحم. لحم يكاد ان يحترق على النيران وانقلبت رأسا على عقب من فوق التبة والنيران مازالت مشتعلة فى ظهرى ويداى مثل قطعة من البلاستيك وتدحرجت حتى استقر جسدى بعد ان اندفعت من فوق تلك التبة حوالى

خمسين مترا وانا الآن نائم على جانبى الأيسر أشاهد ما حولى واسمع أصوات الانفجارات ورائحة شواء اللحم التى تزكم الأنوف كما كان المكان معبئا برائحة الدماء التىُ يشمها اى إنسان أثناء تواجده فى السلخانة أو عند الجزار بعد ان احضروا له عدة ذبائح من المجزر. رائحة تملىء المكان. غابت الشمس فى السماء عن هذا اليوم الدامى الذىُ فقد فيه الآلاف من أبناء وشباب مصر حياتهم أو أعضاء من أجسادهم وانا على هذا الحال ولا اعلم أين انا وماذا حدث وبدافع من الحياة جلست أتحسس جسدى واطمئن على اعضائى. ايوه هذه قدم وتلك ذراعى وهاهى أنفى واذنى ولكن الرؤيا بسيطة ، حدث انفجار. آه لقد رأيت. انه الليل والظلام ولا أرى إلا وميض وانفجارات ومازال الضوء الذى يتبع غروب الشمس واستطيع ان أميز منه موقعى وأشاهد ما يجرى حولى ، أشاهد دبابة إسرائيلية قادمة فى اتجاهى وانا عاجز هكذا وليس حولى احد واقتربت مني وكأنها ترغب فى دهسى ولهذا لم تفتح نيرانها علىّ وكشافها القوى مسلط الضوء فى وجهى. انها إرادة الله حيث قصفها صاروخ مضاد للدبابات قريبا منى. انفجرت الدبابة وطار برجها فى الهواء والنيران مشتعلة بها وتوقفت عن السير ثم توالت الانفجارات بداخلها وقذف الانفجار بأحدهم ليسقط امامى مباشرة مشتعلة به النيران صارخا طالبا مني النجدة. أحاول مساعدته وانا جالس هكذا بان اقذف عليه ببعض الرمال ولكن النيران كانت اشد قسوة وأسرع لهيبا وتأثيرا وانا أشاهده يصرخ صرخة قوية لافظا أنفاسه ومازال يحترق امامى بعد ان فقد حياته.

انظر إليه على ضوء اللهب المتصاعد منه ومن الدبابة. انه ميجور. اى رائد بالجيش الاسرائيلى. لقد تقابل القائدان المصرى والاسرائيلى وجها لوجه فى نهاية المعركة ، انا مصاب برأسي والحروق بينما هو فارق الحياة. انظر إليه صارخاً: ليه عملتم فينا كده؟ ليه دبحتونا فى سينا ودهستم رجلتنا ومش رحمتوهم وهما راجعين بعد هزيمتنا؟ ليه؟ حرام والله حرام. ناس قاعده فى المكاتب وتبعتكم وتبعتنا

نموت بعضنا. حرام .. حرام .. أسرع لى شخص لم أتبين من هو يحدثني متسائلاً: مين اللى بيصرخ؟ ثم اتجه الى وجهى صارخا .. آه .. مين سيادة الرائد .. مش قادر أشوفك .. ياه .. إيه ده .. خدُ حط الرباط الميدانى على الجرح .. ياه أنت يا فندم الدم نازل من راسك زى الحنفية. تسائلت: مين؟ الواد مسُعد؟ اجابنى ايوه يا فندم إيه اللى حصل ده؟ سألته فين مركز الملاحظة؟ ودينى مركز الملاحظة. صرخ فى قائلا: مركز ملاحظة إيه؟ روح أتهبب عليك وعلى مركزا لملاحظة أنت حتموت قبل ما توصل مركز الملاحظة. تراجع بعد اندفاعه فى الحديث معى قائلا: أفندم. سيبنى انا عايز أروح أشوف الناس اللى بتتألم. أمد يدى خلف ظهرى فامسك بحذاء فاجذبه فيقول لى بتعمل إيه؟ ولكننى لم اجبه فكنت فى حالة ضيق منه وقد أنذرته مكتب. صرخ مكتب .. طيب أجيلك فين ان نشاء الله؟ صمت فقد هزلت فإن رقيب طبى السرية يتهكم على شخصى. اجذب الحذاء لأشاهد ساقا ونصف فخذ تركته خائفا وجلا سألته من هذا فأخبرني بأنه للضابط المهندس المسئول عن القذائف الصاروخية المضادة للدبابات. انه للشهيد محمود. آه محمود هذا الشاب المبتسم للحياة والذى كان آخر من شاهدته من الضباط قبل هجوم الإسرائيليين. اطلب من مُسعد المعاونة للتوجه لمركز ملاحظتى ولكنه يتركنى فازحف قليلا وأسير خطوات وانا ممسك بيدى اليسرى المحترقة برباط الميدان واضعه على رأسي مكان اندفاع الدماء وبيدى اليمنى أحاول الوقوف واليدين التصقت بهما الرمال من اثر الحريق بهما فقد تهتك الجلد والطبقة اللحمية أسفله. وصلت الى مركز الملاحظة وانا أتبين أشخاصا لا يتحركون. اقلب فيهم وانا لا استطيع فحصهم مما ألم بيدى وظهرى. اكتشف الواحد تلو الاخر. أنهم جنودى الذين رافقونى فى العبور وكانوا يتحدثون فى أجهزة الاتصالات سواء الخطية أو اللاسلكية بعضهم تعرفت عليه وآخرين لم أتعرف عليهم ولكنها هواية الإسرائيليين لدهس الأحياء والأموات بدباباتهم لم تنتهى. لقد

تهتك بعضهم حسب حظه ونصيبه من جنزير الدبابة فمن داست الدبابة فوق ظهره او مؤخرته استطعت ان أتبين وجهه اما من داست على رأسه فلم أتعرف عليه لانها كانت أجزاء محطمة مابين الشعر والجلد والعظم.

أشاهد ماسورة سوداء. آه انها ماسورة قاذف الطائرات انها مازالت ساخنة وكيف تحترق هكذا؟ انها لا تحترق إلا إذا احترق الصاروخ بداخلها وهذا ما اخبرنى به مسعد بعد أن عاد وشاهدنى على أضواء الانفجارات. ايوه يا فندم الصاروخ انفجر فى مركز الملاحظة بعد ما قتل اليهود كل الموجودين فيه. تعرف يا أفندم لو مش الصاروخ ده انفجر كان زمانك والعياز بالله زى دوول ويشير الى زملائه. اطلب منه الكف عن حديثه السيء واطلب منه العون لاخلائى للخلف ، كان رقيب طبي السرية مضطربا حيث قال: طيب خليها لبكره الصبح. أصل الدبابات ماليه المنطقة بعد ما أتقفل المحور والطريق اللى بيمر من ورا النقط من تدميرنا لدباباتهم بعتوا جابوا دبابات تانيه ووحدات تانيه علشان المنطقة خطره. سألته مين عرفك بكده؟ اخبرنى ماهو يا فندم الجهاز اللاسلكى شغال واللى كانوا شايلينه استشهدوا. الحديد فضل يكلم وكنت بأسمعهم وانا مستخبى تحت النقالة وسامع اليهود وشفت اللى عملوه فى مركز الملاحظة ، والله إجرام.

لقد أصبحت عديم الفائدة. لا استطيع ان أقود اى شيء فلا مخ سليم ولا صحة تقاوم كما ان أجهزة الاتصال الصغرى دمرت تحت جنازير الدبابات ولا استطيع السير فى هذا الظلام والذى لا يبدده سوى انفجارات المدفعية وصواريخ الدفاع الجوى ، المهم الآن ان أخلى نفسى ولكن إلي أين وكيف أسير؟ اهتديت على أضواء انفجارات المدفعية حيث كانت الجهة الغربية من القناة مشتعلة وميضا من إطلاق قذائفها على العدو ومازالت بقايا سريتى تقاوم مقاومة اليائس فالذخيرة المضادة للدبابات على وشك الانتهاء كذلك باقى أسلحة الرشاشات وقاربنا على الانتهاء والتصفية ولا احد يعلم بحالنا فقد فقدوا الأمل بنا.

سرت المسافة التى تصل لأكثر من ستة كيلومترات وكنت أتعرقل فى شهداء و مصابين والذى يستطيع السير معى كان يرافقنى واقتربت الساعة من التاسعة تقريبا حيث استطاع احد المصابين الذي فقد ذراعه الأيمن ان ينظر الى ساعته وهو يعلمنا بالوقت ، لقد كان الجندى رجب الذى يعمل على مدفع الماكينة فقد بترت ذراعه اليمنى من انفجار دانة دبابة قريبا منه ، يطلب معاونتى فقد أنهكته الإصابة ، احتضنه جانبا وأسير به ويسقط منى متألما صارخا فانحنى أعاونه على النهوض وتندفع الدماء من رأسى.

سرنا حتى وصلنا الى الساتر الترابى على القناة ومازالت تصفية النقطة بين جنود النقيب عصام وبقايا الإسرائيليين على أشدها واسمع صرخات الإسرائيليين المميتة مثل رجال (يصوتون) على متوفى انها صرخات لعينة مثلهم حزنا وكمداً على قتلاهم ، جلسنا نلتقط أنفاسنا بعد هذا المجهود.

***

يحدثنى الجندي رجب : بعد إصابتي بشظية قذيفة دبابة اتجهت الى قائد فصيلتي الملازم أول / سيد صارخا ممسكا بيدى اليسرى ذراعى الأيمن المبتور طالبا منه إعادة ذراعى لى والضابط ينظر إلىّ بدهشة سواء مما حاق بى أو من سؤالى له ، تزداد قصفات المدفعية فانبطح قريبا منه ويرفقته الرقيب محمد فتحى منصور رقيب الفصيلة أشاهدهما فانا قريب منهما وإذ بقذيفة مدفعية تنفجر قريبا منا واثنائها كان الرقيب محمد فتحى يحدث الجنود موجها لتنفيذ تعليمات قائد الفصيلة.

توقف قليلاً ثم يكمل. شاهدت رأس الرقيب تنفصل من جسده وتندفع دماءه من رقبته وتدحرج الرأس قريبا منى وفمه مازال يتحدث ببعض كلمات حتى سكت وصمت. أشاهد قائد الفصيلة يقفز من حفرته حاملاً رأس محمد فتحى ليضعها على جسده طالبا منه ان ينتبه ويجيبه ولكن الرأس سقطت ثانية وقد تلونت يد قائد

الفصيلة بالدماء. وقف قائد الفصيلة تاركاً الحفرة سائراً يهلوث قائلاً: "هات الازازة ياوله وتعالي لاعبني" اصرخ به ان ينبطح أرضا للحماية من نيران المدفعية ولكن أصابته لوثة عقلية. أسرع خلفه جنديان من الفصيلة وأرغموه على الانبطاح وهو مازال يهذى " هات الازازه ياوله وتعالي لاعبني "، أنهي حديثه ذو الشجون.

***

أقف الآن على الضفة الشرقية لقناة السويس والنقطة (٥١) التى سقطت بيد قواتنا تلهبها مدفعية العدو بالنيران الشديدة وتتوالى فوقها الانفجارات. احد المصابين معى يرفع صوته صارخا طالبا من رقيب أول السرية إرسال القارب ويخبره باصابتى. احضر الرجل قاربا ليعيدنى الى الجهة الأخرى من القناة اى بداخل جزيرة البلاح.

القارب الذى احضره نصف غرفه الهوائية تالفة واخبرنى بان هذا هو أحسن قارب حيث حضرت الدبابات المعادية وأطلقت رشاشتها على القوارب ، جلسنا فى القارب الذى أصبح مثل حصيرة وبعض المياه بداخله ، وصلنا بعد جهد إلي الجزيرة من شدة أمواج الليل وها نحن وقوفاً على ضفة القناة الغربية وقد غم على رقيب أول السرية ان يحدد مكان الثغرة من الجهة الشرقية والتى عبر منها فهى مميزة من الجهة الأخرى أثناء الهجوم ولكن من تلك الجهة لم يميزها قبل حضوره إلينا.

اندفع الجندى ابوسريع " المصاب" وها انا ذا أتذكر اسمه بعد حوالى ثلاثة وثلاثون عاما. إندفع قائلاً: الثغرة هنا ، تسمح يا فندم ، دون انتظار إجابة حملنى على يديه كما يحمل الأب ابنه الطفل ، اى والله وانا اعتذر له قائلاً: انا استطيع السير ولكنه رفض قائلاً: انا أحميك حتى لو وقعنا لا قدر الله فى حقل الألغام أفديك ولكن هذا الإنسان طيب القلب لا يعلم انه لو وقع فى حقل الألغام ستكون

نهايتنا نحن الاثنين معا وتذكرت لحظتها حقل الألغام الذى سقطت فيه فى بداية عام ٧٠ ولكن الله انقذنى منه.

انظر الى السماء وابوسريع مازال يحملنى على يديه وهاهو يدخل بي إلى حقل الألغام. هاهو قد قطع جزءا منه وانا على هذا الحال واعتقد انه فى أي لحظة سينفجر لغم وأشاهد نفسى طائرا فى الهواء وأعود للأرض جثة هامدة ، قالها ابوسريع: الحمد لله ربنا أنقذنا من حقل الألغام وأعادني الى الأرض بهدوء ، تعاون بعض جنود المؤخرة على غسل وجهى ومضمضة فمى وعرضوا على الراحة لكنى طلبت منهم سرعة الإخلاء خوفا من تدهور حالتى لكثرة النزيف خاصة شعورى بالدوخة وعدم المقدرة على الحركة ، لقد اصابنى ضعف وهزال كما كانت يداى تؤلمانى كثيرا من شدة الحروق وانغراس الرمال بها ، قائد سرية دبابات حملنى فى لورى تابع لوحدته وكانت تلك الوحدة قادمة من القاهرة.

ملاحظة:

<u>تبين أن الإصابات التي حدثت لرجال المهندسين العسكريين لتأمين الثغرات قبل الهجـــوم بيومين إصـابات مصطنعة وتدخل في إطار خطة الخـداع</u>

إخلاء للخلف

تركنى الرائد خليل قائد سرية الدبابات معتذرا بالعودة الى دباباته لأنه علم ان كوبرى العبور قد قارب من اتمامه وسيعبر الى الشرق مع وحدته مع أمنياته لى بالصحة وقدم تهنئته لي بما قمت به مع رجال وحدتى حيث كان يتابع المعركة هو ووحدته وهم مشفقين علينا مما ألم بنا ولكن جسارة الرجال استطاعت ان تقف أمام المدرعات المعادية وحدث هذا الالتحام بينكما ، أخى أسامة أعيد تهنئتى لكم جميعا. استودعك الله .. قبلنى وتركنى لأحد المساعدين "صول" موصيه علىّ بكل خير والعمل على سرعة نقلى الى السرية الطبية.

السيارة التى أقف بجوارها لورى "زيل" ضخم الحجم ويحمل عشاء جنود الفرقة الثالثة مشاه القادمة من القاهرة منذ ساعات والتى احتلت مكاننا ولم تشترك معنا فى العبور ، كنت أشاهد الجنود وهم يتسلمون طعامهم ولا اصدق ان فى الشرق وعلى بعد سبعة كيلومترات زملاء لهم مابين الشهيد والجريح والذى مازال يقاوم وهم على هذا الحالة من اللهفة على الطعام وسلوكهم الغير منضبط ، حضرة الصول يستنهض همم رجاله بتفريغ اللورى حتى يتسنى نقل سيادة الرائد الى عربة الإسعاف القريبة ، بعد مجهود نجح فى تفريغ حمولة اللورى من آذان التعيين الضخمة ومازال يلقي بتعليماته على مندوبى الوحدات بان الفرحة توزع على اربعه ، (محذراً) فاهمين يا بجم؟ ابتسم لتلك الشفرة التى مازلنا نستخدمها فى حياتنا ومعاملاتنا حتى فى اشد الحالات خطورة وخاصة تلك الحرب وما اجلها لحظات فيها تفارق الحياة الأجساد بسرعة وألم وبكثرة عدد الذين يلاقون ربهم.

جائنى مستبشرا ومعتذرا ، أتفضل يافندم ، صرخ فى السائق بان يترك نصيبه فى الفرخة وبسرعة يقوم بنقلي للوحدة الطبية مما دفع بالجندى إلي وضع ما تبقي من لحوم الفرخة فى فمه دفعة واحدة بينما المساعد يطارده قائلا بسرعة يا ابن .. .سيادة الرائد بيفرفر وحيموت"اقول الملافظ سعد" ولم يكن باديا على هذا ،

خيرا ساعدنى المساعد والسائق بوضعى فى كابينة السيارة التي انطلقت الى جهة التى يعلمها السائق وانا عنها خالى المعلومات والذهن ، اطلب من السائق تمهل فى السرعة حيث المطبات تقوم بفعلها معى دافعة ببعض الدماء من رأسى باصة لشعورى بصداع خطير وشعورى بان ذراعى الأيمن لا يتحرك إلا قليلا شبه مخدر ولابد من نطره كل فترة حتى اشعر به ، توقف اللورى بجوار سيارة سعاف وطلب منى السائق ان اتجه إليها ، وجدت طبيبا حديث العهد بالخدمة حينما شاهدنى سألنى: فين اورنيك العيادة؟ !!!!!!

تيقنت اننى يقظ واننى بكامل قواى العقلية وما يقوله الطبيب لا يقوله إلا مصريين ، مازال ناظرا إلى منتظراً منى اورنيك العيادة. أجيبه: والله يا دكتور قع منى فى الشرق ساعة العبور ، لكن أوعدك باننى سوف احضره لك باكر ، دخل احد جنود الشرطة العسكرية موضحا للطبيب ان سيادة الرائد مصاب ونحن ى حالة حرب ، نظر إلي الطبيب بدهشة ولقد علمت منه انه لا يعلم ماهى ظيفته فلقد احضروه من السرية الطبية بسيارة الإسعاف لهذا المكان لاستقبال لمرضى ، صرخت فيه قائلاً: اخلينى الى اى مستشفى بسرعة. اضطرب وتحرك سيارة الإسعاف يرافقنا مندوب الشرطة العسكرية ليسهل تحركنا ، أخيرا وصلنا الى لكتيبة الطبية للفرقة (١٨) وكان بعض الجرحى قد سبقوني الى هناك ومنهم احد ضباطى "الملازم أول سيد الذي استقبلني سعيدا وأخبرني بأنه عثر علي الإزازة !! ظرت إليه بحزن وأشار إلي أحد الممرضين بأن الضابط أصيب بصدمة عصبية ونحمد ربنا أنه مش مات منها ، مازال يدندن "هات الازازة ياوله وتعالى لاعبنى" أنتظر حضور أحد الأطباء لفحصي وأنا أشاهد الضباط والجنود وأجسادهم ملقاة أرضا بالمستشفي القابعة أسفل الرمال بعدة أمتار للحماية من القصف وخاصة لجوي ، كانت المناظر والمشاهدات مؤلمة من بتر وجروح عميقة ونزف مستمر وحالات من الإغماء وحالات إنهيار عصبي مثل الضابط السيد الذي لم يكف عن

الغناء بأغنيته الشهيرة "هات الإزازة" مما آثار بعض العاملين بالمستشفي ودفع بأحدهم لحقنه بمخدر مهديء حتي يمكنهم رعاية باقي الجرحي.

فحصنى احد الأطباء وطلب اخلائى الى مستشفى الصالحية العسكرى ، كنت اشعر باننى فى سباق مع الزمن ، فلقد شعرت يعد مقابلة الطبيب الصغير باننى لن احصل على أي عناية طبية فى جبهة القتال ولابد من اخلائى للخلف حتى تكون الخبرات والإمكانيات متوافرة وأحسن وأوفر.

سيارة إسعاف عسكرية تتحرك بى من الكتيبة الطبية إلى منطقة مثلث الفرقة وهى منطقة غرب (مدينة القنطرة غرب) على الطريق الواصل بينها وبين الصالحية ، كان الطريق مزدحما باللوارى الضخمة التى تحمل معدات المهندسين العسكريين وارتال الدبابات والمدفعية وحاملات الصواريخ المضادة للطائرات كما كان الوهج فى السماء مازال مشتعلا من الصواريخ المضادة للطائرات وسقوط بعضها كل هذا اثر على سرعة وصولى الى المستشفى خاصة ان سيارة الإسعاف العسكرية تسير مستخدمة الضوء الميدانى "ضوء خافت للغاية خوفا من الطائرات المعادية" الذى يتطلب من السائق ان يكون حذرا فى قيادته وقليل السرعة ، وصلت إلى مستشفى الصالحية العسكرى واستقبلنى قائد المستشفى المقدم طبيب فوزى سويدان وفى حجرة الكشف عاين جروحى وحروقى ثم طمأننى على نفسى ورافقنى احد الممرضين الى الحجرة التى خصصت لى.

توجهت الي الحجرة متعبا مرهقا راغبا بان ألقى بجسدى المتهالك على السرير وكلى الام وأوجاع ، مازال الصداع ملما برأسي وحروق يدى وظهرى تؤلمنى وشعرت بان عظام احد الأجناب بها بعض الألم ، بادرت بفرد جسدى على السرير بعد ان تخلصت من حذائى فاذا بى اسمع شخصا يخاطبنى.

سيادة/ الرائد أسامة .. تلفت جهة الصوت وكان الضوء خافتا خوفا من الغارات الجوية نظرا لوجود قاعدة جوية بتلك المنطقة ولواء صواريخ مضاد للطائرات

بتفسرت. ايوه انا من تكون؟ فاجابنى صاحب الصوت ومازال وجهه أسفل بطانية ، انا سعيد ، أكرر قوله: من يكون سعيد؟ يعيد: النقيب مهندس سعيد قائد صيلة المهندسين والذى رافقتك فى العبور وأقمنا حقل ألغام مضاد للدبابات بشرق ساتر الترابى. رحبت به وانا أكمل حديثى. اسأله: أغلق الاضائة حتى لا ضايقك؟ يجيبنى لا لا بل انى أخفى وجهى حتى لا ترانى وتنزعج من شكلى!! مازحه. كيف تقول هذا أيها النقيب؟ نهض من رقدته وأزاح الغطاء من على وجهه قد صدرت منى صرخة مكبوتة ووضعت يدى على عينى. متسائلاً: ياه .. ماذا حدث لك يا سعيد؟ سمعت ضحكته الحزينة!!

لا أتصور ان هذا الإنسان يضحك ولكنى سوف أفسر سبب دهشتى. وجه محترق بالكامل لا يوجد انف ولا عينان ولا حاجب. الأنف فتحتين بمسطح الوجه العينين عبارة عن فتحتين هلاميتين وفم به شفتان لا اعرف كيف اصفهما. اما الرأس والشعر فلا وجود لشعر إطلاقا وفروة الرأس محترقة. أعود بذاكرتى لعدة أيام مضت يوم جائنى هذا الشاب مفرود القوام وفخور بجسده وعضلاته حيث كان طل كلية الهندسة فى العاب القوى ، استفسر منه عما حدث؟ يجيبنى:

بعد ان انتهينا من إنشاء حقل ألغام الدبابات والتى أمرتنا بان نعده جاءت دبابتين لعدو وأنت منهمك فى معركتك مع باقى القوة واندفعت احدى الدبابات الى لمصطبة فانفجر بها اللغم فدمرها عن آخرها بمن فيها ، امتنعت الدبابة الثانية من دخول مربض نيرانها خشية ان تلاقي مصير زميلتها.

وقفت الدبابة على هذا الوضع وخشيت مع جنودى ان تتعرف علينا وتصيبنا فأمرت احدهم بان يتجه الى الدبابة ويقذفها بقنبلة"ر ب ج" ولكن الجندى بعد ان استعد لها قابلته دفع نيران من الخلف فارتمى جريحا وهنا أمسكت بالقنبلة واتجهت من خلف الدبابة فى حماية الظلام وقذفتها بتلك القنبلة فانفجرت ونظرا لقربى منها طالنى هذا الحريق الذى صهر حديد الدبابة.

أمسكت بيده اقبلها حيث لا استطيع تقبيل وجهه لما فيه من اثار الحروق. الله يشفيك يا سعيد وربنا ياخد بيدك. ياه على بطولتك!! يجيبنى ضاحكا وانا لا أتميز كلماته بسهولة كما انى ألاحظ ان انفه تفتح وتقفل مثل فتحتين لسمكة وهى تفتح خياشيمها. يجيبنى بصوته المرتج: ياه إحنا عملنا إيه؟ أمال رجالتك اللى كنا بنشوفهم بين عجلات وجنازير الدبابات والعربات المدرعة. أيقنت ان هذا الشاب أشجع منى مرات ومرات. بل أنهم شباب مصر الشجاع الوفى لبلده الذى يكون صلبا عند اى محك وفى مثل تلك الظروف الصعبة.

صباح اليوم التالى قبل الفجر ايقظنى احد جنود المستشفى ليخبرنى بان الأتوبيس المستشفى سوف يتحرك بعد عشرة دقائق حاملا لى سندوتش وكوب من الشاى. شاهدت سرير النقيب سعيد فارغا فإستفسرت منه . صمت قليلا ثم قال البقية فى حياتك. تركت ما فى يدى واتجهت الى سريره اقبل تلك الفرشة التى كان نائما عليها وتذكرت ان روحه خرجت من تلك الحجرة وانا معه وتذكرت أيضا اننى آخر إنسان شاهده وحادثه. ياه على المفارقات. يا ربى سأظل هكذا أقابل أحباء وشهداء وجرحى.

أمام باب المستشفى وقف قائد المستشفى وتذكرت وضعي بالأمس وانا استعد للعبور. كان الرجل صارما حازما لا ينسى صغيرة ولا كبيرة وشاهدت أتوبيسا ضخما عليه علامة الهلال التى تدل على انه مستشفى ولا يجب قصفه حسب المواثيق الدولية ولكن ثبت ان تلك المواثيق هى التى يلتزم بها الضعفاء اما القوى فلا يحتاج مواثيق .. مواثيقه فى سلاحه وهى التى تلبى له كل رغباته وتحل له كل منازعاته.

اعتذر قائد المستشفى لى بأنه يمكن تأجيل رحلتى الى مستشفى كوبرى القبة بالقاهرة نظرا لازدحام الأتوبيس ولكنى أخبرته برغبتى بان ارحل اليوم الى المستشفى إلا إذا كان لديه علاج لي ، اعتذر لعدم توافر الإمكانيات بخصوص

حالتى كما ان المستشفى معرض للقصف من قبل الطائرات الإسرائيلية. ثم قال لى إذا أمكنك التحامل على نفسك والجلوس بالمقعد الامامى الذى يجاور مقعد السائق من الجهة الأخرى في هذه الحالة يمكنك مرافقتهم. وافقته وحينما صعدت الى الأتوبيس وجدته عبارة عن سراير وقد ملئت بالجرحى وما ادهشنى هو ان جميع الجرحى هم جنودى وضباطى. لقد كنا أول المصابين وأول المرحلين لمستشفى القاعدة بالقاهرة.

غادرنا الصالحية متخذين الطريق إلى فاقوس وكنت أشاهد الفلاحين متجهين الى حقولهم بدوابهم لبدأ يوم جديد من حياة العمل والكفاح كما أشاهد منازلهم ودخان الفرن او الكانون يتصاعد لإعداد طعام قاطنيه ومنظر الخضرة على جانبى الطريق تسعد اى إنسان وانا أتذكر ملحمة الأمس وأفكر فيما عساه فعل جنودى والذى تركتهم امس بشرق القناة وقد لاقى قائد ثان السرية ربه ونال الشهادة التى يستحقها وانا القائد متجها الى المستشفى العام بكوبرى القبة ومعى بعض الضباط والجنود وكل واحد منهم ينام على سرير ومشاهد الاصابات من بتر وخلافة تزعج النفس لكنها الحرب فلا حرب بدون شهداء وخسائر وإصابات وجروح.

مازال الأتوبيس سائرا بنا وتنتابنى من حين لأخر حالة إغماء لحظية مما دعي لمشرف الطبى المرافق لنا بأن يعمل علي إيقاف الأتوبيس عند اى نقطة شرطة عسكرية ويطلب سيارة إسعاف عسكرية تقلنى لاى مستشفى او يتجه الأتوبيس لمستشفى فاقوس العام او مستشفى جامعة الزقازيق وانا رافض لعروضه ويخبرنى بان كل مستشفيات وزارة الصحة والجامعات فرغت من مرضاها الغير خطر على صحتهم مغادرتها من اجل القوات المسلحة وانا اخبره بانى قادر بإذن الله وسوف واصل معهم الاتجاه الى القاهرة مرافقا جنودى وضباطى مثلما رافقونى الى المعركة.

وصل بنا الأتوبيس إلي مدينة ابوكبير وهى مركز من مراكز محافظة الشرقية كبيرة المساحة ، طلب مني احد المصابين رغبته بالتبول وقد جاوزت الساعة السابعة بقليل وهذا واضح من انكباب العدد القليل من الناس المتواجدين بالشارع لسماع آخر أخبار المعارك الذى كان ينتظرها الشعب المصرى والأمة العربية بفارغ الصبر. اسأل السائق هل يمكننا التوقف لأنه من غير المعقول ان يظل هذا المصاب فى احتياج الى دورة مياه أكثر من ساعة ونصف حتى نصل القاهرة. انعطف السائق للجانب الأيمن جهة محطة السكك الحديد وعاونه المشرف على الهبوط ليقضى حاجته بجوار حائط المحطة قبل حضور البشر.

شاهد احد الباعة الجائلين الأتوبيس وكان يحمل لوحة خشبية صغيرة ويعلقها فى كتفه يبيع من خلالها الجرائد والسجائر وبعض من الحلوى والبسكوت فاعتقد انه أتوبيس عادى فلونه اصفر مثل أتوبيسات محافظة الشرقية فأسرع للصعود إليه لعرض بضاعته وشاهده السائق فنهره فمنعته من هذا راغبا فى أن يعرض الرجل حاجاته على الجرحى الذين كانوا فى امس الحاجة لمثل تلك الأشياء ، سار الرجل ووزع كل ما معه من بضاعة على الجرحى حتى الجرائد والمجلات بين نداءات الجرحى له ليحضر ليحصل على أثمانها والرجل رافضا الحصول علي أي مليم وهو يكبر .. الله اكبر .. ياه وهيه ديك الساعة لما أشوف الأبطال. يارب يشفيكم ويرجعكم مجبورين الخاطر.

لقد فرغ الرجل كل بضاعته ولم يحصل على اى مليم فعرضت عليه ورقة مالية من فئة العشرة جنيهات فاعتذر عن قبولها ونظر الى قائلاً: آنت مستئل بيه يابيه. دا انا وطنى وبأحب بلدى ورجالة بلدى ثم تركنى ومر على الجرحى مرة ثانية يقبل أيديهم او أرجلهم. كل ما يستطيع الوصول إليه ليقبله دامعا بعيون الفرح واستأذن بأن يذهب ليحضر أشياء أخرى لهؤلاء الأبطال بين داعائهم له بالستر وان يغنيه الله ويسعده مثل ما أسعدهم بتلك النفحة القليلة الرائعة فى معناها.

غادر الأتوبيس فشاهد الجندى المصاب الذي فقد احدى ساقيه بعد أن قضي اجته يقفز متحنجلا على قدم واحدة فحمله على يديه مثل ما فعل معى امس طل الهمام الجندى ابوسريع ، صعد به الأتوبيس بين تصفيق الجرحى له وبهدوء ح الجريح على سريره مقبلا وجهه ويديه داعيا لنا بالنصر المؤزر بإذن الله.

نشاهده يلوح لنا والأتوبيس يغادر المكان وقد شملنا شعور وطنى وعاطفى ؤثر من هذا البائع الفقير الذى يجرى على قوت عائلته وبدلا من ان يعود إلي سرته آخر النهار بمكسبه هاهو قد فقد رأس ماله ولكن الله لا يضيع اجر من حسن عملا ، شعرت بداخلى باننى أقوى بدنيا وصحيا وشعرت ان حالة الدوخة ى صاحبتنى عدة مرات منذ مغادرة المستشفى قد توقفت من تصرف هذا البائع قير. أنهم المصرين الشجعان الكرماء.

نحن الآن على مدخل مدينة ههيا وهى مركز أيضا من مراكز الشرقية وقد رض السائق على الجنود قائلا: اى بطل يرغب فى اى شىء ما؟ ولكنهم شكروه كملنا سيرنا ، دخلنا مدينة الزقازيق عاصمة المحافظة ومدينتى والتى بها عائلتى. لفت يمينا ويسارا لعلى اعثر على من اعرفه ليبلغ عائلتى باننى بخير ومتوجه قاهرة حتى أمحو قصور تأخرى عليهم مثل ما حدث فى عام ٦٧ ولكنى لم فق.

مازال الأتوبيس يقطع بنا الطريق وكل سيارة فى الطريق تشاهدنا او مدنيين شاهدون الأتوبيس ويشاهدون علامة الهلال التى ترمز الى المستشفى يلوحون لنا البعض يقفز فرحا وسعادة بأنه شاهد أتوبيس الجرحى الأبطال. الحمد لله اقتربت ساعة من العاشرة صباحا والأتوبيس يدخل بنا مستشفى كوبرى القبة وأسرع جميع عاملين به الى لقاء الجرحى القادمين من جبهة القتال. كنا أول جرحى نصل الى مستشفى الذى كان في حالة طوارىء مثله مثل جميع الأجهزة بالدولة وخاصة قوات المسلحة ومستشفياتها.

جميع من بالمستشفى يحملون الجرحى على نقالات او كراسى متحركة وكل يوجه الى قسم من الأقسام وانا الآن بين ايدى بعض الممرضات الشابات وهن يخلعن عنى ملابسى المحترقة والمليئة بالدماء الجافة ويحصلون على بيانتى الشخصية وهتفت إحداهن. عيد ميلاد الرائد أسامه النهاردة يا بنات. هللن لتلك المناسبة وانا سعيد فرح ومسرور لهذا الاستقبال ولذاكرة الفتاة التى حصلت على تاريخ ميلادى وأخبرت الأخريات بذلك.

حضر عميد طبيب بعد ان بُلغ بأول إرسالية قادمة من جبهة القتال وان من بينهم رائد فحضر الرجل الى مهنئا بسلامة الوصول مستفسراً منى: هيه وصلتم ممر متلا؟ لقد كانت معلوماته عن الحرب وأماكن القوات ضعيفة ولم يتذكر سوى ممر متلا وأخبرته مثل أبناء البلد. إحنا فين وممر متلا فين. الممر على مسافة أكثر من خمسين كيلو. كل المعارك لسه فى شرق القناة. اهتموا بنا وأخذت لى عدة صور بأشعة اكس وتناولت دواء مهدئاً ثم بعض الحقن لمنع التلوث وبمساعدة الكرسى المتحرك دفعوا بى الى احدى الغرف وهناك تقابلت مع نقيب من سلاح المدرعات وقد بدا عليه السرور وعلق قائلاً: آخيرا سأجد منُ يسلى وحدتى ، لقد أصيب قبل المعارك أثناء نقل القوات ونقل الى هنا يوم الرابع من أكتوبر. انا طريح الفراش فى الحجرة رقم (١٠١) بمستشفى كوبرى القبة العسكرى وهذا المبنى اعُد حديثا.

بعد قليل حضر ضابط من رواد المستشفى حيث كان يعالج منذ عشرة أيام وأجريت له عملية الزائدة الدودية ورحب بى وسألنى عن اى خدمة يقوم بها فهو القادر على الحركة. زودته برقم تليفون خالى الضابط بالمخابرات العامة ومعى تليفون منزله واتصل بزوجته ليخبرها بان الرائد اسامة بالمستشفى وجريح. جائنى ليخبرنى بتمام الاتصال ثم اخبرنا بأخر المعلومات التى يستقيها من الراديو عن سير المعارك وقد أثلج صدرى سقوط مدينة القنطرة شرق فى ايدى قواتنا. أحدث

سي ، أنت فرح الآن يا قائد الفرقة وكنت تتمنى ان ينعم الله على فرقتك بهذا نجاز الذى تغنت به الإذاعات الأجنبية قبل المصرية.

عصراً اقبل خالى متوجسا ودخل الى الحجرة وعندما شاهدنى اقبل مسرعا تضننى ويقبلنى مستفسرا عن احوالى واصابتى وسعيد بان حالتى علي هذا وضع متسائلاً عما أريد ، طلبت منه عدة حلاقة وبعض الغيارات الداخلية لان مستشفى زودتنا بالبيجامة فقط ومازالت ملابسى الداخلية عالق بها اثار المعركة ن روائح الدخان والدماء الجافة التى سقطت من رأسى. غادرنى بعد ان جلس بض الوقت فقد اقبل من عمله مباشرة بعد ان أبلغته زوجته بنص رسالة صديقنا لاعلامى!!

بعد مغادرته بقليل فُتح باب الحجرة وشاهدت شابا يرتدى بدلة كاملة وأنيقة فارع الجسد وتحدث قائلاً: حرم سيادة الرئيس. أقبلت علينا السيدة جيهان سادات. انها كالبدر المنير ولها ابتسامة ساحرة ورقيقة الحس وتجيد فن الحديث المديح صافحتنى ثم صافحت النقيب المتواجد فى الحجرة قائلة: ألف حمدلله على سلامتكم. ربنا يخليكم لمصر وشعب مصر. إيه يطلبه الأبطال من مصر؟ سعفتنى قريحتى بان أوجه لها الشكر طالبا منها إيصال تحيتنا الى قائدنا الأعلى لرئيس السادات. أجابت على الفور: سأبلغه رغم وجوده المستمر بغرفة العمليات وانشاء الله فى أول فرصه سوف يحضر لمصافحة أبنائه من ضباط القوات المسلحة الذين رفعوا رأسنا عاليا. ودعتنا مغادرة بين رهط من الحرس والمرافقين من قيادات المستشفى.

اليوم الثالث للحرب الثامن من أكتوبر حضر شقيقى الأكبر ويعمل طبيب بيطرى فى المؤسسة العامة للدواجن وعلم من خالى باتصال تليفونى مع خالى الاخر فى عمله بالزقازيق بحالتى. فنحن كما سبق الحديث لا نملك خطا تليفونيا فى منزلنا فهو صعب المنال على الجميع. حضر اخى مقبلا وسعيدا بان رآنى

على خير طالبا منى كتابة خطاب لوالدتى عن اى موضوعات عامة تفيدها بانى حى ارزق. كتبت الخطاب وانا أحاور امى دائمة اللهفة على اخبارى واخبرها بان اخى حضر اليوم لزيارتى وأمس حضر خالى وهكذا حتى تعلم اننى أسير فى نفس التاريخ.

حضر كبير الجراحين واستفسرت منه عن حالتى فأمسك بعدد من صور الأشعة التى التقطت لى وقد طمأننى وبانى بخير وان بعض الشظايا موجودة برأسى ستخرج من تلقاء نفسها مثل اى شوكة تخرج من اليد ولا حاجة لعملية جراحية. اسعدنى حديثه. مازالت حالة الصداع الشديدة وألام اليدين والظهر وخدلان بذراعى الأيمن. اليوم التالى التاسع من أكتوبر رافقنى احد العاملين لإعادة بعض صور الأشعة الغير واضحة ، انتظر دورى على احد الدكك الخشبية اشعر بدوران واننى سوف يغمى على ثم صرخت "سأقع" ولم أدرى إلا وانا على بلاط الأرضية والجميع يسرعون جهتى وانا اسمع وارى ولكننى لا استطيع الحركة ، تعاونوا على اعادتى وجلوسى على كرسى متحرك ومعى مرافق وبعد اخذ صور الأشعة عُدت ثانية الى حجرتى مع اعطائى دواء وبعض الحقن وجلوكوز. اليوم العاشر من أكتوبر حضر لى مندوبنا الاعلامى والذى كان يخبرنا كل يوم بنشرات الأخبار عن معارك الشرق الطاحنة بين الجانبين. قال: سيادة الرائد. اليوم سترحل الى مستشفى المعادى لخطورة حالتك ، نزل على الخبر مؤلما ، إذا انا فى حالة خطرة وكنت اشعر بها لكن كلام كبير الجراحين كان شيئا مخالفا.

حضر لى مسئول العنبر ليخبرنى بان السيارة التى ستقلنى الى مستشفى المعادى ستتحرك بعد ربع ساعة وطلب منى اعادة العهدة إليه. سألته عن العهدة فأشار الى البيجامة التى ارتديها فأخبرته وانا فى دهشة!! يعنى حاروح مستشفى المعادى بملابسى الداخلية والتى احضرها لى خالى امس مع عدة الحلاقة ، أشار الى كيس بيده وكان في حالة من التأفف والضجر منه قائلا: افرولك موجود فى

هذا الكيس. أرجوك ان تدفع لى بعهدتى حتى لا تخصم علىّ. انظر الى المرافق إنا فى دهشة حيث نزعت البيجامة وارتديت افرولى الذى بدون ظهر حيث احترق ظهر الافرول فى الشرق والدماء الجافة عالقة به. شكرنى واصطحبنى بين وداع رفيق الحجرة والمندوب الاعلامى الى سيارة عبارة عن لورى صغيرة قديم متهالك ننتظر أمام باب القسم الذى كنت ارقد به.

فتح السائق الباب الخلفى للورى وأشار إلى بالصعود ، انظر الى داخل هذا الصندوق الخشبى فأشاهد ضابطا برتبة نقيب ملقى على أرضية الصندوق بدون حركة. استفسر منه: ألا توجد عربة إسعاف؟ صمت قبل الإجابة وأشار الى الجهة الأخرى. اشاهد أكثر من خمسة عشر سيارة إسعاف حديثه. دهشت متسائلاً: طيب وليه مش نستخدمها؟ يجيبنى: علشان التفتيش ، شعرت بالأسي لحالي حيث أقف بجوار صندوق اللوري صغير الحجم أرتدي الأفرول وما به من حروق ودماء جافة وبكل يد فردة من حذائي وأقف حافي القدمين ، رائد بالجيش المصري بعد أن أدي ما عليه من واجب يصبح هذا حاله وفي مستشفي عسكري.

حضرت سيدة بدينة تناهز الخمسين من عمرها تتحدث بصوت مرتفع: ياالله يافندم علشان نلحق المستشفى. ياالله ياعوف والسائق يحدثها حاضر ياحاجة جمالات. نظر السائق إلى قائلاً: أتفضل يافندم. دخلت الى هذا الصندوق الردىء شكلا ومعنى ثم طلب منى بان أضع رأس هذا النقيب فوق "استبن" السيارة!!! أتسائل: الا توجد مخدات؟ ابتسم بسخرية واجابنى: كل حاجه موجودة لكنها عهدة والكل خايف على العهدة. اسأله: وأنت مش خايف على اللورى ده؟ يجيب هامسا: أصله يا فندم ده لامؤاخذه "بتاع المرحومين". اسأل من هم المرحومين؟ اسمع صوتا جافا. ياالله ياواد ياعوف مالك لكعى كده. يخرب عقلك عايزه الحق اطبخ للراجل.

جلست بداخل اللورى منكمشا فى احد أركانه بوضع القرفصاء وانا انظر لهذا المسكين الذى وضعت رأسه على استبن السيارة بديلا عن المخدة بأمر مباشر في صورة رجاء من المارشال عوف والإمبراطورة جمالات ، أثناء كل مطب تتحرك رأسه بشدة فما زال فاقدا للوعى مغمض العينين وأثار شظية فى جبهته من الأمام ، رثيت لحالي وحاله وقد أصبحنا ضعافا لا نقوي علي المجادلة ولا نرفض أمرا يوجه إلينا من ممرضه او جندي سائق ، أنه المرض رحم الله كل إنسان من هذا الإبتلاء ومتع الجميع بالصحة.

اعتقدت انه من ضمن المرحومين الذى قال عنه وسوف يقوم بتوصيله إلي المقابر وبعدها إذا كنت حيا يوصلنى الى مستشفى المعادى. أتذكر جلستى هذه منذ ست سنوات او أكثر بعد استقبال رجال المخابرات الحربية لنا فى الكاب عام ٦٧ وبعد ان نلنا مكافئاتنا جلست هكذا ارتعد من البرد وانا الآخر ارتعد ألما وحزنا على ما نحن فيه ، منذ أربعة أيام تركنا قائد الفرقة واعتبرنا خسائر ونحن مازلنا أحياء ثم يتبعه قائد اللواء مواسيا بأنه سوف يرسل بسرية الخدمة لمعاونتى!! واليوم سيارة نقل الموتى تقلني وهذا الضابط الى مستشفى المعادى. رائد ونقيب بالجيش المصرى ومصابين بالعمليات الحربية ينقلوا هكذا بعد ان نزعوا عنا ملابس مستشفى كوبرى القبة وأصبح نصف جسدي عاريا. توقف اللورى وغادرته السيدة وانا اسأل عوف إحنا فين؟ يجيبنى إحنا يافندم فى سوق السلاح؟

عادت الحاجة جمالات ومعها بعض البضائع لكنى شاهدت بعض الخضار وعدد اثنين كرمب لزوم المحشى!!!

تحركت السيارة ثم توقفت بعد قليل وفتحت الحاجة جمالات باب المقبرة على كلانا انا والنقيب الغائب عن الوعى لتقدم اعتذارها قائلة: "معلهش ياخويا عايزه الحق أجهز الأكل للراجل والعيال وإحنا فى طوارىء أخرتكم معانا. ماتيجوا ناكل لقمه سوا. والنبى دا انا فى عمايل محشى الكرنب متقلشى لعدوينك عنه. "أجبتها

أنفعال: يا حاجه عدوينى بيحاربونا دلوقتى وانا سايح فى دمى انا والغلبان ده. جيب:آه يا قلب أمه. تلاقيه بعد الشر بعد الشر طلع منه السر الالهى.

أخيرا تشجعت وصحت فى السائق آمرا إياه بأن يعود بنا الى مستشفى كوبرى القبة حتى أقابل مدير المستشفى ، رجتنى بالا افعل هذا لان عوف المسكين سوف يعاقب. أخيرا تحركنا الى مستشفى المعادى بعد ان رُقيت من السائق ورفع من هامتى ووافق علي أن اجلس بجواره وكنت أتذكر يوم لك ويوم عليك. يوم مع الوزير وقائد الفرقة ويوم مع جمالات وعوف. انها مصر المحروسة اللى كل شىء فيها وارد وقابل لأن يحدث.

كورنيش النيل فى هذا العام بهدوئه الجميل وقلة عدد السيارات ونحن متجهين الى هذا الصرح الضخم مستشفى المعادى للقوات المسلحة والتى تضاهى فندق هيلتون فى تلك الفترة تدخل بنا السيارة الى داخل المستشفى على الطريق المرتفع الدائرى المخصص لسيارات الإسعاف. أشاهد سيدات معهد التمريض العالى برتبهن العسكرية وزيهن الجميل وهن مسرعات إلينا وتفرد الأسرة المتحركة على عجل ويوضع الجلوكوز فى أذرعنا وندفع بهدوء من مكان الى آخر الى الاسانسير ثم نصل الى باب زجاجى ضخم مكتوب عليه الانعاش.

خلف هذا الباب عنبر كبير وفسيح وعلى مستوى عال من العناية والنظافة خصص لى احد الأسرة الفارغة واسترحت فيه لحين حضور الطبيب وبجوارى كميدينو عليه باقة من الزهور الطبيعية وعدد من زجاجات العصير ولم يمض وقت طويل إلا وشاهدت الطبيب وعرفنى بنفسه: ممدوح سلامه. فتح الملف الذى أرسل معى وشاهد صور الأشعة ، نظر الى الجرح الذى فى رأسى ثم الى الأشعة مرة أخرى وسألنى عن اى مشاكل نتجت من تلك الإصابة فأخبرته بتدفق الدماء وشعورى بخدلان فى ذراعى الأيمن.

هز رأسة دلالة على فهمه ما يعترينى واجابنى بان الخدلان شىء طبيعى ناتج من الإصابة لان الإصابة فى الجانب الأيسر فهذا يؤثر على الجانب الأيمن من الجسم. اسأله: هل الحالة مطمئنة يا دكتور؟ يجيبنى وهو شاخص فى وجههى قائلاً: أنت أمك دعيالك!!! لأن اى حركة للشظايا التى برأسك يمينا او يسارا قيد أنملة توقف جزء من جسمك عن العمل او شلل لا قدر الله لكن احمد ربنا. أجيبه: الحمد لله .. اخبرنى بأن الحلاق حييجى قوام ويقوم بحلق شعر راسك بالموس وبعدها تدخل العمليات وربنا يعمل ما فيه الخير. استوضحه عن الحروق التى بيدى وظهرى وألام ظهرى فيجيبنى بس لما نخلص من المشكلة الكبيرة بتاعة راسك الاول. انصرف وبعد عدة دقائق حضر الحلاق وقام بعمله الذى تمرس عليه. لقد نفض شعرى بالكامل ثم أعقبه احد العاملين قادما بكرسى متحرك سائلا اياى. سيادة الرائد/أسامة؟ أجيبه: ايوه انا. أتفضل يافندم على حجرة العمليات.

انا متواجد بحجرة العمليات وجمع من المتخصصين فى الحجرة والمساعدين وأجهزة التنفس. جاءت طبيبة البنج "التخدير" ولا اعرف لماذا اختيرت طبيبة التخدير التي كانت علي مستوي عال من الجمال الطبيعى بعيونها الخضراء. وضعت ابرة التخدير فى الوريد وطلبت منى العد حتى رقم عشرة وانا شاخص لعيونها الجميلة ولم أكمل بعد العد ثلاثة ولم اشعر بنفسي.

مضى وقت وفترة من الزمن لم أتبينها ولكن كل ما شعرت به اننى ظمآن وراغبٌ في شرب الماء ، حضرت مسئولة القسم بعد سماعهم لصوتى وافاقاتى وهن يطلبن منى ان اؤوجل شرب المياه فترة بعد العملية لان هذا هام جداً. كنت اشعر بورم فى شفتى السفلى وقد اخبرتنى إحداهن بأنها من اثر العملية حيث انى قضمت بشفتى العليا على السفلى. جائتنى إحداهن على استحياء تستأذننى فى ان يأخذوا الراديو الترانزستور الذى معى حتى يعلموا موعد آذان المغرب فأشرت لها بالموافقة.

أشاهدهن يتجمعن الآن فى منطقة الكونتر وهو مكتب القسم الذى انا ارقد به الآن"بقسم جراحة المخ والأعصاب" آه تذكرت هذا القسم الذى عثرت فيه على بدحت ابن ماما وداد منذ ستة أعوام. يا لها من مصادفة بعد ستة أعوام بالتمام والكمال وفي نفس المكان أصبحت نزيلا به ، سمعت آذان المغرب بصوت الشيخ محمد رفعت وبصوته العذبْ وبدأت السيدات فى تناول الطعام وقوفا وهن يراقبن مكان القسم ويلاحظن المرضى ومن حين لأخر تهرع احدهن على صوت الآم احد المصابين.

مضى أكثر من ساعة وأحضرت إحداهن طعامى وشربت قليل من الماء توجيه منهن. لا استطيع تناول الطعام فساعدتنى إحداهن وقد أكلت القليل حيث لم أكن راغبا فى الطعام. بدأ تأثير المخدر فى الزوال وقد أعقبه شعورى بألم فى منطقة الرأس. حضرت احدى الممرضات وأدارت جسدى واعطتنى حقنة فى منطقة اعلي الفخذ ولكنها كانت مؤلمة للغاية وشعرت ان بها ماء نار وليس دواء. أغفو بعض الوقت واستيقظ قليلا. أمضيت ليلة بائسة ورأسي ملتحفة بالشاش. صباح اليوم التالى حضر الطبيب المعالج ومعه رئيس القسم وهما يتفحصان المرضى ونظافتهم ونظافة الأسرة موقعين العقاب على المهملات من مسئولى النظافة والرعاية للمرضى. اطمأن الطبيب المعالج من ملاحظات الممرضات التى دونت بالأمس عن حالتى وطلب منهن ان يحضر أحدا من قسم الحروق لملاحظة حالتى الصحية والتى كانت بادية عليها يداى.

حضرت احدى المتخصصات وشاهدت يدى وأبدت ارتياحها بان العلاج سهل لمثل تلك الحالة ، أحضرت منظف وقطن وشاش وعقمت المنطقة وكانت تنظف مكان الإصابة وانا أتألم من التصاق الرمال منذ خمسة أيام بظهر يدى ثم غطت المنطقة المحترقة بالميكركروم وربطت كفي يدي بالشاش وأصبحت أرتدي كلافز مثل الملاكمين.

فى آخر اليوم نقلت الى قسم العظام بسرير متحرك وهناك حصلت علي عدة صور بالأشعة لمنطقة الظهر الذى تبين وجود كسر بثلاثة أضلع من اثر سير الدبابة فوق جسدى ،. بسرعة اعُد الجبس. وجبس ظهرى وعدت الى مكانى. الآن انا مربوط الرأس واليدين وظهرى به جبس دائرى واشعر بتعب وصعوبة فى التنفس من حركة الحجاب الحاجز المحددة.

حوالى الثانية عشرة ظهراً تكرر مشهد مستشفى كوبرى القبة بحضور عدة أشخاص وهم يصرخون "حرم سيادة الرئيس" أقبلت السيدة جيهان السادات تسبقها ابتسامتها وشعورها بالسعادة مما حققته قواتنا من انتصار على جبهة القتال. حاولت مصافحتى ولكنها وجدت يداى مربوطتان وهما مكمورتان مثل الملاكمين واعتقدت اننى مبتور الكفين ولكن احد الأطباء المرافقين اخبرها بعد ان شاهد التقرير باحتراقهما ويعالجان. رتبت على صدرى قائلة: الزيارة الجاية تكون كويس واسلم عليك. ملكش اى طلبات؟ أومأت لها برأسي شاكرا وغادرتنى لتكمل مرورها على باقى الجرحى.

قبل العصر حضر لزيارتى اخى الأكبر بعد ان توجه الى مستشفى كوبرى القبة ولم يجدنى هناك فانزعج واعتقد انى قابلت ربى وعلم اننى نقلت إلي مستشفي المعادى لأحصل على قسط اكبر من العلاج ، فى الاستعلامات علم بمكانى واخبرنى بان الزحام خارج وداخل المستشفى كثيف وان الكثيرين من الاهالى ينتظرون دخولهم.

هذا ما كنت ألاحظه منذ وصولى لهذا القسم ، زيارة لشخص واحد يتعدى عدد الزائرين العشرة فى بعض الأحوال. لم تكن إدارة المستشفى ترفض الزيارة تقديراً لشعور الاهالى تجاه أبنائهم وأزواجهم إلا فى فترات العلاج والمرور فكانت تمنع الزيارة وبعدها يندفع الزائرون خصوصا أول مرة وهم يتفحصون المرضى ومن فى

حالتى يقفون أمامه طويلا لاحتمال ان يكون ممن يبحثون عنه ومختفى خلف قائف الشاش والقطن.

خالى هو الاخر بعد ذهابة لمستشفى كوبرى القبة عاد الى المعادى ودخل على باش مشجعا حالتى ومطمئنا على بأنه طالما وصلت الى المعادى فسأخرج منها بإذن الله معاف وسليم ومازال العلاج مستمراً وبدأت اشعر بقليل من الصداع ثم احصل على وجبتى الغذائية واشعر ببعض التحسن فى رأسى ولكن مازالت يداى مربوطتان وهذا يزيد من ضيقي فكنت اشعر باننى في حالة اختناق ولا استطيع ان أساعد نفسى بفرد الملاءة او ثنيها كما كنت انتظر أخى ليصطحبنى الى دورة المياه بدلا من مرافقة فتيات المستشفى لى وانتظارهن لى بخارج الحمام. كان الخجل يعترينى منهن وخاصة من صغر أعمارهن. كما طلبت منه ان يقوم باعطائى حمام ساخن وفعل ما طلبته منه وجازاه الله عني كل خير لما تحمل من مشاق من أجلى وهو صائم فى شهر رمضان قادماً وعائداً الى مدينة الزقازيق ليبلغ أبى وامى بحالتى والتى كان مشوار السفر شاقا عليهما خاصة فى شهر رمضان وهما صائمين.

أثر الشعب فى العلاج النفسى

مضى على وجودى بمستشفى المعادى خمسة أيام ومازلت أواصل العلاج وتحسنت حالتى قليلاً من جهة الإصابة بالرأس وقد تبين لى من حديث مع الطبيب المعالج وهو العميد مكلف الاستاذ الدكتور/ممدوح سلامة الاستاذ بكلية طب عين شمس قسم جراحة المخ والأعصاب بان سبعة شظايا اخترقت رأسى واستقرت فى منطقة ما بين المخ والمخيخ وأرجو ان يكون هذا الاسم صحيحا وليس خطأ لان هذا الحديث منذ قرابة ستة وثلاثون عاما مضت وإنهم قد أزالوا ثلاث شظايا هى مكمن الخطر وتركوا أربعة ما زلت أتشرف بحملها داخل رأسى اما تحت فروة الرأس فكانت هناك أربعة أخرى لم يتعرضوا لها لعدم الخطورة الحالة ومن الممكن بعد عدة أشهر إزالتها بجراحة بسيطة لا تحتاج سوى مخدر موضعى وطمأننى الطبيب على حالتى وكنت اشعر بصدق حديثه نظرا لكفاءته ومهارته التى لن أنساها ودائما ما أدعو له بدوام الصحة لما قام به معى ومع مئات آخرين ان لم يكن ألاف ممن أصيبوا فى تلك الحرب.

كان هناك أمر آخر اشعر انه مازال في حاجة الى رعاية وهى حروق يداى فبعد ان رفعت الأربطة أصبحت يداى سيئة ولا استطيع فرد اصابعى واصبحت مكمورة بوضعها الحالى بعد وضع الميكروكروم. دهش الدكتور ممدوح من هذا وطلب اخصائى لهذا التخصص. حضر الاخصائى وكانت طبيبة يوغسلافية وأزعجها هذا الاسلوب فى العلاج مقررة ان هذا لا يفيد فى مثل تلك الأحوال لأنها حروق وليست جروح وقررت إصلاح خطأ السيدة التى بدأت علاجها منذ أربعة أيام بأن جاءت بمشرط وقطعت خطوط عرضية خفيفة بين الامى الشديدة ولهذا أعدت عدتها بان وضعت فوطة فى فمى حتى اكذ عليها مما اصابنى من ألم من تشريط هذا الجلد الرقيق الذى بدأ فى التكون وأبدلت العلاج بشريط معقم من مادة

مثل الفازلين وأعيد ربط يدى ثانية وهما مفرودتان وتأتى يوميا لتلاحظ الحالة مع ثنى أصابع يدى حتى يتكون الجلد الجديد على وضعه الطبيعى.

غفوت بعض الوقت وانا على هذا الحال والآم يدى مازلت تؤثر بى وقد بدا هذا واضحا على معالم وجهى لان أخى عند زيارته لي لاحظ ذلك وقد أخبرته رئيسة قسم التمريض بما تم وكان لابد من علاج خطأ العلاج السابق.

نهضت من نومي المتقطع وقت الزيارة فأبصرت بسيدة تجلس على السرير المجاور من الناحية اليمنى حيث كان جار اليسار هو النقيب الذى رافقنى فى اللورى السياحى لمستشفى كوبرى القبة (لورى المرحومين) وقالت عنه يومها الحاجة جمالات انه قد يكون قابل ربه. مازال حيا وفتح عينيه ويستجيب لنداءات هيئة التمريض دون مقدرة على التحدث وقد ذكرنى بالعزيز مدحت.

نظرت الى السيدة وانا اعتقد انى قد شاهدتها قبل ذلك ثم فاتحتنى فى الحديث: أزيك يا ابنى عامل إيه؟ هوه مافيش حد بيزورك وإلا إيه؟ انا كل يوم هنا ومشفتش حد معاك؟

أجيبها بصوت خافت: أصل عيلتى فى مدينة الزقازيق ووالدتى مريضة ولا تستطيع ان تحضر لزيارتى مثل الآخرين. ابتسمت لى مع نظرة أسى لحالى وهى تشير الى نفسها بان وضعت يدها على صدرها قائلة: تقبل انى أكون ماما لحد ما مامتك الحقيقية تيجى تزورك؟ أصل انا ربنى حرمنى من الخلفه. إيه رأيك ؟ موافق؟ أجيبها: ربنا يخليكى دا شرف كبير ليا انك تكونى ماماتى. تسألنى: طيب اسمك إيه؟ أخبرتها وهنا قالت: بص يا أسامه يا ابنى انا من النهاردة أمك. أنت تعرفنى؟ أجبتها اعتقد انى شفت حضرتك قبل كده. تضحك وهي تقول فيه حد ما يعرفشى "عزيزة حلمى" انتبه لها وأقول: آه ماما عزيزة حلمى بتاعة برنامج ربات البيوت بالإذاعة. تبتسم وتقول تمام وبرده مثلت كام فيلم. فاكر فيلم عبدالحليم حافظ وآمال فريد لما كان عبد الحليم موظف بسيط فى شركة أبو آمال واخترع

قماش مينحرقشى. اهو انا كنت مرات سراج منير. ضحكت وأجبتها ايوه لما كنتى غاوية تقولى شعر. تبادلنا الأحاديث وجاءت رئيسة القسم لتشكرها لانها أدخلت البهجة على قلبى وجعلت لسانى ينفك بهذا الحديث نظرا لقلة الزائرين.

قبل ان تودعنى سألتنى عما أريده ان تحضره لى غداً فشكرتها طالبا منها ان تتصل ببعض اصدقائى وزودتها بتليفون ماما وداد وماما مارى فأكدت لى على انها سوف تحدثهم فور عودتها الى منزلها. تركتنى ماما عزيزة حلمى وانا أتذكر أفلامها وتمثيلياتها.

اليوم التالى بعد مرور الأطباء غفوت قليلاً ونهضت على صوت وحركة بجوارى لأفتح عينى لأشاهدها. آه يا ربى انها روز. نظرت الى باكية وهى تحدثنى: كده دوختنى انا وعاطف عليك ودورنا فى مستشفيات كتير ومش عارفين أخبارك. تحادثنا قليلا ثم غفوت فى نومى.

تنبهت على كلمة ابني أسامه واسمع صوتها والذى استطيع ان أتبينه من بين مئات الاصوات انه صوت ماما وداد. افتح عينى لأشاهدها امامى وبرفقتها كلّ من مدحت وعلا ودينا والتف الجميع حولى وحضرت ماما عزيزة وهى شخصية مشهورة فقدموا لها الشكر على اتصال الأمس ومن جانبها قدمت الشكر للحضور وزيارتى وأخبرتهم بان أسامة لا يقوم أحد علي زيارته مثل باقى الجرحى.

تكالبوا حولى وكل يسأل وانا لا استطيع الإجابة لكثرة الأسئلة التى تحتاج وقتا ومجهودا للإجابة عليها وشعرت بعدم اتزان مما انعكس عليهم باني احتاج لرعاية وزيارة مستمرة بينما دينا تستحثنى بان أشفى بسرعة لانها ترغب في مشاكستي واللعب معى مما اضحك العائلة ، إعترض مدحت وأخبرها بأنه أصبح قائداً كبيراً ولا يلاعب الفتيات الصغيرات ، تحدثني بأنها كبيرة وسوف تقرأ الفاتحة قريبا علي شاب تقدم لها ، أخبرتني ماما وداد بأنها سوف تؤجل كل شيء الى ما بعد شفائى وخروجى من المستشفى. جلسوا معى جلسة طويلة ممتعة.

بعد قليل حضرت ماما عزيزة حلمى مع بعض الزوار حاملين معهم الهدايا وقدموها لى وبعدها بقليل عادت بزوار آخرين والأسرة في دهشة من شعبيتى بين الزائرين ، فهمت بعد هذا بان ماما عزيزة حلمى تلتقي بالزائرين خارج القسم الذي أقيم به وتحضرهم لزيارة ابنها ويعتقدون انى ابنها حقيقة وليس مجازا. تتوالى زيارة العائلتين ، حضرت ماما مارى برفقة عاطف الذى حاول احتضانى ولكنه شعر بالجبس حول وسطى فاعتذر لي بينما جلست الأم على حافة السرير ممسكة بيدى وهي تنظر إلىّ بكل مشاعر الأمومة الصادقة وتقول خلاص اخدت بتار أخوك وليم؟ أجيبها: بكل اللى عذبهم اليهود أخدنا بتارهم وأولهم اخويا وليم. ياه انها ذكرى قد تكون مؤثرة ولكنها محببة الى القلب ان نعود ونرفع رايات النصر خفاقة عالية.

قدم طعام الإفطار أثناء وجود زيارة من فتيات جامعة عين شمس وهنا تقدمت إحداهن متسائلة: كم عدد قوالب السكر على الفنجان؟ فأخبرتها اثنان. كان السكر من النوع الفاخر ومعبأ كقوالب مثل الفنادق. وضعت السكر وأضافت إليه اللبن الطازج وناولته لى وهى تقول: تعرف يا كابتن البلد كلها مافيهاش حبة سكر. اندهشت لهذا واستفسرت منها ومن زميلاتها وقد أدلت كل واحدة بدلوها فى هذا الشأن بان احدى جارتهم لا تستطيع ان تعد رضعه طفلها لعدم توفر السكر. امتنعت عن شرب الشاى مراعاة لظروفهم ولكنهم أجابوا فى وقت واحد: انتم أهم منا جميعا. انتم المدافعون عن مصر وشعبها ولكم كل تقدير وماهو السكر إلا بالشىء القليل فيما قمتم به من بسالة فى ميدان المعركة..

غادرت الزيارة الحجرة وأقبلت ماما عزيزة تقص علي بعضا من أخبارها وذكرتنى بفيلم "ليالى الحب" للمبدع عبد الحليم حافظ وتذكر لي بعض ما حدث أثناء التصوير والبروفات وما كان يحدث من مفارقات مع زميلهم عبدالسلام

النابلسى والممثل البارع محمد عبد القدوس الذى كان يقوم بدور رجل تركى فى الفيلم "ممتاز شركس" ولم تهدأ حتى انتهت من قص روايتها.

حضرت مجموعة من طالبات الجامعة للزيارة واحدي الفتيات تنظر بإمعان الى النقيب الذى رافقنى فى لورى المرحومين على حد قول السائق والذي لم ينطق بحرف منذ وصلنا المستشفي حيث كان صامتا ولا يعلم عن الدنيا شيء بل كان لا يتحكم في نفسه فيبول وتتحرك المياه قريبا من سريري والزوار ينظرون إلي وأنا خجل أما هو فلا يعلم أي شيء.

تبادل النظرات ، صرخت الفتاة بصوت منخفض ووضعت يدها على فمها وهى تقول: .. علاء .. علاء ، نظر إليها دون أي انتباه ولم يبال بها. تدخلت وحادثتها. اسمه علاء؟ قالت: ايوه هوه علاء. اسألها أتعرفينه؟ تجيبنى طبعا علاء جوز اختي هدى. الجميع فى دهشة ، حضرت السيدة المسئولة لتبلغها الفتاة باسم هذا الضابط فاقد الذاكرة وبعض المعلومات فلم تعرف شخصيته سوى انه نقيب لما يضعه على كتفه من رتب ففى غمرة الاشتباكات ينسى البعض إعطاء بيانات المصاب وبعض المصابين لا يحتفظون بمحافظ وأوراق خشية فقدها فى المعارك ويتركونها فى مؤخرة الوحدة.

أسرعت الفتاة تتصل بشقيقتها وعادت بعد دقائق لتزف لنا خبر حضورها بعد قليل حاملة وليدها ذو الأربعة أشهر. تنظر إلى قائلة: أصل إحنا ساكنين هنا فى المعادى. لم تمض نصف ساعة إلا وحضرت الزوجة تنظر الى زوجها متلهفة عليه وانحنت عليه باكية وهو مازال كما هو غير عابىء بما يحدث حوله ولكن الشىء الذى لفت انتباهه هو الطفل فكان يدقق النظر فيه بينما خالته تحمله وعيونه مازالت تلاحقه أثناء سيرها فى الحجرة.

طلبت منها ان تعطيه الطفل فناولته له فامسك به يقبله باكيا والطفل يصرخ ألما من شدة قبضة أبيه عليه والأم تحاول فك ذراعه عنه وهو مازال باكيا ناظراً

إليه وينظر إلينا مستفسراً .. عمرو .. مش اسمه عمرو؟ ابتسمت الزوجة .. ايوه يا علاء ده عمرو ابننا .. جلست بجواره علي حافة السرير وبينهما الرضيع وشملتنا جميعا الفرحة والسعادة وقد ملأت الغبطة قلوباً. أخيرا عرفنا من هو علاء وايضا عمرو وهدى واجتمع شمل الأسرة بعد أسبوعين من بداية الحرب التى مازالت تدور رحاها بيننا وبين الاعداء.

انشغلت بكلّ من هدى وعمرو فقد ملئا علينا الغرفة سعادة وبهجة ومن منا يسمع صوت الرضيع ولا تتحرك شجونه وخاصة عندما يلاعب اى إنسان ويبتسم فاتحا فمه الصغير خالى الأسنان انه لشيء رائع وحكمة الله فى الأرض.

أشاهد عائلة قادمة تستفسر من البعض وتتفرس وجوه المرضى فى الحجرات الزجاجية وألاحظهم وانا فى سريرى ولسان حالى يقول اننى اعرف هؤلاء. اننى اشعر باننى رايتهم قبل ذلك. دخلوا حجرتنا والرجل والمرأة نظروا الى علاء بينما الفتاة أسرعت الى تصافحنى بحرارة قائلة: أزايك يا خويا. لقد كانت أسرة عم عليوه المزين وادهشنى ان يعلم الرجل بمكانى ويحضر من بورسعيد لزيارتى وانا افكر هكذا إذ بسحر الجميلة الرقيقة تقطع على تفكيرى قائلة شوف بابا عرف ازاى انك فى المستشفى؟ قوله يا بابا .. بصوته الهادىء الذى اثرت فيه السنون وأحداث ٥٦ واستشهاد ابنه ممدوح عام ٦٧ قال: يا ابنى الحكاية كانت صدفه. واقف عند الفرن أجيب عيش شافنى الأسطى وسلم عليا ولما كلمنا مع بعض عرفت منه انك انجرحت وفى المستشفى. مازلت غير واعى ولكن الشباب أسرع توضيحا إذ قالت سحر ان بابا قابل سعيد السواق اللى جه معاك لما زرتنا فى بورسعيد وتعرفوا ببعض. ياه قلتها وانا فرح ، أستفسر منها: لكن إيه اللى ودى سعيد بورسعيد؟!! ضحكت سحر وهي تقول مش انا يا خويا قلت لك لما كنت عندنا إننا حنهاجر الى القاهرة. هما تقابلوا فى القلعة لان سعيد ساكن فى نفس الحى. آه قلتها بعد ان أعادت سحر تركيب الحروف الهيلوغرافية فى أماكنها .. استفسر منها:

الآن انتم بالقلعة فى منزل عمتكم؟ اجابت: آه دلوقتى بقينا فى القلعة ومن سكان مصر وحتلقانى كل يوم نطالك هنا وأفضل طولة النهار معاك. إيه رأيك؟ اخويا موافق وإلا له رأى تانى؟

يكمل عم عليوه الحديث. متأخذينشى يا ابنى. صحتى على قد حالى وخصوصا فى رمضان لكن بإذن الله ان حضرت العيد هنا حاكون معاك. جلسوا جلستهم وهموا بالانصراف ولكن عم عليوه عاد يحدثني: أنت ابنى مش كده؟ ابتسمت له: أمال يا عم عليوه من ست سنين وكام شهر. قبلنى ومازالت زوجته وابنته وابنه وقوفا على بعد عدة أمتار. اقترب منى وهو يقبلنى قائلاً: مش حاوصيك لو حصل لى حاجه خد بالك من أخواتك. انتفضت وانا اخبره قائلاً: بشر ولا تنفر. إيه اللى بتقوله ده؟ ربت على كتفى وقال: الأعمار بيد الله. السلام عليكم يا ابنى.

بقدر سعادتى بزيارتهم لي بقدر ما حطمت تلك الكلمات الأخيرة قلبى واشعرتنى بحزن ويأس شديدين. لماذا قال هذا الأب الملتاع على ابنه وأسرته هذا الكلام؟ لابد انه شعر بدنو اجله ولكن كل هذا عند الله ، هونت على نفسى بان الرجل يريد ان يتأكد اننى مازلت ابنه واننى لم أتكبر او أتعالى عليه مثل ما يشعر بعض المصريين الطيبين ، ظللت أتذكرهم وأتذكر ما يتمتع به هؤلاء الناس من طيبة ورقة رغم رقة حالهم ، ازدادت سحر جمالاً وبهاء وقد تعدى عمرها العشرون عاما كما اخبرتنى منذ قليل.

أثناء فترة عيد الفطر تقاطر الزوار على المستشفى لزيارة الشباب من الجرحى ومازالت ماما عزيزة تلقي القبض على الزوار وتأتي بهم لزيارتي وقد زودت سحر ببعض الهدايا وكانت رافضة فى البداية اخذ اى شىء منها ولكنى أقنعتها انها على سبيل الأمانة وتحفظ عندها وأسعدها هذا ، مازالت زيارة سحر وروز اليومية

بتخللها زيارة عـلا فـي بعض الأحيان وماما وداد و ماما مـارى والعقيد عـاطف شفيق.

بعد أجازة العيد قام الطبيب بخلع الجبس عن ظهرى ووسطى واراحنى هذا كثيرا كما خلعت العمامة وبعض شعر رأسي بدأ في الظهور وارتفع قليلا وبعدها بيومان رفعت طبيبة الحروق كل الأربطة عن يدى واصبحت حرا طليقا بعض الشيء. لم يمض أسبوعا إلا وقررت إدارة المستشفى مغادرتي ومنحي أجازة مرضية لمدة شهر تكرر ثلاث مرات متتالية بنفس المدة "اى ثلاثة أشهر" ثم بعد هذا اعرض على قسم المخ والأعصاب.

مضى على عودتى لمنزلنا بالزقازيق أسبوعين تحسنت خلالها حالتي الصحية إلى أقصى درجة كما أعدت أمي دورى من الأطعمة تنافس فيه كل من البط والفراخ والحمام والأرانب ولحوم الأغنام.

<u>نتائج المعركة :</u>

بعدُ مضى أسبوعين على تواجدى بمنزل اسرتى بالزقازيق وتحسن حالتى الصحية والنفسية الى درجة كبيرة حضر إلى زيارتي الملازم أول مهندس فايز المسئول عن صيانة العربات المدرعة بالكتيبة أثناء الحرب وبصحبته سائق عربة جيب وتربطني بهذا الضابط علاقة طيبة ، بعد ان عانقنى هو والسائق مرحبين بعودتى سالما الى اسرتى شكرته وسألته: أحضرت الى مدينتى فى مأمورية وكيف عرفت عنوانى؟ ابتسم قائلاً: مأمورية فهذا صحيح اما كيف عرفت عنوان سيادتكم فقد زودتنى به قيادة اللواء وبالذات قائد اللواء العقيد احمد عبده. أفندم: سيادتكم إذا كنت قادراً على مرافقتى الى موقع الكتيبة شرق القناة سوف نكون سعداء جميعا وتلك رغبة الجميع وأمر من قائد اللواء لان التلفزيون المصرى متواجد منذ يومين ويقوم بالتصوير في أماكن المعارك مع الأبطال الذين قاموا بتلك الأعمال المجيدة وقد أجل قائد اللواء التصوير فى جميع قطاعات اللواء قائلاً: ليس قبل ان نصور

قائد مفرزة نطاق امن الفرقة الرائد أسامه لما قام به هو ورجاله من أعمال فى منتهى الشجاعة كانت السبب الرئيسى فيما نحن فيه الآن من شعور بالنصر والفرحة فيجب على صاحب الفرح ان يتواجد بيننا وهو الذى نبدأ به الاحتفال والتصوير ولهذا طلبوا منى الحضور لسيادتكم لو كانت حالتك الصحية تسمح بالعودة إلى الموقع الذى حاربت فيه.

كنت استمع الى هذا الضابط قليل الكلام كثير العمل وانا سعيد بكل ما جاء على لسانه فهو أولا قد فك عقدة لسانه ويتحدث بطلاقة وكأن النجاح يولد البلاغة فى الحديث والأهم انه نقل إلي رسالة من قائدى الأعلى وما لشعورى من جهة هذا القائد دمس الخلق الهادىء فى اشد الظروف ضراوة وانا استمع إليه على جهاز الاتصال اللاسلكى طالباً من قائد الفرقة تقديم العون لى ولجنودى لإنقاذنا.

لم ينسانى او يتناسانى قائد اللواء فى غمرة الأفراح ، اسعدنى هذا التقدير ومن منا نحن البشر لا يسعده ويطربه ان يجد التقدير من الآخرين وخاصة القيادة وبعد ان تنجز مهمتك التى أوكلت إليك ، اخبرنى الضابط فايز اننى على الأقل سأمضى بضعة أيام معهم فى الكتيبة لأن الجميع فى شوق الى رؤياى وسماع حديثى وروايتى خاصة بعد ان مُنيت تلك الوحدة بخسائر جسيمة وفقدت نصف قيادتها كشهداء ومنهم قائد ثان السرية النقيب حسن وقائدهم الأكبر سعادتك كمصاب.

اعترتنى مشاعر فياضة أكثرها تأثيراً هو شعورى بالحزن على من فقدناهم وانا اعلم الكثير ممن لاقوا الشهادة أثناء حلمى او رؤيتى وانا مصاب ملقى أرضا ومدفون فى داخل الرمال بعد ان قامت الدبابات الإسرائيلية بواجبهم المقدس بدفن وهرس الموتى والجرحى والأحياء بتلك الجنازير القوية وتحت ثقل دبابة لا يقل وزنها عن ستون طنا من الحديد.

تحركت بنا السيارة الجيب بعد ان أقنعت امى التى كانت رافضة عودتى الى موقع كتيبتى وهى تقول يا ابنى اليهود حيكونوا مستنيينك وينتقموا منك!!! وكأننى شخصية معروفة لديهم .. بعد ان قطعت السيارة الطريق في حوالى الساعتين وصلنا الى هدفنا وانا مازلت واضعا الأربطة علي يداى حسب تعليمات الطبيبة وألا انزعها إلا وقت الاستحمام اما رأسى فقد اوصانى الطبيب بالابتعاد عن الشمس والمحافظة عليها من برودة الشتاء مستخدما الطاقية المعدة لذلك وهى من الشاش المعقم للحماية والدفء نظرا لتعرية عظام الجمجمة وتأثير الحرارة والبرودة عليها كما ان برأسى فتحة تحت فروة الرأس بقطر اثنين سم مربع بدون عظم وعلى الاحتراز لهذا.

وقفنا أمام الكوبرى الذى شيده سلاح المهندسين شمال جزيرة البلاح وأشاهد النقطة (٥١) الإسرائيلية أو (حصن مكرفيت) التي بدأت هجوم قواتي بجوارها وقد دمرت بالكامل وينعق بها البوم .. عبرت بى السيارة الى الشرق واتجهنا الى موقع رئاسة الكتيبة .. يا له من موقع انه مكان مركز ملاحظتى وارى قريبا منى ماسورة القاذف المضاد للطائرات والذى احترق واحرقني وانقذنى معه .. سبحان الله ان أعود بعد قرابة الشهرين لهذا المكان الطاهر الذى صعدت منه أرواح شباب مصر الى ربها شهيدة لتحيا من جديد في جنة الخلد والرضوان وسبحان من له الدوام.

تقاطر على الضباط والجنود مرحبين وسعداء مقبلين ومحتضنين وقد اعيانى الإرهاق والتعب سواء من طول المشوار او من حُسن الاستقبال وكثرة الانفعالات وشعرت اننى لم استطع ان اقدر حالتى الصحية عندما وافقت على العودة لموقعى السابق أثناء الحرب ولكن كما سبق وقلت انها رعونة الشباب واندفاعهم مهما كانت الأحوال وبأيدى هؤلاء الشباب ورعونتهم تبنى الأمم أمجادها وقوتها .. أشاهد بعض الضباط الغرباء عن ذاكرتى واعلم من رئيس العمليات الرائد/ احمد

الشيخ محمد سعد بأنهم استعواض خسائر بعد ان فقدنا ربع ضباط الكتيبة فى المعركة.

كان الرجل يقود سيارة لورى صغيرة لمساعدتي علي مشاهدة موقع عمليات وحدتي يوم العبور العظيم شارحا وموضحا لى ماذا شاهد فى صباح السابع من أكتوبر وكان يروى لي ما تم بحزن قائلاً: كنت لا أتصور انها حرب بل هى مجزرة بكل المقاييس .. تصور يا أسامة لم أجد شهيداً إلا وقد هرسته الدبابات رغم ما لحق بهم من خسائر كبيرة على ايدى رجالك ثم توقف بالسيارة قائلا بس تعرف أنت ورجالتك كنتم عيال ميه ميه .. اى والله وده السبب اللى خلاهم عملوا فيكم كده لان معارك الكتائب المجاورة رغم محدودية خسائرهم لكن محصلهمشى كده .. لكن اليهود خسايرهم كانت كبيرة والاهم انتم ضيعتم عليهم فرصة مساعدة النقط القوية من هنا من البلاح من مكان عبورك حتى جنوب بورسعيد .. تصور كان العميد فؤاد عزيز بيقول لأركان حربه قدامنا كلنا .. تعرفوا أحسن حاجه عملتها فى الحرب دية .. ونحن ننظر إليه لنستمع إلي ما سوف يقوله من كثرة أعماله خلالها فقد كان قائدا فذا بكل المعايير .. بعد ان صمتنا ونحن ننظر له بكل اهتمام .. عاد فقال .. أحسن حاجه هو اختيارى الشخصى لقائد مفرزة نطاق امن الفرقة .. فقد كان اختياراً فى محله ومش حأقلل من كل اللى كانوا معاه لكن اسأمه كان القائد المثالى فى تلك المعركة وكلفته بهذا الواجب .. دقة تنفيذ الأوامر وهدؤ الأعصاب أثناء المعركة .. ثم نظر الى قائد اللواء العقيد احمد عبده .. قائلاً : فاكر يا احمد اتصالاتك وكلها مسجلة وموجودة عندنا وعند هيئة عمليات القوات المسلحة .. يتنحنح احمد عبده قائلاً: يا فندم الموقف كان خطير وانا أراقبه من الغرب على مسافة تمانيه كيلو .. مش حرب كانت طحن فى بعض .. دبابات بتدوس عساكرنا وعساكرنا بتفط على الدبابات وولعه فى الناحيتين وانفجارات مدرعاتهم مكنتش عارف افصل بينهم داخلين فى بعض .. سأله: فاكر أمر

لانسحاب الى أصدرناه الى أسامه .. تبرم احمد عبده وأجابه: طيب يا فندم ماهو كان معارض وسيادتك صممت .. نظر جهة اركانات حربه .. قائلاً : سامعين رائد اللواء بيقول إيه؟ .. انا اقول هو أدرى بوضعه وخلونا فى معركة القنطرة وانتم طلبوا منه ان يعود للخلف علشان ندفع بيه الى مكان آخر .. المهم كان حوارا ساخنا .. الى ان سأله احد قادة السرايا وهو رائد وأقدم منك بعام .. أفندم : لم تخبرنا بالسبب الذى اخترت على أساسه الرائد أسامه لهذا العمل .. اجاب ايوه ده سؤال مهم للقيادات الصاعدة .. أيها القادة إياكم والسير بالروتين الحكومى الموجود بدولتنا أثناء المهام القتالية .. إياكم .. وحأقول على سبب اختياري له .. أسامه احدث رائد فى قادة سرايا الفرقة ولسه مترقى فى يوليو اللى فات لكن انا اخترته قبل الترقيه يعنى رتبته هنا مكنش لها أساس فى الاختيار وكان سبب اختياري له نقطة هامة فى رأى وانا القائد والذى اختار القائد الذى يعمل فى مواجهة فرقتى:

سرعة تنفيذ الأوامر والتعليمات بدون النظر للأوامر تنفذ ضد من .. معنا هنا مجموعة من رؤساء أفرع قيادة الفرقة وهما اللى أتعرضوا لحادث إطلاق النيران من أسامه .. تعليمات قائد الجيش محدش يصطاد سمك فى تفريعة البلاح بالمتفجرات واللى يخالف الأوامر تطلق عليه النيران .. صدقونى لما قالها قائد الجيش وكلمناه بينا وبينه ضحك وقال لزوم الردع والتخويف يعنى انتم فاكرين حد حيعملها .. ما انتم كقيادات اللى بتصطادوا .. لكنها حدثت ومع قيادتى ومن وحدة صغيره عندى .. ارتبكت وارتبكت قيادة الجيش.. (رئيس العمليات احمد الشيخ يقول : متزعلشى من الكلمة اللى قالها قائد الفرقة عليك) .. فى قيادة الجيش قالوا فيه مجنون عملها وقائد الجيش اضطرب وقال : ستر من ربنا انه مافيش خسائر .. رغم ان الحكاية دية قطعت دابر عملية الصيد بالمتفجرات لانها حادثه مش هينه.

عُدت مع رئيس العمليات الى قيادة الكتيبة وهناك ترجلنا سيراً على الأقدام واتجهنا الى المقبرة الجماعية التى أقامتها الكتيبة لشهداء وحدتى فى نفس مكانهم ومن حُسن الحظ فإن موقعنا أصبح مكان تجمع الكتيبة بعد وقف إطلاق النار .. أقرأ أسماء الشهداء ، بخيمة رئيس العمليات أظهر لى تقرير القتال لهذا اليوم الدامى وفادأنى بأن القوة التى كانت تهاجمنا لم تكن سرية دبابات بل إزداد عددها بعد الخسائر التى لحقت بها لتصل إلى لواء مدرع إسرائيلى (١٢٠ دبابة وكتيبة مشاة ميكانيكى ووصلت الخسائ المؤكدة لهم إلى مايزيد عن ٨٠ قطعة مدرعة).

في المساء حضر رئيس العمليات يرافقه المخرج التلفزيوني مصطفى بشير لكى أكون مستعداً فى الغد لتصوير بعض المشاهد بجوار الدبابات والعربات المدرعة الإسرائيلية التى دمرها جنودى الشجعان .. اعطانى الرجل فكرة مبسطة عن عملهم واخبرنى انه لن يرهقنى بكثرة التصوير لما لاحظه علىّ من إرهاق وما شاهده علىّ وانا ملتحف بالشاش.

أشاهد بعض الخطابات امامى مرسلة من الأهل لأبنائهم .. عثرت علي عدد كبير من الخطابات المرسلة بأسماء بعض جنودى وضباطى الذين لاقوا الشهادة .. أتذكرهم وأتذكر ان إخوتهم وعائلاتهم تنتظر ردا على خطاباتهم ولكن الشهداء لا يكتبون خطابات للأحياء. تخيرت أحد الخطابات ، خالفت ضميري وفتحت الغلاف لكي أطلع علي ما كان يحتويه .. لقد كان من الأب إلي الإبن وبخط متواضع كتب الخطاب المرسل إلي عريف مجند مؤهلات/محمد سالم علي الباز بلوكامين السرية:

بسم الله الرحمن الرحيم

أزيك يا محمد .. أمك بتعيط كل يوم ويتجفول يا تري محمد عايش وإلا راح عند ربه ، عرفنا يا بني إذا كنت عايش جول وإذا كنت ريح ربك يبجي عليه

العوض ومنه العوض ، إخواتك كلتهم باعتين لك السلام وأنت عارف معزتك عندانا كلتنا ما هو أنت الصغير آخر العنجود ، ربنا يرجعك بألف سلامة أنت وإخوانك وعلي فكره ده تالت جواب أشيعهولك ، مش تتأخر علينا بالرد وحس بينا ، مع السلامه يا محمد ، مع السلامه يا بني .... من ابوك سالم وباجي العيله.

٢٥ أكتوبر سنة ٧٣

أمضيت ليلتى بجوار زملائى واحبائى الشهداء يعترينى من حين لأخر شعور عارم بنشوة النصر وأتذكر منذ ما يقرب من الشهرين كانت تدور فى هذا المكان معارك قوية مع الاعداء والحمد لله بفضل الشهداء والجرحى والباقون حصلنا على جزء من أرضنا وها انا انعم بالنوم هنا بعد ان كنا ننظر لهذا المكان من الغرب على انه شيء بعيد المنال.

أشرقت الشمس وكنت قد عقدت العزم علي البحث عن مقابر الشهداء ، أحد الجنود المتبقيين من المذبحة رافقني إلي مكان المقبرة ، قرأت الفاتحة علي أرواحهم جميعا ، تلي ذلك محادثة كل شهيد أمام الشاهد الذي يحمل أسمه ، كنت أحادثهم مثل ما كنت أتحدث معهم قبل المعركة فهم أحياء عند ربهم يرزقون ، توقفت كثيرا أمام الشاهد الذي يحمل أسم أعظم ما رأيت وشاهدت خلال معاركي الكثيرة ، الجندي أحمد همام والذي قضي علي جنود العدو القادمين لأسري ، حادثته برقة وكأني أب يحادث إبنه شاكرا فضله مثنيا علي شجاعته مؤكدا علي وعدي له بمنحه أجازة طويلة نهاية شهر أكتوبر قبل أن نعلم موعد الحرب لحضور حفل زفاف شقيقته ، غلبني حزني علي فراقهم وما شاهدته بعين رأسي وكيف نال الشهادة ، انهمرت دموعي ولا أعلم الوقت الذي ظللت أبكيه حتي شعرت بمن يمسك بيدي مهدهدا علي كتفي ، لقد كان قائد

الكتيبة المقدم/بهاء زايد الذي حل في القيادة مكان قائد الكتيبة السابق والذي أصيب ومازال يعالج بمستشفي المعادي.

نهضت مع الرجل والذي قدم لي مواساته وتهنئته علي معركتنا المجيدة ، في موقع قيادته اخبرنى بأنه كان يتمنى رؤية قائد مفرزة نطاق امن الفرقة وكيف أدار تلك المعركة التى اختلط بها الحابل بالنابل وما حدث لكم من خسائر وانجازات .. سألته عن نتائج تلك المعركة ، فتح أجندته وقرأ منها وانا أسجل فى ذاكرتى:

خسائر قواتك

عدد الشهداء من الصف والجنود ٦٤

من الضباط ٧

الجرحى من الصف والجنود ١٤٦

من الضباط ٣

خسائر المعدات

عشرة مدافع لسرية م/د الكتيبة

اثنين مدفع هاون الكتيبة

أربعة مدافع "جرينوف" رشاش

أربعة لوحة الكترونية توجيه صواريخ م/د

خسائر العدو:

سبعة دبابات مدمرة وواحدة سليمة غرزت فى الملاحات (الاجمالى ٨) دبابة

العربات المدرعة ستة مدمرين بالكامل

الأفراد ٨دبابة ×٤ فرد=٣٢ قتيل

عشرة فى عربة مدرعة انفجرت بهم بالكامل واحترقوا (١٠) قتلى

ثمانية من أفراد المشاة الميكانيكى قتلوا أثناء محاولة أسرك وذلك بواسطة الرشاش المتوسط (٨) قتلى .... هؤلاء من قتلهم الجندى الشهيد احمد همام بمفرده

الاجمالى=٣٢+١٠+٨= ٥٠ قتيل اسرائيلى

الجرحى خارج السيطرة لان العدو أخلاهم للخلف

الخسارة الكبرى لليهود هو عدم مقدرتهم على إنقاذ النقاط القوية التى سقطت تباعا

أعاد القائد الجديد ثناءه على قواتى وعلى نجاح مهمتنا وعندما لاحظ شرودى من كثرة عدد الشهداء والمصابين هون على قائلاً: تلك هى ضريبة الحرية وضريبة النصر .. لا يوجد انتصار بدون دماء .. ثم اخبرني بان طعام الإفطار سيصلنى وبعدها يأتي احد ضباط قيادة الكتيبة ليصطحبنى لاماكن التصوير متمنيا لى إقامة سعيدة بينهم.

تركنى متجها الى عمله بينما ظللت اجتر أحزانى على زملائى رغم علمى بكمية خسائرنا ولكننى لم أكن أتوقع هذا الكم الكبير وان نعبر القناة بدون ان يصاب اى منا وهنا تسفك دمائنا ومازلت أتذكر حديث الوزير معى ومع قائد الفرقة "حتكون معركة حديد مع لحم يا فؤاد" لقد صدقت سيدى الوزير لقد كانت هكذا لحم مع حديد فرم اللحم بواسطة الحديد وانصهر الحديد تحت قوة نيران الرجال.

أقف فى منطقة تدمير الدبابات المعادية والمخرج يوضح لى زوايا التصوير والفنيين والمعاونين بكاميراتهم وانا أقف بجوار ثلاث دبابات إسرائيلية مدمرة بايدى رجالى البواسل ومازالت رائحة تحلل الأجساد المحترقة بالداخل نفاذة ، تحدثت حوالى عشر دقائق عن مهمة وحدتى وموقعها وخلاصة

المعركة ونتائجها ، أشفق على المخرج من معاناة التصوير فأسرع بإنهائه شاكرا لى ،
نفحنى قائد القوة التى استولت على النقطة القوية رقم (٥١) قطعة من قماش العلم الاسرائيلى احتفظ بها خصيصا لى قبل ان اغادر الموقع عائداً الى منزلى.

***

شعرت برتابة الحياة فى مدينتنا فلم أجد بعد الصُحبة الطيبة ومازال باقى الشباب فى الجيش رغم ان وقف إطلاق نار قد بدأ لكن مازالت الثغرة موجودة وهناك تداخل بين القوات بين البلدين .. أتذكر أين انا الآن مما كنت فيه وانا جالس فى مستشفى المعادى اما الآن لا حول لي ولا قوة اترك امى لأجالس أبي وكل منهما يضع بعضا من المعاناة فوق كتفى لهذا المستمع الجيد .. أريد ان اعرف واعلم عن أخبار الأحباء لكن كيف؟ لا تليفون لدى لكى يتصلوا بى.

اتصلت بمنزل علا وجاء صوت ماما وداد رقيقا من الطرف الاخر للتليفون مستفسرة عن احوالى واخبرتنى بان جميع اخوتك بخير وفكرت بأن أرسل لك مدحت الى الزقازيق للإطمئنان عليك لكن علا قالت بلاش يا ماما ونخليه من غير إزعاج .. أجبتها أشكرك كتير يا امى وإنشاء الله فى اقرب فرصه سوف أكون بمصر واسعد برؤياكم جميعا .. انتهت المكالمة ، تنبهت علي أن علا تريد قطع حبل الصداقة بينى وبينهم.

كانت تنتابنى من حين لآخر مشاعر بالأسى لما حدث بينى وبينها ومازلت حانقا على ما بثه محمد فوزى فى عقلى وقلب حياتى الهانئة رأسا على عقب فلو لم يقل ما قاله لكنت الآن ارفل في نعيم السعادة معها.

فى الصباح التالى تشجعت واتجهت الى القاهرة محتاطا على نفسى وأخذت تاكسى من محطة القطارات حتى القلعة والسائق مشكوراً اوصلنى حتى باب

المنزل العتيق الذى يقع فى منطقة شعبية كثيفة السكان وهم أناس طيبى القلب والعشرة يسرعون للمساعدة والمساندة لأبطال الحرب على حد قولهم .. عاونني شابين من الحي حتى وصلت الى منزل عم عليوه. فتحت زوجته الباب مرحبة بى قائلاً : أهلا وسهلا أتفضل .. تعالى يا سحر شوفى مين عندنا. نظرت إليها وهي مقبلة بملابس المنزل وتغطى شعرها الجميل حتى لا يغبر بالأتربة. جاءت مصافحة بينما الام اتجهت الى الداخل لتوقظ الزوج عليوه .. حضر لاستقبالي وأنا أصافحه وتبادلنا القبلات ، شعرت بأن حالته الصحية سيئة وقال لي الحمد لله ، ربنا فرجها واعتبروا ممدوح شهيد وجابوا لى كل مستحقاتى اللى فاتت وربنا حيسترها .. اقترب منى لاهث الأنفاس قائلاً: كنت خايف عليهم يا ابنى. مين حياخد باله منهم بعد ربنا. ما فيش غيرك .. انا عارف أنت قدها وقدود ولكن الإنسان تقيل .. المهم اشتريت البيت ده من اختى يعنى بقى ملكى .. الشقة اللى فوق لو كان فىّ صحة وعمر حاجهزها لسحر تتستر فيها هيا وجوزها وتكون قريبه من أمها وأخوها حمدى الصغير .. يا دوب خمستاشر سنه .. إيه رأيك فى كلامى واللى عملته؟ .. ربت على يده قائلاً: خير ما عملت ، كنت فى شوق إليهم ، حضرت سحر حاملة الشاى لى ولوالدها وقدمت لها التهنئة علي ملكية المنزل. اقتربت منى وجلست بجوارى على الكنبة التى كنت اجلس عليها قائلة: صحيح يا خويا؟ .. انبسطت من عمايل بابا؟ .. أجبتها خير ما فعل وأجاد .. أقبلت ام حمدى كما كانوا يطلقون عليها بدلا من الغائب ممدوح .. شوف بقى أنت النهارده حتتغدى معانا .. حأقوم أجهز الغدا وخلى سحر معاكم تتكلم لانها مش بتخرج فى الشارع محبوسة فى البيت على طول .. قضيت نصف يوم فى منتهى السعادة وعدت الى مدينتى لأكمل اجازتى وراحتى.

***

أحداث متلاحقة :

اخبرنى أحد الضباط الكتيبة والذى كان فى مأمورية بالزقازيق بان مكافآت الحرب وصلت وقد منحت نوط الجمهورية من الطبقة الثانية .. أسعدني هذا ثم ذكر باقى المكافآت وان غالبية جنودى قد حصلوا على انواط هامة مثلى او نوط الشجاعة.

في احد الأيام جاء شقيق أحد الزملاء يخبرني بأن أسرة عم عليوه اتصلت بهم راغبين بزيارتهم فى القاهرة بأقصى سرعة .. أسرعت متجها الى القاهرة ووصلت إلي الحي وبعد أن اقتربت من المنزل شاهدت بعض كراسى بالشارع وبعض العامة من الحى يجلسون ، اقتربت أكثر وشعرت بإقباض بقلبى وكنت متخوفاً ان يكون قد حدث مكروه الى عم عليوه.

الباب مفتوح وبعض النساء بالداخل يرتدين الملابس السوداء ومنهن من تبكى وهنا شاهدتنى سحر فأسرعت الى تحتضننى باكية قائلة: اخويا .. بابا مات .. استندت بيدى على احد الحوائط القريبة منى ومازالت سحر قابضة على صدرى ، دفعتها برفق فقد شعرت بكرشة نفس .. اى لا استطيع استنشاق الهواء بحرية وبالكمية المطلوبة ، اتجهت للجلوس بالشارع وهى مازالت تراقبنى وقوفا على باب المنزل .. لا اعلم السبب فى هذا الشعور بالحزن العميق ، هل لاننى تعودت ان أناديه بابا عليوه او انه رجل يستحق منى كل هذا فهو أب للشهيد الغائب طيب القلب الذى أراد ان ينفحنى ببعض القروش البقشيش الذى حصل عليها من بعض الضباط ونحن عائدون من سيناء أو لأنه اوصانى بعائلته .. شعرت بان شيئا ثقيلاً وقع على وشعرت بعدم القدرة على التصرف ، أقبل البعض وأشار احدهم الىّ: ابن المرحوم .. صافحنى البعض مترحمين عليه وعلى أخلاقه مرددين: "البقية فى حياتك .. البركة فيك" اجتمع نفر من أبناء المهنة يقدمون مواساتهم لي واقترب منى احدهم قائلاً : يا ابنى المرحوم

حبيبنا .. ان مكنش لك فى مهنتنا انا مستعد اشترى العدة كلها .. نظرت إليه بضيق قائلاً: مهنة إيه وعدة إيه فى الوقت ده!!

تمت جميع الاجراءات بسهولة ويسر وقام رجال الحي بما هو واجب عليهم في مثل تلك الأحوال وهم أبناء البلد الذين يعتبرون ان المتوفى من الأهل ولم تظروا حضور ابنه الكبير من الزقازيق ليقوم باجرات الدفن .. رفعوا الخشبة ساروا الى المدافن ولم تكن بعيدة ووراى جسده التراب والنساء تبعتنا لتعزفن اللحن الجنائزى المصرى الشهير.

انتهت الجنازة واخبرنى احدهم بان "القعدة" يقصد تقبل العزاء حتكون فى ار الضيافة توفيرا للنفقات .. بدا يتلاشى الجمع حتى بقيت والسيدة ام حمدى حمدى وسحر وبعض النسوة لتكملة الكوبليه الأخير من المقطوعة الجنائزية .. دنا الى المنزل وقد كان باديا عليهم الهدوء والسكينة بعكس حالي .. جلست نعزلاً بإحدى الحجرات رافضا الطعام او القهوة التى تقدم فى مثل تلك الأحوال قابا للمعزيين لحضورهم فهى رديئة الى أقصى درجة وطعمها علقم الى أقصى د .. حاولت سحر محادثتى وهي تخبرنى قائلة: ما أنت عارف ان بابا كان عبان ومستنى اليوم ده .. هوه قال كده إيه اللى مزعلك كده؟ .. نظرت إليها مازالت اثار دموع محبوسة فى عينيى لم تخرج بعد .. يتوالي حضور ومغادرة عض المعزيين وخاصة النساء وإحداهن تتساءل عن هذا الشاب فتخبرها سحر او وجة المرحوم .. ده ابن المرحوم الكبير .. تعيد حديثها ربنا يعوض عليكم .. لكن ا أختى انا مشفتوش من يوم مجيتو من بورسعيد؟ ميكونشى مراته كانت منعاه جيلكم .. تخبرها بأنه مازال أعزب ولم يتزوج بعد .. تعيد السيدة قولها : خير ما عمل اما عندى له عروسه تقول للقمر قوم وانا اقعد مكانك!! .. انفعلت سحر .. عنى ده وقته .. اعتذرت السيدة: ايوه صحيح يقطعنى .. خلاص فى الخميس لكبير أجيبها معايا .. سمعت هذا الحديث وانا اشعر ان الناس فى مصر تعيش

فى عالم آخر .. فإن كل ما يريدون فعله وعمله وقوله يندفعون للقيام به دون مراعاة اى شىء ليس هناك محاسبة للنفس قبل التصرف او التحدث .. أمضيت ليلة بائسة فى برد الشتاء وانتهى العزاء وأردت العودة الى بلدتنا ولكن ام حمدي رجتنى ان انتظر الثلاثة أيام وقالت: تعالى على نفسك يا ابنى .. المطرح واسع وممكن تنام مع أخوك حمدى ، كان باديا علي الفتي اثر وفاة والده وقد الجم الحزن لسانه فما زال شاب صغير وأكمل عامه السادس عشر منذ عدة أيام.

بعد قليل شعرت بى سحر فجاءت وجلست بجوارى ملتصقة بى باكية الأب الغالى الحنون طالبة منى بحق البنوة التى بدأتها مع أبيها ألا أتخلى عنهم وتخبرنى بان الناس فى بعض الظروف يستحلون كل شىء فى الضعيف مكسور الجناح وأنت ترى ما نحن عليه ولم يتبق لنا شىء حتى عمتى بعد بيع منزلها لنا غادرت المنطقة الى حى إمبابة فكن قريبا منا حتى نشعر بأمان ولقد تعمدت ان اخبر أبناء الحى بأنك أخانا حتى لا يطمع فينا احد والطامعون كثيرون وكل له رغبة فى شىء ما .. هدأت من روعها. قالت: انك تذكرنى بابى .. أشكرك اخى. تبادلنا نظرات حزينة ولا اعلم كيف كنت أحادثها.

انتهت الأيام الثلاثة وانا راغب في العودة الى منزلى لأستريح واحصل على حمام وأغير ملابسى .. ودعتهم من خلال دموع الفراق ووعدتهم بسرعة عودتى إنشاء الله. عدت احمل معى أحزان وداع عم عليوه وتركتهم يتصرفون فى العدة فليس لى دخل بها. انا أخ معنوي فقط لكن فى أمور الحلاقة والعدة فليس لى معرفة ولا خبرة بها.

صباح اليوم التالى حضر ساعى من سنترال المدينة طالبا مقابلتى وسلمنى خطابا مرسل من السنترال بالتوجه للتعاقد على تركيب خط تليفونى بناء على خطاب شئون ضباط القوات المسلحة رقم .. وتاريخ .. أبدلت ملابسى واتجهت الى السنترال بالخطاب فوجهنى البعض الى مكتب التعاقد

وهناك قابلنى الموظف بترحاب واظهر لي العقد لأوقع عليه وطلب منى توريد مبلغ من المال للخزينة لزوم التركيب وانه فى صباح الغد ستصلك العدة وقبل الظهر تصلك الحرارة .. لم اصدق ما انا فيه تركيب تليفون عام ٧٤ بتلك السرعة .. آه .. تذكرت السيدة جيهان السادات فى زيارتها لى فى مستشفى المعادى وهي تسألنى ماذا تطلب؟ طلبت منها تركيب تليفون بمنزلى. قام احد معاونيها بكتابة بياناتى .. لقد نسيت هذا ولكن كل شيء سار فى طريقه وسوف يصبح لى رقم تليفون مكتوب بالعقد .. فى الصباح حضر العمال وركبوا العدة وقاموا بشد السلك فى الشارع والناس في حالة من الانبهار بان احد جيرانهم استجاب الله الى دعائه فى ليلة القدر وسيتم تركيب خط تليفونى له .. حضرت بعض نساء الحى تباركن لوالدتى هذا الحدث السعيد وحصلوا منها على رقم التليفون لتبليغه لأقاربهم وخاصة المسافرين للخارج للاتصال بهم وقت الضرورة .. آخر النهار وصلت الحرارة بسلامة الله واخوتى الصغار يلعبون فى قرص التليفون كل فترة فرحين به.

فى مساء احد الأيام اخبرتنى امى بان السيدة روز اتصلت بك وأنت فى زيارة صديقك وهي تخبرك بأنهم راغبين بأن تقوم بزيارتهم باكر لأمر هام ، حاولت إستيضاح الأمر من أمى عن سبب ما أخبرتها به ولكنها لم تحدثها عن شيء وأخبرتني بأنها شعرت من المكالمة بان شيئا غير سار بمنزلهم .. أدركت على الفور ان ماما مارى توفيت واتجهت الى سريرى فوراً لأحصل على قسط من النوم والراحة لكى أتوجه إليهم مبكراً وانا مشفق على روز فسوف تصبح الوحدة قاسية عليها ، لا استطيع الاتصال بها الأن فالوقت متأخر وعلى ان اتجه للسنترال واحجز المكالمة وأتكلم من هناك او تحول المكالمة الى منزلى. الصباح رباح كما يقولون ، طلبت من امى ان يوقظنى والدى فى الصباح

حيث يستيقظ مبكراً للصلاة ثم يخرج لشراء الخبز من الفرن لتلافى الزحام الذى يحدث بين الناس.

اليوم التالى صباحاً اقتربت من منزلهم فى حى الضاهر ولم أجد اى علامات او إشارات في الشارع كما شاهدتها حين وفاة عم عليوه الشهر الماضى قلت فى نفسى الوقت مبكر فقد اقتربت الساعة من الثامنة صباحا .. ضغطت على جرس الباب ففتحت لي روز الباب ثم اندفعت في البكاء وهي ترتدى ملابس الحداد واستمرت فى بكاءها الشديد وسمعت صوت ماما مارى وهى تسأل "مين اللى جه يا روز" فتجيبها .. أسامة يا ماما .. اسمع نحيب السيدة عند سماع اسمي. اتجهت إليها وانا فى دهشة ..أشاهدها راقدة فى سريرها وهى باسطة ذراعيها لى وانا اندفع إليها احتضنها .. خير يا ماما؟ .. بكت قائلة: أخوك .. دهشت وقلت فى نفسى هل حضر آخى الأكبر وتشاجر معهم؟ .. ولماذا؟ .. اتسائل مرة أخرى ماذا فعل؟ تجيبنى لم يفعل لكنه انتقل الى الأمجاد السماوية .. مازلت لا اعلم ما حدث وماهى الأمجاد السماوية .. اسألها من هو؟ .. بكت روز وهى تخبرنى .. عاطف !! .. لقد استراح .. شعروا بأنى لا اعرف معنى تلك الكلمة انتبهت على صوت روز وهى تقول: بنقولك أتنقل للأمجاد السماوية يعنى راح جنب الأب ويسوع!!!! يا للعجب هذه هى الأمجاد السماوية .. اردد عاطف حبيبى ؟ يهزون رأسهم بالتأكيد .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. إيه اللى حصل؟ اخبرتنى روز ومازالت عيونها الخضراء بها سحابة حمراء من البكاء حيث قالت: امبارح بعد المغرب اتصلت مراته وقالت انه تعبان شويه ثم خرجت روحه الطاهرة الى السماء لتسكن بجوار الشهيد وليم.

أصابنى الصمت ولا اعرف كيف اقول فى مثل تلك الظروف .. لقد قلتها منذ سبع سنوات الى عاطف .. اقرأ الفاتحة على روح وليم .. لكن يجب ان

اقول شيئا مناسبا ولا اعلم عن تقاليد المسيحيين فى مصر أي شيء. أحببتهم ولكن لا اعرف تقاليدهم ، سكنت قليلاً واخبرتنى روز بأنها سوف تستعد لنتوجه سويا الى منزله لنرافقه الى الكنيسة للصلاة على الجثمان ثم نودعه مع الاهل والأحباب.

مازلت جالسا فى انتظار ان تنتهى روز من استعدادها لمرافقتى للذهاب الى منزل عاطف ولم اعد أرى اى شيء امامى حتى ماما مارى لم أشاهدها وكانت تحدثنى وانا عنها غافل وكل ما أتذكره هو رقة ومشاعر هذا الإنسان الوديع عاطف ، غالبتنى دموعى المتحجرة والتى عكرت صفو هذا اللقاء وصنعت سحابة أمام عينى وقللت ما أشاهده بدون سقوط دمعة واحدة لتغسل هذا الحزن الدفين في قلبي .. أقبلت روز قائلة انا مستعدة بينما ماما ماري قالت: صحتى مش قادره على المواقف دية.

اتبع روز فى سيرها بالشارع واستأجرت تاكسى وإتجهنا الى منزل عاطف ، هناك شاهدنا حشداً من الرجال والسيدات والتقيت بزوجة عاطف وقدمت لها واجب العزاء والي عم غبريال والد روز أيضا وبعض القساوسة ، أسير معهم من هذا المكان الى الكنيسة وتقام الصلوات عليه وحضر عدد من زملائه من ضباط الشرطة وكنت مازلت أتذكر هذا الإنسان الرقيق رغم صوته القوى الجهورى لكنه عبارة عن قلب ابيض يتحرك .. أتذكر كل محاسنه لاننى لم أقابل اى مساوىء منه فهو كان بمثابة الأخ الأكبر لى وكان يعطف على من أول لحظة استقبلني فيها بقسم الشرطة ثم مروته معى وايصالى الى إدارة سلاح المشاة واقرضني خمسة جنيهات وساعدنى فى معرفة صاحبة السيارة المرسيدس وزيارته لى بالمستشفى وحبه لى. ما زلت استرجع هذا الشريط الوضاء من حياته .. انتهى نصف اليوم وارى جثمانه التراب وأتذكر كلمته

وهو يقول وليم أحسن منى .. انا فى يوم سأقابل الرب ويسوع ولكنى لم أفيد بلدى بشىء مثله.

عدت الى منزل اسرتى وأخبرتهم نبأ وفاة الصديق عاطف وحزنا على هذا الشاب الذى لديه طفلان صغيران .. اتجه الى سريرى بعد ان تناولت كوبا من الشاى يعمل على إصلاح حالتى النفسية واعدت شريط الأمس وصباح اليوم.

***

فى احد الأيام اخبرنى أبى عن صديقه المهندس وأن له ابنة تدرس بالجامعة. يواصل حديثه: هو رجل فاضل واسعد بلقائي معه .. زودنى ببعض المعلومات والبيانات عن ابنته لاتجه الى الكلية التي تدرس بها ، خاصة ان والدتى كانت دائمة الرغبة لأن أتزوج وهى تخشي ان تقوم حرب أخرى وأموت فيها ولا تكون لدى ذرية .. حملت رغبتها بجد واهتمام وذهبت الى الكلية وهناك تعرفت على شاب هو الأخ الأصغر لأحد اصدقائى واستفسرت منه عن الفتاه وسأل زملائه وزميلاته وأشاروا إليها .. تابعتها وأعجبت بملابسها المحتشمة ووقارها وهى تداعب صديقاتها .. تكررت متابعتي لها عدة مرات بعد ذلك حتى تأكدت انها الزوجة المناسبة لى.

أخبرت أبى برغبتى بالتقدم الى عائلتها واخبر صديقه وبالتالى تحدد موعداً للقاء الأسرتين .. هناك فى المنزل تعرفت الأسرتان وتعددت زيارتى لهم ووافقوا على مصاهرتى وهكذا بدأت اعُد نفسى نحو حياة اجتماعية سليمة .. تمت الاجراءات الرسمية فى مثل تلك الأحوال .. وبعد عامين تزوجنا وكانت فى العام الدراسى الأخير وأنجبت ابنتى الأولى قبل حصولها على درجة البكالوريوس .. استمرت حياتى .. اعمل وأتابع اسرتى الصغيرة.

عام ٧٥ ابلغتنى إدارة سلاح المشاة بترشيح رياسة الجمهورية لى مع عدد من الضباط للعمل بالمخابرات العامة وتحدد موعد ومكان الاختبار وهذا يعتبر

شيئا سعيدا لاى ضابط لما فيه من مميزات وتقدير من الجهات المسئولة ، عقد امتحان على مستوى عال من الذكاء والمهارة فى الاختبارات الحديثة وبعد ستة أشهر حضر الى وحدتى احد ضباط المخابرات العامة ليبلغنى بنجاحى والاستعداد لانتقالي من وزراة الحربية الى المخابرات العامة وقابل قائدى وطلب استكمال بعض بياناتي الشخصية كما اخبرنا بأنه خلال أسبوع سوف يحضر لاصطحابي الى الجهاز وحضور دورة تدريبية لإعدادى لهذا العمل الجديد علىّ ، مضي أكثر من شهر وقائدى يستفسر مني عما تم وانا اخبره باننى لا اعلم شيئا .. مضي شهران وتوجس الرجل شرا فذهب الى القاهرة وهو برتبة لواء وله من الزملاء والأصدقاء الكثيرين وجاء حاملا بخبر ضايقه وآلمنى .. استبعادى عن تلك الوظيفة المرموقة وحصول آخر عليها بدلا منى وهو ابن احد المسئولين الكبار بالدولة.

الختام :

تركت الخدمة العسكرية فى بداية عام ٨٤ وانا برتبة العقيد بين استهجان وانتقاد الاهل والأصدقاء الذين حاولوا اثنائى عن هذا ولكن انتابنى شعوراً باننى لن استطيع ان أقدم لبلدى فى هذا المكان المشرف لكل مصرى وطنى أكثر مما قدمت وشعرت به من خلال الاحداث السابقة التى رويتها فى الفصل السابق بان الحق والتقدير ليس له معايير حقيقية ولأتركهم يقدرون ما يريدون بعيداً عنى ويكفينى ما قمت به لبلدى خلال الفترة الهامة فى حربين معلنتين(٦٧ .٧٣) يتخللهما حرب الاستنزاف وقاسيت فيها ونزفت خلالها من دمائى الكثير وقمت بما استطيع القيام به وقد يكون هناك الأشجع منى وأعطوا لبلدهم أكثر ولكن الله جعل لكل إنسان قدرات ويكفينى باننى لست جبانا وعبرت

مع جنودى بجرأة ولم ارهب الموقف حتى سقطت جريحا وغير قادر على عمل اى شىء حتى الواجب الانسانى بمساعدة القائد الاسرائيلى الذى تسبب فى كل تلك الخسائر بنا وبى شخصيا كنت أحاول إنقاذه وهو مسجى امامى صارخا من قسوة النيران المشتعلة به وانا أحاول إنقاذه ولكن حروق يدى التى تسبب بها عرقلتنى من ان أقدم تلك المساعدة الإنسانية .. التزمت منزلى فترة لا أريد ان أحادث أحدا

لم يكن تفكيرى فى ترك الخدمة وليد تلك اللحظة بل كنت راغبا فيها من قبل ولهذا بدأت الاتصالات للوصول الى بغيتى ، طلبت من احد القادة الذى اعتز بهم ويعتز بى ويقدرنى بان يساعدنى فى ان أحال الى التقاعد فى النشرة العسكرية القادمة حاول الرجل ان يقنعنى بخطأ قرارى ولكنى كنت سائراً فى رغبتى وأثناء انتظارى لتلك النشرة التى ستغير من حياتى القادمة الى المجهول بحد عينه تقابلت مع سيادة الفريق أول محمد احمد صادق وزير الحربية الأسبق وهو رجل ذو خلق واعرفه من خلال دراستى بالكلية الحربية فى منصب كبير المعلمين ولا اعرفه شخصيا تقابلت معه فى إدارة مرور الشرقية فقد كنت ذاهبا لزيارة احد ضباط المرور التى تجمعنى به علاقة معرفة وليست صداقة حيث كان معسكر وحدتنا مجاور للمرور وهناك تقابلت معه فجأة بدون موعد وقد أحيل الى التقاعد أثناء حكم الرئيس السادات وأثناء حديثى معه والذى زودنى بالكثير عن تاريخ ثورة يوليو وقبلها ومآثره مع الراحل السادات وعندما أخبرته بنيتى عارضنى هو الاخر.

أخيرا ظهرت النشرة العسكرية وقرأت اسمي بها .. الترقية الى رتبة العقيد والإحالة الى التقاعد .. اصابتنى الفرحة والحزن فى نفس الوقت .. هاجمنى الشعوران: الاول وهو الفرح لاننى حققت رغبتى ، والثاني: حزنى لاننى ساترك تلك الحياة الحافلة بالإحداث وما تعودت عليه من النظام العسكرى ودقة العمل

ولكنى هيأت نفسى لوضعى الجديد وان الله لا ينسى عباده أبدا ولا يجب ان يعمل الإنسان وهو كاره لعمله ليس لطبيعة العمل ولكن للمتسلقين الذين يجهزون على كل بادرة أمل وخير فى أبناء هذا الشعب وهم دائما جالسين بالمرصاد للقيام بهذا العمل الذى لا يجيدون سواه .. الصيد فى الماء العكر وتلويث سمعة الشرفاء وجنى محصول وعرق الآخرين.

شئون الضباط ابلغتنى إذاُ كنت راغباً فى الاعتراض على قرار تقاعدى فى النشرة العسكرية مع آخرين ان أتقدم بطلب لهذا طاعنا فيه وهم سيبحثونه ويجرون معى مقابلة بأحد المسئولين فى شئون الضباط ، رفضت هذا وبعدُ مضي الفترة الزمنية المقررة على الاعتراض تقدمت الى المجلس الطبى العسكرى لتقرير حالتى الصحية من اثر الإصابة مزوداً بكل التقارير الطبية والإشاعات ، صدق المجلس على اننى غير لائق للخدمة العسكرية بسبب اصابتى فى العمليات الحربية ونسبة عجز ٢٠% وهذا يتيح لى ان أظل اخدم فى القوات المسلحة حتى الترقى إلي رتبة اللواء ثم أحال الى التقاعد وكنت اعلم هذا ولكنى أجلت العرض علي المجلس الطبي العسكري منذ عام ٧٤ حتى عام ٨٤ حتى أحال بقوة القانون.

***

اشتريت قطعة ارض بمنطقة الصالحية وقمت باستصلاحها وأثناء ذلك عُرضت علىّ بعض الوظائف المدنية لاننى حاصل على بكالوريوس تجارة شعبة محاسبة عام ٧٩ وبكالوريوس آخر شعبة إدارة أعمال عام ٨٠ ولكننى كرهت اى وظيفة واى رئيس .. مكثت فى مجال الزراعة فترة ثمانية أعوام تعلمت فيها الكثير وفلحت كما يقول العامة واصبحت خبيراً فى هذا المجال تحت ضربات الخسارة والنجاح والتجارب التى مررت بها.

جاءت لي فرصة للهجرة الى الولايات المتحدة فحملت اسرتى متجها الى تلك الدولة التى نكره المسئولين بها ونحب شعبها الطيب الذى لا يعلم من أمور السياسة شيء فهو شعب مغيب تحت سيطرة وسائل الاعلام ، تعلم ابنائى وتخرجوا من الجامعة وعاد بعضهم ليفيد بلدهم والبعض انتظر حضوره وليكملوا منظومة ان المصريين يكرهون الاغتراب هذا صحيح فرغم تطور هذا البلد لكن مصر لها روح وطعم غريب لا ينساه ابنائها حتى الأمريكان الذين تعرفوا علينا وجاء عدد منهم لزيارتنا ، تكررت عودتهم لهذا البلد الطاهر.

كنت أداوم علي الاتصال بأسرة ماما وداد كل عدة أشهر قبل سفرى وبعدها وحضرت زفاف علا وبعدها دينا وباركت لهما تلك الأفراح ومازالت العلاقة حميمة حتى بعد وفاة تلك السيدة العظيمة التي تعاملنى كابن لها وفتحت باب الفيلا وأحضان الام لى مثل ابنائها ولم تسمعنى كلمة تؤثر على احساسى فى يوم من الأيام.

عام ٢٠٠١ وأثناء زيارتى السنوية الى مصر قادما من امريكا كنت أهم بمغادرة احد محلات الحلوى الشهيرة بميدان الجيزة حيث توجهت لشراء علبة حلوى بمناسبة ترقية مدحت الى رتبة اللواء وإحالته الى التقاعد فوجئت بها امامى انها رابحة. نظرت الى ونظرت إليها .. قالت أوعى تكون أنت؟ أجيبها هو انا .. كادت ان تطير فرحا من فرط السعادة ، يحيط بها اثنين من الشباب تعدت أعمارهما الثلاثين عاما ، نظرت إليهما وهي تشير إلىّ ، هذا هو عمو أسامة الذى وقف بجانبى وانا فى سيناء فترة حرب عام ٦٧ وبفضل هذا الرجل وزملاءه من الدفعة قدموا لي الكثير وأنت طفل صغير ، أشارت الى احدهما قائلة هذا هو ابني الأكبر سليمان. رحب بى الشاب كثيراً ، أشارت الى الثانى ، هذا ابني صالح وابن الشهيد عامر زميلكم "كانت تضغط على الحروف" ناظرة لى بشيء من التحذير رحبت به هو الاخر وبادلني الترحيب ، صممت على ان أتناول شيئا معها فأخبرها احد

ابنائها بانهما يعتذران ويطلبان الأذن بتركنا لالتهام الحلوى لأنهما علي موعد. أذنت لهما وأخبرتهما بأنها سوف تستقل تاكسيا الى المنزل. ودعنى الشابين برجاء ان ازورهم بمنزلهم.

اتجهنا للجلوس علي احدي الموائد وقصت على قصتها ومأساتها منذ افترقنا في سيناء قائلة: لقد عبرت القناة بمعاونة بعض قوات حرس الحدود المصرية واتجهت الى خالتى .. ثم قمت بزيارة زوجى عدة مرات بالسجن وطلبت منه الطلاق وبعد ان شاهد ابنه وسعد به وافقنى على طلبى واخبرنى بأنه يجب علي الاتصال بصديق له زودني باسمه وعنوانه وعلى ان اخبره بكلمة سر بينهما. قابلت صديقه الذى سلمنى مبلغ عشرون ألف جنيه فى عام ٦٩ وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت .. اشتريت منه شقة فى شارع فيصل حديث الإنشاء وكانت الشقة رخيصة الثمن ثم عملت فى هذا المحل ، محل الحلوى عاملة وقمت على رعاية ابنائى وعلمتهم وتخرجوا من الجامعة والكبير سليمان تزوج والثانى صالح يستعد ، اطلب من الله ان يسامحنى فيما اقترفته من معاصى.

ضحكت قائلة مش قابلت الحاج .. اسألها من هو؟ .. تجيبنى الحاج جويلى الدفعة اللى كان معاكم وسألته عليك واخبرني انه لا يعرف عنك شيئا ويتمنى هو وزملائه ان يروك ، فتحت شنطة يدها واخرجت اجندة صغيرة وزودتنى برقم تليفونه واستفسرت منها قد يكون الرقم تغير من القدم ولكنها اخبرتنى بان هذا اللقاء تم فى الشهر الماضى عندما حضر لهذا المحل مع احد أبنائه لشراء بعض الحلوى.

زودتنى بعنوانها ورقم تليفونها طالبة منى زيارتها وان تلك الأيام لن تنسى لانها أيام صعبة عسيرة وكل من تصادق خلالها هم أحباء وإخوة ، قبل فراقنا أخبرتها .. رابحة أنت مازلت جميلة .. ضحكت من كلامى قائلة: "فات الميعاد وبقينا بعاد .. فاااات الميعاد " ودع كل منا الأخ.

عدت الى منزلي بالزقازيق واتصلت بالصديق جويلى والذى جاء صوته من الجهة الأخرى ولم تغيره السنون والأعوام فى نبراته. هذا الصوت الذى تعودت عليه وحفظته فقد استمر معى أربعة أسابيع ليل نهار لا نسمع سوى أصواتنا نحن الستة أثناء الإنسحاب .. في باديء الأمر لم يصدق وكان يصرخ ويسأل عن أشياء كثيرة فى وقت واحد ، طلب منى ان أقوم بزيارته او يأتى هو لزيارتى وعندما علم باننى سوف اغادر القاهرة بعد عدة أيام طلب عنوانى واتى لزيارتى بالشرقية من بلدته بأحد مراكز محافظة الفيوم ، كان مشهداً مؤثراً وهو يحتضننى مرحبا بى ويقبل كتفى ويسأل عن كل شيء ويخبرنى بأنه هو وزملاء الانسحاب"مصطفى وعطية وفراج" يتقابلون كل عام فى بلدة احدهم .. اسأله هل انتم على اتصال وتعرفون عنواين بعضكم البعض .. ضحك وقال بقينا نخدم بنفس الكتيبة حتي نهاية عام ٧٤ ولكنك الوحيد الذى تركتنا إلى وحدة أخرى ولم نستطع معرفة عنوانك لكن الحمد لله ثم سألنى من أين حصلت على رقم تليفونى؟ أخبرته فضحك واخبرني بأنه كان سعيداً بمشاهدتها رغم ما حدث منها من أفعال ولكن الله غفور رحيم .. طلب مني أن أقسم بحياة ابنائى ان أقوم بزيارته عند حضورى كما انه سوف يخبر زملائنا بهذا اللقاء.

نهاية عام ٢٠٠٤ وابني طارق يستعد للزواج من فتاة مصرية تقيم بالقاهرة وبعد الزفاف يصطحبها عائداً الى الولايات المتحدة وبعد نهاية الحفل الزواج سوف اتجه برفقة زوجتى إلى الاراضى السعودية لأداء فريضة الحج ، اتصلت بكلّ من مدحت وعلا ودينا وروز وسحر لحضور حفل الزفاف كما دعوت محمد فوزى الجندى الذى كان معى بالكتيبة وأردت ان أرسل معه برسالة الى منزل علا فاخبرنى بعلاقتهما والتى كانت السبب الرئيسى فى إلغاء اى علاقة رسمية معها ، اما عن سبب دعوتى له فقد قابلنى مع اسرتى والعروس أثناء

شرائنا بعض مستلزمات الفرح وبالتالى أخبرته وعلمت منه انه يعمل كرئيس مجلس إدارة لإحدى شركات المجمعات الاستهلاكية.

ليلة الزفاف افاجيء بحضور كل من دعوتهم لحضور تلك المناسبة .. حضرت سحر بصحبة زوجها وابنها وابنتها وخطيبها .. ثم حضر مدحت وزوجته وعلمت منه ان جميع بناته قد تزوجن وأنجبن وأصبح جد ثم أقبلت علا ، هى كما اعرفها فمازالت جميلة رقيقة وبصحبتها ابنها وزوجته اما ابنتها فكانت مشغولة مع زوجها ثم لحقت بهم دينا وابنها وعلمت ان زوج علا توفى منذ عدة أعوام .. فجأة أقبلت روز وشاهدتها كما هى منذ أول لقاء لنا. جمالها البارع وطريقة سيرها مرفوعة الرأس وقفت امامى وانا لا استطيع ان أتحرك فى اتجاهها للقائها. ابتسمت وهى تصافحنى .. مبروك أسامة .. خلاص كبرت وحتبقى جد .. زى حالاتى .. اسألها بدهشة هل تزوج عزيز؟ تجيبنى بسعادة .. ياه!! منذ خمس سنوات ولديه ابنان"الكبير وليم والصغير عاطف" لا املك غير ان اقول الله .. كنت ارغب فى مشاهدتهما .. ضحكت وقالت إنهما قادمان بعد دقائق لان عزيز قابل صديقه وزوجته ويتحدثان سويا.

حضر عزيز وزوجته وطفلاه ، انحنيت اقبلهما وانا سعيد لما شاهدته ، أقبلت زوجتى تصافحهم وتشيد بذوق روز فى اختيار ملابسها كما أشادت بجمالها قائلة: أنت أجمل من الصورة ، نظرت إليّ روز متسائلة: ألا زلت تحتفظ بصورتى؟ أخبرتها مؤكدا علي ذلك وبأنني مازلت محتفظا بها لكن زوجتى لم تغضب من هذا الحديث وروز هى الأخرى أكدت لى بان صورتى رفيقة بصورة وليم وعاطف وماما مارى.

بعد قليل اقبل محمد فوزى برفقة كلّ من زوجته وابنته ، تصافحنا وتبادلنا التحية وكنت سعيدا بحضوره مع أسرته ، أخذت بيد محمد فوزي واتجهت به جهة المائدة التى جمعت كل احبائى(مدحت وأسرته وعلا وأسرتها ودينا وأسرتها

وسحر وأسرتها وروز وأسرتها) أشير إليهم متسائلا: أتعرف هؤلاء؟ نظر ثم اخبرني قائلاً : لا اعرف اى منهم ، أعيد ثانية. وتلك السيدة الجميلة والتى وقفت الآن. يعيد لا اعرفها. أوضح: انها علا. نظر إلى متسائلاً: علا!! .. من تكون علا؟ .. أوضح: علا حبيبتك أثناء فترة الدراسة بالجامعة. أعاد قوله: لا اعرفها. حاولت تنشيط ذاكرته. أخيرا تذكر ضاحكا .. آه .. ياه !! أنت لسه فاكر؟ .. انا كنت بأضحك معاك ، انا عمرى ما شفتها .. اسأله ولماذا قلت ما قلت وكانت كل معلوماتك صحيحة .. يوضح: كنت اعرف شقيقها مدحت ونحن فى المرحلة الثانوية ثم التحق هو بالحربية وانا بكلية التجارة. اسأله هل أنت خريج تجاره ام علوم؟ نظر الى قائلاً: ازاى خريج علوم يبقى محاسب وبعدين يترقى لحد ما يوصل رئيس مجلس إدارة. انا محاسب .. أعيد سؤالى : لكن لماذا قلت هذا ؟ ضاحكا كنت أسليك فقط وأشجعك على إرسال الخطاب معى لأحصل على إجازة. نظرت إليه بضيق وأخبرته قائلا: الله يخرب عقلك .. أنت عارف إيه اللى حصل من كلامك؟ شرحت له كل شىء وكان الرجل في حالة من الدهشة وشمله الحزن لما سمعه منى واعتذر وندم على اساءتة لسمعة فتاة.

ضرب قورته بيده قائلاً: تصور !! فهمت الآن ان الله انتقم من حديثى السيء والضحك والهزار. ابنتى الوحيدة التى تصحبني الآن "رانيا" وقد رزقت بها بعد أربعة أولاد والتى تجلس بجوار والدتها .. تصور بعد ما تمت خطبتها ألغى العريس الخطبة فجأة وبعد عدة أسابيع علمت من زميل لى بان العريس اخبر خالته وهى زوجة صديقى بان السبب فى إلغاء هذه الخطبة انه علم من شاب صديق له بان ابنتى وهى فى المرحلة الجامعية كانت على علاقة بشاب فى الجامعة رغم ان فترة دراستها الجامعية كانت بألمانيا برفقة والدتها. كنت في دهشة لكن الآن علمت ان الله انتقم منى فى ابنتى وهى اعز إنسانة عندى

وقد ادخل هذا الحزن إلى أسرتنا جميعا. قال بحزن ..آه .. داين .. تدان .. داين .. تدان .. سمعته وانا غير مصدقا ما قاله وأقول فى نفسى ببساطة هكذا نوزع الأخبار والإشاعات على أمهات المستقبل .. انه شيء سيء للغاية.

شعرت بان اخواتى واخوتى موجودين حولى بخلاف اشقائى .. وكلما نظرت جهة احد منهم أشاهد السعادة واضحة من خلال ابتسامتهم وخاصة أنهم جلسوا جميعا على مائدة واحدة بعد تعارف واسترجاع ذكريات عام ٧٣ ونحن فى مستشفى المعادى ولم يغب عن الحفل إلا الكبار الأمهات" مارى ووداد وعزيزة حلمى وعم عليوه" وقد اسعد هذا ابنى وبناتى بهذه الباقة من الأصدقاء والصديقات فقد سبق وأخبرتهم قبل الزفاف باحتمال حضور عدد من الضيوف وأوضحت لهم مدى أهمية هؤلاء بالنسبة لى وأنهم الذين ساندونى فى محنتى أثناء العلاج من إصابات الحرب ومدى تأثير زياراتهم ورفع معنوياتى.

قبل حلول شهر رمضان الذي اقترب ونحن في عام ٢٠٠٥ عُدت من الولايات المتحدة بغرض الاستقرار فى مصر واتصلت بالصديق جويلى الذى صرخ فى التليفون بان أقوم علي زيارته ، أخبرته: سوف يحدث هذا وكان سعيدا وأستفسر مني عن موعد الزيارة فأخبرته بالموعد ، أعاد حديثه بأنه سوف يتصل بأصدقاء رحلة الانسحاب قبل وصولى إلي الفيوم.

هذا هو اليوم المحدد لي لزيارة ولقاء الأصدقاء الرجال الأبطال ،اتجه بالسيارة الأجرة إلى الفيوم لمقابلة جويلى وزملاء رحلة (٢٨) يوما التى لا تنسى ، أتذكر بعض الخواطر ومنها ليلة قيامنا بالمشروع وحضور الرئيس عبد الناصر فجأة وبعد ان غادر موقعنا أنتقدني بعض جنودى .. (بقى ده معقول يا فندم لما ييجى مقدم وإلا عقيد تجرى لهم وأنت لابس الخوزة ومعاك الأوراق والخرايط ولما ييجى الرئيس بنفسه تقوم تمشى على مهلك وأنت رايح تقابله وقالع راسك ولا خوزه ولا خرايط .. الحمد لله ان ربنا عداها على خير) ضحكنا

بعد هذا وانا أمازحهم وأتذكر فيلم غزل البنات للمبدع نجيب الريحانى عندما ذهب لمقابلة الباشا فشاهد رجلا أنيقا فوقف يجله ويحترمه وبعدها علم انه مخصص لرعاية الكلب وبعدها شاهد رجل آخر قادما حاملا سبت به خضروات ومقص لتقطيع وتقليم الأشجار فاعتقد انه الجنايني .. انه التباس المظهر وهذا ما حدث معى بالضبط .. العربات الجيب اربعه باب مخصصة لكبار القادة عقيد وعميد اما السيارات الجيب اتنين باب مخصصة لرتبة الرائد والمقدم وبعض الأحيان النقيب اما الملازمين فعليهم السير او الجرى .. ولهذا عندما شاهدت السيارة اتنين باب تأكد لى انها رتبه صغيرة وخاصة ان السيارة قديمة ولكنها طلعت انها بتاعة الباشا وبتاع الكلب ركب مكان الباشا .. ضحكنا على هذا التشبيه وهذا الخلط.

اليوم الاول من شهر رمضان المبارك موعد زيارتى للفيوم وها انا قد وصلت الى المركز الذى يتبعه جويلى وأشاهده جالساً مع بعض أبنائه. وقف مرحبا بي بمجرد هبوطى من السيارة وتعانقنا سويا .. انه الزمن فقد ظهرت عليه علامات الشيخوخة مثلى ويرتدى نظارة طبية لضعف نظره الذى كان حادا وقتل القناص الاسرائيلى الذي كان بالطائرة الهليكوبتر أيام الانسحاب ، نتجه سويا الى سيارته التى يقودها احد أبنائه لنتوجه الى قريته او بلدته وأرضه بعد ان قطعنا شوطا فى الصحراء والرمال من حولنا .. شاهدت جنة خضراء على مرمى النظر. ضحك وهو يشير قائلاً : خلاص وصلنا "الدار" ثم علق : دية ارض جديدة اشترتها من خمستاشر سنه ومضيت فيها باقى صحتى وعمرى وشبابى واولادى ساعدونى ربنا يعطيهم الصحة .. والله يا فندم خمسين فدان لكن ربنا طرح فيهم البركة .. وقفت السيارة وعلى صوت نفيرها منبها باقي الأصدقاء. غادروا المنصرة واندفعوا للقائي بالقبلات والأحضان المخلصة ودموع الفرح في عيونهم وقد انتقلت عدواها إلىّ وإلي مضيفى الحاج جويلى.

جلسنا نتسامر .. كل منا يقص ما حدث له منذ افترقنا فى منطقة عجرود بالسويس بعد عودتنا من سيناء بعد أن نقلت انا وعادل زميلى الى القاهرة .. مصطفى ابن الإسكندرية اخبرنى بأنه تزوج وأنجب خمس بنات .. وجميعن تزوجن إلا الصغرى آخر العنقود وعمرها الآن سبعة عشرة عاما .. نجح فى عمله وأصبح مقاول بياض ويقوم بعمله فى المناطق الجديدة كما ان محافظ الإسكندرية الجديد دفع بزيادة الطلب عليهم لمحاولة تحسين وتجميل المدينة والتى بدأها المحافظ النشط اللواء المحجوب. عطية اخبرنى هو الاخر انه شارك شقيق زوجته فى محل قماش بمنطقة الأزهر وربنا فتحها عليهم من واسع ولديه ولدان تعلما وتخرجا من الجامعة وفتاة تزوجت منذ عدة سنوات وأصبح جد .. اما فراج فهو مازال يعيش فى قنا ويعمل بالتجارة مع شقيقيه فى شراء حدائق الفاكهة وربنا رزقهم من خيره .. ولديه ثلاث رجال وبنتين تزوجتا منذ فترة وله من الأحفاد ستة. اقترب موعد أذان المغرب ولا يقطع هذا السامر سوى القيام للصلاة ، يؤمنا الحاج جويلى والذى كان يؤمنا منذ ثمانية وثلاثون عاما .. نفس الأمام ونفس المصلين خلفه.

بعد الإنتهاء من آداء الصلاة نظر إلينا وطلب منا ان نقرأ الفاتحة على شهدائنا الأبرار وبالأخص الثلاثة عشر جنديا وضابطا والتى دهستهم الدبابات الإسرائيلية لاعنا هؤلاء الناس ثم توجه بالدعاء الى الله ونحن خلفنا الصحراء الصفراء الشاسعة وأمامنا الجنة الخضراء التى انتصرت فيها السواعد المصرية لقهرها وتحويلها الى هذا اللون الذى كنا نرنو إليه فى أيام الانسحاب .. ثم يتلو الآية الكريمة:

مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) **صدق الله العظيم .. سورة الأحزاب**

تمت و الحمد للـــــه

من "رباط الحذاء" لـ"الذباب".. "الصادق" يروي حكايات " سعد الدين الشاذلي

الثلاثاء، ١٤ أكتوبر، ٢٠١٤، ٠٥:١٢ م Facebook Twitter Google+

رئيس الأركان سعد الدين الشاذلي

والعقيد

أسامة الصادق

كتبت – يسرا سلامة بجريدة المصـــرى اليوم :

لا يزال يتذكر "أسامة الصادق"، أحد أفراد سلاح المشاه في حرب أكتوبر، ذكريات مع رئيس الأركان حينها "سعد الدين الشاذلي"، والمعروف بالقوة والحسم والانضباط، والذي علم "الصادق" الكثير، امتنان يحمله الجندي وواحد من أبطال

الحرب المتقاعدين، لأسطورة عسكرية طوتها عن التكريم سنوات طويلة في فرقة المظلات كانت المرة الأولى التي التقى فيها "الصادق" بـ"الشاذلي"، حين تسلم الأول شهادة البراءة في مدينة انشاص بالشرقية عام ١٩٦٦، ثم تكرر اللقاء في موقع القنطرة شرق القناة، وبينما كان "الصادق" يتخذ موقعه في سلاح المشاة، وصلت له سيرة "الشاذلي" القائد الجديد قبل اللقاء، لا يزال يتذكر وكأنه بالأمس "كنت لسة منقول جديد من أسبوع على الجبهة قبل الحرب، كنا ١٢٠ عسكري"، وقتها قدم "الشاذلي" في مرور على الوحدات، عقب توليه منصب رئاسة الأركان، ليوجه السؤال إلى "الصادق" عن برنامج التدريب، وسؤال عن مهام الطابور الثاني والثالث بداخل الكتيبة.

لا ينسي "الصادق" عندما سأله رئيس الأركان عن اسم أحد المجندين تحت إشرافه، ليذكر له اسم خطأ "وقتها الشاذلي زعل، وحط إيده على كتفي وقالي يا أسامة الجندي اللي معاك ده هو روحك اللي هتحارب معاه، لازم تبقى عارفه وعارف اسمه"، تأكد من ذلك في وقت الحرب عندما تمت إصابته وأنقذه أحد الجنود الصغار، بحمله من خلال حقل ألغام.

"دليل الجندي".. كان ككراسة صغيرة تُصاحب "الصادق" وزملائه في درب التدريب للحرب، لكل رتبة في الجيش الدليل الخاص بها، يضع فيها "الشاذلي" النصائح للجنود منذ بداية يومهم وحتى نهايته "كانت بمثابة معلومات تكتيكية واستراتيجية من قائد الفصيلة إلى أصغر جندي"، يحكي "الصادق" أن الدليل كان يعلى من الروح المعنوية للجنود.

الاهتمام بالتفاصيل كان سمة "الشاذلي"، أراد زرعها في الجنود "كان بيهتم حتى برباط الجزمة، وأنه مهم للجندي إنه يربطه حتى لا يتسبب مثلًا في سقوطه"، وكذلك الاهتمام بالسلاح الشخصي للجندي ونظافته الدائمة، وأن يغطيه الجندي

حفاظًا عليه، وفي إطار التفاصيل؛ لـ"الشاذلي "قصة معروفة مع "الذباب" يقصها "الصادق"، يحكى أنه كانت في مقرات إقامة الجنود في الصحراء مشكلة في وجود الذباب المنتشر بالموقع، نتيجة لقضاء حاجة الجنود فيها وعدم وجود دورات مياه لعدم كشفها للعدو، ليأمر "الشاذلي" شركة البلاستيك الأهلية لإنتاج آلاف من مضارب الذباب البلاستيكية، بواقع مضرب لكل جندي، لتصبح مجالًا للتندر بين الجنود، "قضينا عشرة أيام حتى قل الذباب من الجبهة"، يقول "الصادق": "فضلت لغاية ما كبرت استخدم مضرب الذباب لأنى اتعودت عليه."

ثمة مواقف حدثت في عام ١٩٧٢ قبل الحرب ومرت بـ"الصادق" مع الطعام، كانت هناك كتائب تبعد مئات الكيلومترات في منطقة البحر الأحمر، وليست قريبة من أماكن المطابخ والتغذية، ليذكر أحد أفراد تلك الكتيبة أن الطعام يصل "حامض" للجبهة، ليهتم رئيس الأركان وقتها بالأزمة؛ فيأمر بأن تعد تلك الكتيبة طعامها بنفسها اعتمادًا على المأكولات البحرية والأسماك من البحر.

"كان متقد الذهن لأبعد الحد.. وضع كل خبرته العسكرية في التوجيه ٤١، وهو يحدد موقع الجنود ومهمتهم"، يوضح "الصادق" أن "الشاذلي" تعلم من المدرسة العسكرية الألمانية التي تهتم بالتفاصيل وراحة الجنود، وإعطاء الأولوية للعنصر خفيف الحركة للأسلحة مثل الطيران والمظلات، بما يتناسب مع إمكانيات الجيش حينها.

الاحترام المتبادل مع الضباط، وعلاقة المودة مع الجنود كانت قيمة مهمة لدى "الشاذلي" رسخها في العسكرية المصرية، يحكي "الصادق" أنه شاهد الضباط والجنود في علاقة مودة وحب، يعترفون لبعضهم بالأسرار وقت التدريب، خاصّة وسط ظروف صعبة، كما أن التشجيع والتحفيز كانت صفات تحملها زيارة

"الشاذلي" للمعسكرات "كان يطلب من أحد الجنود أنه ينشن على أي هدف لاختباره، ممكن يرقيه أو يعطيه ميدالية هدية، كنوع من رفع الروح المعنوية له."

انتهت الحرب، لكن لم تنته العلاقة بين التلميذ والمعلم، عاد "الشاذلي" بعد رحلة غربة طويلة تقطعت بين البلدان، ودخل السجن فلم ينساه "الصادق"، ليكون أول اتصال بينهم في ٢٠٠٩، يعرفه "الصادق" بنفسه، فيشعر "الشاذلي" بالفخر قائلا "أنا بتبسط لما حد يكلمنى ويرجعنى لأيام الشباب"، لم تفلح محاولات اللقاء بينهم، حيث قال له أستاذه "فيه تحت البيت يا صادق ناس من الأمن الحربي، وأنا خايف عليك."

رغم ما مر على "الشاذلي" من أحداث جِسام، لم يشعر "الصادق" طوال فترة التواصل بينهما بمسحة من الغضب "هو عارف إنه عمل إنجاز للبلد، وإن حقه محفوظ من محبة الناس"، يذكر بطل أكتوبر-والذي ألف عدد من الكتب عن استراتيجيات حرب أكتوبر- أن "الشاذلي" تم التنكيل به من العدو لما فعله في أول ٤٨ ساعة في حرب أكتوبر، رُفعت ضده القضايا في المحاكم الدولية بعد ما نفذه من عمليات، رغم عدم توازن الكفاءة بين الجيشين، إلا أن "الشاذلي سيظل في ذاكرة الشعب المصري الذي لا ينسى أبطاله"، على حد قول "الصادق."

الحروب العربية الإسرائيلية

١٩٤٨ – ١٩٧٣

بقلم حاييم هرزوج

كتاب هام قام بكتابته حاييم هرزوج وهو الكتاب الوحيد الذى صدر من الجانب الإسرائيلى يتناول حروب مصر والعرب مع إسرائيل، ترجع أهمية الكتاب لما يحتويه من معلومات هامة وخطيرة لأن من كتبه وهو حاييم هرزوج كان يتقلد مناصب هامة وعديدة ومنها :

رئيس دولة إسرائيل أى بمثابة رئيس الجمهورية.

أول من أسس جهاز المخابرات العسكرية للجيش الإسرائيلى

خدم فى الجيش الإسرائيلى حتى حصل على رتبة ميجور جنرال وهى من الرتب العسكرية الإسرائيلية الرفيعة.

مندوب إسرائيل فى الأمم المتحدة.

أكبر مراسل عسكرى وسياسى لكبرى الصحف والإذاعات الأجنبية.

تعليق الكاتب: بالكتاب وفى الصفحة رقم ٤٤٦ سوف يشاهد القارىء صورة من كتاب حاييم هرزوج ورقم الصفحة بالكتاب المترجم هى ٢٨٨ .. بتحدث الكاتب الإسرائيلى الشهير عن (شوفاش يونيم) والقصد هنا معركة أكتوبر ١٩٧٣ باللغة العبرية، سيشاهد القرىء فى منتصف تلك الصفحة معركة حصن (ميفركت) بشمال جزيرة البلاح وهى معركة النقطة ٥١ التى قمت بها مع رجالى الشجعان فى بداية العبور العظيم.

يذكر الكاتب من واقع تقارير عمليات الجيش الإسرائيلى أن ٠ الكولونيل أمير) قائد اللواء المدرع الإسرائيلى الذى هاجم بقواته المصريين فى شمال جزيرة البلاح قد خسر خسارة كبيرة وإستطاع أن ينفد بقواته المتبقية من التدمير الكامل ولم يتبقى معه سوى ٢٠ دبابة فقط من قوة اللواء المدرع الإسرائيلى:

تشكيل اللواء المدرع الإسرائيلى:

١٣٥ دبابا مركافا وهى الأحدث فى ذلك الوقت.

كتيبة مشاه ميكانيكى بقوة ٣٥ مركبة مدرعة.

كتيبة مدفعية ميدان هاوتزر ذاتى الحركة محمل على شاسيه دبابة بقوة ١٨ مدفع + ٢ دبابة قيادة.

للقارىء أن يتخيل حجم الخسارة التى لحقت بهم أما الخسائر التى سبق وأن ذكرتها فهى الخسائر القريبة التى إستطعت مشاهدتها قبل أن أصيب فى المعركة والتى إسمر رجالى يقمون بواجبهم فى المعركة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفريق أول

أنور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية

منح ميدالية جرحى الحرب

إلى : رائد / أسامه حلمى السادات حيدر

من القوات المسلحة

تحريرًا بقصر الجمهورية بالقاهرة فى ٢ رمضان ١٣٩٦هـ الموافق ١٦ سبتمبر ١٩٧٦م

رئيس ورئيس الجمهورية

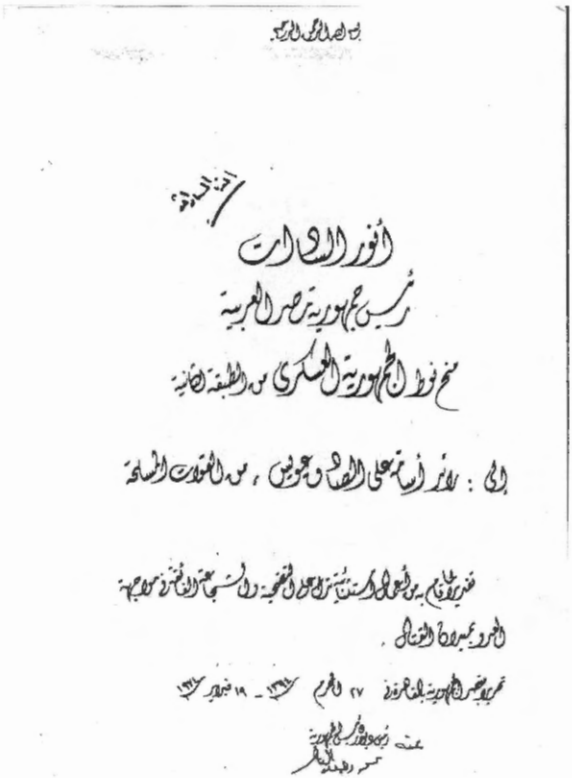

أنور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية

منح قوط الجمهورية العسكري من الطبقة الممتازة

إلى : الأخ أسامة علي الصادق وعويس ، من القوات المسلحة

تقديراً لما قام به من أعمال أسهمت إسهاماً فعالاً في تحقيق النصر المؤزر في حرب
العزة والكرامة .

صدر برئاسة الجمهورية بالقاهرة في ٢٧ ذو القعدة ١٣٩٣ هـ - ١٨ ديسمبر ١٩٧٣ م

NYHETER

Lørdag 2. juni / Søndag 3. juni 2007 15

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الحربية
قيادة الجيش الثاني
مكتب القائد

القيد : ١٤٢/١٥/٧٠/٤٤٤

التاريخ : ١٦ / ٦ / ١٩٧٠

السادة / أسامة طلبي الصادق

الكتيبة ٥٣٨ مشاة

أرجو لك شكري وتقديري لما قمتم به من تدمير مخزن ذخيرة للعدو يوم ١٩٧٠/٤/١١

والله يوفقكم ويسدد خطاكم

اللواء / عبد المنعم محمد خليل
قائد الجيش الثاني

صورة الى

السيد قائد فرقة ١٨ مشاة
السيد قائد اللواء ١٣٦ مشاة

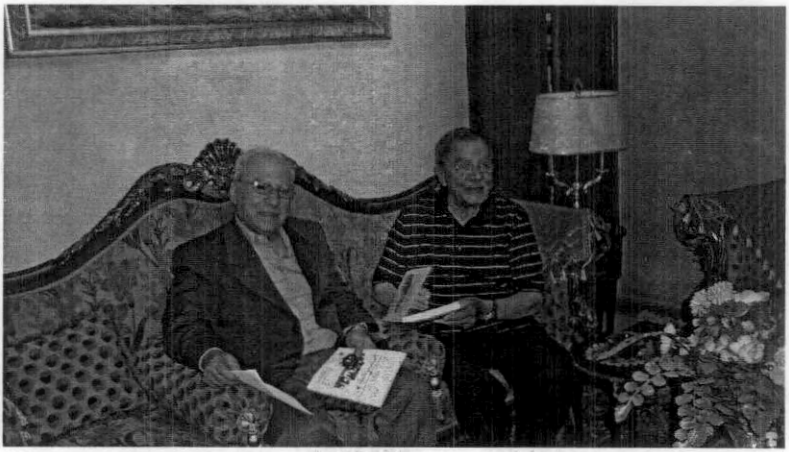

الفريق عبد المنعم خليل وأسامة الصادق يونيو عام ٢٠٠٩

أسرى الجيش الإسرائيلى عام ١٩٧٣

أسرى الجيش المصرى عام ١٩٦٧

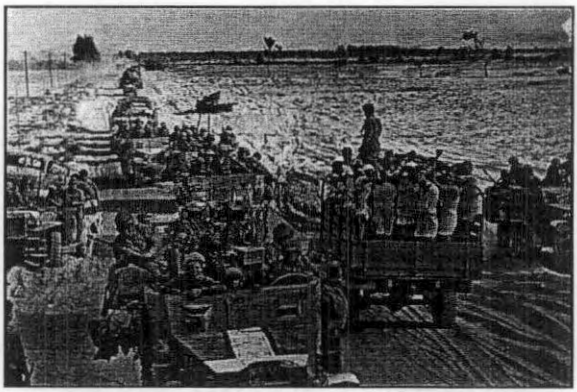

كبارى العبور بعد نجاح الهجوم على مواقع خط بارليف

معركة الدبابات الرائد وليم ودبابة مصرية مدمرة

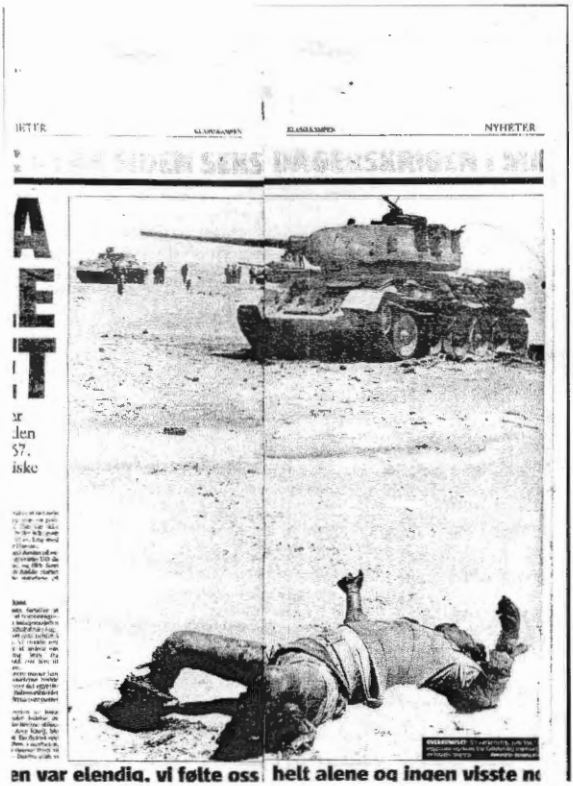
NYHETER
A
E
T
en var elendig, vi følte oss helt alene og ingen visste n

سينا للنشر ٣

إسرائيليون وعرب

حاييم هرزوج

الحُرُوبُ العَرَبيَّة ـ الإسرائيلية ١٩٤٨ ـ ١٩٨٢

ترجمة: بدر الرفاعي

٢

يعدُّ هذا الكتاب من الكتب القليلة، بل ربما كان الوحيد، الذى يتناول الجولات العربية الأربع (١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣.. إضافة إلى الحرب اللبنانية فى ١٩٨٢) مجتمعة من منظور عسكرى تفصيلى. فهو يعرض لتلك الحروب حرباً حرباً، ومعركة معركة بالخرائط التوضيحية (٥٣ خريطة). ومن اللافت للنظر أن المكتبة العربية تكاد تخلو من الكتب التى تتناول حروبنا مع إسرائيل فى جانبها العسكرى، وبالذات حربىّ ١٩٥٦، ١٩٦٧.

إن الكتاب يقدم بانوراما حربية لما يزيد على الثلاثين عاماً من عمر الصراع الذى شهدته المنطقة على الجبهات العربية المختلفة: فلسطين.. مصر.. سوريا.. الأردن.. لبنان.

ويكتسب الكتاب أهميته كذلك من أهمية كاتبه والمعلومات التى توفرت له بحكم المناصب التى تولاها والأدوار التى لعبها. فـ «حاييم هرتزوج»، الرئيس السابق لإسرائيل، ارتبط بالمجهود الحربى الإسرائيلى منذ الثلاثينيات وهو بعد صبياً: بدأ خدمته العسكرية فى صفوف الجيش البريطانى فى شمال غرب أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية. أشرف على إنشاء جهاز مخابرات الجيش الإسرائيلى وتولى رئاسته مرتين (من ١٩٤٨ - ١٩٥٠، ومن ١٩٥٩ - ١٩٦٢)، عمل ملحقاً عسكرياً بواشنطن من ١٩٥٠ - ١٩٥٤. بعد حرب ١٩٦٧، عين كأول [illegible] عسكرى للضفة الغربية لنهر الأردن. مندوب إسرائيل لدى الأمم المتحدة فى السبعينيات. [illegible] من الجيش برتبة ميجور جنرال، وعمل كمعلق عسكرى وسياسى لعدد من الإذاعات [illegible] كمراسل للصحف الأوروبية والأمريكية.

المصريين، على الضفة الشرقية من القناة، لم يكونوا - فى حال كهذا - ليصمدوا أمام هجوم اسرائيلى مضاد. على أن أسوأ نتيجة للخطأ الاسرائيلى، فيما يتعلق بالتحصينات، هى غياب صورة واضحة عن الموقف على القناة حتى صباح الأحد، السابع من أكتوبر .

«شوفاش يونيم»

فى اجتماع عقده الجنرال «مندلر» لمجموعة العمليات، صباح السبت، تمت مراجعة جميع خطط العمليات، بما فى ذلك «شوفاش يونيم». وبسبب المعلومات التى وردت بأن الهجوم سوف يبدأ فى السادسة مساء، فقد كان على القوات - طبقاً لخطة شوفاش يونيم - ألا تتأخر فى الانتشار عن الساعة الخامسة، وألا يتم هذا الانتشار قبل الرابعة بأية حال، فى حالة ما إذا كان تقدم القوات الاسرائيلية يمكن أن يؤدى إلى تدهور أو تصعيد يدفع المصريين إلى فتح النار. على أنه قبل إتمام استعداد القوات الاسرائيلية للتحرك، بدأ الهجوم المصرى بالدبابات.

فى مقر قيادة «مندلر»، كانت صورة الموقف على القناة مشوَّشة. وكانت قواته تتحرك نحو القناة، لكن لم يكن هناك صورة واضحة عن موقفها. وكان التقدير العام يرى أن الثقل الرئيسى للهجوم سوف يتركز على القطاع الشمالى، ومن هنا فقد توجه اللواء المدرع، بقيادة الكولونيل «جابى امير» نحو الشمال . وتحرك لواء الكولونيل «امنون رشيف» فى الوسط باتجاه الغرب، بينما صدرت الأوامر إلى لواء الكولونيل «دان شمرون» باختراق ممر الجدى واتخاذ موقعه جنوبى البحيرات المرة .

وفى القطاع الشمالى من الجبهة، تعرضت قوات «أمير» للهجوم أثناء تقدمها، فقسَّم وحاول الوصول إلى حصن «ميفركت» عند الطرف الشمالى لجزيرة البلاح. وأثناء بتدمير قوات المنطقة. فتحرك جزء آخر من لوائه نحو شرق القنطرة للاتصال بالحص باسم «ميلانو». وثلاث مرات، خلال ليلة السبت، تتصل وحدات من قوته بنقطة الحصينة. وفى الصباح الباكر من يوم الأحد، صرح الجنرال «كالمان ماجن» - يتولى قيادة القطاع الشمالى للقنطرة - لأمير بسحب قواته مع خسائره وإخلا «ميفركت». لقد تكبد «أمير» فى محاولته الوصول إلى التحصينات، خسائر كبيرة، بـ بيق بحوزة اللواء بأكمله سوى ٢٠ دبابة فقط. وشيئاً فشيئاً، نجح «أمير» فى تخليص ما تب من قوته، وانطلق إلى الخلف لإعادة تنظيمها .

كان لواء الكولونيل «امنون رشيف» يتولى مسئولية القطاع الأوسط للقناة، من جزيرة

البلاح وحتى رأس سدر فى الجنوب. و «رشيف» طويل القامة، عادل، تشبه نظراته نظرات اليوم من خلف نظارته، وهو مشهور بشاربه المقوس والمشذب دائماً، وكان قد تولى قيادة لوائه منذ أكثر من عام . وحسب الأوامر ، اندفعت دبابات «رشيف» نحو مواقعها التى سبق الاتفاق عليها ، لتجد وحدات صائدى الدبابات المصرية قد احتلتها، وتصب عليها وابلا من قذائف آر. بى . جى . فى الوقت نفسه ، ومن السد الواقع على الجانب المصرى المشرف على المداخل الاسرائيلية، كانت الدبابات الاسرائيلية مشتبكة مع الدبابات وصواريخ «ساجر» المصرية المضادة للدبابات. وقاتلت الدبابات الاسرائيلية وتلقت أولى خسائرها. وحارب المشاة المصريون بعزم وإصرار، وقتلت الدبابات المتقدمة المئات منهم، لكن موجة المشاة المصريين واصلت تقدمها. ولم يتبق من فصيلتى لواء «رشيف»، المتواجدة فى المنطقة المقابلة للاسماعيلية والفردان، سوى دبابتين فقط تواصلان القتال. وقد أمكنهما السيطرة على مفترق الطرق المواجه للفردان طوال الليل، فى مواجهة ٥٠ بيابة مصرية. وتواصل القتال طوال يوم ٧ أكتوبر، بينما أخذت مقاومة لواء «رشيف» تنهار تدريجياً .

إلى الجنوب من لواء «رشيف»، كان هناك لواء «دان شمرون». وهو قوى البنية، ذو نظرة مصممة، من أبناء الصابرا ومولود بالكيبوتس، سبق له قيادة كتيبة اقتحام مظلية. (بعد ذلك بسنوات، حقق هذا الضابط الشاب سمعة دولية عندما قاد العملية الشهيرة لتخليص الرهائن الإسرائيليين المحتجزين بمطار عنتيبى) وقد صدرت إليه الأوامر أيضاً بعدم دفع دباباته قبل ...رة، وعندما بدأت تتأهب للتحرك ، انقضت الطائرات المصرية على معسكره فى الثانية من ... فقام «شمرون» بتقسيم قوته، وأرسل كتيبة لعبور ممر متلا، وأخرى عبر الجدى، ...ا، تحسبا لإعاقة العدو لأى من الكتيبتين. وأصبح لواؤه مسئولاً عن جبهة ...، تبدأ من نقطة التقاء البحيرتين المرة عند رأس مسلسة، على مسافة حوالى ... السويس. وكان يتمركز فى مواجهة قطاعه: الفرقة ١٩ مشاة والسابعة / مشاة ...انيكية، وخلفها الفرقة الرابعة / مدرعات. ويصل العدد الإجمالى لدبابات هذه ... وألى ٦٥٠ دبابة ، إضافة إلى اللواء ١٣٠/ مشاة بحرية، الذى كان مكلفا بعبور ...ة بمركبات برمائية فى محاولة لإغلاق ممرى متلا والجدى . وبذلك كان المصريون ...ى «شمرون »، فى الدبابات، بنسبة تزيد على ١:٦.

... الهدف الأول لشمرون هو الاتصال بالتحصينات الاسرائيلية المتعددة الواقعة تحت ...صار المصريين. وبحلول مساء السادس من أكتوبر، كانت وحدته قد وصلت إلى جميع

رقم الايداع ٢٠٠٧/١٠٩٤١ .. بدار الكتب المصرية

الترقيم الدولي I.S.B.N .. 977-17-4716-9